مكتبة ٦٤٧

رواية

فيليب روث

تزوّجتُ شيوعيّاً

ترجمة: أسامة منزلجي

مكتبة | 647

تزوّجتُ شيوعيّاً

رواية

اسم المؤلف: فيليب روث

Author: **Philip Roth**

عنوان الكتاب: تزوّجتُ شيوعيّاً

Title: **I Married a Communist**

ترجمة: أسامة منزلجي

Translated by: **Osama Menzlchi**

تصميم الغلاف: ماجد الماجدي

Cover Designed by: **Majed Al–Majedy**

الناشر: دار المدى

P.C.: **Al–Mada**

الطبعة الأولى: **2019**

First Edition: **2019**

جميع الحقوق محفوظة: دار المدى

I MARRIED A COMMUNIST

Copyright © 1998, Philip Roth

All rights reserved

للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي أبو نواس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141

Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141

www.almada-group.com - email: info@almada-group.com

+ 964 (0) 770 2799 999
+ 964 (0) 770 8080 800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الأول

dar@almada-group.com

+ 961 706 15017
+ 961 175 2616
+ 961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار

al-madahouse@net.sy

ص.ب: 8272

+ 963 11 232 2276
+ 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289

مكتبة ٢٠٢١١٢٠

t.me/t_pdf

فيليب روث

مكتبة | 647

تزوّجتُ شيوعيّاً

ترجمة : أسامة منزلجي

الإهداء

إلى صديقتي ومُحرّرتي
فيرونيكا غينغ
1997 - 1941

سمعتُ الكثير من الأغاني في مسقط رأسي –
أغاني عن الفرح والحزن.
لكنَّ إحداها حُفِرَتْ عميقاً في ذاكرتي:
إنها أغنية العامل العادي:
إخْ، ارفع الهراوة،
نحو السماء!
انتصب بصلابة،
في وجه السماء!

• من أغنية شعبية «دوبينوشكا».
أنشدتها جوقة الجيش السوفييتي وفرقته وتمّ تسجيلها في أربعينيات القرن الماضي في روسيا.

فيليب روث

وُلِدَ فيليب روث في نيويورك عام 1933. نوفيللاه الأولى «وداعاً كولومبوس» الصادرة عام 1959، لفتَتْ أنظارَ النُّقاد إليه وحازت على جائزة الكتاب الوطني للرواية، يُعَدُّ أهمَّ روائيّ في أميركا حسب استطلاعات القُرّاء، يصفه النُّقّاد بأنه امتدادٌ لوليم فوكنر ولسكوت فيتزجيرالد صاحب غاتسبي العظيم... حصل على 19 جائزة أدبيّة، أشهرُها بوليتزر ومان بوكر الدولية، وثلاثَ مرّات جائزة فوكنر، يُعَدُّ واحداً من أهمّ أربعة كُتّاب في تاريخ الأدب الأميركي إلى جانب وليام فوكنر وسول بيلو وجون أبدايك.

فاز فيليب روث عام 1997 بجائزة بوليتزر عن روايته American Pastoral (الكاهن الأمريكي). تسلَّم روث عام 1998 ميدالية الفنون الوطنية في البيت الأبيض. وفي عام 2002 تلقَّى أعلى جائزة من الأكاديمية الأمريكية للفنون والآداب والميدالية الذهبيّة في الآداب التي مُنحت سابقاً لكلٍّ من جون دوس باسوس ووبليام فوكنر وسول بيلو من بين آخرين. فازَ مرَّتَين بجائزة الكتاب الوطنية وجائزة بين/ فوكنر وجائزة حلقة نُقّاد الكتب الوطنية. في عام 2005 تلقى عن روايته The Plot Against America (المؤامرة على أمريكا) جائزة جمعية المؤرِّخين الأمريكيين على «هذه الرواية التاريخية المُذهلة ذات الثيمة الأمريكية بين 2003-2004»، وجائزة دبليو. إتش. سميث لأفضل كتاب سنوي وهذا بدوره حوّل روث إلى أول كاتب يربح الجائزة مرتين في تاريخ الجائزة البالغ ستة وأربعين عاماً.

في عام 2005 أصبح روث ثالث كاتب أمريكي على قيد الحياة مِمَّن نَشرت لهم مكتبة أمريكا أعمالَهم في مجلَّدات شاملة وكاملة. تلقَّى عام 2011 ميدالية العلوم الإنسانية الوطنية في البيت الأبيض وتمَّت تسميتُه لاحقاً ليكون المُتلقِّي الرابع لجائزة مان بوكر العالمية. في عام 2012 حظي بأكبر تكريم إسباني «جائزة الأمير أسترياس» وفي عام 2013 تلقَّى أكبر تكريم فرنسي

Commander of the Legion of Honor. توفّي فيليب روث عام 2018.

مكتبة
t.me/t_pdf

- 1 -

كان أخو أيرا رينغولد الأكبر، مَري، أول أستاذٍ لي في المدرسة الثانويّة لمادة اللّغة الإنكليزيّة، وعبره تعلّقتُ بأيرا. في عام 1946 كان أيرا قد عاد تواً من الجيش، حيث خدمَ في الوحدة المجوقلة السابعة عشرة في معركة البلج؛ وفي آذار من عام 1945، قام بقفزته الشهيرة عبر نهر الراين التي دلَّتْ على بدء نهاية الحرب الأوروبيّة. في تلك الأيام، كان رجلاً أصلع، ومتهوّراً، وفظاً، وليس طويل القامة كأيرا بل كان ممشوقاً ورياضياً، يتحرّك فوق رؤوسنا في حالة من الوعي الدائم. في العموم كان طبيعياً في سلوكه وفي وِقفته بينما في كلامه كان غزيراً من الناحيّة اللفظيّة ومُهدِّداً من الناحية الفِكريّة. كان شغوفاً بالشرح، بالتوضيح، بجعلنا نفهم، والنتيجة هي أنَّه كان في نهاية كل موضوع نتطرَّقُ إليه يعمد إلى تفتيته إلى عناصره الأساسيّة بدقّة لا تقلُّ عن دِقَّة رسم الجُمَل بيانيّاً على السبّورة. لقد كانت موهبته مُنصبَّة على تضخيم البحث، وعلى إضفاء سِحرٍ قويّ على السرد حتى وهو يقوم حصراً بالتحليل والتدقيق بصوتٍ مرتفع، بطريقته شديدة الوضوح، لكل ما نقرأ وما نكتب.

بالإضافة إلى البُنية العضليّة والذكاء الوافر، جلب السيد رينغولد معه إلى غرفة الدرس شحنة من العفويّة المتأصّلة كانت بمثابة الوحي للأطفال المُروَّضين، بقالبهم المُحترم، الذين لم يكونوا قد أدركوا بعد أنَّ الرضوخ لأصول اللباقة التي وضعها الأستاذ لا صِلة لها بالتطوُّر الفكري. لقد كانت هناك أهميّة أكثر مما تخيَّلَ حتى هو في ميله الساحر

إلى الإطاحة بممحاة السبّورة في اتجاهك عندما تُعطي جواباً خاطئاً. أو ربما لم يكن ذلك موجوداً. ربما كان السيد رينغولد يعلم عِلم اليقين أنَّ ما يحتاجُ صِبية مثلي إلى تعلُّمه ليس فقط كيف يُعبّرون عن أنفسهم بدقّة ويكتسبون استجابة أشدّ فِطنة للكلمات، بل أنْ يكونوا أشد عناداً من دون أنْ يكونوا حمقى، وكيف لا يكونون مُغالين في تكتّمهم وفي حُسن سلوكهم، وكيف يبدؤون بتحرير الطاقات الذكوريّة من الاستقامة المؤسّساتيّة التي أشدّ ما تُرعِب الأطفال اللامعين.

كنتَ تشعر، بالمعنى الجنسيّ، بقوة المُدرِّس الذكر في مدرسة ثانويّة كمَري رينغولد - كسلطة ذكوريّة لا يُعدّلها الورع الدينيّ - وكنتَ تشعر، بالمعنى الكهنوتيّ، بالنداء الباطنيّ لمُدرِّس ذكر في مدرسة ثانويّة كمَري رينغولد، لم يتُه في خضم الطموح الأمريكي العشوائيّ لتحقيق نجاح باهر، والذي - خِلافاً لمُدرّسات المدرسة من النساء - كان يمكن أنْ يختار أنْ يُصبح أيَّ شيءٍ آخر واختار بدل ذلك، كإنجاز حياته، أنْ يُكرِّس نفسه لنا. إنَّ كل ما أراد أنْ يفعل طوال النهار هو أنْ يتعامل مع شبّان صِغار يستطيع أنْ يترك أثره عليهم، وكانت أكبر صدمة تلقّاها في حياته هي طريقة استجابتهم.

إنَّ هذا لا يعني أنَّ الانطباع الذي تركه أسلوبه الجريء في قيادة غرفة الدرس على إحساسي بالحريّة كان جلياً في ذلك الوقت؛ لم يفكّر أيُّ فتى بهذه الطريقة في المدرسة أو في الأساتذة أو في نفسه. ولكنْ كان ينبغي تغذية توقٍ أوّليّ إلى الاستقلال الاجتماعيّ بقدرٍ ما، عبرَ قُدوة مَري، وقد أخبرتُه بهذا، في شهر تموز من عام 1997، عندما قابلت مَري للمرة الأولى بعد تخرّجي من المدرسة الثانويّة في عام 1950، وكان قد بلغ التسعين من العمر لكنّه كان بكل طريقة مُدرَكة لا يزال الأستاذ الذي مهمّته هي من الناحية الواقعيّة، من دون سخرية من الذات أو افتعال لأحداث مُفاجئة، أنْ يُجسِّد لطلابه القول المأثور الدالّ على الخروج عن الجماعة «أنا لا يهمّني أيّ شيء»، وأنْ يُعلِّمهم أنّه لا داعي لأنْ تكون آل كابوني لكي ترتكب عملَ انتهاك - عليك فقط أنْ تفكِّر. لقد علَّمنا السيد رينغولد «أنَّ في الحياة

الإنسانيّة، التفكير هو أعظم عمل انتهاك». وقال السيد رينغولد، باستخدام براجِمَه للتوقيع مع كل مقطع لفظيّ على سطح مكتبه، «التفكير النقديّ - هناك يكمن الدمار الشامل»، وأخبرتُ مَري بأنَّ سماعي مثل هذا الكلام في وقت سابق من رجلٍ حقّ مثله - عندما رأيتُ أنّه *يُظهِر* ذلك - زوّدني بأشدّ ما حصلتُ عليه من المفاتيح قيمة لبلوغ سن النضج، وإنْ يكن ليس بفهم مُكتمِل، بوصفي فتى ريفياً، محمياً يحمل تفكير طالب ثانويّ يتوق إلى أنْ يُصبح عقلانيّاً وذا مكانة مرموقة وحرّاً.

بدوره، أخبرني مَري كل ما لم أعرفه، وأنا أصغر سناً، ولم يكن في الإمكان أنْ أعرفه عن حياة أخيه الأصغر الخاصّة، التي كانت محنة كئيبة مُفعمة بالمهزلة وكان مَري أحياناً يتأمّل فيها بكآبة على الرغم من أنَّ أيرا كان حينئذٍ قد مات قبل أكثر من ثلاثين عاماً. قال مَري «إنَّ آلافاً وآلافاً من الأمريكيين تدمّروا خلال تلك السنين، وسقط ضحايا سياسيون، وضحايا تاريخيون، بسبب معتقداتهم. لكنني لا أتذكّر أيَّ شخص آخر سقط كما سقط أيرا. لم يكن ليختار ساحة حرب أمريكية عُظمى لينال دماره فيها. ربما، على الرغم من الأيديولوجيا، والسياسة، والتاريخ، فإنَّ الكارثة الحقيقيّة في جوهرها هي دائماً سقوط شخصيّ. لا يمكن لأي فاشل أنْ يُكذِّب الحياة لكي يُحقِّر الناس. عليك أنْ تُبدي احترامك للحياة من أجل ما يتوفّر لها من تقنيات لتجريد إنسان من أهمّيته وإفراغِهِ تماماً من غروره».

وأخبرني مَري أيضاً، عندما سألته، كيف جُرِّدَ هو من أهميّته. كنتُ أعرف القصة بصورة عامة ولكن ليس التفاصيل لأنني كنتُ قد بدأتُ خدمتي العسكريّة - ولم أرجع إلى نيوارك إلا بعد سنين عديدة - بعد أنْ تخرّجتُ من الكلّية في عام 1954، ولم تقع محنة مَري السياسيّة إلا في شهر أيار من عام 1955. بدأنا بقصة مَري، وكان الوقت يقترب من المساء، عندما سألتُه إنْ كان يرغبُ في المكوثِ لتناول طعام العشاء، وبدا أنّه شعر، انسجاماً معي، بأنَّ علاقاتنا قد انتقلت إلى مستوى أشدّ حميميّة وأنّه لا ضير في أنْ يستمر في التحدُّث بصراحة عن حياة أخيه.

بالقرب من مكان إقامتي في غرب نيو إنغلند، كانت هناك كلّيّة صغيرة تُسمّى أثينا تُديرُ سلسلة من البرامج الصيفيّة تمتد لأسبوع من أجل العجائز، وكان مري مُنتسباً إليها كطالب، وهو في التسعين من العمر، في دورةٍ تحمل لقباً فخماً هو «شكسبير بعد ألف عام». وهكذا التقيتُ به مُصادفة في البلدة في يوم الأحد الذي وصل فيه - ولمّا لم أتعرّف عليه، كنتُ محظوظاً لأنّه تعرَّفَ هو عليّ - وأمضينا أمسياتنا الست معاً. هكذا عاد الماضي هذه المَرَّة، على هيئة رجل عجوز جداً موهوب بألّا يولي مشاكله من التفكير لحظة واحدة أكثر مما تستحق وما زال لا يستطيع أنْ يُبدِّد وقته في التحدُّث إلّا إلى درجة جدّيّة. وقد أضفى عنادٌ ملموس على شخصيّته امتلاءها الصلب، على الرغم ممّا قام به الزمن من تشذيب متطرِّف لبنيته الرياضيّة القديمة. فكّرتُ، وأنا أنظر إلى مري وهو يتكلَّم بطريقته تلك المكشوفة، الشكّاكة، المألوفة، ها هي - الحياة الإنسانيّة. هذا هو دوام الزمن.

في عام 1955، بعد إقصاء أيرا عن المذياع بوضعه على اللائحة السوداء لكونه شيوعياً بأربعة أعوام، طَرَدَتْ هيئة الثقافة مَري من منصبه بالتدريس لرفضه التعاون مع إدارة مكتب مناهضة النشاطات المعادية لأميركا عندما مرّتْ بنيوارك لعقد جلسات استماع لأربعة أيام. ثم أُعيد إلى منصبه، ولكن بعد مرور ستة أعوام من الكفاح القانونيّ انتهت بقرار 5-4 أصدرته المحكمة العليا في الولاية، أُعيد إلى منصبه مع الرواتب المتأخّرة، مُقتَطَع منها المبلغ الذي كسبه من أجل إعالة عائلته خلال تلك الأعوام الستّة كبائع للمكانس الكهربائيّة.

قال مَري مبتسماً: «عندما لا تعرف ماذا تعمل، تبيع مكانس كهربائيّة. من باب إلى باب. مكانس كهربائيّة ماركة كيربي. تقوم بإفراغ منفضة ممتلئة على السجادة ثم تُنظّفها بالمكنسة الكهربائيّة أمامهم. تنظّف المنزل كله لهم. هكذا تبيع البضاعة. لقد نظّفت بالمكنسة الكهربائيّة نصف منازل نيو جيرزي خلال عملي. اسمعْ يا نيثان، لقد كنتُ أعرف الكثير من أصحاب النوايا الحسنة. كانت لديّ زوجة لم تكن تكاليف أدويتها تنتهي، وكان لدينا

طفل، لكنَّني كنتُ أعمل كثيراً وبعتُ الكثير من الناس مكانس كهربائيّة. وعلى الرغم من مشاكلها في العمود الفقريّ، عادت دوريس إلى ممارسة العمل. عادت إلى العمل في المُختبَر في المُستشفى. كانت تفحص الدم، وأخيراً أصبحتْ مديرة المُختبَر. في تلك الأيام لم يكن هناك فصل بين المادّة التقنيّة والفنون الطبيّة، وكانت دوريس تؤدي الأعمال كلها: تسحب الدم، وتضع البقع على الشرائح. كانت صبورة جداً، وتنكبّ على المِجْهَر. وحصلت على تدريب جيد. كانت يقظة. ودقيقة. وحسنة الاطّلاع. كانت تعود إلى المنزل من معهد التدريب «بيت إسرائيل»، القريب منّا، وتُعدّ وجبة العشاء وهي لا تزال بمعطف المُختبَر. كانت عائلتنا هي الوحيدة التي أعرفها التي تُقدِّم توابل السَلَطَة بدوارق المُختبَر. دورق مخروطيّ. وكنا نحرّك قهوتنا بأنابيب المصّ. كانت أوانينا الزجاجيّة كلها مجلوبة من المُختبَر. عندما كنا في حالة فقر مُعدَم، كانت دوريس تتدبّر الأمور. كنا معاً قادرين على حل المشاكل».

سألته «ولاحقوك لأنك أخو أيرا؟ هذا ما افترضتُه دائماً».

«لا أستطيع أنْ أجزُم، هذا ما اعتقدَ أيرا. ربما لاحقوني لأنني لم أتصرَّف كما كان ينبغي على المُدرِّس أن يفعل. ربما كانوا سيلاحقونني حتى من دون وجود أيرا. لقد بدأتُ بحماس، يا نيثان. كنتُ أشتعل حماساً لكي أُأَسِّس هيبةً لمهنتي. وربما هذا أشدّ ما أوغرَ صدورهم. لا تستطيع أنْ تتخيّل المعاملة المُهينة الشخصيّة التي اضطررتُ إلى التعرُّض لها كأستاذ مدرسة عندما بدأتُ التدريس. كانوا يُعاملونني مُعاملة الأطفال. كان كل ما يقوله لك المتقدمون عليك بمثابة قانون. لا ريب في ذلك. يجب أنْ تصل إلى هنا في مثل هذا الوقت، ويجب أنْ توقِّع على سجل الدوام في الوقت المُحدَّد. يجب أنْ تمضي ساعات عديدة في المدرسة. وسوف تُستدعى بعد الظهيرة والمساء لأداء بعض المهامّ، على الرغم من أنَّ ذلك ليس من ضمن بنود العقد. وكل أنواع المهام القذرة. وسوف تشعر بالمهانة».

«لقد انهمكتُ في تنظيم نقابتنا. وسرعان ما انتقلتُ إلى قيادة اللجنة،

وإلى شغل مناصب في الهيئة التنفيذيّة. كنتُ صريحاً - أعترفُ بأنني أحياناً كنتُ ذرِب اللسان. كنتُ أعتقد أنني أعرف الأجوبة كلها. لكنني كنتُ مهتماً بأنْ يحظى الأساتذة بالاحترام - الاحترام، والراتب المتناسِب مع جهودهم المبذولة، وما إلى ذلك. لقد كان الأساتذة يواجهون مشاكل في تلقّي رواتبهم، وفي ظروف العمل، وفي التعويضات...».

«لم تكن صلتي بمدير المدرسة جيدة. كنتُ بارزاً في سعيي إلى حرمانه من نيل الترقية إلى منصب المدير، ودعمتُ رجلاً آخر، وخسر. وهكذا لأنني لم أشعر بأيّ حرج في معارضتي ابن الحرام ذاك، كرهني من أعماقه، وفي عام 1955 وقعت الفأس في الرأس واستُدعيتُ إلى المبنى الفيدرالي، إلى اجتماع يُعقَد في مقر جمعيّة النشاطات المُعادية لأميركا، لأدلي بشهادتي. وكان رئيس المجلس المندوب والتر، يُرافقه عضوان من اللجنة. والثلاثة من واشنطن، مع مُحاميهم. كانوا يُحقّقون في التأثير الشيوعيّ في كل شيء في مدينة نيوارك لكنهم كانوا يُحقّقون في المقام الأول فيما سمّوه «تسلُّل الحزب» إلى طبقة العمال والمُثقفين. كان هناك سيلٌ من مثل جلسات الاستماع تلك في أرجاء البلد كلّه - ديترويت، شيكاغو. كنا نعلم أنَّ ذلك سيحدث. كان أمراً محتوماً. وأطاحوا بنا نحنُ أساتذة المدارس في يومٍ واحد، وكان اليوم الأخير هو يوم خميس في شهر أيار».

«أدليتُ بشهادتي مدة خمس دقائق. «هل أنتَ الآن أو كنتَ في أي يوم...؟» رفضتُ أنْ أُجيب. «لِمَ لا تبرِّئ ساحتك؟ نحن لا نريد أكثر من معلومات. هذا هو سبب وجودنا هنا. نحن نسنّ القوانين. نحن لسنا هيئة تأديبيّة». وما إلى ذلك. ولكن لمّا كنتُ أعرف ميثاق الحقوق، لم تكن مُعتقداتي السياسيّة من شأنهم، وهذا ما أخبرتهم به: هذا ليس من شأنكم».

«في وقتٍ مُبكّر من الأسبوع كانوا يُلاحقون اتّحاد عمّال الكهرباء، كان اتّحاد عمّال أيرا القديم قد عاد إلى شيكاغو. في مساء يوم الإثنين، جاء ألفٌ من أعضاء اتّحاد عمال الكهرباء على متن حافلات مُستأجَرة من نيويورك ليرابطوا أمام فندق روبرت تريت، حيث كان يُقيم أفراد هيئة

اللجنة. وقد وصفت صحيفة *«ستار ليدجر»* تجمُّع المُرابطين بأنه «أشبه بغزو قِوى مُعادية لمركز تحقيق مُستقل». ليس تظاهرة شرعيّة كما تَضْمَنها الحقوق التي يقرّها الدستور بل *غزو*، كما قال هتلر عن مظاهرات بولونيا وتشيكوسلوفاكيا. وأشار أحد أعضاء اللجنة إلى الصحافة – من دون أدنى أثر من حرج من النبرة المُعاديّة لأميركا التي تبدّتْ في ملاحظته – قائلاً إنَّ الكثير من المتظاهرين كانوا ينشدون بالإسبانيّة، وهو بالنسبة إليه دليلٌ على أنهم لا يعرفون معنى المكتوب على اللافتات التي يرفعونها، وإنهم «سُذَّج» جهلة من الحزب الشيوعيّ. كان يستجمع شجاعته من كونهم تحت أنظار «كتيبة الرقابة» في شرطة نيوارك. بعد مرور قافلة الحافلات من مقاطعة هدسن في طريق عودتهم إلى نيويورك، نُقِلَ عن رجل شرطة ضخم الجثّة هناك قوله «لو كنتُ أعلم أنهم من الحُمر، لسجنتهم جميعاً». ذلك كان الجو المحليّ السائد، وذلك ما كان يُنشَر في الصحافة، عندما حان دوري في الاستجواب، وكنتُ أول المُستدعين في يوم الخميس».

مع نهاية الدقائق الخمس، ومع رفضي التعاوُن قال رئيس المجلس إنه شعر بخيبة الأمل من رفض رجلٍ بمثل ثقافتي وفهمي مساعدة جهاز أمن هذه الدولة بإخبار اللجنة ما تريدُ أنْ تعرف. أصغيتُ إلى ذلك في صمت. والإيماءة العِدائيّة الوحيدة التي أبديتُها كانت عندما ختم أحد أولاد الحرام أولئك بإبلاغي «سيدي، إنني أشكُّ في ولائك»، فقلت له «وأنا أشكُّ في ولائك أنت». فقال لي رئيس المجلس إنني إذا استمررتُ في «الطعن» في أيٍ من أعضاء اللجنة، فسوف يأمر بطردي. قال «لسنا مُضطرين إلى الجلوس هنا وتقبُّل هراءك والإصغاء إلى افتراءاتك». قلتُ «ولا أنا مُضطر إلى الجلوس هنا والإصغاء إلى افتراءاتك أنتَ، سيدي رئيس المجلس». ووصل الأمر إلى أقصى درجة من السوء. همس مُحاميَّ لي طالباً أنْ ألملم الأمر، وكان ذلك آخر حضور لي. وسُمِحَ لي بالانصراف.

«ولكن حالما نهضتُ عن كرسيَّ لأغادر، هتف لي أحد الأعضاء، أعتقد أنّه فعل ذلك ليستفزّ امتعاضي: كيف تقبل تَلَقِّي نقود دافعي

الضرائب في حين أنّك مُلزَم تحت القَسَم الشيوعي اللعين بأنْ تُدرِّس الفِكر السوفييتي؟ كيف يمكن بحق الله أنْ تكون عنصراً حرّاً وتُدرِّس ما يُمليه عليك الشيوعيُّون؟ لِمَ لا تترك الحزب وتعكس توجّهاتك؟ إنني أناشدك - عُدْ إلى نمط الحياة الأمريكي!».

«لكنني لم ألتقط الطُعم، لم أقُلْ له إنَّ ما أُدرِّسه لا صِلة له بتلقين أي شيء آخر غير مادة الإنشاء ومادة الأدب، وفي النهاية، لم يكن مهمّاً ما أقول أو لا أقول: ففي تلك الأمسية، في العدد الأخير من مجلة الرياضة، ظهر فمي على صفحة غلاف *«نيوارك نيوز»*، فوق تعليق يقول «شاهدٌ من الحُمر يلزم الصمت»، وعبارة: لجنة التحقيق تقول لمُدرِّس نيوارك لن نقبل هراءك».

«أحد أعضاء اللجنة كان من رجال الكونغرس من ولاية نيويورك، واسمه برايدن غرانت. أنت تتذكَّر الثنائي غرانت، برايدن وكاترينا. إنَّ الأمريكيين في كل مكان يتذكّرون آل غرانت. في الواقع، لقد كان آل رينغولد بمثابة آل روزنبرغ[1] بالنسبة إلى آل غرانت. إنّ فتى المجتمع الوسيم هذا، هذا النكرة الشرير، دمَّرَ عائلتنا. وهل تعلم لماذا؟ لأنَّ غرانت وزوجته كانا ذات ليلة في حفل يُقيمه أيرا وإيف في الشارع الحادي عشر الغربي ولحق أيرا بغرانت بالطريقة التي لا يلجأ إليها إلا أيرا. كان غرانت صديقاً لفرنر فون برون[2]، أو هذا ما اعتقد أيرا، وكانت نيّة أيرا حسنة اتّجاهه. كان غرانت - أي للْعين المُجرَّدة - رجلاً واهناً من الطبقة المتوسطة من النوع الذي يُثير غضب أيرا. ودوّنت الزوجة تلك العلاقات الرومانسيّة الشائعة التي كانت السيدات يشتقن إلى

1- آل روزنبرغ: هما يوليوس وإيثل رزنبرغ، مواطنان أمريكيان يهوديان أُعدِما في عام 1953 بتهمة التجسُّس لصالح الاتّحاد السوفييتي. قال البعض إنهما كانا بريئين وذهبا ضحيّة عمليات التطهير في الفترة المكارثيّة وسط حُمّى مُعاداة الشيوعيّة والساميّة- المترجم.

2- فرنر فون برون (1912 - 1977): مهندس طيران أمريكي من أصل ألمانيّ. طوّر تقنية الصواريخ في ألمانيا- المترجم.

سماعها وكان غرانت حينئذ لا يزال يكتب عموداً في صحيفة «*جورنال-أميركان*». وبالنسبة إلى أيرا، كان غرانت تجسيداً لصاحب الامتياز المُدلَّل. لم يتحمّله. كانت كل إيماءه تصدر عن غرانت تُثير اشمئزازه وكان يمقتُ سياسته».

«ثم حدث شِجار ضخم وصاخب. عندما صرخ أيرا ونعت غرانت بألقاب قذرة، وبقيَ أيرا حتى آخر حياته يؤكّد على أنَّ ثأر غرانت منا بدأ في تلك الليلة. وكان لأيرا طريقة خاصة في التعريف بنفسه من دون تمويه. يأتي كما هو، لا يُخفي شيئاً، وبلا أيّة ذريعة. كان ذلك ما جذبه إليك، لكنّه كان أيضاً ما جعله بغيضاً لأعدائه. وكان غرانت أحد أعدائه. لقد استغرق ذلك الشِجار ثلاث دقائق، ولكن وِفقاً لأيرا، كانت ثلاث دقائق تركت أثرها على مصيره ومصيري. لقد أهان أحد المنحدرين من سلالة يوليسيس س. غرانت وخرّيج جامعة هارفارد ومُستخدَماً عند وليم راندولف هيرست، بالإضافة إلى كونه زوج مؤلِّفة كتاب «*شغف غاليليو*»، أكبر كتاب رائج في عام 1942 - كان قد قُضيَ علينا. انتهى أمرنا: فبإهانة أيرا علناً لبرايدن غرانت، كان قد تحدَّى ليس فقط سُمعة الزوج الناصعة بل حاجة الزوجة التي لا تشبع إلى أنْ تكون على صواب».

«إنني لستُ واثقاً من أنَّ هذا يُفسِّر كل شيء - ولكن ليس لأنَّ غرانت كان أقلّ تهوُّراً في استخدام القوة من باقي عصابة نيكسون. وقبل أنْ يذهب إلى الكونغرس، كتبَ ذلك العمود الصحفيّ لصالح صحيفة «*جورنال-أميركان*»، عمود عن الإشاعات يظهر ثلاث مرات في الأسبوع عن برودواي وهوليوود، مع بعض الإساءة إلى الكتلة الرجراجة إليانور روزفلت. هكذا بدأتْ مسيرة غرانت المهنيّة في الخدمة العامة. وهذا ما أهّله بدرجة عالية لشغل منصب في لجنة مكافحة النشاطات المُعادية لأميركا. كاتب عمود الإشاعات قبل أنْ يُصبح ذلك العمود عملاً مُدرّاً للمال كما هو اليوم. كان هناك في البداية، في ذروة أيام الروّاد العِظام.

كان هناك تشولي نيكربروكر ووينتشل وإدْ سليفان وإيرل ويلسون. كان هناك ديمون رنْيون، وبوب كونسيدان، وهيدا هوبر - وكان برايدن غرانت هو *المتكبِّر* بين العامّة، وليس مُشاغباً في الشوارع، ولا ينتمي إلى الحياة السُفلى، ولا المُطّلع سريع الكلام الذي يتسكَّع في مطعم ساردي للمشاهير، ولا في مطعم براون ديربي الفاخر أو في صالة ستيلمان للألعاب الرياضيّة، بل الأرستقراطيّ بالنسبة إلى الغوغاء الذي يتسكّع في نادي الراكيت».

«بدأ غرانت بكتابة عمود صحفي تحت عنوان «كرم عنب غرانت»، وإذا كنتَ تتذكَّر، كاد أنْ يصل إلى منصب رئيس أركان البيت الأبيض في عهد نيكسون. لقد كان عضو الكونغرس غرانت من الرجال المُفضَّلين لدى نيكسون. وجلس كما كان نيكسون قد فعل في لجنة مكافحة النشاطات المُعادية لأميركا. ونفّذَ الكثير من أعمال ليِّ الذراع التي كان الرئيس نيكسون يمارسها في البيت الأبيض. وأتذكَّر عندما عاد اسم غرانت إلى الظهور في إدارة الرئيس نيكسون الجديدة من أجل شغل منصب رئيس الأركان عام 1968. من المؤسِف أنهم أسقطوه. كان أسوأ قرار اتّخذه نيكسون. ليت نيكسون وجد الفائدة السياسيّة في تعيين، بدل هالدمان، هذا الكديش البرهمي لرئاسة عمليّة التغطية على فضيحة ووترغيت، إذن لكانت مسيرة غرانت المهنيّة قد انتهت برميه وراء القضبان الحديديّة. برايدن غرانت في السجن، في زنزانة تقع بين زنزانة ميتشل وزنزانة إيرليتشمان[3]. هي قبر غرانت. لكنَّ ذلك لم يحدث أبداً».

«تستطيع أنْ تستمع إلى صوت نيكسون وهو يرتّل مزايا غرانت في أشرطة البيت الأبيض. هناك نُسخٌ منها. يقول الرئيس لهالدمان «إنَّ غرانت عطوف، وهو صلب. إنه مستعد لفعل أيَّ شيء. وأعني هذا حرفياً». ويُخبر هالدمان بشعار غرانت حول التعامُل مع أعداء الإدارة: «دمّرهم عبر الصحافة». ثم يُضيف الرئيس، مُبدياً إعجابه - بأسلوبٍ

3- ميتشل وإرليتشمان: أبرز المتورطين في فضيحة ووترغيت- المترجم.

مُرهَف من النوع الممتاز، من تشويه السُمعة المُستعر بلهبٍ حارق، يُشبه الحجر الكريم: إنَّ برايدن يتّصف بغريزة القاتل. لا أحد غيره يُنفِّذ عملاً يُضاهيه في جماله».

«توفي عضو الكونغرس غرانت في أثناء نومه، وهو رجل دولة عجوز قويّ وثريّ، وبقيَ يحظى باحترامٍ جمّ في ستراسبورغ، ونيويورك، حيث سمّوا ملعب كرة القدم في المدرسة الثانويّة باسمه».

«في أثناء جلسة الاستماع راقبتُ برايدن غرانت، يُحاولُ أنْ يعتقد أنّه أفضل من أنْ يكون مجرّد سياسيّ يضمرُ ثأراً شخصيّاً ويجد في الهوس بالشأن الوطني وسيلةً للانتقام. وباسم العقل، تفتش عن دافع أرقى، تفتش عن معنى أعمق - في تلك الأيام كنتُ ما أزال أميل إلى أنْ أحاول أنْ أكون عقلانياً بشأن ما هو ليس عقلانياً وأنْ أبحث عن التعقيد في الأشياء البسيطة. كنتُ أُثقلُ ذكائي بالمطالب حيث لا شيء ضروريّاً فعلاً. كنتُ أقول لنفسي، **لا يمكن** أنْ يكون بالخسّة والابتذال اللذين يبدوان عليه. لا يمكن لهذا أنْ يُشكِّل أكثر من عُشر القصة. لا بدّ أنْ يكون أكثر من هذا».

«ولكن لِمَ؟ يمكن للخِسّة وللابتذال أنْ يحدثا أيضاً بمعيار ضخم. ما الذي يمكن أنْ يكون أشدّ ثباتاً من الخِسَّة والابتذال؟ هل يمكن للخِسّة والابتذال أنْ يصبحا ماكرين وقويّين؟ هل الخِسّة والابتذال يُعطّلان السعي إلى أنْ تكون شخصيّة مرموقة؟ أنتَ لستَ في حاجة إلى أنْ تكون لديك وِجهة نظر من الحياة لكي تولع بالسلطة. في الحقيقة، يمكن لتكوين وِجهة نظر من الحياة أنْ يشكّل عائقاً أسوأ، بينما *عدم* حمل وِجهة نظر هو الميزة الأروع. لم تكن مُضطراً إلى استدعاء الأحداث المؤسفة من طفولته الأرستقراطيّة من أجل إضفاء معنى على شخصيّة عضو الكونغرس غرانت. هذا هو الرجل، قبل كل شيء، الذي خلفَ هاملتون فيش في مقعد الكونغرس، المُبغِض الأصيل لروزفلت. أرستقراطي من وادي نهر هدسن على غرار ف. د. ر (فرانكلين ديلاني روزوفلت).

التحقَ فيش بجامعة هارفارد بعد ف. د. ر. كان يغار منه، ويكرهه، ولأنَّ منطقة فيش تضم هايد بارك، انتهى الأمر بـ ف. د. ر أنْ أصبحَ عضواً في مجلس شيوخ ف. د. ر. كان انعزالياً فظيعاً وأحمق بهذا الترتيب. وفي حقبة الثلاثينيات، كان فيش جاهلاً بامتياز من الطبقة العليا بحيث لا يصلح أنْ يشغل منصب رئيس مجلس اللجنة الخبيثة خلفاً لسلفه. ابن حرام أرستقراطيّ صاحب تفكير ضيِّق، شوفينيّ، نسخة أصليّة للشخص المغرور - ذاك كان هاملتون فيش. وعندما أُعيد تقسيم منطقة الأبله العجوز في عام 1952، كان برايدن غرانت المُفضّل لديه».

«بعد انتهاء جلسة الاستماع، غادر غرانت المنصّة التي كان يجلس عليها أعضاء الكونغرس الثلاثة مع مُحاميهم ومشيتُ في درب ملتو نحو كرسيَّ. كان هو الذي قال لي: «إنني أشكُّ في ولائك». أما الآن فابتسم بكل سماحة - بصورةٍ لا تصدرُ إلا عن برايدن غرانت، وكأنّه هو الذي اخترع الابتسامة السمحة - ومدَّ يده فصافحتها، على الرغم من أنّني مقتُّها. يد العقل الغائب، صافحتها، بعقلانيّة، وتحضُّر، كما يفعل المتقاتلان عندما يلمس كلٍ منهما قفّاز الآخر قبل بدء القتال، وبقيتْ ابنتي، لورين، على مدى أيامٍ طويلة بعد ذلك، تشعر بالخوف مني».

«قال غرانت: سيد رينغولد، لقد قطعتُ مسافة طويلة للمجيء إلى هنا اليوم لكي أساعدك على تبرئة اسمك. وتمنيّتُ لو أنّك كنتَ أكثر تعاوناً. أنتَ لا تَجعل الأمر سهلاً، حتى على المتعاطفين منا معك. أريد منكَ أنْ تعلم أنّه لم يكن مُقرراً أنْ أُمثِّل اللجنة في نيوارك. لكنني علِمتُ أنكَ سوف تُطلَب للشهادة ولذلك طلبتُ أنْ أنضمّ إليهم لأنني لم أعتقد أنَّه كان سوف يفيدك كثيراً لو أنَّ صديقي وزميلي دونالد جاكسون حضر بدلاً عني».

«كان جاكسون هو الذي حلَّ محل نيكسون في اللجنة. دونالد ل. جاكسون من كاليفورنيا. مُفكِّر مُذهل، يُحبّ إلقاء التصاريح العامة مثل «يبدو لي أنَّ الوقت قد حان لكي نختار بين أنْ نكون أمريكيين أو لا

أمريكيين». إنَّ جاكسون وفيلد هما اللذان قادا حملة انتزاع المُخرِّبين الشيوعيين من بين رجال الدين البروتستانت. لقد كانت هذه قضيّة قوميّة مُلحّة بالنسبة إلى هذين الرجلَين. فبعد مغادرة نيكسون للّجنة، اعتُبِرَ غرانت رأس الحربة الفكريّة في اللجنة الذي يستخلص النتائج العميقة بالنيابة عن أعضائها – ويؤسفني أنْ أقول، إنّه كان يفعل ذلك بصورة تفوقُ قُدراته».

«قال لي: وفكّرتُ في أنني يمكن أنْ أساعدك أكثر من ذلك السيد المُحترم القادم من كاليفورنيا. وعلى الرغم من أدائك هذا اليوم، ما زلتُ أعتقد أنني أستطيع ذلك. وأريد منكَ أنْ تعلم أنّك إذا قرَّرتَ، بعد قضاء ليلة من النوم الهانئ، أنْ تُبرِّئ اسمك...».

«هنا انفجرتْ لورين. لم تكن قد تجاوزت الرابعة عشرة. كانت هي ودوريس جالستين خلفي، وكانت لورين على امتداد الجلسة تضطرم بالغضب بصورة مسموعة أكثر من أمّها. تضطرم وتتلوّى، وتكاد لا تستطيع أنْ تكبت غضبها داخل إطار عمرها البالغ أربعة عشر عاماً. وجّهتْ لورين كلامها إلى عضو الكونغرس غرانت: «يُبرِّئ اسمه مِمَّ؟ ما الذي *ارتكبه* والدي؟». ابتسمَ لها غرانت برقّة. كان شديد الوسامة، بشَعره الفضيّ، ولياقته بدنياً، وكانت ملابسه من أغلى الأنواع ومن إنتاج تريبلر، ولا يمكن لحُسن سلوكه أنْ يؤذي أمّ أي شخص. كان له ذلك الصوت العذب في مزيجه، وكان مُحترَماً، ويمزج بين النعومة وخشونة الرجولة، قال للورين، «أنتِ ابنةٌ مخلصة». لكنَّ لورين لم تسكتْ. لم تحاول دوريس ولا أنا أنْ نُسكتها فوراً. قالتْ لغرانت «يُبرِّئ اسمه؟ ليس لديه ما يُبرِّئ اسمه بسببه – ليس هناك ما يشوبه. أنتم الذين تلوّثون اسمه». قال غرانت «آنسة رينغولد، أنتِ تخرجين عن موضوع القضيّة. إنَّ لوالدك سوابق». قالت لورين «سوابق؟ أيّة سوابق؟ ما هي سوابقه؟». ابتسم من جديد. قال «آنسة رينغولد، أنت صبيّة لطيفة جداً». «لا دخل في كوني لطيفة في الأمر. ما هي سوابقه؟ ماذا ارتكب؟ ما الذي عليه أنْ

يُبرِّئ اسمه منه. أخبرني ماذا ارتكبَ والدي». قال «على والدك أنْ يُخبرنا عمّا ارتكبه». قالت: لقد سبقَ لوالدي أنْ تكلّم، وأنت تلوي أقواله كلها وتحوّلها إلى حزمة من الأكاذيب فقط لتشويه صورته. إنَّ اسمه نظيف *أصلاً*. وفي استطاعته أنْ يأوي إلى السرير وهو مرتاح. لا أعلم كيف تستطيع *أنتَ* أنْ تنام، يا سيدي. لقد خدم والدي بلده كما نفعل كلنا. وهو يعرف معنى الولاء والكفاح وما تمثّله أميركا. أهكذا تعاملون الذين خدموا بلدهم؟ أهذا ما كافح من أجله - لكي تجلسوا هنا وتحاولوا أنْ تلوّثوا اسمه؟ وترموه بالطين؟ أهذه هي أميركا؟ أهذا ما تسمّيه ولاءً؟ ما الذي أنجزْتَه *أنتَ* لأميركا؟ كتبتَ فضائح للصُحُف؟ أهذه هي الميزة الأمريكية؟ إنَّ لدى والدي مبادئ، وهي مبادئ أمريكية راقية، ولا يحقّ لك أنْ تحاول تدميره. إنّه يتوجّه إلى المدرسة، ويُعلِّم الأطفال، ويبذل أقصى جهده في العمل. يجب أنْ تسعوا إلى أنْ يكون لديكم *مليون* أستاذ مثله. أهذه هي المشكلة؟ أنه مواطــن صالح أكثر مما ينبغي؟ أمن أجل هذا تلفقـون الأكاذيب عنه؟ ***دعــوا والدي وشأنه!***».

«عندما عجز غرانت عن الردّ، هتفتْ لورين «ما الأمر؟ كان لديك الكثير تقوله وأنتَ واقف هناك على المنصّة - والآن أصبحتَ أخرس؟ أصبحتْ شفتاك الصغيرتان مُطبقتين». هنا وضعتُ يدي على يدها وقلت «يكفي هذا». ثم وجّهتْ غَضبَها نحوي. «كلا، لا يكفي. لن أكتفي إلا بعد أنْ يتوقفوا عن معاملتك بهذه الطريقة. ألا تنوي أنْ تقول *أيَّ شيء*، سيد غرانت؟ هل هذه هي أميركا - ألا يقول أحدٌ أيَّ شيء أمام فتاة في الرابعة عشرة؟ لمجرّد أنّني لا أنتخب - أهذه هي المشكلة؟ حسن، إنني حتماً لن أُصوِّت لكم أو لأي من أصدقائكم القذرين!»، وانفجرت تبكي، وهنا قال غرانت لي «أنتَ تعلم أين تتصل بي» وابتسم لثلاثتنا وغادر إلى واشنطن».

«هكذا تجري الأمور. ينيكونك ثم يقولون لك: لقد كنتَ محظوظاً لأنني نكتك أنا وليس ذلك السيد المُحترم من كاليفورنيا».

«ولم أتّصل به أبداً. الحقيقة هي أنَّ معتقداتي السياسيّة كانت متمركزة،

وليست متضخِّمة كمعتقدات أيرا. إنني لم أهتمّ أبداً مثله بمصير العالم. كنتُ أشدّ اهتماماً، من وِجهة النظر المِهنيّة، بمصير المجتمع. بل إنَّ همّي لم يكن سياسيّاً بقدر ما كان اقتصادياً، وأيضاً اجتماعياً، فيما يتّصل بظروف العمل، ووضع أساتذة مدارس مدينة نيوارك. وفي اليوم التالي أخبر المُحافِظ، المُحافظ كارلين، الصحافة بأنَّه لا ينبغي على أساتذة مثلي أنْ يُعلّموا أطفالنا، وبأنَّ هيئة التعليم تتّهمني بأنني أستاذ سيئ السلوك. وانتهزَ مديرُ المدرسة هذه الفرصة للتخلُّص مني. أنا لم أُجِب عن الأسئلة التي طرحتها عليّ وكالة حكوميّة مسؤولة، وipso facto (وعليه) فأنا غير صالح للتدريس. وأخبرتُ هيئة التعليم بأنَّ معتقداتي السياسيّة لا صِلة لها بكوني أستاذاً للّغة الإنكليزيّة في سلك التدريس في نيوارك. لقد تمّ طردي استناداً إلى ثلاثة أُسُس: العصيان، انعدام الكفاءة، والفساد الخلقيّ. ورددتُ على ذلك بنكران كل ما نُسِبَ إليّ. وجاء طلابٌ سابقون إلى قاعة الاستماع لكي يشهدوا بأنني لم أحاول قط أنْ أُلقِّن أيّ شخص أيّة أفكارٍ حزبيّة، داخل غرفة الدرس أو في أي مكان آخر. ولم يسمعني أي شخص في سلك التدريس في أي وقت أقوم بمحاولة تلقين أيَ شخص أيَّ فكر آخر خلاف احترام اللغة الإنكليزيّة - وكذلك قال الآباء، والطلاب، وزملائي. وقائدي السابق في الجيش شهد لصالحي. جاء مباشرة من حصن براغ. وترك ذلك عندي أبلغ الأثر».

«لقد استمتعتُ ببيع المكانس الكهربائيّة. هناك أناسٌ كانوا يجتازون الشارع حالما يرونني قادماً، حتى أولئك الذين كانوا يخجلون من فعل ذلك لكنهم لم يرغبوا في أنْ يكونوا مُلوّثين، لكنَّ ذلك لم يكن يزعجني. لقد حصلتُ على الكثير من الدعم من داخل نقابة المُعلّمين والكثير من الدعم من الخارج. كانت المُساهمات تتوافد، كان لدينا راتب دوريس، وأنا كنتُ أبيع المكانس الكهربائيّة. قابلتُ في طوابير العمل وتواصلتُ مع العالم الحقيقي خارج مهنة التدريس. في الواقع، كنتُ حِرفياً، أستاذ مدرسة، أقرأ الكتب، وأُدرِّس شكسبير، وأجعلكم أنتم الأولاد تُقطّعون

الجُمَل وتستظهرون الشِعر وتقدّرون الأدب، وكنتُ أعتقد أنّه ليس هناك أي نوع آخر من الحياة يستحق العيش. لكنني خرجتُ لأبيع المكانس وكسبَ أناسٌ كثيرون قابلتُهُم احترامي، وما زلتُ ممتناً لذلك. وأعتقد أنّه أصبح لديّ نظرة أفضل إلى الحياة بسبب ذلك».

«لنفرِض أنَّ المحكمة لم تُعدكَ إلى منصبك. هل كنتَ ستحصل مع ذلك على نظرةٍ أفضل؟»َ.

«تقصد لو أنني خسرت القضية؟ أعتقد أنني كنتُ سأعيش حياة كريمة. أعتقد أنني كنتُ سأنجو وأبقى سليماً. ربما كنتُ سأندم على بعض الأشياء. ولكن لا أعتقد أنَّ مزاجي كان سيتأثّر. وفي مجتمع منفتح، مهما بلغ وضعٌ ما من السوء، هناك مهرب. إنَّ خسارتك عملك واتّهام الصحف لك بالخيانة هي أشياء مزعجة جداً. ولكنها مع ذلك ليست شاملة، لأنَّ ذلك يعني دكتاتوريّة. فأنا لم أُزجَّ في السجن ولم أتعرَّض للتعذيب. ولم تُحرَم ابنتي من أيّ شيء. لقد حُرِمتُ من حيويّتي وبعض الناس امتنعوا عن التكلُّم معي، لكنَّ أُناساً آخرين أبدوا إعجابهم بي. زوجتي أُعجِبتْ بي. وابنتي أُعجبت بي. والعديد من طلابي السابقين أبدوا إعجابهم. وعبّروا عن ذلك جهاراً. وكان في وسعي أنْ أُحوِّل الأمر إلى معركة قضائيّة. كانت لديّ حريّة التحرُّك، كان في مقدوري أنْ أُجري حوارات صحفيّة، وأجمع مالاً، وأُعيِّن مُحامياً، وأقفَ مواقف تحدٍ في قاعة المحكمة. وهذا ما فعلتُ. وطبعاً يُصبح المرء مُكتئباً جداً وبائساً إلى درجة أنكَ قد تُصاب بسكتة قلبيّة. ولكن في استطاعتك أنْ تعثر على بدائل، وهو ما فعلت».

«والآن، لو أنَّ *النقابة* فشلتْ، لتَركَ ذلك فيَّ أسوأ الأثر. لكننا لم نفشل. لقد قاتلنا وفزنا في نهاية المطاف. وتوصلنا إلى معادلة رواتب الرجال والنساء، ومُعادلة أساتذة المدارس الابتدائيّة مع أساتذة المدارس الثانويّة. وحرصنا على أنْ تكون نشاطات ما بعد انتهاء الدوام المدرسي، أولاً، طوعيّة، ثم لقاء أجر. وكافحنا للحصول على المزيد من

إجازات المرض. وحصلنا على خمسة أيام إجازة مقابل أي عمل يختاره الفرد. وحصلنا على الترقية بالامتحان – في مقابل التحيُّز – مما يعني أنَّ الأقلّيات كلها أُتيحت لها الفرصة نفسها. وجذبنا السود إلى النقابة، وازدادت أعدادهم، وانتقلوا إلى المناصِب القياديّة. لكنَّ هذا حدث قبل سنين عديدة. أمّا الآن فالنقابة تُشعرني بالإحباط. لم تعُد أكثر من مُنظّمة تسعى إلى جمع المال. ادفعْ، هذا كل شيء. أما تعليم الأولاد فآخر أمر يشغل بال أي شخص. إنها خيبة أمل كبرى».

سألتُه «كم كان الوضع سيئاً خلال تلك السنوات الستّ؟ ماذا استهلكتْ منك؟».

«لا أعتقد أنّها استهلكتْ أيَّ شيءٍ مني. لا أعتقد ذلك حقاً. لم أكنْ أنام الليل، طبعاً. في كثيرٍ من الليالي كنتُ أجد صعوبة في نيل أي قسط من النوم. كانت تراودني حشود من الأفكار – كيف أفعل هذا، وماذا بشأن الشيء التالي، بمَنْ يجب أنْ أتّصل، وما إلى ذلك. كنتُ دائماً أستعيد ما كان قد حدث وأستعرضُ ما سيحدث. ثم يبزغ الفجر، وأنهض وأقوم بما ينبغي القيام به».

«وكيف كانت ردّة فعل أيرا على ما حدث لك؟».

«أوه، لقد ابتأس. وكان يمكن أنْ أتمادى إلى حدّ القول إنّه دمَّره لو لم يكن مُدمَّراً أصلاً بفعل كل شيء آخر. كنتُ متيقّناً طوال الوقت من أنني سأنتصر، وقد أخبرتُه بذلك. لم تكن لديهم أيّة أسباب قانونيّة لصرفي من العمل. وظل يُردِّد «أنتَ تخدع نفسك. إنهم ليسوا في حاجة إلى أسباب قانونيّة». كان يعرف أناساً كثيرين طُرِدوا من أعمالهم، هكذا ببساطة. وأخيراً حقّقتُ الانتصار، لكنّه شعر بأنّه مسؤول عمّا جرى لي. وظل يحمل هذا الشعور بالذنب معه حتى آخر حياته. وأنت أيضاً، كما تعلم. عمّا جرى لك».

قلت «أنا؟ لا شيء حدث لي. أنا كنتُ طفلاً».

«أوه، بل ثمة أمر وقع لك».

طبعاً لا ينبغي أنْ تُفاجأ كثيراً لاكتشافك أنَّ قصّة حياتك تضمّنت حدثاً، أمراً ذا أهميّة، لا تعلم عنه أيَّ شيء - إنَّ قصّة حياتك بحدّ ذاتها هي شيء لا تعلم عنه إلا النذر اليسير.

قال مَري «إنْ كنتَ تذكُر، عندما تخــرّجتَ من المدرسـة لم تنل منحة دراسـيّة، بســـبب أخي».

في عام 1953 - 1954، في سنتي الدراسيّة الأخيرة في شيكاغو، قدّمتُ طلباً لنيل منحة فولبرايت لكي أقوم بدراسة في الأدب في جامعة أوكسفورد ورُفِضَ طلبي. كنتُ الأول في صفّي، وأتحلّى بصِفات حماسيّة، وكما أتذكّر الآن - ربما للمرّة الأولى، منذ حدوث الأمر - صُعِقتُ ليس فقط لأنهم رفضوا طلبي بل لأنَّ منحة فولبرايت من أجل تقديم دراسة في الأدب في إنكلترا ذهبتْ إلى طالب زميلي كان أدنى مستوى مني بكثير في الصف.

«أصحيحٌ هذا، يا مَري؟ لقد ظننتُ أنّه كان فقط تصرّفاً أحمق، وغير عادل. ويُبيِّن تقلُّب مزاج القَدَر. لم أعرف ماذا أعتقد. قلتُ في نفسي، لقد سُرِقت - ثم نسيتُ الأمر. كيف تعرف ما حدث؟».

«لقد أخبر الموظف أيرا ذلك. من الـ FBI. كان يتعقّب أيرا منذ سنين. ويقوم بزيارته. ويحاول أنْ يحصل منه على بعض الأسماء. ويخبره بأنَّ تلك هي الطريقة لتبرئة اسمه. وظنوا أنه ابن أخت أيرا».

«ابن أخته؟ كيف ذلك؟».

«لا تسألني. إنَّ الـ FBI لا يفعلون دائماً كل شيء بشكل صائب. ربما لم يكونوا يريدون أنْ يقوموا بكل شيء بشكل صائب. وأخبر الرجل أيرا: أتعرف ابن أختك الذي تقدَّم بطلب منحة فولبرايت؟ الذي يُقيم في شيكاغو؟ لم يحصل عليها لأنك شيوعيّ».

«وأنتَ تعتقد أنَّ هذا صحيح».

«لا ريب فيه».

كنتُ طوال الوقت أُصغي إلى مَري - وأنظرُ إلى الرجل الذي أصبحَ نحيلاً وطويلاً وأفكِّر في بُنيته تلك بوصفها تجسيداً لكل تماسُكه ذاك، وبوصفه نتيجة حياته اللا مبالية بكل شيء ما عدا الحريّة بأشدّ معانيها بساطة...مُعتقداً أنَّ مَري كان تأسيسيّاً[4]، وأنّ شخصيّته ليست حدثاً طارئاً، وأنّه أينما وجد نفسه، حتى وهو يبيع المكانس الكهربائيّة، يستطيع أنْ يفرِض هيبته...معتقداً أنَّ مَري (الذي لم أحبّه ولم أُضطر إلى ذلك؛ والذي لم يكن يربطني به غير عَقدْ، كأستاذ وكطالب) هو أيرا (الذي أحببته حقاً) بنسخته العقليّة، الحسّاسة، الواقعيّة. أيرا صاحب الهدف الاجتماعيّ الواضح، والمُحدَّد، أيرا مجرّداً من الطموحات البطوليّة المُبالغ فيها، ومن دون علاقته الحارة، والشغوف، بكل شيء، أيرا لا تغشى بصيرته بسبب الدافع والجدال مع كل شيء - إنني أحمل في ذهني صورة للجزء العلوي العاري من جسم لمري، ما زال متمتعاً (وهو في الحادية والأربعين) بكل دلائل الشباب والقوة. والصورة التي أحملها لمري رينغولند كانت كما شاهدته في وقت متأخّر من يوم ثلاثاء في خريف عام 1948، وهو يميل من النافذة ويُزيح الستائر في شقّة الطابق العِلويّ التي كان يُقيمُ فيها مع زوجته وابنته في جادّة ليهاي.

رفع الستائر، وإسدال الستائر، وإزالة الثلج، ورشّ الملح على الجليد، وكنس الرصيف، وتشذيب السياج، وغسل السيارة، وجمع أوراق الأشجار الساقطة وحرقها، والنزول مرتين في الأسبوع بدءاً بشهر تشرين أول وحتى شهر آذار إلى القبو لإبقاء نار الفرن الذي يمدّ الشقّة بالحرارة مُشتعلة - إزكاء النار، أو ردمها بالرماد، وجمع الرماد، وجرّ الرماد بمشقّة إلى أعلى الدَرَج بدلاء ومنه إلى القمامة: ينبغي على الساكن، أو المستأجِر، أنْ يكون قويّ البُنية لكي يقوم بكل مهامه اليوميّة قبل أنْ يذهب إلى العمل، يقظاً، مُجتهداً ولائقاً بدنياً، كما ينبغي على

4- التأسيسيّ: هو المؤمن بأنَّ التثقيف يجب أنْ يُركِّز على تعليم المهارات الأساسيّة والتشجيع على الانضباط الفكري الذاتيّ - المترجم.

الزوجات أنْ يكنّ لائقات كي يملن من نوافذهن الخلفيّة المفتوحة وهنَّ مزروعات على أرضيّة شقّتهن مهما بلغت درجة الحرارة - هناك فوق كالملاحين في أثناء عملهم في شدّ حِبال الأشرعة والصواري - لكي ينشرن الملابس الرطبة على حبل الغسيل، ويُثبّتنها بالملاقط قطعة بعد أخرى، إلى أنْ يُعلَّق غسيل العائلة المشبَّعُ ويمتلئ الحبل ويُرفرف في وجه هواء نيوارك الصناعيّ، ومن ثم تجذب المرأة الحبل إليها من جديد لكي تجمع الغسيل قطعة بعد قطعة، وتأخذه لكي تطويه وتضعه في سلّة الغسيل وتحمله إلى المطبخ بعد أنْ تجفّ الملابس وتُصبح جاهزة للكيّ. ولكي تُعيل عائلة يحتاج الأمر جمع مبلغ أساسيّ من المال وإعداد الطعام وفرض الانضباط، ولكن هناك أيضاً تلك النشاطات الثقيلة، الخرقاء، كالتي يمارسها الملاحون، الارتقاء، والرفع، والشدّ، والجرّ، وإدارة دواليب، ولفّ بكرات - كل الأعمال التي يجب أنْ أؤديها وأنا أجتاز مسافة الميلين، على متن درّاجتي، التي تفصل منزلي عن المكتبة العامّة: تيك، توك، تاك، بندول إيقاع الحياة اليوميّة في الحيّ، عبوديّة الوجود في مدينة أمريكية قديمة.

على الطرف المقابل للشارع من منزل السيد رينغولد الكائن في جادّة ليهاي كانت تقوم مستشفى بيت إسرائيل، حيثُ أعلمُ أنَّ السيدة رينغولد كانت تعمل كمُساعدة في مختبر قبل ولادة ابنتهما، وعند منعطف الشارع كانت مكتبة فرع أوزبورن تيراس للمكتبة العامة، إلى حيث كنتُ أذهب على متن دراجة لكي أتزوّد بمؤونة أسبوع من الكتب. كانت رابطة الحيّ التأسيسيّة المؤلَّفة من المستشفى، والمكتبة العامة، وأيضاً المدرسة، ممثَّلة بأستاذي: موجودة بصورة مؤكَّدة بالنسبة إليّ داخل ذلك المبنى المُربَّع. نعم، كان انتظام الحياة اليوميّة في الحيّ يجري على أحسن ما يُرام في ذلك اليوم من عام 1948 عندما تدلّى السيد رينغولند من حافة النافذة لكي يحلّ ستارة عن مقدّمة النافذة.

عندما أبطأتُ خطوتي لكي أهبط أسفل تل جادة ليهاي، راقبتُه وهو يُمرِّر

حبلاً من إحدى خطافات زاوية الستارة ومن ثم يهتف «ها هي آتية»، ويُدلّيها على طول واجهة المبنى ذي الطابقين ونصف إلى رجل في الحديقة، الذي فكَّ الحبل وجمع الستارة على شكل كومة عند رواق من الآجرّ. لقد أدهشتني الطريقة التي أدّى بها السيد رينغولد عملاً رياضياً وعملياً معاً. فمن أجل تنفيذ عمل بمثل ذلك الجمال، يجب أنْ تكون قوياً جداً.

عندما وصلتُ إلى المنزل وجدتُ أنّ الرجل الذي في الحديقة كان عملاقاً يضع نظارات. إنه أيرا. إنه الأخ الذي جاء إلى مدرستنا، إلى «قاعة الاستماع»، لكي يؤدي شخصيّة آبيه لينكولن[5]. وكان قد ظهر على خشبة المسرح بالزيّ الرسميّ، واقفاً وحده، وألقى خطاب معركة غيتسبرغ للينكولن ومن ثم التدشين الثاني، خاتماً بما وصفه لنا لاحقاً السيد رينغولد، أخو الخطيب، بأنّه أشدّ ما قاله رئيس أمريكي، أو كتبه أي ***كاتب*** أمريكي، نُبلاً وجمالاً (إنّها جُملة مُسترسلة، طويلة، تتحرّك قُدُماً، ينتهي طرفها كسلسلة من العربات الثقيلة، حتى أنّه دفعنا إلى تقطيعها وتحليلها ومناقشتها على امتداد درسٍ كامل): «من دون حمل أيّة ضغينة ضد أحد، وبحبّ للجميع، وبثبات على الحقّ كما وهبنا الله البصيرة لرؤية الحق، دعونا نكافح من أجل إنهاء العمل الذي نناقشه، وتضميد جراح الأمّة، ونهتم بأمر الذي سوف يخوض المعركة وبأمر أرملته وابنه اليتيم، ونقوم بكل ما قد يُحقّق ويرعى سلاماً دائماً وعادلاً بيننا ومع الأمم كلها». وطوال ما تبقّى من البرنامج، خلع أبراهام لينكولن قبعته العالية وناقشَ سيناتور ستيفن أ. دوغلاس المؤيِّد للعبوديّة الذي قام السيد مَري رينغولد، الذي أعدَّ لأيرون رنْ زيارة للمدرسة، بقراءة أقواله (وهي أشدّ ما قيل ضد السود مكراً واستهجنتها مجموعة من الطلاب – نحن أعضاء مجموعة النقاش اللا منهاجيّ المُسمّاة بالنادي المُعاصِر).

وكأنّه لم يكفنا تشويشاً أنْ نرى السيد رينغولد في العلن بلا قميص أو ربطة عنق – ومن دون حتى قميص داخلي – وأيرون رنْ كان يبدو

5- آبيه لينكولن: أو الرئيس الأمريكي إبراهام لينكولن (1809 – 1865).

كملاكم. يرتدي بنطلوناً قصيراً وينتعل حذاءً رياضياً، لا أكثر - ولكن ليس عارياً، وبدا أضخم رجل رأيته في حياتي عن قُرب ما عدا الأكثر شهرة. كان أيرون يُسمَع عبر شبكة الراديو في ليلة كل يوم خميس في برنامج «*الأحرار والشجعان*» - وهو مُسلسل درامي أسبوعيّ رائج استُلهِمَتْ أحداثه من التاريخ الأمريكي - يُجسِّد أُناساً أمثال نيثان هيل[6] وأورفيل رايت[7] وويلد بيل[8] هيكوك وجاك لندن. في الحياة الواقعيّة كان متزوجاً من إيف فريم، الممثّلة الأولى في مسرح الذخائر الأسبوعيّة الذي كان يعرِض مسرحيّة دراميّة «جادّة» عنوانها «*مسرح الإذاعة الأمريكي*». كانت أمي تعلم كل شيء عن أيرون رنْ وإيف فريم من خلال المجلات التي كانت تقرؤها في صالونات التجميل. لم تكن تشتري أياً من تلك المجلات - كانت تستهجنها، كما فعل أبي، الذي رغبَ في أنْ تكون عائلته قُدوة - لكنها قرأتها وهي تحت مُجفِّف الشعر، ومن ثم شاهدتْ كل مجلات الموضة عندما كانت تذهب بعد ظهيرة أيام السبت لكي تساعد صديقتها السيدة سْفيرسكي، التي كانت تمتلك، مع زوجها، محلاً لبيع الملابس في شارع بيرغن يُجاور مباشرة محل السيدة أونتربرغ لبيع القبعات النسائيّة حيث كانت أمي تقدِّم المساعدة أحياناً في أيام السبت وفي أثناء زحام ما قبل عيد الفصح.

وفي إحدى الليالي بعد أنْ أصغينا إلى عرض «*المسرح الإذاعي الأمريكي*»، وهو ما كنا نفعله دائماً حسب ما أتذكّر، حكتْ لنا أمي عن زفاف إيف فريم إلى أيرون رنْ وعن كل الضيوف من الشخصيات الإذاعيّة والمسرحية. كانت إيف فريم قد ارتدتْ ثوباً صوفياً من قطعتين بلون وردي باهت، وبكُمّين مزركشين بحلقتين مزدوجتين من فرو الثعلب المناسب له، ووضعت على رأسها قبّعة من النوع الذي لم تضاهيه في

6- نيثان هيل (1755 - 1776) جندي وجاسوس أمريكي في أثناء الحرب الثوريّة - المترجم.

7- أورفيل رايت: أحد الأخوين رايت المخترعان ورائدا الطيران - المترجم.

8- وايلد بيل هيكوك: بطل شعبي أمريكي من أيام الغرب القديم - المترجم.

الجمال أيّة قبعة أخرى في العالم. وأطلقتْ أمي عليها لقب «القبعة ذات الخِمار المُغري»، وهو طراز يبدو أنَّ إيف فريم جعلته مشهوراً وهي تقف أمام معبود النساء في عصر السينما الصامتة كارلتون بينينغتون في فيلم «*حبيبتي، تعالي إلى هنا*»، حيث أدّتْ بطريقة ممتازة دور فتاة المُجتمَع المُدلَّلة. كانت قبعة ذات خِمار مُغرٍ مشهورة بأنها كانت تعتمرها وهي واقفة أمام المايكروفون، وصفحة الحوار في يدها، وتؤدي دورها في «*المسرح الإذاعي الأمريكي*»، على الرغم من أنّها صُوِّرَتْ أيضاً وهي أمام مايكروفون الإذاعة وتضع قبعة اللباد المترهّلة المزركشة، أو القبعة الصغيرة، أو قبعات القشّ، وذات مرة، عندما حلَّتْ ضيفة على برنامج «*عرض بوب هوب*»، كما تذكّرتْ أمي، وهي تضع قبعة القش السوداء المستديرة بخمارها المُغري المُحاط بخيط الحرير. وأخبرتنا أمي أنَّ أيف فريم كانت تكبر أيرون بنْ بستة أعوام، وأنَّ شعرها كان ينمو بمقدار بوصة واحدة كل شهر وكانت تُخفِّف من لونه من أجل العرض على مسرح برودواي، وأنَّ ابنتها سيلفيد، كانت عازفة قيثارة، وخريجة معهد جوليارد لتعليم الموسيقى، وثمرة زواج إيف من كارلتون بيننغتون.

قال والدي «مَنْ يهتم بهذا؟». أجابت أمي بنبرة دفاع عن النفس «نيثان يهتم. إنَّ أيرون رنْ هو أخو السيد رينغولد. والسيد رينغولد هو **معبود** نيثان».

كان والداي قد شاهدا إيف فريم في الأفلام الصامتة عندما كانت فتاة جميلة. وكانت لا تزال جميلة؛ أعلم هذا لأنّهما كانا قبل ذلك بأربعة أعوام، وبمناسبة عيد مولدي السابع، قد أخذاني لأشاهد أول عرضٍ مسرحي في برودواي - «*المرحوم جورج أبلي*» من تأليف جون. بي ماركاند - وكانت إيف تمثّل فيه، وبعد ذلك قال والدي، الذي كانت ذكرياته عن إيف فريم وهي ممثلة شابة في الأفلام الصامتة لا تزال مشوبة بلمسة من الحب، «إنَّ تلك المرأة تتكلّم لغة الملك الإنكليزيّة كما لا يفعل أي ممثل آخر»، وقالت أمي، التي ربما فهمتْ أو لم تفهم ما وراء إعجابه، «نعم، لكنها متحرّرة. إنها تتكلّم بطريقة جميلة، وأدّتْ الدور

أداءً فاتناً، وبدتْ رائعة في دور الخادم الصغير القصير، لكنَّ زيادة الوزن لا تليق بفتاة صغيرة كإيف فريم، حتماً ليس وهي ترتدي ثوباً صيفيّاً ضيقاً من الحرير الأبيض، بتنورة أو من دون تنورة».

وكان نقاشٌ حول ما إذا كانت إيف فرين يهوديّة يدورُ باستمرار بين النساء في نادي لعب الماهجونغ[9] الخاصّ بأمي عندما يحين دور أمي في استضافتهن لممارسة اللعبة أسبوعياً، وخاصّة بعد تلك الأمسية التي تمّت بعد ذلك ببضعة أشهر عندما كنتُ ضيف أيرا على مائدة عشاء أقامتها إيف فريم. إنَّ العالمَ المشدوه بنجوم السينما من حول الفتى المولع بالنجوم لم يستطع أنْ يوقِف التحدث عن حقيقة أنَّ الناس قالوا إنَّ اسمها الحقيقيّ هو فرومْكين. تشافا فرومْكين. وكانت هناك عائلة فرومكين في بروكلين من المفترَض أنها العائلة التي تبرَّأت إيف منها عندما ذهبتْ إلى هوليوود وغيَّرتْ اسمها.

يقول والدي ذو الفكر الجادّ حالما يُفتَح الموضوع ويتصادف أنْ يكون ماراً بغرفة الجلوس، في أثناء مجريات لعبة الماهجونغ، «مَنْ يأبه لهذا؟ كلهم يُغيِّرون أسماءهم في هوليوود. وتلك المرأة تفتح فمها فتخرج منه الفصاحة. وتقفُ على خشبة المسرح وتُجسّد شخصيّة سيدة محترمة، ***وتصدّقون*** أنها سيدة محترمة».

تتدخّل السيدة أونتربرغ، صاحبة محلات بيع القبعات النسائيّة، كعادتها «يُقال إنها من فلاتْبوش. ويُقال إنَّ والدها يبيع لحماً حلالاً[10]».

فيُذكِّر والدي السيدات «يُقال إنَّ الممثل غاري غرانت يهوديّ. والفاشيون كانوا يقولون إنَّ ***روزفلت*** كان يهودياً. إنَّ الناس يقولون كل شيء. وليس هذا ما يهمّني. إنَّ ما يُهمّني هو ***تمثيلها***، الذي في اعتقادي هو الأفضل».

قالت السيدة سفيرسكي، التي تمتلك مع زوجها محلاً لبيع الملابس

9- الماهجونغ: من ألعاب الورق. أصلها صينيّ - المترجم.

10- تقصد أنّه حلال بالمفهوم اليهوديّ - المترجم.

النسائيّة: «حسن، إنَّ صهر روث تونيك متزوج من امرأة من آل فرومكين، من نيوارك. ولها أقارب في بروكلين، ويُقسِمون على أنَّ إيف فريم من أقرانهم».

تسأل السيدة كوفمان، وهي ربّة منزل وصديقة لأمي: «ماذا يقول نيثان؟».

أجابت أمي «لا يقول شيئاً». كنتُ قد درَّبتُها على أنْ تقول إنني لم أقُل شيئاً. كيف؟ الأمر سهل. عندما سألتْ، بالنيابة عن السيدات، إنْ كنتُ أعرفُ إنْ كانت إيف فريم التي تمثل في «*المسرح الإذاعي الأمريكي*» هي، في الواقع، تشافا فرومكين من بروكلين، قلتُ لها، «إنَّ الدين هو أفيون الشعوب! وهذه الأمور لا تهمّ - ولا آبه بها. وإنّني لا أعرف ولا يهمّني أنْ أعرف!».

سألتْ السيدة أونتربرغ أمي «كيف كان الوضع هناك؟ ماذا كانت ترتدي؟».

سألتْ السيدة كوفمان «ماذا قدّمتْ؟».

سألتْ السيدة أونتربرغ «كيف كانت تسريحة شعرها؟».

«أحقاً هو ضخم الجثّة. ماذا يقول نيثان؟ هل يرتدي حذاء مقاس ستة عشر؟ بعض الناس يقولون إنها مجرّد دعاية».

«وأنَّ بشرته عليها آثار الجُدري كما يبدو في الصور؟».

سألت السيدة شيسل، التي كان زوجها اختصاصياً في أمراض القدمين، كوالدي، «ماذا يقول نيثان عن الابنة؟ ما أصل اسم سيلفيد؟».

سألتْ السيدة سفيرسكي «ما اسمها الحقيقيّ؟».

سألتْ السيدة كوفمان «إنه ليس اسماً يهودياً. سيلفيا اسمٌ يهوديّ. أعتقد أنَّ أصله فرنسيّ».

سألتْ السيدة شيسل «لكنَّ الوالد لم يكن فرنسياً. الوالد هو كارلتون بيننغتون. كانت تمثّل معه في كل تلك الأفلام. لقد هربتْ معه في ذلك الفيلم. حين كان يقوم بدور البارون الأكبر سناً».

«أكان ذلك الفيلم الذي اعتمرتْ فيه تلك القبعة؟».

قالت السيدة أونتربرغ «لا أحد في العالم كله يُشبه تلك المرأة وهي تضع تلك القبعة. اجعل إيف فريم تضع قلنسوة صغيرة أنيقة، أو قبعة عشاء صغيرة مُزيَّنة بالأزهار، أو قبعة من القش المُخرَّم للأطفال، أو قبعة ضخمة سوداء تشبه الدولاب مُزوّدة بخِمار - اجعلها تعتمر أيَّ شيء، اجعلها تعتمر قبعة تيروليّة من اللباد البُنّي مع ريشة، اجعلها تضع عمامة جيرزي بيضاء، اجعلها ترتدي ســترة مع قلنســوة مُبطّنة بالفرو، وســوف تبدو المرأة رائعة الجمال، مهما اعتمرتْ».

قالت السيدة سفيرسكي «في إحدى صورها كانت ترتدي - ولن أنسى هذا أبداً - ثوباً أبيض للمساء مُزخرف بالذهب مع مدفأة لليدين من فرو القاقُم[11]. لم أرَ مثيلًا لتلك الأناقة في حياتي. كانت تُعرَض هناك مسرحيّة وذهبنا نحن النساء لمشاهدتها. كانت ترتدي ثوباً من صوف البرغندي، ممتلئاً عند الصدر والتنورة، والأشدّ سِحراً كان الزخرفة الملويّة».

قالت السيدة أونتربرغر «نعم! وتلك القبعة المناسبة ذات الخِمار. من لبّاد برغندي طويل مع خِمار مسحوق».

قالت السيدة سفيرسكي «أتذكرينها بالكشكش في تلك المسرحيّة التي لا أعرفُ اسمها؟ لا أحد يرتدي الكشكش كما تفعل هي. كشكش *مُضاعَف* أبيض على ثوب رسمي أسود!».

سألتْ السيدة شيسل من جديد «ولكن اسم *سيلفيد*، من أين *أتى*؟».

قالت السيدة سفيرسكي «نيثان يعلم. اسألي نيثان. هل نيثان هنا؟».

قالت أمي «إنه يقوم بواجبه المدرسي».

«اسأليه. من أين أتى اسم سيلفيد؟».

قالت أمي «سأسأله لاحقاً».

لكنها لم تكن تنوي أنْ تفعل - على الرغم من أنّني في سرّي، ومنذ أنْ

11- القاقُم: حيوان قارض، يُشبه ابن عرس - المترجم.

انضمّتْ إلى الحلقة المسحورة، كنتُ مُشتاقاً إلى أنْ أتكلَّم عن كل ذلك إلى الجميع. ماذا يرتدين؟ ماذا يأكلن؟ ماذا يقُلنَ في *أثناء تناول* الطعام؟ كيف *الأجواء* هناك؟ إنه شيء رائع.

يوم الثلاثاء الذي قابلتُ فيه أيرا للمرة الأولى، أمام منزل السيد رينغولد، كان يوم الثلاثاء، الثاني عشر من شهر تشرين أول، عام 1948. ولو لم تكن السلسلة العالمية[12] قد انتهتْ تواً يوم الإثنين، لكنتُ أسرعتُ، بجبن، بدافع احترام خصوصيّة أستاذي، في اجتياز المنزل الذي كان يُنزِل منه الستائر مع أخيه وانعطفتُ، من دون حتى أنْ ألوّح بيدي أو أهتفُ مُحيّياً، يساراً عند المنعطف نحو أوزبورن تيراس. ولكن، تصادفَ أنْ كنتُ في اليوم السابق قد استمعتُ إلى فريق ذا إنديانز وهو يهزم الفريق العريق بوسطن بريفز في المباراة الختاميّة من السلسلة من مكتب السيد رينغولد. كان قد أحضر جهاز راديو معه في صباح ذلك اليوم، وبعد انتهاء الدوام المدرسي دُعيَ أولئك الذين لم تكن عائلاتهم قد اقتنت بعد أجهزة تلفزيون - أي مُعظمهم - إلى أنْ يهرعوا مباشرة من درس اللغة الإنكليزيّة على طول الرواق لكي يحتشدوا داخل مكتب المدير الصغير لقسم اللغة الإنكليزيّة لكي يستمعوا إلى وقائع المباراة، التي كانت قد بدأتْ فعلاً في ملعب فريق البريفز.

ثم اقتضت الكياسة أنْ أُبطئ، أُبطئ كثيراً وأُوجِّه خطابي إليه، «سيد رينغولد - شكراً لكَ على الأمس». واقتضتْ الكياسة أنْ أومئ برأسي وأبتسم للعملاق في فنائه. ووقفتُ - بفم جاف، متيبِّس - وعرَّفتُ عن نفسي. وأبديتُ ردّة فعل فيها شيء من البلاهة عندما فاجأني بقوله «كيف حالك يا صاحبي»، بأنْ أجبتُ أنَّه سوف يظهر على خشبة المسرح بعد ظهيرة ذلك اليوم، وأنني سوف أقوم بدور أحد الصِبية الذين يُصدرون ضجيج استهجان كلام ستيفن أ. دوغلاس عندما أعلنَ في وجه لينكولن،

12- السلسلة العالميّة: مجموعة من مباريات البيسبول هي الأفضل في الموسم من أجل بطولة البيسبول الأمريكية - المترجم.

«إنني ضد مواطنة الزنوج بأي شكلٍ كان [ضجيج استهجانٍ]. أعتقد هذه الحكومة قامت على أساس أبيض [ضجيج استهجان]، أعتقد أنّه صُنِعَ من أجل الرجل الأبيض [ضجيج استهجان]، ومن أجل صالح الرجل الأبيض [ضجيج استهجان] ومن أجل ذرّيته وإلى الأبد [ضجيج استهجان]. إنني مع اقتصار المواطنَة على الرجل الأبيض... بدل منحها للزنوج، والهنود، والسلالات الوضيعة الأخرى. [استهجان. استهجان. استهجان]».

ثمة شيء أعمق بكثير من مجرّد الكياسة (طموح، طموح إلى أنْ أنال الإعجاب من أجل قناعتي الأخلاقيّة) حثّني على كسر الحياء وإخباره، وإخبار ثلاثي آل أيرا، كلهم - الشهيد الوطنيّ لمقرّ أبراهام لينكولن، والأمريكي الطبيعيّ، الجسور على أمواج الأثير أيرون رنْ، والرجل الضخم والخشن الناجي من الجناح الأول[13] في نيوارك أيرا رينغولد - بأنني أنا الذي حرَّضَ على الاستهجان.

هبط السيد رينغولد الدَرَج من شقّة الطابق الثاني، يتصبّب عرقاً غزيراً، لا يرتدي إلا بنطلوناً من الخاكي، وينتعل حذاءً خفيفاً. وخلفه مباشرة جاءت السيدة رينغولد، التي وضعتْ، قبل أنْ تتراجع وترتقي الدرج من جديد، صينيّة عليها إبريق من الماء المُثلَّج وثلاثة أكواب زجاجيّة. وهكذا - في الرابعة والنصف بعد الظهر من الثاني عشر من شهر تشرين أول، عام 1948، في يومٍ قائظ من أيام الخريف وأشدّ أيام حياتي المُبكِّرة إدهاشاً - أمَلتُ دراجتي على جنبها وجلستُ على درج شرفة مدخل منزل أستاذي في اللغة الإنكليزيّة مع زوج إيف فريم، أيرون رنْ من مسلسل «*الأحرار والشجعان*» وناقشنا مباريات السلسلة العالميّة التي خسرَ فيها بوب فيلر مباريتين - شيء لا يُصدَّق - وأحرز لاري دوبي، اللاعب الأسود الرائد في الاتحاد الأمريكي، والذي كان يحظى بإعجابنا جميعاً، سبعة مقابل اثنين وعشرين.

13- الجناح الأول: منطقة في نيوارك كانت مكان تجمُّع المهاجرين من الإيطاليين إلى الولايات المتحدة حتى منتصف القرن العشرين - المترجم.

ثم تحدّثنا عن الملاكمة: لويس يغلب جيرزي جو والكوت عندما كان والكوت يتقدَّم عليه كثيراً بالنقاط؛ وتوني زايل يستعيد لقبه في وزن المتوسط من روكي غراتزيانو في نيوارك نفسها، في ملعب روبرت في شهر حزيران، بسحقه بلكمة يساريّة في الجولة الثالثة، ومن ثم فقد ذلك اللقب لينتقل إلى ملاكم فرنسي اسمه مارسيل سيردان، هناك في مدينة جيرزي قبل أسبوعَين، في شهر أيلول... ومن ثم انتقل أيرون رنْ في لحظة من التحدُّث معي عن توني زايل إلى الحديث عن وينستون تشرشل في اللحظة التالية، عن خطاب كان تشرشل قد ألقاه قبل بضعة أيام جعله يغلي من الغضب، خطاب ينصحُ فيه الولايات المتحدة بألّا تُدمِّر مخزونها من القنابل النوويّة لأنَّ القنبلة النوويّة هي التي منعتْ الشيوعيين من الهيمنة على العالم. وتحدث عن وينستون تشرشل كما يتحدث عن اللاعبَين ليو ديوروشير ومارسيل سيردان. أطلقَ على تشرشل لقب ابن حرام رجعي ومُحرِّض على الحرب بلا تردُّد كما نعت ديوروشير بالثرثار ونعت سيردان بالمتشرِّد. تحدث عن تشرشل وكأنَّ تشرشل يُدير محطة لبيع الوقود على جادة ليون. والأمر لم يكن يتعلَّق بالطريقة التي كنا نتحدث بها عن وينستون تشرشل في منزلنا. بل كان أقرب إلى كيف كنا نتحدث عن هتلر. وفي حديثه، كما في حديث أخيه، لم يكن هناك أسلوب ملحوظ في اللياقة ولا مُحرَّمات تقليديّة. كان في وسعك أنْ تُثير أيَّ موضوع في كل المجالات: الرياضة، السياسة، التاريخ، الأدب، وبالتعنُّت المتهوِّر، والاستشهاد العنيف، والعاطفة المثاليّة، والموقف الأخلاقيّ... كان يكتنف ذلك شيءٌ منعشٌ بصورة رائعة، عالمٌ مختلف وخطِر، مُتطلِّب، وصريح، وعِدوانيّ، ومتحرِّر من الحاجة إلى إرضاء الآخرين. ومتحرِّر من المدرسة. لم يكن أيرون رنْ فقط نجماً إذاعياً، بل كان شخصاً خارج غرفة الدرس لا يخشى أنْ يُصرِّح بأي شيء.

كنتُ قد انتهيتُ تواً من القراءة عن شخصٍ آخر لا يخشى أنْ يقول أيَّ شيء – هو توماس بين – والكتاب الذي قرأتُه، وهو رواية تاريخيّة

بقلم هوارد فاست عنوانه «*المواطن توم بين*»، هو من مجموعة موجودة في سلّة درّاجتي كنتُ في طريقي إلى إعادتها إلى المكتبة العامة. وبينما كان أيرا يشجب تشرشل على مسمعي، كان السيد رينغولد قد انتقل إلى حيث الموقع الذي سقطت فيه الكتب من السلّة إلى الرصيف عند أسفل الشرفة الأماميّة وأخذ يتفحّص ظهورها لكي يرى ما كنتُ أقرأ. كان نصف الكتب يدور حول لعبة البيسبول وهي من تأليف جون ر. تونيس، والنصف الآخر كان عن التاريخ الأمريكي ومن تأليف هاوارد فاست. كان مذهبي المثاليّ (وفكرتي عن الإنسان) مبنيّاً على طول خطوط متوازية، تُغذّي أحدها روايات تحكي عن أبطال في لعبة البيسبول فازوا بمبارياتها بصعوبة، عبر معاناة الحظ العاثر والمهانة والعديد من الهزائم في طريق كفاحهم نحو إحراز النصر، وتُغذّي الآخر روايات تدور حول أبطا أمريكيين حاربوا الاستبداد والظُلم، أبطال الحريّة من أجل أميركا ومن أجل الإنسانيّة كلها. وحول مُعاناة بطوليّة. ذاك كان اختصاصي.

لم تكن «*المواطن توم بين*» رواية مكتوبة بالأسلوب الاعتيادي كسلسلة متماسكة متواصلة من العبارات الفصيحة الأنيقة المُحلِّقة تقتفي آثار تناقضات رجل بغيض ذي فكر مكبوت بالغضب وبأنقى المُثُل الاجتماعيّة، كاتب *وأيضاً* ثوريّ. «كان مكروهاً – وربما يظن البعض أنه كان محبوباً – أكثر من أي رجل آخر في العالم». «كان عقلاً حرقَ نفسه كما تفعل قلّة من العقول على امتداد التاريخ الإنسانيّ كله». «لكي تشعر روحه بلسع السياط الذي ينزل على ظهور الملايين». «كانت أفكاره وتفكيره أقرب إلى أفكار العامل العادي منها مما كان يمكن لجفرسون أنْ يتخيَّل». هذا هو بين كما رسمه فاست، أُحاديّ التفكير بصورة وحشيّة وانعزاليّ، مُحارب شعبيّ، ملحميّ – أشعث الشعر، قذر، يرتدي ملابس متسوِّل، يحمل بندقيّة في شوارع فيلادلفيا الجامحة في زمن الحرب، رجل ينطوي على مرارة، وألم حارق، غالباً ما يكون ثملاً، وكثيراً ما يرتاد المواخير، يترصّد له القتلة، وليس لديه أصدقاء. عاش حياته

وحده: «صديقي الوحيد هو الثورة». مع انتهائي من قراءة الكتاب، بدا لي أنه ليس هناك إلا أسلوب بين يصلح لأي رجل لكي يعيش ويموت به إذا كان مُصرّاً على أنْ يطلب، بالنيابة عن الحريّة الإنسانيّة - من الحُكّام البعيدين ومن العامة الخشنين على قدم المساواة - تحويل المجتمع.

لقد فعلَ كلَّ شيءٍ وحده. ليس في «بين» ما هو أشدّ سِحراً من هذا، لكنَّ فاست رسم بصورة خالية من أيّة رومانسيّة عزلةً نشأتْ من استقلال متحدٍ وبؤسٍ شخصيّ. ذلك أنَّ بين أنهى حياته وحيداً أيضاً، عجوزاً، مريضاً، بائساً، وحيداً، منبوذاً، ومخدوعاً - مكروهاً إلى أبعد الحدود لأنه كتب في شهادته الأخيرة، «*عصر العقل*»، «لا أعتنقُ عقيدة تهيمن عليها الكنيسة اليهوديّة، والكنيسة الكاثوليكيّة، والكنيسة الشرقيّة، والكنيسة التركيّة، والكنيسة البروتستانتيّة، أو أيّة كنيسة أعرفها. إنَّ عقلي هو كنيستي الشخصيّة». لقد جعلتني القراءة عنه أشعر بالشجاعة وبالغضب وأيضاً، فوق كل شيء، بأنّني حرّ في أنْ أقاتل من أجل ما أؤمن به.

كان كتاب «*المواطن بين*» هو الذي انتقاه السيد رينغولد من سلّة الدرّاجة لكي يُعيده إلى حيثُ كنا جالسَين.

سأل أخاه «أتعرفُ هذا؟».

أخذ أيرون رنْ كتابي الذي جلبته من المكتبة العامة بيدين تشبهان يديّ آبيه لينكولن الضخمتين وبدأ يتصفَّح الصفحات الأولى. قال «كلا، لم أقرأ أيّ شيء لفاست. يجب أنْ أفعل. إنه رجل رائع. شجاع. ناصَرَ والاس منذ البداية. إنني أقرأ عموده كلما وقعت صحيفة «*ذا وركر*» في يدي، ولكن لم يعُد لدي وقت لقراءة رواياته. كنتُ أقرأها في إيران، وفي أثناء أداء الخدمة قرأتُ شتاينبك، وأبتون سينكلير، وجاك لندن، وكولدويل...».

قال السيد رينغولد «إذا أردتَ أنْ تقرأه، فهذا الكتاب يُمثّل فاست في أحسن حالاته. هل أنا على صواب، يا نيثان؟».

أجبتُ «هذا الكتاب عظيم».

سألتي أيرون رينْ «هل قرأتَ كتاب «*الحسّ السليم*»؟ هل قرأتَ كتب بين؟».

قلت «كلا».

قال أيرون رينْ لي وهو لا يزال يُقلِّب صفحات كتابي، «اقرأها».

قلتُ «إنَّ هاوارد فاست يقتطف كثيراً من كتابات بين».

رفع أيرون رينْ بصره، وقال «إنَّ قوّة الجماعة هي ثورة، لكنَّ الأمر الغريب جداً هو أنَّ البشرية مرّت بآلاف السنين من العبوديّة من دون أنْ تعلم ذلك».

قلتُ «هذا القول موجود في الكتاب».

سألني السيد رينغولد «أتعلم أين تكمن عبقريّة بين؟ إنها تختصر عبقريّة هؤلاء الرجال كلهم. جيفرسون. ماديسون. أتعلم ما هي؟».

قلت «كلا».

قال «بل تعرف ماذا كانت».

«تحدّي اللغة الإنكليزيّة».

«كثيرٌ من الناس يفعلون هذا. كلا. بل كانت توضيح القضيّة *باستخدام* اللغة الإنكليزيّة. لقد كانت الثورة مُرتجَلة بالكامل، ومُشوَّشة بالكامل. أليس هذا ما تستشفّه من الكتاب، يا نيثان؟ حسن، لقد كان على هؤلاء الرجال أنْ يعثروا على لغة يشرحون بها ثورتهم. أنْ يعثروا على كلمات تتناسب مع هدف عظيم».

أخبرتُ السيد رينغولد «قال بين: لقد كتبتُ كتاباً صغيراً لأنني أردتُ أنْ يرى الرجال هدفهم».

قال رينغولد «وهذا ما فعل».

قال أيرون رينْ، مُشيراً إلى بعض الأسطر في الكتاب، «هنا. ما قاله عن جورج الثالث. اسمع: كنتُ سأعانيّ الأمرَّين، لو أنني جعلتُ روحي تفجُر بالإدلاء بقسم الولاء لشخص أبله، أحمق، عنيد، تافه، ومتوحش».

كان القولان اللذان اقتطفهما أيرون رنْ من «بين» – مُستعينا ببرنامج

«*الأحرار والشجعان*» الموجّه للشعب، بصوت أجشّ - من بين عدد كبير دوّنتها أنا نفسي وحفظتها غيباً.

قال السيد رينغولد لي «هذا القول يُعجبك».

«نعم، يُعجبني تعبير: جعلتُ روحي تفجُر».

سألني «لماذا؟».

كنتُ قد بدأتُ أتصبّب بعرق غزير بسبب أشعة الشمس على وجهي، بفعل إثارة لقائي بأيرون رنْ، والآن من كوني في ذلك المكان، مُضطراً إلى إعطاء جواب للسيد رينغولد وكأنني في غرفة الدرس جالس بين أخوين بلا قميصَين وطول كل منهما يتجاوز ستة أقدام بكثير، رجلين ضخمين، على طبيعتهما ينضحان بما يُشبه رجولة مفعمة بالقوة، وبالذكاء، وأصبو إلى أنْ أصبح مثلهما. رجلان يستطيعان أنْ يتحدثا عن البيسبول وعن الملاكمة وعن الكتب. ويتحدثان عن الكتب كأنّها تحتوي شيئاً مُعرَّضاً للخسارة. ولا يفتحان كتاباً من أجل عبادته أو لكي يرتقيا به أو أنْ يتماهيا في العالم من حولهما. كلا، بل لكي **يتلاكما** مع الكتاب.

قلت «لأنكَ في المعتاد لا تعتبر روحك عاهرة».

«ماذا *يقصد* بعبارة «روحي تفْجُر»؟».

أجبتُ «أي أنْ يبيعها. أنْ يبيع روحه».

«صحيح. أترى كيف أنَّ قوله «كنتُ سأُعاني الأمرَّين، لو أنني جعلتُ روحي *تفجُر*»، أقوى تأثيراً مما لو قال: لو **بعتُ** روحي؟».

«نعم، أرى».

«لماذا ذلك التعبير أقوى أثراً؟».

«لأنه بكملة «فُجْرْ» يُشخِّص المعنى».

«نعم - وماذا أيضاً؟».

«حسن، كلمة «فُجرْ»... ليست كلمة تقليديّة، ولا تسمعها علناً. إنَّ الناس لا يستعملون كلمة «فُجر» في كتاباتهم دائماً، أو، يقولونها علناً».

«ولِمَ لا يفعلون؟».

«من الشعور بالخجل. ومن الحرج. وبدافع الاحتشام».

«الاحتشام. عظيم. هذا صحيح. إذن هذا قول وقح؟».

«نعم».

«وهذا بالذات ما أعجبك في بين، أليس كذلك؟ وقاحته؟».

«أعتقد ذلك. نعم».

«والآن بتَّ تعرف سبب إعجابك. أنتَ متقدِّم كثيراً في هذه اللعبة، يا نيثان. وأنت تعلمُ هذا لأنك أمعنتَ التفكير في كلمة استخدمها، كلمة واحدة، ثم طرحتَ على نفسك بعض الأسئلة إلى أنْ نفذتَ إلى داخل تلك الكلمة، ورأيتَ ما تنطوي عليها وكأنها شفّافة، إلى أنْ بلغتَ موطن قوة هذا الكاتب العظيم. إنّه وقح. توماس بين وقِح. ولكنْ هل هذا يكفي؟ إنَّ هذا فقط جزء من التركيبة. ينبغي أنْ يكون للوقاحة هدف، وإلا فهي رخيصة وسهلة وسوقيّة. لماذا توماس بين وقح؟».

قلت «لصالح معتقداته».

فجأة أعلن أيرون رينْ «هيه، هذا هو القول السديد. هذا هو صاحبي الذي عبّر عن استهجانه لِما قاله السيد دوغلاس!».

***

وهكذا انتهى بي الأمر إلى أنْ نزلتُ ضيفاً مدة خمس ليال أخرى على كواليس مسرح أيرون رينْ في مهرجان أقيمَ في قلب مدينة نيوارك، في الجامع، وهو أكبر مسرح في المدينة، على شرف هنري والاس، المُرشَّح الرئاسي للحزب التقدُّمي المتشكِّل حديثاً. وكان والاس في مجلس وزراء روزفلت كسكرتير الزراعة على مدى سبعة أعوام قبل أنْ يُصبح نائب الرئيس خلال ولاية روزفلت الرئاسيّة الثالثة. وفي عام 1944 أُقيل وحلَّ ترومان محلَّه، وشَغلَ في ظل ولايته فترة وجيزة سكرتيراً للاقتصاد. وفي عام 1946، أقال الرئيس والاس لأنه صوّتْ لصالح التعاون مع ستالين وعَقْد صداقة مع الاتحاد السوفييتي في اللحظة التي كان فيها ترومان

والديموقراطيون قد بدؤوا يُدركون أنّ الاتحاد السوفييتي ليس فقط عدواً أيديولوجياً بل ويشكّل تهديداً خطراً على السلام، بل وأنه ينبغي على الغرب إيقاف انتشاره داخل أوروبا.

هذا الانقسام داخل الحزب الديمقراطيّ - بين الغالبيّة المُعادية للسوفييت بقيادة رئيس الجمهورية والمتعاطفين «التقدّميين» مع السوفييت بقيادة والاس والمناهضين لمبدأ ترومان[14] ولخطة مارشال[15] - عكس تأثيره على الانشقاق داخل منزلنا بين الأب والابن. والدي، المُعجَب بوالاس الذي كان تحت حماية فرانكلين ديليني روزفلت، كان ضد ترشُّح والاس للسبب نفسه الذي يختار الأمريكيون بموجبه ألّا يدعموا مرشّحي حزب ثالث – بهذه الحالة، لأنه سيجذب أصوات الجناح اليساري للحزب الديمقراطي بعيداً عن ترومان ويجعل انتخاب حاكم نيويورك توماس إ. ديوي، المُرشَّح الجمهوريّ، أمراً مُستبعداً. كان مُناصرو والاس يقولون إنَّ حملة حزبهم للاقتراع جمعتْ ستة أو سبعة ملايين صوت، بنسبة مئويّة عامة تفوق بكثير ما جمعه أيّ حزب ثالث أمريكي.

قال لي والدي «إنَّ صاحبك سوف يُنكِر على الديمقراطيين بلوغ البيت الأبيض، وإذا حَكَمَنا الجمهوريون، فسوف يعني ذلك أنّ هذا البلد سيُعاني كما عانى دائماً. أنت لم تكن موجوداً لتتعرَّف إلى هوفر وهاردينغ وكولريدج. أنت لم تشهد قسوة قلب الحزب الجمهوريّ. أنت تشمئز من الأعمال التجارية الكبرى، يا نيثان؟ وتشمئز مما تُسمّيه أنت وهنري والاس «الكبار من وول ستريت»؟ حسن، أنت لا تعرف كيف كان الوضع عندما وضع حزب الأعمال التجاريّة قدمه في وجه الناس العاديين. أنا أعرف. أنا أعرف الفقر وأعرف أوقات الشِدَّة بطُرُقٍ شكراً لله لأنه وفَّرَ عليكما أنت وأخيك معاناتها».

14- مبدأ ترومان: الذي يدعو إلى إيقاف الانتشار السوفييتي داخل أوروبا - المترجم.

15- خطة مارشال: التي تقضي بتقديم مساعدات اقتصاديّة لأوروبا ما بعد الحرب العالمية الثانية - المترجم.

كان والدي قد وُلِدَ في الحيّ الفقير من نيوارك ولم يُصبح اختصاصياً في أمراض القدمين إلا بارتياد المدرسة المسائيّة في أثناء عمله في النهار على شاحنة لتوصيل الخبز؛ واستمرّ طوال حياته، حتى بعد أنْ جمع حفنة من الدولارات وانتقلنا إلى منزلٍ خاصٍ بنا، يتبنّى مصالح مَنْ سمّاهم الناس العاديين وما كنتُ أُسمّيهم - مع هنري والاس - «الإنسان المبتذل». وقد شعرت بخيبة أمل شديدة عندما سمعتُ والدي يرفض بكل صراحة أنْ يُصوِّت لصالح المُرشَّح الذي، كما حاولتُ أنْ أُقنعِه، دعم أسس «البرنامج الجديد[16]». لقد أراد والاس برنامج صحّة وطنيّ، وحماية النقابات، وفوائد للعمّال؛ كان ضد خطّة تافت-هارتلي[17] وضد اضطهاد العمّال؛ كان ضد لائحة منت-نيكسون[18] وضد اضطهاد الراديكاليين السياسيين. وتطلب لائحة منت-نيكسون تسجيل، إذا تمَّ الأخذ بها، تسجيل أسماء أعضاء الحزب الشيوعيّ و «الجبهة الشيوعيّة» عند الحكومة. وكان والاس قد قال إنَّ اقتراح منت-نيكسون كان الخطوة الأولى نحو قيام دوله بوليسيّة، ومحاولة لإرهاب الشعب الأمريكي لكي يلزم الصمت؛ وسمّاها اللائحة «الأشدّ تخريباً» التي قدّمها الكونغرس. ودعم الحزب التقدّمي حريّة الأفكار من أجل التنافُس في ما سمّاه والاس «سوق الأفكار». أما أشدّ ما أثّر فيَّ كان رفض والاس، في أثناء حملته في الجنوب، أنْ يخطب في جماهير معزولة عنصرياً - وكان أول مُرشّح رئاسيّ يتّصِف بتلك الدرجة العالية من الشجاعة والنزاهة.

قلتُ لوالدي «إنَّ الديموقراطيين لن يفعلوا أيّ شيء لإنهاء التميز

16- البرنامج الجديد: برنامج وضعه الرئيس الأمريكي فرانكلين د. روزفلت من أجل الإنعاش الاقتصادي والإصلاح الاجتماعي في الأربعينيات - المترجم.

17- خطة تافت-هارتلي: وتقضي بوجود تلاحم وتعاون بين العمال والإدارة في أي مصنع أو موقع عمل - المترجم.

18- لائحة أو قائمة منت-نيكسون: وتنادي بوجوب تسجيل أسماء أعضاء الحزب الشيوعي الأمريكي عند النائب العام -المترجم.

العنصريّ. لن يحظروا الإعدام من دون مُحاكمة ولا فرض ضريبة الرؤوس[19] والتمييز العنصري مع السود. لم يفعلوا ولن يفعلوا».

قال لي والدي «أنا لا أتّفقُ معك، يا نيثان. انظر إلى هاري ترومان. لقد وضع هاري ترومان بنوداً حول الحقوق المدنيّة في برنامجه، فانظر وسوف ترى ما يفعله الآن بعد أنْ تخلَّصَ من أولئك المُتعصّبين الجنوبيين».

إنَّ والاس ليس فقط ترك الحزب الديمقراطيّ في ذلك العام، ولكنَّ «المتعصبين» الذين ذكرهم والدي أيضاً فعلوا ذلك، الديموقراطيين الجنوبيين، الذين شكّلوا حزبهم الخاصّ، حزب حقوق الولايات – أو «الديكسيقراطيين». كانوا يهرعون إلى ستروم ثورموند حاكم كارولينا الجنوبيّة، المناصر المتعصّب للتمييز العنصري. وكان الديكسيقراطيون ينوون أنْ يحصلوا على أصوات، أصوات جنوبيّة، تذهب في المعتاد إلى الحزب الديمقراطيّ، وكان ذلك سبباً آخر لكون هيوي مُرجّحاً أنْ يهزم ترومان بأغلبيّة كبيرة.

في كل ليلة على مائدة العشاء في المطبخ، كنتُ أفعل أبذل قُصارى جهدي لإقناع والدي بالتصويت لصالح هنري والاس ولاستعادة «البرنامج الجديد»، وفي كل ليلة كان يُحاول أنْ يدفعني إلى تفهُّم ضرورة الوصول إلى تسوية في انتخابات كهذه. ولكنْ لما كنتُ أعتبر توماس بين بطلي، الوطني الأبعد عن التسويات في التاريخ الأمريكي، قفزتُ عن مقعدي، حالما سمعتُ *المقطع الصوتي* الأول لكلمة «تسوية» وقلت له ولأمي ولأخي البالغ العاشرة من العمر (الذي كان يُردد بعدي، كلما تكلّمت، بصوت ساخط بنبرة مُبالغ فيها، «التصويت لوالاس يعني التصويت *لديوي*») إنني لن آكل على مائدة الطعام هذه إذا كان والدي حاضراً.

وذات ليلة على مائدة الطعام جرَّبَ والدي مساراً آخر – لكيَ يُثقِّفني حول احتقار الجمهوريين لكل قيمة للعدالة الاقتصاديّة والعدالة

19- ضريبة الرؤوس: ضريبة على كل شخص بالغ – المترجم.

السياسيّة عزيزة على قلبي – لكنني لم أقتنع: لقد كان الحزبان السياسيان الكبيران متساويين في افتقارهما إلى الضمير عندما يتعلَّق الأمر بحقوق الزنوج، ومتساويين في لا مبالاتهما بالممارسات الجائرة التي ورثها النظام الرأسماليّ، وفي إغماض عيونهما أمام العواقب الكارثيّة التي ستنزل بالجنس البشريّ الناجمة عن استفزاز بلدنا المُتعمَّد للشعب الروسي المُحبّ للسلام. قلتُ لوالدي، والدموع تكاد تطفر من عينيّ، وأنا أعني كل كلمة أقولها، «إنّك حقاً تُفاجئني»، وكأنّه هو الابن الذي لا يقبل بالتسوية.

لكنَّ المفاجأة الأكبر كانت قادمة. فلاحقاً بعد ظهيرة يوم سبت أخبرني بأنّه يُفضّل ألّا أذهب إلى الجامع في تلك الأمسية لحضور الاجتماع الحاشد لصالح والاس. وإذا أصررتُ على الذهاب بعد حديثنا، فسوف يُحاول أنْ يمنعني، لكنه على الأقلّ أراد مني أنْ أُصغي إليه قبل أنْ أتّخذ قراري النهائي. وعندما رجعتُ إلى المنزل في يوم ثلاثاء قادماً من المكتبة العامة وأعلنتُ بانتصار على مائدة العشاء أنني دُعيتُ لأكون ضيفاً على أيرون رنْ، الممثل الإذاعي، في الاجتماع الحاشد في قلب المدينة لصالح والاس، كانت حماستي لمقابلة أيرون رنْ جليّة جداً، وكنتُ خارجاً عن طوري بسبب الاهتمام الشخصي الذي أبداه لي، إلى درجة أنَّ أمّي منعت أبي ببساطة من إعلان تحفّظاته بشأن الاجتماع الحاشد. ولكن الآن أراد مني أنْ أُصغي إلى ما شعر بأنّه من واجبه، كوالد، أنْ يُناقشه، ومن دون أنْ أفقد أعصابي.

كان والدي يُعاملني بجديّة كما كان آل رينغولد يفعلان، ولكن ليس بخوف أيرا السياسيّ، ولا بإبداع مَري الأدبي، قبل أي شيء، أو بتجاهلهما الظاهر للباقي، وما إذا كنتُ فتى طيباً أم لا. لقد كان آل رينغولد هما الدافع الواعد بإطلاقي إلى عالم الاستعراض الكبير، إلى بداية فهمي ما يستلزمه الأمر لكي أُصبحَ رجلاً بالمعنى الواسع للكلمة. لقد أجبرني آل رينغولد على الاستجابة بدرجة عالية من الدقّة بدتْ مناسِبة لِما

أصبحتُ عليه الآن. بالنسبة إليهما لم يكن أمراً مهمّاً إنْ كنتُ ولداً طيباً أم لا. القضيّة الوحيدة المُهمَّة كانت معتقداتي. ولكنَّ مسؤوليتهما لم تكن مسؤوليّة الوالد، الذي يبعِد ابنه عن الأشراك. على الوالد أنْ يقلق بشأن الأشراك بقدر مالا يقلق أستاذ المدرسة حول ذلك. كان عليه أنْ يقلق بشأن سلوك ابنه، وبشأنْ دمج ابنه النسخة الصغيرة من توم بين في المجتمع. ولكن حالما تُرِكَ توم بين الصغير ليختلط بالرجال، في الوقت الذي كان فيه الوالد لا يزال يُربّي ابنه الولد الصغير، انتهى دور الوالد. لا شك في أنّه يقلق بشأنْ الأشراك - إذا لم يفعل، فذلك خطأ. لكنَّ دوره انتهى في كل الأحوال. ولم يعُد أمام الصغير توم بين من خيار إلا أنْ يشطبه، أنْ يخون الوالد ويمضي في طريقه بشجاعة ليقع في كل شرك من أشراك الحياة. ومن ثم، عندما يُصبح كلٌ مُستقلاً بذاته - مُحوّلاً وجوده إلى وِحدة حقيقيّة - ينتقل من شركٍ إلى شرك حتى آخر حياته، وحتى القبر، الذي، إذا لم يكن هناك أيّ شيء يوصي به، فهو على الأقلّ الشَرَك الأخير الذي يمكن للإنسان أنْ يسقط فيه.

قال والدي «أصغي إليّ حتى أنتهي، ومن ثم خُذْ قرارك. إنني أحترمُ استقلالك، يا بنيّ. أتريد أنْ تحمل شِعار والاس وأنت ذاهب إلى المدرسة؟ احمله. هذا بلدٌ حرّ. ولكن يجب أنْ تعرف الحقائق كلها. لا يمكنكَ أنْ تأخذ قراراً من دون حقائق».

لماذا امتنعت السيدة روزفلت، أرملة الرئيس العظيم المُحترمة، عن الموافقة وانقلبتْ ضد هنري والاس؟ ولماذا امتنع هارولد أيكس، سكرتير الداخليّة الموثوق والمُخلِص لروزفلت، وهو رجل عظيم في موقعه، عن الموافقة وانقلبَ على هنري والاس؟ لماذا سحب الـ CIO (مجلس المنظمات الصناعيّة)، كمنظمة عمّاليّة طموح بقدر ما هو معروف عن هذا البلد، أمواله ودعمه لهنري والاس؟ إنه بسبب تسرُّب الشيوعيين إلى حملة والاس الانتخابيّة. ولم يرغب والدي في أنْ أذهب إلى التجمّع الحاشد بسبب الشيوعيين الذين لم يتمكنوا من الاستيلاء

على الحزب التقدّمي. قال لي إنَّ هنري والاس هو إمّا مفرط السذاجة بحيث يعرف هذا أو – وهذا، للأسف، أقرب إلى الحقيقة – مفرط الكذب بحيث لا يمكنه الاعتراف بذلك، لكنَّ الشيوعيين، خاصّة من بين النقابات التي يُهيمن عليها الشيوعيون، كانوا قد طُرِدوا من الـ CIO.

هتفتُ «مضطهد الحُمر!»، وغادرتُ المنزل. استقللتُ الحافلة 14 وذهبتُ لأنضم إلى التظاهرة. قابلتُ بول روبسون. مدَّ يده ليُصافحني بعد أنَّ قدَّمني أيرا إليه بوصفي تلميذ المدرسة الثانويّة الذي حدّثه عنه. «ها هو، يا بول، الفتى الذي قاد حملة استهجان تصريحات ستيفن أ. دوغلاس». كان بول روبسون، الممثّل والمُغنّي، الرئيس المُساعد للجنة حملة والاس الانتخابية لمنصب رئيس الجمهوريّة، قبل ذلك ببضعة أشهر في مظاهرة في واشنطن ضد لائحة منت–نيكسون قد غنّى «Ol' Man River» أمام حشدٍ من خمسة آلاف مُحتجّ عند قدميّ تمثال واشنطن، والذي لم يكن هيّاباً وهو يقفُ أمام أعضاء لجنة مجلس الشيوخ القضائيّة، ويقول (عندما سُئل في جلسات استماعهم حول لائحة منت–نيكسون إنْ كان يوافق على اللائحة إذا تمّ إقرارها)، «سوف أنتهك القانون»، ثم أجاب بصراحة لا تقلّ مُباشرة (عندما سُئل ما الذي يُناضل الحزب الشيوعيّ من أجله)، «يُناضل من أجل المساواة التامة للشعب الأسود» – أمسك بول روبسون بيدي وقال «لا تفقد شجاعتك، أيها الشاب».

كان الوقوف في كواليس مسرح الجامع مع المؤدّين والخُطباء – يكتنفني في وقت واحد عالمان جديدان غريبان، منطقة اليساريين وعالم «أجنحة المسرح» – أمراً مُثيراً وكأنني كنتُ جالساً في المقعد المُجوَّف مع اللاعبين كما يحصل في مباراة بين فرق كبيرة. ومن بين الأجنحة سمعتُ أيرا وهو يقوم بدور أبراهام لينكولن من جديد، وهذه المرة لم يكن ينهال بالنقد الشديد على ستيفن أ. دوغلاس بل على سماسرة الحرب في كلا الحزبين السياسيين: «إنّهم يدعمون أنظمة الحكم الرجعيّة

في العالم أجمع، ويُسلِّحون أوروبا الغربيّة ضد روسيا، ويُعسكرون أميركا...». رأيتُ هنري والاس بنفسه، يقفُ على مسافة منه لا تزيد عن عشرين قدماً وذلك قبل أنْ يرتقي إلى المسرح ليخطب في الحشد، ثم وقفَ إلى جانبه تقريباً عندما صعد أيرا لكي يهمسُ له بشيء في غرفة استقبال المهرجان بعد انتهاء التظاهرة. حدّقتُ إلى المرشَّح الرئاسي، ابن المُزارع الجمهوريّ من أيوا الذي يبدو أمريكياً ويتكلَّم كالأمريكيين كأي أمريكي شاهدته، وسياسيّ يُناهض الأسعار المرتفعة، والمشاريع التجارية الضخمة، والعزل العرقيّ والتمييز العنصريّ، واسترضاء طُغاة أمثال فرانشيسكو فرانكو وتشيانغ كيه-شيك[20]، وتذكّرتُ ما كان فاست قد كتبه عن بين: «إنّ تفكيره وأفكاره أقرب إلى أفكار عامل عاديّ أكثر من أفكار جيفرسون». وفي عام 1954 – بعد مرور ست سنوات على تلك الأمسية في الجامع عندما أثار فيَّ مُرشَّح الإنسان العاديّ، مُرشَّحِ الشعب وحزب الشعب، القشعريرة عندما شدَّ على قبضة يده وصرخ من على المِنبر، «نحن نتعرَّضُ لهجوم شرس على حرّيتنا» – حُرِمتُ من منحة فولبرايت الدراسيّة المجّانيّة.

لم أهتمّ البتّة ولم يكن في وسعي أنْ أهتمّ، ومع ذلك وصل الحماس الشديد لدحر الشيوعيّة حتى إليّ.

كان أيرون رينْ قد وُلِدَ في نيوارك قبلي بعقدَين من الزمن، في عام 1913؛ كان صبياً فقيراً نشأ في حيٍّ ظروفه قاسية – لعائلةٍ قاسية – التحق لفترة وجيزة بمدرسة بارينجر هاي، وهناك رسب في المواد كلها ما عدا الرياضة البدنيّة. كان مُصاباً بعشى البصر ويضع نظارات لا فائدة منها وكاد لا يستطيع أنْ يقرأ ما ورد في الكتب المدرسيّة، ناهيك عمّا كان الأستاذ يكتبه على السبّورة. لم يكن قادراً على الرؤية ولم يستطع أنْ

20- تشيانغ كيه-شيك (1887 – 1975): كان حاكماً للصين بين عاميّ 1928 و1939، ثم أصبح رئيس جمهوريّة الصين بين عاميّ 1949 و1975. تحالف مع الشيوعيين ضد اليابان، لكنه بعد ذلك في أثناء الحرب الأهليّة أُجبِرَ على الانسحاب إلى تايوان بعد انتصار الشيوعيين عليه – المترجم.

يتعلَّم وذات يوم، شرح وضعه قائلاً، «كل ما في الأمر أنني لم أستيقظ لأذهب إلى المدرسة».

كان أيرا يرفض حتى أنْ يأتي على ذِكر والده هو ومري. وبعد تظاهرة والاس الحاشدة بأشهر، كان أكثر ما قاله أيرا لي هو ما يلي: «لم يكن في استطاعتي أنْ أتحدث مع أبي. لم يكن يُولي أيَّ اهتمام لولديه. وكان يفعل ذلك عن عمد. كانت تلك طبيعة الوحش». ووالدة أيرا، المرأة المحبوبة كما يتذكّرها، توفيتْ عندما كان في السابعة من العمر، وحلَّتْ محلّها امرأة وصفها بأنها «زوجة أبّ كالتي تسمع عنها في الحكايات الخرافيّة. بنت حرام حقيقيّة». بعد عام ونصف ترك المدرسة، وبعد ذلك ببضعة أسابيع غادر المنزل إلى الأبد وهو في سن الخامسة عشرة وعثر على عمل في حفر الخنادق في نيوارك. إلى أنْ اندلعت الحرب، وخلال حالة الكساد الاقتصادي التي مرَّ فيها البلد، راح هو يتنقّل من مكان إلى آخر، أولاً في نيو جرزي ثم في أرجاء أميركا كلها، يقبل أيّ عمل يتوفّر له، أعمال في مُعظمها تتطلّب ظهراً صلباً. وبعد هجوم بيرل هاربر، تطوّع في الجيش. لم يتمكّن من رؤية لوحة تفحُّص العين، ولكن كان هناك رتلٌ طويل من الشبّان ينتظرون إجراء فحصهم، فاقترب أيرا من اللوحة، وحفظ غيباً قدر ما استطاع مما ورد عليها ثم عاد إلى الرتل، وهكذا اجتاز الامتحان البدني. وعندما سُرِّح أيرا من الجيش في عام 1945، أمضى عاماً في كالوميت سيتي في ولاية إلينُوْي، وهناك تقاسم غرفة مع أقرب صاحب تعرَّف عليه في أثناء الخدمة، كان عاملاً في مصنع الفولاذ وشيوعيّاً، اسمه جوني أوداي. كانا جنديين يعملان في تفريغ السفن وتحميلها على متن السفن في إيران، حيثُ تُفرَغ معدّات كمساعدة من الحلفاء شُحِنَتْ بالقطار عبر طهران إلى الاتحاد السوفييتي؛ وبسبب قوّة أيرا البدنيّة في العمل، لقَّبَ أوداي صديقه بالـ «أيرا الرجل الحديديّ». وفي الأمسيات، كان أوداي يُعلِّم الرجل الحديديّ القراءة وكتابة الرسائل وثقّفه في الفِكر الماركسي.

كان أوداي أشيب الشعر ويكبر أيرا ببضع سنوات – قال أيرا «لا أعلم

كيف انضمّ إلى الجيش وهو في مثل تلك السن». كان نحيلاً جداً وطويل القامة كعمود الهاتف، لكنّه أصلب ابن حرام قابله في حياته. كان يحمل معه جراب ملاكمة خفيف يستخدمه من أجل حساب توقيته؛ لقد كان سريعاً وقوياً إلى درجة أنّه كان في وسعه «إنْ اضطُر» أنْ يهزم رجلين أو ثلاثة معاً. وكان أوداي ذكياً. قال أيرا «أنا لا أفهم شيئاً في السياسة. ولا أفهم شيئاً في العمل السياسيّ. ولا أميِّز أيّة فلسفة سياسيّة أو فلسفة اجتماعيّة من الأخرى. لكنَّ هذا الرجل يُخبرني الشيء الكثير. إنّه يتحدث عن العامل، وعن الأوضاع عامة في الولايات المتحدة. عن الأذى الذي تُسبِّبه حكومتنا للعمّال. وكان يدعم ما يقول بإيراد الحقائق. هل كان منشقّاً؟ لقد كان أوداي مُنشقّاً إلى درجة أنَّ كل ما كان يفعله لم يكن يُنفّذه حسب الأصول. نعم، لقد قدَّم لي أوداي الكثير، أعلم هذا».

كان أوداي، كأيرا، غير متزوج. قال لأيرا، «أريد أنْ أبتعد تماماً عن أيّة صِلات متشابكة. إنني أعتبر الأطفال رهائن للحاقدين». وعلى الرغم من أنّه لم يحصل أكثر من أيرا إلا على عام واحد من الدراسة، إلا أنَّ أوداي قام بنفسه «باكتساب المهارات»، حسب تعبيره، «عبر الجدل اللفظي والمكتوب»، بنسخ فِقرة بعد فِقرة نسخاً حرفيّاً من أنواع شتى من الكتب، وتحليل بُنية الجُمَل، بالاستعانة بمُقرَّر كتاب قواعد اللغة المدرسي. وأوداي هو الذي أعطى أيرا معجم الجيب الذي ادّعى أيرا أنّه أعاد تشكيل حياته. أخبرني أيرا «كان في حوزتي معجم كنتُ أقرأ فيه طوال الليل كما يقرأ المرء رواية. كان أحدهم قد أرسلَ إليّ ***معجم روجيه للمترادفات***. وبعد تفريغ السفن طوال النهار، كنتُ أعمل في كل ليلة على تحسين مخزوني من المفردات».

واكتشفَ القراءة -ذات يوم – ارتكب الجيش ربما أسوأ أخطائه قاطبة – لقد أرسلوا إلينا مكتبة كاملة، ثم قال وهو يضحك: «ويا له من خطأ! فقد قرأتُ في نهاية المطاف تقريباً كل كتاب في تلك المكتبة. وكانوا قد بنوا كوخاً مُرتجلاً لحفظ الكتب فيه، وصنعوا رفوفاً، وأخبروا

الرجال: «إذا أردتم كتاباً، ادخلوا إلى هنا وانتقوا واحداً». وكان أوداي هو الذي أخبره – وبقيَ يُخبره – أيّ كتاب يختار».

قبل ذلك، عرضَ عليَّ أيرا ثلاث أوراق تحمل عنوان «بعض المُقترحات الأساسيّة لنفعيّة رينغولد» كان أوداي قد أعدَّها عندما كانا معاً في إيران. «أولاً: احتفظ دائماً بقاموس – قاموس جيد زاخر بالمطابقات وبالمُرادفات – حتى عندما تكتب رسالة قصيرة لبائع الحليب. واستخدمه. لا تتهاون في اللفظ وفي الحصول على المعنى الدقيق كما أنت متعوِّد أنْ تفعل. ثانياً: باعد المسافة بين الأسطر لكي تسمح بإضافة الأفكار المتأخِّرة وبإجراء التصحيحات. لا يهمّني إنْ كان ذلك ينتهك الاستخدام الجيد ما دام أنّ التواصُل الشخصي يتحقّق؛ ويُحقّق التعبير الدقيق. ثالثاً: لا تصبّ أفكارك كلها دفعة واحدة على صفحة من الكتابة. وكلما عالجت فكرة جديدة أو أتقنتَ ما ذكرته تواً، ابدأ بِفقرة جديدة. قد تزيد من ضعفها، لكنها سوف تُصبح قابلة للقراءة أكثر. رابعاً: تجنّب العبارات المبتذلة. حتى وإنْ اضطُررتَ إلى جرَّها من ذيلها، عبِّر عن شيء قرأته أو سمعته ورد بغير نصّه الأصلي. على سبيل الشرح أورِدُ إحدى جُمَلِكَ من جلسة تلك الليلة في المكتبة: «لقد لخّصتُ بعضاً من مساوئ نظام الحُكم الحالي...». لقد قرأتَ هذا، أيها الرجل الحديديّ، وهو ليس قولك؛ إنه قول شخص آخر. يبدو كأنه خرج من علبة للأطعمة المحفوظة. لنفرِض أنّكَ عبَّرتَ عن الفكرة ذاتها كما يلي: «سوف أبني حُجَّتي حول تأثير ملكيّة الأرض وهيمنة رأس المال الأجنبيّ على ما شهدتُه هنا في إيران».

كانت تحتوي في المُجمَل عشرين بنداً، والسبب الذي دفع أيرا إلى عرضها عليّ كان لمساعدتي في كتابتي *أنا* – ليس في تأليف مسرحيات الإذاعة في المدرسة الثانويّة بل في تدوين يومياتي، مُحاولاً أنْ أبدو «مُهتماً بالسياسة» حيث كنتُ أباشر بتدوين «أفكاري» كلّما تذكّرتُ ذلك. كنتُ قد بدأتُ أحتفظ بيومياتي في مُحاكاة لأيرا، الذي كان قد باشر في

تدوين يومياته في مُحاكاة لجوني أوداي. ونحن الثلاثة استخدمنا النوع نفسه من الدفاتر: أوراق وولْوورث بسعر دايم، وكل صفحة تحتوي اثنين وخمسين سطراً بطول أربع بوصات وعرض ثلاث، مُثبَّتة من الأعلى ومُجلّدة بغلافَين مُرقّشَين من الكرتون البُنّيّ.

عندما أتتْ رسالة أوداي على ذِكر كتاب، أيَّ كتاب، يحصل أيرا على نسخة وكذلك أنا؛ كنتُ أتوجّه من فوري إلى المكتبة العامة وأُخرِجه. كتب أوداي يقول «كنتُ أقرأ مؤخّراً كتاب بور ***جيفرسون شاباً*** بالإضافة إلى معالجات أخرى لتاريخ أميركا المُبكِّر، وكانت لجان الاستقلال في تلك الفترة هي الوساطة الأساسيّة التي عَبرَها كان المُستعمرون بفكرهم الثوريّ يُطوّرون فهمهم ويُنسّقون خُططهم». هكذا توصلتُ إلى قراءة «***جيفرسون شاباً***» وأنا في المدرسة الثانوية. كتب أودلي يقول «قبل أسبوعَين اشتريتُ الطبعة الثانية عشرة من «***مُقتطفات بارتليت***»، بحجّة إضافته إلى مكتبتي من المراجع، ولكنَّ الحقيقة هي فقط أنني كنتُ أستمتعُ بتصفّحه»، وذهبت إلى قلب المدينة قاصداً المكتبة العامة الرئيسة لكي أجلس بين كتب المراجع وأستعرض صفحات كتاب «***بارتليت***» كما فعل أوداي، ويومياتي إلى جواري، أقلبُ كل صفحة سعياً وراء الحِكمة لأُعجِّل من بلوغي سن النضج وأُصبح شخصيّة يُشار إليها بالبنان. كتب أوداي يقول «كنتُ أشتري نشرة ***كومنفورم*** (التي كانت تصدر رسمياً في بودابست) بانتظام»، لكنني كنتُ أعلم أنني لن أعثر على ***كومنفورم*** – التي هي موجز عبارة **مكتب المعلومات الشيوعي** – في أيّة مكتبةٍ محلّيّة، وحذّرتني الحِكمة من الذهاب والبحث عنها.

مسرحياتي الإذاعيّة كانت حواراً ولا تتأثّر بمقترحات أوداي الصلبة بل بالأحاديث التي أجراها أيرا مع أوداي وهو ردّدها على مسمعي، أو بالأحرى، مثّلها كلمة فكلمة، وكأنّه هو وأوداي كانا ماثلين معاً أمامي. وكانت المسرحيات الإذاعيّة، أيضاً، مُوشّاة بلغة العمّال العاميّة التي استمرّتْ في الظهور في كلام أيرا حتى بعد أنْ جاء إلى نيويورك بوقتٍ

طويل وأصبح ممثلاً إذاعياً، وتأثّرت معتقداتهما بقوة بتلك الرسائل الطويلة التي كان أوديل يكتبها لأيرا، وكان أيرا دائماً يقرأها بصوت مرتفع تلبية لطلبي.

كان موضوعي مصير الإنسان العادي، إنسان الشارع – الإنسان الذي مجَّده الكاتب الإذاعي نورمان كورْوين[21] بقوله «الرجل الصغير» في مسرحيته «*بنبرة انتصار*»، وهي مسرحية مدّتها ساعة أُذيعت على أثير محطّة CBS عشيّة انتهاء الحرب في أوروبا (وأُعيدَ بثها، تلبية لطلب الجماهير، بعد ذلك بثمانية أيام)، وهذا جعلني أنخرط بابتهاج في تلك الطموحات الأدبيّة المُخلِّصة التي تحاول أنْ تُعيد تصحيح أخطاء العالم عبر الكتابة. ولا يهمني أنْ أحكم اليوم إنْ كان شيءٌ أحببتُه قدر محبتي لمسرحيّة «*بنبرة انتصار*» هو فن أو ليس فنّاً؛ لقد أمدّني بأول إحساسٍ *بالقوة* المُستحضِرة للفن وساعدَ على تقوية أفكاري الأولى حول ما أريدُ وما أتوقّع أنْ تفعله لغة فنان في الأدب: أيِ ادّخار صراعات المتقاتلين. (وعلّمني، خِلافاً لِما أصرّ عليه أساتذتي، أنَّ في استطاعتي أنْ أبدأ جُملةً بحرف «و»)

إنَّ شكل صياغة مسرحيّة كورْوين مُهلهل، بلا حبكة – تجريبيّ – كما أخبرتُ والدي اختصاصي أمراض القدمين ومُدبّرة المنزل أمي. لقد كُتِبَتْ بالأسلوب العامي الراقي، الجِناسيّ، يمكن أنْ يكون مُشتقّاً من جهة من كليفورد أوديتس ومن جهة أخرى من ماكسويل أندرسون، من جهود الكُتّاب المسرحيين الأمريكيين في حقبة العشرينيات والثلاثينيات من أجل صياغة أسلوبٍ محليّ مُميَّز خاص بالمسرح، وكان الفنانون الطبيعيّون لا يزالون يتبنّون أسلوب التلوين الغنائيّ والنبرات المُنخفضة الجادّة، والعاميّة ذات النبرة الشاعريّة التي، كما في حالة نورمن كورْوين، تجمع بين إيقاعات الكلام العاميّ مع لمسة من التكلُّف الأدبيّ لكي تنتج النَّبرة التي أدهشتني، وأنا في سن الثانية عشرة، بأنها ديمقراطيّة

21– نورمن كورْوين (1910 – 2011): كاتب سيناريوهات إذاعيّة وسينمائيّة وصحافي وكاتب مقالات، ومُخرج مسرحيات إذاعيّة. أمريكي – المترجم

في الروح وبطوليّة في المدى، وهي النظير اللفظي للوحة جداريّة تمثل إدارة سير العمل. لقد طالب ويتمان بأنْ تكون أميركا للصَلْبين، وطالب نورمن كورْوين بأنْ تكون للإنسان الصغير - الذي اتَّضحَ أنه ليس إلا الأمريكيين الذين خاضوا الحرب الوطنيّة وعادوا إلى أُمّة رائعة. لم يكن الإنسان الصغير أكثر من الأمريكيين أنفسهم! وإنسان كوروين «الصغير» كان أمريكياً يُساند «البروليتاريا»، وكما بتُّ أفهم الآن، فإنَّ الثورة التي خاضتها طبقة العمّال الأمريكية الثوريّة وانتصرت كانت، في الواقع، الحرب العالميّة الثانية، ذلك الشيء الضخم الذي شكّلنا جميعاً، مهما كان عددنا ضئيلاً، جزءاً منه، الثورة التي أقرَّتْ حقيقة أسطورةٍ شخصيةٍ وطنيّةٍ علينا جميعاً أنْ نتقاسمها.

بما فيهم أنا. لقد كنتُ ولداً يهودياً، ولا ريب في ذلك، ولكنني لم آبه بتقاسُم الشخصيّة اليهوديّة. بل إنني لم أعرف، بوضوح، ما هي. ولا رغبتُ كثيراً في معرفتها. لقد أردتُ أنْ أتقاسم الشخصيّة الوطنيّة. لم يكن يبدو أنّ أيَّ شيءٍ يأتي بسهولة أكبر إلى والديّ المولودَين في أميركا، ولا شيء جاءني بصورة طبيعيّة أكثر، وما كان يمكن لأي منهج أنْ يبدو لي أعمق من المشاركة عبر اللغة التي تكلَّم بها نورمن كورْوين، التي كانت تقطيراً لُغويّاً لمشاعر المجتمع الحماسيّة التي أثارتها الحرب، والشِعر الشعبي بامتياز الذي كان بمثابة الطقس الدينيّ للحرب العالميّة الثانية.

كان التاريخ قد اختُزِلَ وأصبح شخصياً، وأميركا اختُزِلَتْ وجُعِلَتْ شخصيّة: بالنسبة إليّ، كان ذلك هو سِحر ليس فقط نورمن كورْوين بل العصر كلّه. كنتَ تفيض إلى التاريخ وكان التاريخ يفيض إليك. وتفيض إلى أميركا وأميركا تفيض إليك. وذلك كلّه لأنكَ حيٌّ في نيو جرزي وفي الثانية عشرة من العمر وجالس بجوار المذياع في عام 1945. وعندما كانت الثقافة الشعبيّة مُتّصلة بصورة كافية بالقَرن الأخير بحيث تبقى متأثّرة بلغة صغيرة، كان هناك جانبٌ يُنشيني.

يمكن القول أخيراً من دون جلب النحس على الحملة: كانت الديمقراطيات المنحطّة، والبلاشفة الخُرق، وحمقى عقد الخمسينيات، أشدّ صلابة في نهاية المطاف من الزعران بقمصانهم البُنيّة، وأشدّ ذكاءً أيضاً؛ ذلك أنّه من دون جَلد كاهن أو حرق كتاب أو ضرب يهوديّ، من دون زرب فتاة في ماخور، أو فصد طفل من أجل الحصول على مصل الدم، يخرج الرجال العاديون في كل مكان، البسطاء ولكن أحرار، من عاداتهم ومن منازلهم، يستيقظون باكراً ذات صباح، ويمطّون عضلاتهم، ويتعلّمون (كهاوين) مبادئ الأسلحة، وينطلقون عبر سهول ويمخرون مُحيطات محفوفة بالمخاطر لكي يُخيفوا المُحترفين.

وهذا ما فعلوا.

ولكي تتيقّنْ من هذا انظر في آخر بلاغ رسميّ، الذي يحمل عبارة القيادة العليا للحلفاء.

قُصَّه من الصحيفة الصباحيّة وأعطِهِ لأولادك لكي يحتفظوا به.

عندما ظهرتْ مسرحيّة «**بنبرة انتصار**» على شكل كتاب، اشتريتُ نسخةً في الحال (كانت أول نسخة بغلاف مقوّى امتلكتُها مباشرة بدل أنْ أستعيرها باستخدام بطاقة المكتبة العامة)، وعلى مدى عدّة أسابيع استظهرتُ الصفحات الخمس والستين من الفقرات الشبيهة بالشِعر الحرّ الذي كُتِبَ بها النص، متذوّقاً على وجه الخصوص الأسطر التي تستخدم بحريّة عابثة اللغة الإنكليزيّة العاميّة («هناك وقتٌ حارّ في بلدة دنبروبتروفسكي الباردة هذه الليلة») أو أسماء العلم الغريبة المترابطة تلك لكي تُنتِج ما بدا لي أنَّه مُفارقات مُثيرة ومُدهِشة («المُحارب الجبّار يضع سيف الساموراي أمام موظف البقالة من بالتيمور»). ونتيجة جهد حرب عُظمى أفرزتْ حافزاً رائعاً لمشاعر النزعة الوطنيّة المتعصّبة لكي تنمو بقوة عند شخصٍ في مثل سنّي - كان في التاسعة عندما بدأتْ الحرب وكان في منتصف الطريق إلى سن الثالثة عشرة عندما انتهت - كان مجرد

ذِكر اسم مدينة أو ولاية أمريكية، عبر المذياع («عبر أثير ليل نيو هامبشير اللاذع»، «من مصر وحتى بلدة في براري أوكلاهوما»، «وأسباب الحزن في الدانمارك هي نفسها التي في أوهايو») يترك كل أثر مُمجِّد مقصود.

إذن استسلموا.
أخيراً هلكوا، ومات الجرذ في زقاقٍ خلف شارع فيلهلمستراس.
انْحَنِ، أيّها الجنديّ،
انحنِ، أيها الإنسان الضئيل.
إنسانُ الغد المتفوِّق يتمدَّد عند قدميّ أناسك العاديين بعد ظهيرة هذا اليوم.

ذلك كان المديح الذي تبدأ به المسرحيّة. (عبر المذياع سُمِعَ صوتٌ ثابت يُشبه صوت أيرون رنْ مُعرِّفاً بشدّة ببطلنا الذي يوجَّه له المديح. كان الصوت الحازم، الأجشّ بنبرة شفوق، صوت منتصف العمر المُستبد قليلاً لمُدرِّب رياضي في مدرسة ثانويّة – المُدرّب الذي يُدرِّس أيضاً لغة إنكليزيّة – صوت الضمير الجمعيّ للإنسان العادي). وكان هذا هو المقطع الختامي لكوروين، الصلاة التي جعلها رسوخها في الحاضر تبدو لي – أنا المُلحِد الراسخ أصلاً – دنيويّة تماماً وغير دينيّة في حين أنها في الوقت نفسه أقوى تأثيراً وجرأة من أيّة صلاة سمعتُها تُتلى في المدرسة في بداية النهار أو قرأتُها، مُترجَمَة في كتاب الصلوات في الكنيس، عندما كنتُ أقفُ بجوار والدي في أثناء الصلاة في العُطل الكبيرة[22].
يا رب المسار والانفجار...
يا رب الخبز الطازج وأوقات الصباح الهادئة...
يا رب المعطف الخفيف والأجر الكافي...

22- العطل الكبيرة: عند اليهود هي عطلة رأس السنة واليوم الكبير الذي تتم فيه التوبة خلال الأيام العشرة الأولى من العام الجديد اليهودي – المترجم.

وزِّع حريات جديدة...
البريد يُبرهن على أنَّ الأخوّة...
اجلس على طاولة المفاوضات وانقل آمال الأناس الصغار خلال ممرات متوقّعة...

كانت عشرات الملايين من العائلات الأمريكية قد جلستْ بجوار أجهزة المذياع لتُصغي، على الرغم من تعقيد هذه المادة مُقارنة بما تعوّدوا أنْ يسمعوا، إلى ما أثار فيّ، وأيضاً، كما افترضتُ بكل براءة، فيهم، سيلاً من التحوُّل، وشعوراً بإنكار الذات لم أعرفه من قبل نتيجة أيَّ شيء أُذيعَ عبر المذياع. ويا لقوة ذلك البثّ! هناك، كانت ***الروح*** تخرج من المذياع. لقد ألهمتْ روح الإنسان العادي خليطاً هائلاً من وله شعبيّ، ودفق من الكلمات يخرج مباشرة مِنَ القلب الأمريكي ويصل إلى الفم الأمريكي، وثناء مدّته ساعة للتفوُّق المتناقض مع ما أصرَّ كوروين على تعريفه بأنّه جنس بشريّ أمريكي عادي تماماً: «الأناس العاديون المنتشرون، البسطاء ولكن الأحرار».

لقد حدَّثَ كوروين توم بين بالنسبة إليّ بجعلِ المُخاطرة ديمقراطيّةً، بجعلها ليس فقط مسألةَ رجلٍ واحدٍ جامح وعادل بل مجموعة من كل الرجال العاديين العادلين مجتمعين معاً. كانت الجدارة والناس شيئاً واحداً. ***والعظمة*** والناس كانا شيئاً واحداً. فكرةٌ مُثيرة. وكم اجتهد كوروين في إجبارها، على الأقلّ في مخيّلته، على التحقّق.

بعد انتهاء الحرب انخرطَ أيرا وعن وعي، للمرّة الأولى، في الصراع الطبقيّ. وظلّ منغمساً فيه حتى عُنقه طوال حياته، كما أخبرني، من دون أنْ يعلم ما الذي يجري. وفي شيكاغو، ظلَّ يعمل مقابل خمسة وأربعين دولاراً في الأسبوع في شركة تسجيلات أنشأها اتّحاد عمال الكهرباء بعقد متين إلى درجة أنه كان لديهم مكتب للاستخدام. في تلك الأثناء

عاد أوداي إلى عمله مع عمال السفن في إنلاند ستيل في مرفأ إنديانا. وكان أوداي يحلم باستمرار بترك العمل، ومن ثم يُفضي بإحساسه بالإحباط لأيرا في الليل وهما في غرفتهما. لو كان في استطاعتي أنْ أحصل على دوام كامل على مدى ستة أشهر وبلا أصفاد، لأصبح في الإمكان إقامة مفرزة هنا في المرفأ. هناك الكثير من الناس الطيبين، ولكن نحن في حاجة إلى شخص يقضي وقته *كله* في التنظيم. أنا لستُ بارعاً في التنظيم، وهذا صحيح. يجب أنْ تكون سنداً مع البلشفيين الرعاديد، وأنا أميل أكثر إلى ضرب رؤوسهم. وما الفرق على أيّة حال؟ إنَّ المفرزة مُفلِسة ولا تستطيع أنْ تدعم عاملاً بدوام كامل. وكل قرش يُجمَع يذهب من أجل الدفاع عن قيادتنا، من أجل الصحافة، ولعدد من الأشياء الأخرى التي لا تستطيع أنْ تنتظر. كنتُ قد أفلست بعد الدفعة الأخيرة، لكنني استطعتُ أنْ أعيش عيش الكفاف لبعض الوقت. لكنَّ الضرائب، والسيارة اللعينة، وأشياء أخرى... أيها الرجل الحديديّ، لا أعرفُ كيف أتصرَّف – إذ **ينبغي** أنْ أذهب إلى العمل.

أعجبني أيرا عندما أخذ يردِّد اللغة الخاصة التي يتداولها الشبان الخشنون، حتى شبان مثل جوني أوداي، الذي لم تكن بُنية الجُملة التي يستخدمها بسيطة كجُملة العامل العادي لكنّه عرفَ موطن قوة أسلوبهم وبقيَ طوال حياته يستخدمه بفعاليّة، على الرغم من التأثير المُدمِّر ضمناً للقاموس. في عبارات مثل «كان عليّ أنْ أتقبّله بإيقاع بطيء لبعض الوقت... وهذا كلّه بأسلوب موازنة الفأس... حالما ننزع المسمار... حالما يضرب الشبان الحجارة... إذا تحركوا لإجبار تقبُّل عقد التنصُّل[23]، يبدو كأنه دم على الحجارة...».

أعجبني من أيرا عندما شرح أعمال نقابته الخاصّة، نقابة عمال الإذاعة، ووصف الناس في مصنع التسجيلات حيث كان يعمل... «كان اتّحاداً صلباً، بقيادة متقدِّمة، يحكمه الجنود العاديون» الجنود

23– عقد التنصُّل: العقد الذي يتنصّل به العامل من انتسابه لنقابة العمال – المترجم.

العاديون – كلمتان صغيرتان، أثارتا إعجابي، كما فعلتْ فكرة العمل الشاقّ، والشجاعة العنيدة، وقضيّة عادلة تجمع بين الإثنين. أخبرني أيرا: «من بين المائة والخمسين عضواً في كل نوبة، كان يحضر مائة ونيف اجتماعات النقابة. وعلى الرغم من أنَّ أجر العمل يُحسَب بالساعة، ليست هناك معاملة خشنة في ذلك المصنع. أتفهم؟ إنْ أراد المعلِّم أنْ يُخبرك شيئاً، فإنه يفعل ذلك بكياسة. حتى فيما يخص الإهانات الجادّة، فإنَّ المُهين يُستدعى مع ممثل النقابة. وهذا يُشكِّل فرقاً كبيراً».

كان أيرا يُخبرني كل ما يرشح من اجتماع نقابيّ عادي – «عمل روتيني كتقديم مقترحات من أجل عقد جديد، ومشكلة فترات التغيُّب الطويلة، وشكاوى حول إنشاء موقف للسيارات، ونقاش حول الحرب الوشيكة» (كان يقصد الحرب بين الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة)، «والتمييز العنصري، وأسطورة الأجور والقضايا والأسعار» – ويستمر ويستمر ليس فقط لأنني، وأنا في الخامسة عشرة والسادسة عشرة، كنتُ تواقاً إلى معرفة كل ما يقوم به العامل، وكيف يتكلَّم ويتصرَّف ويُفكِّر، بل لأنه حتى بعد أنْ ترك كالوميت سيتي وانتقل إلى نيويورك لكي يعمل في الإذاعة واستقرَّ وضعه وترسّخ بوصفه أيرون رنْ في برنامج «***الأحرار والشجعان***»، استمر أيرا في التحدّث عن مصنع التسجيل وعن اجتماعات النقابة مُستخدماً اللغة الفاتنة التي يستخدمها رفاقه من العمّال، متكلّماً وكأنه ما زال يذهب إلى العمل هناك في صباح كل يوم. وفي كل ليلة، ذلك أنّه بعد فترةٍ وجيزة طلب وضعه في نوبة العمل الليليّة لكي يُخصص أوقات النهار «للعمل التبشيريّ» الذي علِمتُ أخيراً أنّه يقصد به الهداية إلى الحزب الشيوعيّ.

كان أوداي قد جنّدَ أيرا في الحزب عندما كانا يعملان على متن السفن في إيران. وكان مثلي، مع أني لستُ يتيماً، هدفاً سهلاً لدروس أيرا الخصوصيّة، وكان أيرا اليتيم الهدف المثالي لأوداي.

من أجل جمع تمويل عيد مولد واشنطن-ولينكولن الذي تقيمه نقابته الذي أمضى من أجله أول شهر شباط في واشنطن خطر لأحدهم فكرة تحويل أيرا، الرجل النحيل، ذي العقد البارزة، والشعر الداكن، الخشن كشَعر الهنود، والمشية الرخوة بقدميه الكبيرتين، إلى آبيه لينكولن: ضع له سبلتين، وقبعة تشبه مدخنة المدفأة، واجعله ينتعل حذاءً بأزرار، ويرتدي بزّة سوداء، عتيقة الطراز، بمقاس لا يناسبه، ويرتقي إلى المنصّة ليقرأ من مناظرات لينكولن-دوغلاس مُناظرة للينكولن من أشدّها إدانة للعبوديّة. كان له يد ضخمة يُضفي بها على كلمة «عبوديّة» نبرة عُمّاليّة، سياسيّة - وكان يستمتع أيّما استمتاع بذلك - حتى أنّه استمرّ في الشيء الوحيد الذي كان يحفظه غيباً منذ السنوات التسع ونصف التي أمضاها في المدرسة: أي خطاب غيتسبرغ. كان يهزّ المنزل من أساسه في ختامه، بتلك الجُملة الحازمة الفخمة الشبيهة بأي شيء صدَرَ عن السماء أو نطَقَ على الأرض منذ بدء الخليقة. كان يرفع ويلوي إحدى يديه الضخمتين الفائقتيّ المرونة، والمُدجّجتين بالعقد، ويُقحِم أطول أصابعه ذات الطول الخارق في مُقلة جمهور نقابته ثلاث مرات، ويُخفِض صوته بأداءٍ مسرحيّ ويقول بخشونة «الشعب».

أخبرني أيرا قال: «لقد اعتقد الجميع أنّني اندفعتُ مع مشاعري. وهذا ما أثار حماستي. لكنها لم تكن مشاعري. لقد كانت المرّة الأولى التي يجعلني فيها *العقل* أشعر بالاندفاع. وفهمتُ للمرة الأولى في حياتي عمّا أتكلّم. فهمتُ ما يعنيه هذا البلد».

بعد تلك الليلة، وفي أثناء عُطله الأسبوعيّة، وفي العُطل، كان يُسافر إلى مناطق شيكاغو من أجل CIO (مجلس المنظمات الصناعيّة)، ووصل حتى غالسبرغ وسبرينغفيلد، منتشراً في بلد لينكولن الأصلي، راسماً صورة لأبراهام لينكولن من أجل تقاليد الـ CIO والبرامج الثقافيّة، والمسيرات، والنزهات. واشترك في برنامج لإذاعة UE، حيث، حتى وإنْ لم يكن أحد يستطيع أنْ يراه واقفاً كان أطول من قامة لينكولن ببوصتين، قام بعمل مُدوٍ

مُستحضراً لينكولن للجماهير الواسعة بنطق كل كلمة بحيث يترك أثراً جليّاً وجيّداً. وبدأ الناس يأخذون أطفالهم معهم عندما يظهر أيرا رينغولد على المنصّة، وبعد ذلك، عندما أضحى أفراد العائلات يحضرون كلّهم لكي يُصافحوه، كان الأطفال يطلبون الجلوس على رُكبته ويُخبرونه بما يريدون منه أنْ يجلب لهم في عيد الميلاد. ولا غرابة في أنَّ النقابات التي كان يُقدِّم عروضه لأجلها كانت في العموم محليّة بحيث إنّها إما مُنفصلة عن الـ CIO أو مطرودة منه عندما بدأ رئيس المجلس فيليب مري في عام 1947 يتخلَّص من أعضاء نقابات القيادة الشيوعيّة والأعضاء الشيوعيّين. ولكن مع حلول عام 1948 كان أيرا قد أضحى نجماً إذاعياً لامعاً في نيويورك، ومتزوجاً حديثاً من واحدة من أشدّ ممثلات الإذاعة في البلد احتراماً، وكان في الوقت الراهن محمياً وآمناً من الحملة العنيفة التي تسعى إلى محوه إلى الأبد، ليس فقط من الحركة العمّاليّة، الموالية للسوفييت، ولحضور ستالين السياسيّ في أميركا.

كيف انتقل من مصنع التسجيلات إلى شبكة العروض الدراميّة الإذاعيّة؟ ولماذا ترك شيكاغو وأوداي أصلاً؟ لم أفهم حينئذٍ أنَّ للأمر صِلة بالحزب الشيوعيّ، لأنني، بشكل رئيس، لم أكنْ أعلم حينئذٍ أنّه كان عضواً في الحزب الشيوعيّ.

ما فهمته هو أنَّ الكاتب الإذاعيّ آرثر سوكولو، في أثناء زيارته لشيكاغو، تصادفَ أنْ شاهد أداء أيرا لشخصيّة لينكولن ذات ليلة في قاعة النقابة في الويست سايد. وكان أيرا قد قابل سوكولو في الجيش. كان قد جاء إلى إيران، كمُجنّد في الجيش، مع عرض «*هذا هو الجيش*». وكان عدد كبير من الجناح اليساري يتجوّلون في العرض، وفي وقتٍ متأخِّر من ذات ليلة رافق أيرا عدداً منهم لتبادل أطراف الحديث ناقشوا في الجلسة، كما يتذكّر أيرا، «كل الشؤون السياسيّة في العالم». وكان بين المجموعة سوكولو، الذي هرع أيرا للتعبير عن إعجابه به بوصفه مناضلاً لصالح القضيّة. ولأنَّ سوكولو كان قد بدأ حياته، في ديترويت، طفلاً

يهودياً يتقاتل مع البولنديين، كان أيضاً معروفاً جداً، وشعر أيرا في الحال بقرابة بينهما لم يشعر بها تماماً اتجاه أوداي الأيرلندي عديم الجذور.

عندما تصادفَ أنْ ظهر سوكولو، الذي كان قد أصبح مدنياً يكتب برنامج «*الأحرار والشجعان*»، في شيكاغو، كان أيرا على خشبة المسرح يقدِّم عرضاً مدتّه ساعة كاملة يؤدي شخصيّة لينكولن، ليس فقط يتلو أو يقرأ من خطابات ووثائق بل ويستجيب لأسئلة الجمهور حول الجدل السياسيّ الجاري وهو بشخصيّة أبراهام لينكولن، خُنّة صوت لينكولن القرويّة عالية النبرة وإيماءاته العملاقة الخرقاء وأسلوبه المُضحِك البسيط. ودعم لينكولن لضبط الأسعار، وإدانة فصل سميث. ودفاع لينكولن عن حقوق العمال. وذمّ لينكولن للبيلباو ممثل ولاية مسيسبي. وأحبَّ أعضاء النقابة الأسلوب الممتع الذي يُشبه المُتكلِّم من بطنه لعضوهم ضخم الجثّة الذي علَّمَ نفسه بنفسه، وكلامه المختلط على طريقة آل رينغولد، وأوداي، والماركسيين، ولينكولن (كانوا يهتفون لأيرا ذي اللحية والشَعر الداكن، «هات ما عندك! اسحقهم، يا آب!»)، وكذلك فعل سوكولو، الذي لفت انتباه الجنود اليهود السابقين الآخرين إلى أيرا، وانتباه مُنتج المسلسلات من نيويورك ذي الميول المتعاطفة مع اليسار. كان ذلك بمثابة مقدّمة للمُنتِج قادت إلى تجربة الأداء التي أعطتْ أيرا دور البطل المُشاكس في مجمّع سكني في بروكلين في أحد المسلسلات الإذاعيّة الصباحيّة.

كان يتقاضى خمسة وخمسين دولاراً في الأسبوع. ليس مبلغاً كبيراً، حتى في عام 1948، لكنه عمل ثابت ويدرّ مبلغاً أكبر مما كان يحصل عليه من مصنع التسجيلات. وبعد ذلك مباشرة تقريباً، باشر بالقيام بأعمالٍ أخرى أيضاً، في كل مكان، يقفز إلى سيارات أجرة تنتظر ويهرع من استوديو تسجيل إلى آخر، ومن مسلسل نهاري إلى آخر، حتى وصلت إلى ستة أعمال مختلفة في اليوم، ودائماً يؤدّي أدواراً لها جذور عمّاليّة، ورجالاً خشنيّ الكلام انفصلوا عن سياستهم، كم شرح الأمر

لي، لكي يُنفّسوا عن غضبهم: «لقد تأمْرَكَ[24] البروليتاريون في الإذاعة ببتر خِصاهم وعقولهم». تلك الأعمال كلها هي التي دفعته قُدُماً، في خلال أشهر، للانضمام إلى برنامج سوكولو المُهِمّ الأسبوعيّ الذي يمتد ساعة، «*الأحرار والشجعان*»، في الدور الرئيس.

في الغرب الأوسط، واجه أيرا مصاعب جسديّة، وهذه أيضاً شكّلتْ دافعاً ليُجرّب حظّه في الشرق في مسار مختلف من العمل. أُصيبَ بألم في العضلات، بتقرُّح سيء إلى درجة أنّه كان يعود إلى المنزل عدّة مرّات في الأسبوع – عندما لا يعود الألم يُحتَمَل لينطلق ويؤدّي دور لينكولن أو أنْ يقوم بعمله التبشيريّ – لكي يغوص مدّة ساعة في حوض من المياه الساخنة في آخر الرواق الذي تقع فيه غرفته، ومن ثم يأوي إلى السرير مع كتاب، وقاموس، ومجموعة من الأوراق، وأي شيء يجده صالحاً للأكل. لقد بدا أنَّ الضرب الشديد بالسوط الذي كان قد تلقّاه في أثناء الجيش هو السبب في مشكلته هذه. بدءاً بأسوأ ما تلقّى من جلد بالسوط – كانت عصابة من المرفأ قد وثبت عليه اعتقاداً منها أنّه «عاشق للزنوج» – وانتهى به الأمر إلى المكوث في المستشفى ثلاثة أيام.

كانوا قد بدؤوا يُلاحقونه عندما أخذَ يُرافق اثنين من الجنود الزنوج من الوحدة المعزولة عنصرياً والمتمركزة على جبهة النهر على بُعد ثلاثة أميال. وحينئذٍ كان أوداي يوجّه مجموعة قابلها في المكتبة العامة في الكوخ العسكري وكانوا يتناقشون تحت إشرافه في السياسة والكتب. ولم يكن أحدٌ يولِ أيّ انتباه في القاعدة إلى المكتبة او إلى أيٍ من الجنود التسعة أو العشرة الذين لجؤوا إلى هناك بعد تناول الطعام في ليلتين في الأسبوع لكي يتحدثوا حول كتاب «*النظر إلى الخلف*» لبيلامي وكتاب «*الجمهوريّة*» لأفلاطون وكتاب «*الأمير*» لماكيافيللي، إلى أنْ انضم جنديّان من الزنوج من الوحدة المعزولة إلى المجموعة.

في أول الأمر حاول أيرا أنْ يتجادل مع الرجال في كتيبته الذين

24– تأمْرَكَ: أي أصبحوا أمريكيين – المترجم.

نعتوه بـعاشق الزنوج. «لماذا تنتقصون من الأشخاص المُلوّنين؟ إنَّ كل ما أسمعه منكم عن الزنوج هو كلامٌ مُنتقِص. وأنتم لستم فقط ضد الزنوج بل ضد العمال، وضد الليبراليّين، وضد أصحاب العقول. أنتم ضد كل شيء لعين في مصلحتكم. كيف تتوقعون أنْ يهبَ الناس ثلاث سنوات أو أربع من حياتهم للجيش، ويَرَوا أصدقاءهم يموتون، ويُجرَحون، وتتشتّت حياتهم، ومع ذلك لا يعلمون لماذا يحدث ذلك وما معناه؟ إنَّ كل ما تعرفونه هو أنَّ هتلر بدأ شيئاً. كل ما تعرفونه هو أنَّ سحب القرعة نال منكم. أتعرفون ما هو رأيي؟ أعتقد لو أنّكم في مكان الألمان لفعلتم مثلهم. ربما كان الأمر سيستغرقُ وقتاً أطول قليلاً بسبب العنصر الديمقراطيّ في مجتمعنا، ولكننا في نهاية المطاف كنا سنُصبح فاشيّين بالكامل، وطُغاة وكل شيء، بسبب الذين لا ينطقون إلا قذارة كما تفعلون أنتم. إنَّ التمييز العنصريّ الذي يُمارسه كبار الضبّاط الذين يُديرون هذا المرفأ سَيِّئٌ بالقدر الكافي، أما *أنتم*، المنحدرون من عائلات فقيرة، الذين لا يملكون قرشين يتدبّرون بهما أنفسهم، الذين لستم أكثر من علف لنظام التجميع[25]، وللمعمل المُعرِّق[26]، ولمناجم الفحم، الذين *يتبوّل* عليهم النظام - بالأجور المنخفضة، والأسعار المرتفعة، والأرباح الفلكيّة - وينتهي بكم الأمر إلى أنْ تُصبحوا ثُلّة من أولاد الحرام المُتعصّبين، الصخّابين ومتصيّدي الحمر لا يعرفون...». ثم يُخبرهم بكل ما لا يعرفون.

نقاشات حارّة لم تغيِّر أيَّ شيء، بل، وبسبب مزاجه، وباعتراف أيرا، لم تزِد الأمور إلا سوءاً. «كنتُ أفقد الكثير مما أردتُ أنْ أُثير إعجابهم به لأنني في البداية كنتُ مُفرِطاً في انفعالي. ولاحقاً تعلّمتُ كيف أهدأ في تعاملي مع ذلك النوع من الناس، وأعتقد أنني أثّرتُ في بعضهم بإيراد

25- نظام التجميع: أي تجميع الماكينات والتجهيزات والعمال بحيث يُنجز كل عامل عمليّة خاصّة على سلعة ناقصة، إلى أنْ تكتمل السلعة المطلوبة - المترجم.

26- المعمل المُعرِّق: هو مؤسّسة صناعيّة صغيرة تستخدم العمّال بأجور منخفضة وأحوال غير صحيّة - المترجم.

بعض الحقائق. ولكنَّ التحدُّث مع مثل أولئك الرجال أمرٌ صعبٌ جداً بسبب ما يحملون من أفكار راسخة عميقاً. أنْ أشرح لهم الأسباب النفسيّة للفصل العنصريّ، والأسباب الاقتصاديّة للفصل العنصريّ، والأسباب النفسيّة لاستخدامهم الكلمة التي يُحبّونها «زنجي» - إنَّ مثل هذه الأشياء تتخطّى مقدرتهم على فهمها. إنّهم يقولون زنجيّ لأنَّ الزنجي هو **فعلاً** زنجيّ - كنتُ أشرح وأُعيد الشرح لهم، وهذا ما أجابوني به. واستطعتُ إقناعهم بتعليم الأطفال وبمسؤوليتنا الشخصيّة، ومع ذلك، وعلى الرغم من كل ما قدّمتُ من شروح، أوسعوني ضرباً حتى ظننتُ أنني سأموت».

لقد اتَّضحَ أنَّ سُمعته كعاشق للزنوج صحيحة بصورة خطرة لأنَّه عندما كتب أيرا رسالة إلى «*العلم الأمريكي*» يشتكي فيها من وضع وحدات الفصل العنصريّ في الجيش ويطلبُ دمجها مع البيض. «حينئذٍ استخدمتُ قاموس المرادفات. كنتُ ألتهم ذينك الكتابَين وأحاول أنْ أستفيد منهما عملياً بالكتابة. لقد كانت كتابة رسالة بالنسبة إليّ أشبه بإقامة سقالة. ربما كنتُ أتلقّى النقد من شخص يُحسِنُ الإنكليزيّة. فمعرفتي بقواعد اللغة كانت سيئة. لكنني كتبتُها مع ذلك لأنَّ هذا ما شعرتُ أنَّ عليَّ أنْ أفعل. وغضبتُ غضباً شديداً، أتفهم؟ هل تفهم؟ لقد أردتُ أنْ أخبرهم بأنَّ ذلك ***خطأ***».

بعد نشر الرسالة، وذات يوم بينما كان يعمل فوق في سلّة التحميل، فوق عنبر السفينة، إذا بمُشغّلي السلّة يُهددون بإسقاطي على العنبر ما لم أكفّ عن القلق بشأنْ الزنوج. وأخذوا يُسقطونها باستمرار من علوّ عشرة، ثم خمسة عشر، ثم عشرين قدماً، ويعِدون بإفلاتها في المرة التالية لكي تنكسر كل عَظمة في جسمي، ولكن، بسبب خوفه، رفضَ أنْ يبوح بما أرادوا أنْ يسمعوا منه، وأخيراً تركوه يخرج. ثم في صباح اليوم التالي نعته أحدهم في قاعة الطعم بابن الحرام اليهوديّ. بابن الحرام اليهودي عاشق الزنوج. قال لي أيرا «كان راعي بقر ثرثاراً

من الجنوب. دائماً يُلقي تعليقات في قاعة الطعام حول اليهود، وعن الزنوج. وذات صباح جلستُ هناك بعد أنْ انتهى الجميع من تناول الطعام – لم يكن قد تبقّى الكثير من الرجال في المكان – فبدأ يُثرثر عن الزنوج واليهود. وكنتُ ما أزال غاضباً من حادثة اليوم السابق على السفينة، ولذلك لم أتحمّل، فخلعت نظارتي وسلّمتها للشخص الذي كنتُ معه، الرجل الوحيد الذي قبِلَ أنْ يجلس معي. في ذلك الوقت كنتُ أقطع قاعة الطعام مشياً، بين مائتي رجل جالسين هناك، وبسبب سياستي كنتُ منبوذاً تماماً. ما علينا، توجّهتُ نحو ابن الحرام ذاك. كان جندياً وكنتُ رقيباً. ورحتُ أرفسُه من أول قاعة الطعام وحتى آخرها حتى أهلكته. ثم اقترب الرقيب الأول مني وهو يقول: أتريد أنْ توجّه اتّهامات ضد هذا الرجل؟ جنديٌ يُهاجم ضابط صف؟ «فقلتُ لنفسي في الحال، ربما سأكون ملعوناً إذا فعلت وملعوناً إذا لم أفعل. أليس كذلك؟ ولكن منذ تلك اللحظة فصاعداً، لم يجرؤ أي شخص على رمي أيّ تعليق مُعادٍ للساميّة وأنا في الجوار. وذلك لا يعني أنّهم تركوا الزنوج وشأنهم. بل دائماً الزنوج هذا والزنوج ذاك، مائة مرّة في اليوم. وحاول راعي البقر ذاك معي من جديد في تلك الليلة بالذات. كنا نغسل أطباقنا. أتعرف تلك السكاكين الصغيرة القذرة التي يستخدمونها هناك؟ اقتربَ مني شاهراً واحدة منها. ومن جديد أبعدته عني، ولم أُعطِ الأمر الكثير من الاهتمام».

بعد ذلك بساعات نُصِبَ كمين لأيرا في الظلام وانتهى به الأمر في المستشفى. وأفضل تشخيص للآلام التي بدأتْ تتطوَّر بينما كان يعمل في مصنع التسجيلات، فإنَّ سببها كان الأذى الذي ناله من ذلك الضرب الوحشيّ. أصبح دائماً يتسبَّب لنفسه بشدّ عضلة أو ليّ مفصل – كاحله، أو رسغه، أو رُكبته، أو عنقه – من دون أنْ يقوم بأي مجهود، بمجرد الترجُّل من الحافلة عائداً إلى المنزل أو بمدّ يده عبر الطاولة ليتناول وعاء السكّر على مائدة العشاء حيث خرج ليأكل.

لهذا السبب، عندما يُقال شيءٌ عن جلسة أداء في الإذاعة، مهما بدا مُستبعداً أنْ ينتج عنْها أيّ شيء، كان أيرا يقفز لينتهز تلك الفرصة.

ربما كان هناك من المكائد أكثر مما أعرف خلف انتقال أيرا إلى نيويورك وانتصاره الإذاعي بين ليلة وضُحاها، لكنني لم أكنْ أعتقد ذلك في حينه. ولم أكن مُضطراً. ها هنا رجل نقل تعليمي وتجاوز به نورمان كورْوين، وأخبرني، شيئاً واحداً، عن الجنود الذين لم يتحدّث كوروين عنهم في عمله «*بنبرة انتصار*»، الجنود الذين ذهبوا إلى ما وراء البحار وهم يفكّرون في الزنوج وفي اليهود ويعودون إلى وطنهم وهم يفكّرون في الزنوج وفي اليهود. ها هو رجل مُتّقد الحماس، صلب، تركتْ عليه التجربة ندوباً، جلبَ معه دليلاً مُباشراً على كل الأعمال الوحشيّة الأمريكية التي استثناها كورْوين.

مكتبة
t.me/t_pdf

- 2 -

في تلك الليلة من عام 1948 في أثناء تظاهرة هنري والاس في نيوارك، قابلتُ أيضاً إيف فريم. كانت مع أيرا ومع ابنتها، سيلفيد، عازفة آلة القيثارة. لم ألاحظ أيَّ شيء مما كانت سيلفيد تشعر به اتّجاه أمّها، ولم أكن أعلم شيئاً عن نزاعهما إلى أنْ بدأ مَري يُخبرني بكل ما فاتني وأنا صغير، كل شيء عن زواج أيرا الذي لم أفهمه أو لم أستطع أنْ أفهمه أو أخفاه أيرا عني خلال ذينك العامَين حين لم أكنْ أقابله إلا مرة كل شهرين، إما عندما يأتي لزيارة مَري أو عندما أقوم بزيارته في الحجرة الصغيرة - التي كان أيرا يُسمّيها «الكوخ» - في قرية زنك تاون، في شمال نيو جرزي.

انتقل أيرا إلى زينك تاون لكي يُقيم ليس بالقرب من الطبيعة بل وسط المُجازفة، لكي يعيش حياة بدائيّة، سابحاً في بركة الطين حتى شهر تشرين ثاني، خائضاً في الغابة بقبقاب الثلج في أبرد أوقات الشتاء، أو، في الأيام المطيرة، متسكعاً في سيارة أجرة في جيرزي - سيارة شيفروليه كوبيه طراز عام 1939 - متحدثاً مع مُزارعي إنتاج الألبان المحلّيين وعمّال مناجِم الزنك العجائز، الذين حاول أنْ يدفعهم إلى فهم كيف أنَّ النظام يخدعهم. كان لديه موقد يطبخ فيه السجق والفاصولياء على الفحم، ويُعدّ القهوة أيضاً، وذلك لكي يُذكِّر نفسه، بعد أنْ أصبحَ أيرون رنْ ومُحمَّلاً قليلاً بالنقود وبالشُهرة، بأنّه لا يزال ليس أكثر من «عامل مجتهد»، من رجلٍ بسيط ذي ميول وآمال بسيطة والذي كان خلال حقبة

الثلاثينيات قد ركب القطار وحالفه حظ عظيم. وكان يقول عن امتلاكه كوخاً في زينك تاون، «إنه يبقيني فقيراً من الناحية العمليّة. فقط تحسُّباً».

كان الكوخ بمثابة الترياق للشارع الحادي عشر الغربي وملجأً آمناً من الشارع الحادي عشر الغربي، والمكان الذي يذهب إليه المرء لكي يفرز الأبخرة الكريهة. وكان أيضاً صِلة وصل بأيام التسكُّع المبكِّرة، حين عاش بين أشخاص غرباء للمرة الأولى وكان كل يوم هناك قاسياً ومجهولاً وأيضاً، كما بدا دائماً لأيرا، معركة. فبعد أنْ ترك المنزل وهو في الخامسة عشرة وحفر الخنادق طوال عام في نيوارك، مارس أيرا أعمالاً في أقصى الزاوية الشمالية الغربيّة من جيرزي، فعمل كنّاساً في مصانع مختلفة، وأحياناً عمل مُساعداً في مزرعة، وحارساً، وأدّى أعمالاً متنوّعة، ومن ثم، طوال عامين ونصف، وإلى أنْ قارب سن التاسعة عشرة وتوجّه غرباً، عبَّ الهواء على علوّ ألف ومائة قدم في مناجم ساسكس للزنك. وبعد الانفجار، والدخان لا يزال يتصاعد في المكان ويفوح برائحة غبار الديناميت والغاز الكريهة، عملَ أيرا بالمعول والرفش جنباً إلى جنب مع المكسيكيين كأي واحد من أسفل المراتب، أو كما يُسمّونهم جامعو القذارة.

خلال تلك السنوات، كانت مناجم ساسكس غير مُنظّمة ومُربِحة لشركة نيو جيرزي للزنك، ومتعِبة بالنسبة إلى عمّال زنك نيو جيرزي، كما هو حال مناجم الزنك في كل مكان في العالم. كان الفلزّ يُصهَر ليُصبح معدن الزنك في جادّة باسيك في نيوارك وأيضاً يُحوَّل إلى أوكسيد الزنك من أجل صناعة الدهان، وعلى الرغم من أنَّ زنك جيرزي، في الوقت الذي اشترى فيه أيرا كوخه في أواخر الأربعينيات، كان يفقد أهميّته في التنافُس الأجنبيّ وكانت المناجم قد بدأتْ تختفي، بقيَ ذلك الانغماس في الحياة الوحشيّة – ثماني ساعات تحت الأرض في تعبئة الصخور والفلز المكسور في عربات على سكة الحديد، ثماني ساعات من تحمُّل الصداع الرهيب وابتلاع الغبار الأحمر والبُنيّ والتبرُّز في دلاء النشارة...

وكل ذلك مقابل اثنين وأربعين سنتاً في الساعة - وهذا ما أغواه بالعودة إلى تلال ساسكس النائية. كان كوخ تاون زنك تعبير ممثّل الإذاعة العاطفي الصريح عن التضامُن مع النكرة الخشن، التافه، الذي كان عليه ذات يوم - وكما وصفَ نفسه، «أداة إنسانيّة بلا عقل إنْ كان لمثله وجود». ولو أنَّه شخص آخر، حقّقَ النجاح، لرغبَ في أنْ يتخلَّص من تلك الذكريات إلى الأبد، ولكن لو لم يكن تاريخ تفاهته ملموساً، لشعر أيرا بأنّه غير حقيقيّ ومنبوذ تماماً.

بل إنني لم أكنْ أعلم أنّه عندما حضر إلى نيوارك - عندما ركبنا دراجتينا، بعد أنْ خرجتُ من آخر درس لي، ورحنا نتجول في أرجاء المتنزّه، وندور حول البحيرة إلى أنْ نصل في حيّنا إلى مطعم هو صورة زائفة عن مطعم نيثان في كوني أيلند، وهو مكان يُدعى مطعم ميلمان، يبيع السجق مع «الإضافات» - لم يكن يقوم بزيارة جادّة ليهاي فقط لكي يزور أخاه. فبعد انتهاء دوام المدرسة عندما كان أيرا يُخبره عن السنوات التي كان فيها جندياً وعمّا تعلَّمه في إيران، وعن أوداي وما علَّمه إياه أوداي، وعن حياته السابقة الحديثة كعامل في مصنع وكنقابيّ، وعن تجاربه وهو صغير يجرف القذارة في المناجم، كان يسعى إلى ملجأ بعيداً عن المنزل حيث لقيَ، منذ أنْ وصل، النبذ والكراهية من سيلفيد وساءت علاقته أكثر فأكثر بإيف فريم بسبب احتقارها غير المتوقَّع لليهود.

ليس اليهود كلهم، كما شرح مَري - ليس اليهود ذوو المكانة الراسخة في الطبقة الراقية التي كانت قد قابلتهم في هوليوود وفي برودواي وفي الوسط الإذاعيّ، وليس في المُجمَل المُخرجون والممثلون والكُتّاب والموسيقيون الذين عمِلَتْ معهم، والعديد منهم كانوا يُشاهَدون بانتظام في الصالون الذي كانت فتحتْه في منزلها الكائن في الشارع الحادي عشر غربي. كان احتقارها موجَّهاً ضد يهود تشكيلة الحديقة، والطبعة القياسية الذين كانت تراهم وهي تتسوّق في الأسواق التنويعيّة، من أجل الناس العاديين الذين يتكلّمون بلكنة نيويورك ويعملون خلف المكاتب

أو الذين يُديرون دكاكينهم الصغيرة في مانهاتن، ومن أجل اليهود الذين يقودون سيارات أجرة، ومن أجل العائلات اليهوديّة الذين تتحدث معهم وتتمشّى معهم في سنترال بارك. وما كان يُربكها في الشوارع هنَّ السيدات اليهوديات اللواتي أحببنها، وتعرّفن عليها، واقتربن منها وطلبن منها توقيعها. تلك النسوة كنّ جمهورها القديم في برودواي، وكانت تشمئز منهن. والعجائز اليهوديات على وجه الخصوص لم تكن تمرّ بهن من دون أنْ تُصدر أنين الاشمئزاز منهن. تقول وهي تهز كتفيها «انظر إلى تلك الوجوه! انظر إلى تلك الوجوه الشنيعة!».

قال مَري «إنَّ مقتها لليهوديّ المُتخفّي بصورة غير كافية هو مرض. كان في استطاعتها أنْ تسير في موازاة الحياة وقتاً طويلاً. ليس في الحياة – بل بموازاة الحياة. وكان في استطاعتها أنْ تكون مُقنِعة في أداء ذلك الدور فائق التحضُّر، اللائق بسيدة محترمة الذي اختارته. بالصوت الناعم. والتعبير الدقيق. في حقبة العشرينيات، كانت اللغة الإنكليزيّة الخاصة بغير اليهود أسلوباً سعت الكثير من الفتيات الأمريكيات إلى انتحاله عندما أردنَ أنْ يُصبحن ممثلات. وحتّى مع إيف فريم، التي كانت هي نفسها حينئذٍ تبدأ مشوارها في هوليوود، تجذّر الأسلوب وأخذ شكله. وغير اليهود الإنكليز جمدوا كطبقات من الشَمع – ليس عليها في الوسط إلا الفتيل يشتعل، وهذا الفتيل الملتهب لم يكن غير يهوديّ كثيراً. كانت تعرف الحركات كلّها، الابتسامة الرقيقة، التحفُّظ الاستعراضيّ، وكل الإيماءات المُرهفة. لكنّها كانت تحيد عن مسارها الموازي ذاك، الشيء الذي يُشبه الحياة شبهاً تاماً، وتُقدِّمُ عَرضاً يُدير رأسك».

قلت «وأنا لم أشاهد أياً من هذا. كانت دائماً تعاملني بصورة ما بمُراعاة، بعطف، تحاول أنْ تجعلني أشعر بارتياح – وهذا لم يكن سهلاً. لقد كنتُ ولداً متحمّساً وكانت هي تحمل الكثير من صِفات نجمة السينما، حتى في أيام انتشار المذياع تلك».

كنتُ أفكّر من جديد، وأنا أتكلَّم، في تلك الليلة في الجامع. قالت لي – أنا الذي كنتُ أجد من المستحيل أنْ أعرف ماذا أقول لها – إنها لم تعرف ماذا تقول لبول روبسون، وإنّها في حضوره كان لسانها يُعقَد. همست لي قائلة، وكأنَّ *كلينا* كان في الخامسة عشرة من العمر، «هل تشعر أنتَ بالرهبة منه كما أشعر أنا؟ إنّه أجمل رجل رأته عيناي. وهذا أمرٌ مُخجل – لا أستطيع أنْ أكفّ عن النظر إليّه».

كنتُ أعلم كيف تشعر لأنني لم أقوَ على الكفّ عن النظر إليها هي، وكأنني إذا أطلتُ النظر مدَّة كافية، فقط يظهر *المعنى*. كنتُ أنظر ليس فقط بسبب رهافة إيماءاتها ووقار مظهرها والأناقة الغامضة التي يتّسِم بها جمالها هي – جمال يتراوح ما بين الغريب المُبهَم والاحتشام الناعم ويُغيِّر أبعاده باستمرار، كان جمالاً من النوع المُذهلْ في ذروته – ولكن بسبب شيءٍ يرتعش بوضوح فيها على الرغم من كل كبح، بسبب سِمة التطايُر التي ربطتُها في حينه بالبهجة الصِرف التي نبعت من كونها إيف فريم.

سألتُه «أتتذكّر اليوم الذي قابلتُ فيه أيرا؟ كنتما تعملان معاً، تُنزلان الستائر في جادّة ليهاي. ماذا كان يفعل في منزلك؟ كان ذلك في شهر تشرين أول عام 1948، قُبيل الانتخابات ببضعة أسابيع».

«أوه، كان يوماً مشؤوماً. إنني أتذكّر ذلك اليوم بكل وضوح. كان أيرا في حالة سيّئة، في صباح ذلك اليوم جاء إلى نيوارك ليمكث مع دوريس ومعي. نام على الأريكة ليلتين. وكانت المرة الأولى التي يحدث فيها ذلك. لقد كان ذلك الزواج، يا نيثان، غير متكافئ منذ البداية. كان قد مرَّ بتجربة مماثلة من قبل، ما عدا أنها كانت مع الطرف المقابل من الطيف الاجتماعي. كان جليّاً الفرق الهائل في المزاج وفي الاهتمامات. كان جليّاً للجميع».

«ألم يتبيَّنه أيرا؟».

«يتبيَّنه؟ أيرا؟ حسنٌ، لكي أكون كريماً بهذا الشأن أقول، أولاً، كان

يُحبّها. تقابلا وأحبَّ أحدهما الآخر، وأول شيء فعله أنّه خرج وجلبَ لها قبعة رائعة خاصة باحتفال الفصح ولم تستطع أنْ تضعها لأنَّ ملابسها كانت كلها من تصميم ديور. لكنّه لم يكن يعلم مَنْ يكون ديور، واشترى لها تلك القبعة الكبيرة السخيفة باهظة الثمن وأرسلها إلى منزلها بعد موعدهما الأول. كان مبهوراً بحبّه لها وبنجوميّتها. كانت مُبهِرة ***حقاً*** – وللإبهار منطقٌ خاصٌ به».

ماذا أعجبها فيه، ذلك الريفي الأخرق الضخم الذي حلَّ بنيويورك ووجد عملاً في الدراما الإذاعيّة؟ حسن، إنه ليس لغزاً كبيراً. وبعد فترة تدرّب قصيرة، لم يعُد ريفياً بسيطاً أخرق، بل أصبح نجماً في برنامج «***الأحرار والشجعان***»، هذا ما حدث. كان أيرا يتلبَّس أولئك الأبطال الذين أدّى أدوارهم. أنا لم أُصدِّقه، لكنَّ المُستمع العادي *صدّقه* لأنّه كان يُمثّله. كانت تحيطُ به هالة من النقاء البطوليّ. لقد آمن بنفسه، وهكذا حالما ولج المكان، حقّق النجاح. وظهر في بعض الحفلات، وهناك وجدها. وجد الممثِّلة الوحيدة في منتصف أربعينيات عمرها، المُطلَّقة ثلاث مرات، وجاء ذلك الوجه الجديد، ذلك الشاب الجديد، ذلك *الضخم*، وهي المُشتاقة، وهي المشهورة، واستسلمتْ له. أليس هذا ما يحدث؟ إنَّ لكل امرأة أساليبها في الغواية، وكان الاستسلام هو أسلوب إيف. ظاهرياً، كان عملاقاً نقيّاً، أشبه برجال العصابات، كبير اليدين، كان يعمل في مصنع، وكان حمّالاً في السفن، وأصبح الآن ممثلاً. وأولئك الرجال جذّابون جداً. إنَّ من الصعب تصديق أنَّ شيئاً فجّاً يمكن أنْ يكون أيضاً رقيقاً. والفجاجة الرقيقة، وطيبة رجلٍ ضخم وخشن – وكل ما شابه، كانت لا تُقاوَم بالنسبة إليها. كيف يمكن لعملاق أنْ يكون أيَّ شيء *آخر* بالنسبة إليها؟ بالنسبة إليها كان هناك شيء غريب في كميّة الحياة الخشنة التي عاشها. شعرتْ بأنّه عاشَ حقاً وشعر هو، بعد أنْ استمع إلى قصّتها، بأنها **هي** عاشتْ حقاً.

«عندما تقابلا، كانت سيلفيد في باريس لقضاء فصل الصيف مع

والدها، وأيرا لم ير ذلك الشيء مباشرة. وهكذا حصل أيرا بدلاً عنه على دوافعها الأموميّة، القوية، وإنْ كانت *sui generis* (فريدة)، وعاشا تلك القصة الرومانسيّة طوال فصل الصيف. فالرجل حُرِم من أمّه منذ سن السابعة، وكان في اشتياقٍ إلى العناية الشديدة، المُرهفة، التي أغدقتها عليه، وعاشا وحدهما في المنزل، بعيداً عن الابنة، ومنذ مجيئه إلى نيويورك وهو يعيش، كعضو صالح في البروليتاريا، في مكان قذر في الحي الشرقي السفليّ. أصبح يتسكّع في أماكن رخيصة ويتناول الطعام في مطاعم رخيصة، وفجأة انعزل هذان الاثنان في الشارع الحادي عشر الغربي، وأمضيا فصل الصيف في مانهاتن وكان وقتاً ممتعاً، كأنهما في الجنّة. وبقيتْ صورة سيلفيد تسكن أرجاء المنزل. سيلفيد وهي طفلة صغيرة بمئزرها، ووجد في إخلاص إيف الشديد شيئاً رائعاً. إنها تحكي حكاية تجاربها الرهيبة مع الزواج والرجال، وتخبره عن هوليوود وعن المُخرجين المُستبدّين وعن المُنتجين المادّيين، وعن البهرجة الفظيعة، والشنيعة، إنها أجواء مسرحيّة ***عُطيل*** بشكل عكسيّ: «كان شيئاً غريباً، شيئاً عابراً غريباً؛ كان شيئاً مؤسفاً، مؤسفاً عجيباً» – لقد أحبّها بسبب الأخطار التي مرّتْ بها هي. إنَّ أيرا مرتبك، ومفتون، ***ومطلوب***. إنه ضخم ويعتمد على جسده، وهكذا اندفع إلى الأمام. وثمة امرأة عطوف. امرأة جميلة عطوف ولديها قصة تحكيها. امرأة روحانيّة ذات مفاتن. فمَنْ أفضل منها يُنشِّط آليّته الواقية؟».

«بل إنّه أخذها إلى نيوارك لكي تقابلنا. كان لدينا مشروب في منزلنا، وذهبنا إلى جادّة إليزابيث إلى الحانة، وكان سلوكها حسناً. لا شيء يعصى على الشرح. كان سهلاً بصورة مُدهِشة جداً أنْ نعرف كيف نعاملها. وفي تلك الأمسية أحضر إيف أولاً إلى منزلنا وخرجنا لتناول طعام العشاء، ولم أجد أيّ خلل في ذلك. ولكن من الإنصاف القول إنَّ أيرا لم يكن الوحيد الذي لم يفهم هذا. إنّه لا يعرف عنها أيّ شيء لأنَّ، وبصدق، ***لا أحد*** كان يمكن أنْ يعرف في الحال. لا أحد كان يستطيعُ

ذلك. في المُجتمع، كانت إيف تختفي تحت قِناع كل ذلك السلوك المتحضِّر. وهكذا، بينما الآخرون يتقدّمون ببطء، وبسبب طبيعته، فإنَّ أيرا، كما قلت، اندفع مباشرة».

إنَّ ما ترك انطباعاً لديّ في الحال لم يكن نقائصها بل نقائصه هو. لقد فاجأتني بأنها تفوقه ذكاءً بمراحل، وأشدّ كياسة، وحتماً أكثر ثقافة بكثير. قلتُ في نفسي، ها هنا نجمة سينمائيّة صاحبة عقل. واتّضح أنّها تواظب على القراءة منذ أنْ كانت طفلة. وأعتقد أنّه لا توجد رواية على رفوف مكتبتي لا تستطيع أنْ تناقشها عن معرفة. بل إنها في تلك الليلة بدا كأنَّ أرقى متعة لها في الحياة هي قراءة الكتب. إنها تتذكّر أشدّ الحبكات تعقيداً لروايات القرن التاسع عشر - كنتُ أُعلِّم الكتب ومع ذلك لا يمكن أنْ أتذكّرها.

«لا شك في أنّها كانت تعرِض أفضل جانب في شخصها. ولا شك في أنها، كما يفعل كل شخص في موعده الأول، كما نفعل جميعاً، كانت تحمي بحذر جانبها الأسوأ. أما الجانب الحسن فظاهر، إنها تتحلّى به. لقد بدا حقيقيّاً وبلا تفاخر، وتتّصفُ به شخصيّة ذائعة الصيت، جعلته شيئاً فاتناً جداً. ولا شك في أنني أدركتُ - ولم يكن في وسعي إلا أنْ أدرك - أنَّ ذلك لم يكن بأيّة حال بالضرورة اتّحاداً بين روحَين. والغالب هو أنّه لم يجمع بينهما أيّ انجذاب. ولكن أنا نفسي ذُهِلتُ في تلك الليلة الأولى بما اعتبرتُه معدنها الهادئ قبل كل صفاتها الظاهرة».

«لا تنسَ تأثير الشهرة. لقد نشأت دوريس وأنا على مشاهدة أفلامها الصامتة. كانت دائماً تمثّل مع رجالٍ أكبر سناً، رجال طوال القامة، وغالباً بشعر أشيب، وكانت هي فتاةً صغيرة، أشبه بالابنة - أو *الحفيدة* - وكان الرجال دائماً يُريدون أنْ يُقبّلوها وكانت دائماً ترفض. وفي تلك الأيام لم يكن يتطلّب الأمر أكثر من هذا لكي يرفع الحرارة في صالة السينما. وفي أحد أفلامها، ربما الأول لها، كان عنوانه «*بائعة السجائر*»، تقوم إيف بدور بائعة السجائر، تعمل في نادٍ ليليّ، وفي نهاية الفيلم، كما

أتذكّر، هناك حفلة خيريّة صَحِبَها إليها صاحب النادي الليليّ. كانت تُقام في قصر في الجادّة الخامسة تمتلكها أرملة عجوز نبيلة، وكانت بائعة السجائر ترتدي زيّ ممرّضة وأخذ الرجال يُزايدون بالمال مقابل قُبلة منها – وكان المال الذي سيُجمَع سوف يذهب إلى الصليب الأحمر. وكلما عرض أحدهم مبلغاً كان يُسارع آخر إلى المزايدة عليه، وتضع إيف يدها على فمها وتضحك ضحكاً مكبوتاً من خلف يدها كفتاة الغيشا. وأخذت المبالغ تتراكَم وتتراكم، ونساء المُجتمع الضخمات يرمينها بنظرة مشدوهة. ولكن عندما يعرض صاحب مصرف بارز ذو شارب أسود – اسمه كارلتون بيننغتون – مبلغاً فلكيّاً مقداره ألف دولار ويتقدَّم ليحصل على القُبلة التي ننتظرها كلنا، تندفع السيدات بجنون إلى الأمام ليُراقبن. وفي الختام، بدل أنْ نشاهد القبلة في قلب الشاشة، نرى مؤخرات سيدات المجتمع المضغوطة بمشدّات الخصر تسدّ كل شيء».

«كانت الأجواء رائعة في عام 1924. وكانت *إيف* أيضاً رائعة. بابتسامتها الوضّاءة، واهتزاز كتفيها المستحيل، والتمثيل بالعينين في تلك الأيام – لقد برعتْ في ذلك كلّه وهي لا تزال طفلة. كان في استطاعتها أنْ تبدو مهزومة، أو حادّة الطِباع، أو أنْ تبكي وهي تضع يدها على جبينها، أو أنْ ترتكب غلطة مُضحكة. وعندما تكون إيف فريم سعيدة، تقوم بعمل من دون ارتكاب أي خطأ. وتطفر من فرط السعادة. إنها فاتنة جداً. كانت تمثّل إمّا دور بائعة السجائر الفقيرة أو الغسّالة الفقيرة التي تقابل الرجل الثريّ، أو بدور الفتاة الثريّة التي تتدلّه في حب قاطع تذاكر حافلة. في أفلام تدور حول اجتياز الفوارق الطبقية. وثمة مشاهد في الشوارع لمهاجرين فقراء بكل طاقتهم الخام ومن ثم مشاهد من وجبات عشاء أثرياء أمريكيين متميِّزين بكل ضوابطهم ومُحرّماتهم. درايزر[27] الصغير. إنكَ لا تشاهد مثل هذه الأشياء اليوم. حينئذٍ لم تكن لتتابعها، لولاها».

27- الإشارة هنا هي إلى الكاتب الأمريكي ثيودور درايزر (1871 – 1945): الروائي صاحب **الأخت كاري** و**المأساة الأمريكية** – المترجم.

«كنتُ أنا ودوريس وأيف في سن واحدة. كانت قد بدأتْ عملها في هوليوود عندما كانت في السابعة عشرة، ومن ثم، وقبل بداية الحرب، عملتْ في برودواي. وقد شاهدتها مع دوريس من الشرفة العالية وهي تمثّل في إحدى تلك المسرحيات، وكانت جيدة، في الواقع. المسرحيات لم تكن رائعة جداً، لكنّها كممثّلة مسرحيّة كانت لها طريقة مباشرة، تختلف عن تلك التي جعلتها محبوبة وهي نجمة السينما الصامتة بشكلها الطفوليّ. على خشبة المسرح كانت موهوبة في جعل الأشياء التي لا تدلّ على قدر من الذكاء المفرط تبدو ذكيّة، والأشياء التي ليست جادّة تبدو جادة بصورة ما. وما أغرب التوازن المثاليّ الذي حقّقته على خشبة المسرح. وانتهى بها الأمر كإنسانة إلى المُبالغة في كل شيء، ولكن كممثّلة مسرح كانت غاية في الاعتدال والبراعة، وبعيدة عن المُبالغة. ومن ثم، بعد انتهاء الحرب، صرنا نسمعها عبر المذياع لأنَ لورين كانت تحب الاستماع، وحتى في عروض «*مسرح الإذاعة الأمريكية*»، كانت تُضفي جواً من الذوق الرفيع على بعض الأشياء الشنيعة. ما أروع الجلوس معها في غرفتنا وهي تستعرض رفوف مكتبتي، والتحدث معها عن ميريديث وديكنز وثاكراي – حسن، ما الذي تفعله امرأة بمثل تجربتها واهتماماتها مع أخي؟».

«في تلك الليلة لم يخطر في بالي أنّهما سيتزوجان. على الرغم من أنَّ غروره قد أُشبع بكل وضوح وكان بأقصى حالات الفرح والفخر بها وهي تأكل طبق الكركند مع صلصة الجبن في مطعم التافرن. وهو أرقى مطعم يتناول فيه اليهود الطعام في نيوارك، وإلى هناك، رافق إيف فريم، أيقونة عالم المسرح، جلفٌ سابق من شارع المصنع في نيوارك، من دون أنْ ينتابه أدنى شك في نفسه. أتعلم أنَّ أيرا كان ذات يوم يعمل نادلاً في ذلك المطعم؟ كان أحد الأعمال الوضيعة التي قام بها بعد أنْ ترك المدرسة. واستمر فيه قرابة الشَهر. كان أضخم جثّة من أنْ يتمكن من الاندفاع حاملاً صوانٍ ممتلئة خلال باب المطبخ. وطردوه بعد أنْ كسر الطبق رقم ألف، ومن ثم انطلقَ إلى مقاطعة ساسكس إلى مناجم الزنك.

وهكذا – مرَّ ما يُقارب العشرين عاماً وها هو عاد إلى التافرن، وهو نفسه قد أصبح نجماً إذاعياً ويتباهى في تلك الليلة أمام أخيه وزوجة أخيه. سيد الحياة مبتهجاً بوجوده الخاصّ».

«لمح صاحب المطعم، واسمه تْييغر، سام تييغر، إيف فتقدَّمَ إلى المائدة حاملاً زجاجة من الشمبانيا فيدعوه أيرا إلى تناول مشروب معنا ويُمتعه بقصّة أيامه الثلاثين التي أمضاها في مطعم التافرن كنادل في عام 1929، والآن بعد أنْ أثمرت حياته، أصبحَ الجميع يستمتع بمهزلة عثرات حظّه وبمفارقة عودة أيرا إلى هنا. واستمتعنا جميعاً بروحه الرياضيّة في تناوله قصّة جراحه القديمة. ويذهب تييغر إلى مكتبه ومن ثم يعود مع آلة تصوير ويلتقط صورة لنا نحن الأربعة ونحن نتناول طعام العشاء، وبعد ذلك تُعلَّق في ردهة المطعم، جنباً إلى جنب مع صور كل الشخصيات البارزة التي سبقَ أنْ تناولت العشاء هنا. ولم يتوفّر سبب لعدم تعليق تلك الصورة حتى أغلق المطعم أبوابه بعد اضطرابات عام 1967 لو لم يوضع اسم أيرا على اللائحة السوداء قبل ذلك بستة عشر عاماً. أعتقد أنهم أزالوها ذات ليلة، وكأنَّ حياته لم تُثمر ***حقاً***».

«وأعود إلى الوقت الذي بدأتْ فيه قصّتهما الرومانسيّة – كان يتوجه إلى منزله ليلاً إلى هذه الغرفة التي استأجرها، ولكن شيئاً فشيئاً لم يعُد يعود إليها، ثم لجأ إلى منزلها، ولم يعودا صغيرين، ولم يكن لدى المرأة الكثير من العمل في الفترة الأخيرة، وكانت علاقتهما متّقدة ورائعة، وهما يقفلان الباب عليهما وحدهما في منزل الشارع الحادي عشر الغربي ذاك أشبه بمُجرِمَي جنس مربوطين إلى السرير. مع كل السِحر العفوي لذلك في منتصف العمر. الانطلاق والاستغراق في العلاقة. إنّه إطلاق سراح إيف، تحرُّرها، انطلاقها. ***خلاصها***. وأعطاها أيرا سيناريو عمل جديد، إنْ كانت ترغب. لقد اعتقدت، وهي في الحادية والأربعين من العمر، أنَّ مسيرتها قد انتهتْ وبدل ذلك نالت خلاصها. كانت تقول له: حسن، كفاني أعمل بصبر على تغذية الرغبة في وضع الأمور في نِصابها».

كانت تقول له أشياء لم يقُلها أحدٌ له قبل ذلك. كانت تُسمّي علاقتهما «ذلك الشيء الغريب والحلو حلاوة تزداد بشكل موجِع»، وتقول له «إنَّ الحَّب يذيبني باستمرار»، وتقول له «بينما أتحدث مع شخصٍ ما، أشعر فجأة بأنني لستُ هناك»، وكانت تُسمّيه «*mon prince*» (أميري). وتقتطف من شِعر إميلي ديكنسون. إلى أيرا رينغولد، إميلي ديكنسون. «معكَ، في الصحراء / معكَ في الظمأ / معك في غابة أشجار تاماريند / أنفاس الفهد – أخيراً!».

«حسن، لقد بدا لأيرا أنّه حبّ حياته، وعندما يتوفّر لك حبّ حياتك لا تفكّر في الأشياء الصغيرة. إذا عثرت عليه فإنك لا ترميه. وقرَّرا أنْ يتزوّجا، وهذا ما أخبرت به إيف سيلفيد عندما عادتْ من فرنسا. الماما سوف تتزوج من جديد ولكنْ هذه المرّة من رجل رائع. وافترضَتْ أنَّ سيلفيد سوف تتقبّل هذا. سيلفيد، التي ظهرت في السيناريو ***القديم***».

«كانت إيف فريم تمثّل بالنسبة إلى أيرا عالماً كبيراً. ولِمَ لا تكون كذلك؟ إنّه ليس طفلاً، لقد ارتاد أماكن كثيرة خشنة وعرِفَ هو نفسه كيف يكون خشناً. أما برودواي؟ وهوليوودْ؟ وغرينيتش فيليج؟ كلها جديدة عليه. لم يكن أيرا هو أذكى الشبّان عندما يتعلّق الأمر بالعلاقات الشخصيّة. لقد تعلَّمَ الكثير. أبعدته علاقته بأوداي مسافة طويلة جداً عن شارع المصنع. لكنَّ ذلك كلّه كان مسألة سياسيّة. ولم يدل على تفكير ثاقب. بل لم يكن «تفكيراً» أبداً. المعجم الماركسيّ العلمي الكاذب، واللغة الطوباويّة التي تتماشى معه – ارمها إلى شخص لم يتعلَّم في مدرسة وبلا ثقافة مثل أيرا، لقِّنْ شخصاً بالغاً ليس بارعاً جداً في الأمور الفكريّة، بالرونق العقلاني للأفكار الكبيرة الكاسحة، اغرس في رجل محدود التفكير، من النوع القابل للإثارة وغاضب على غرار أيرا... ولكن هذا موضوع آخر، الصِلة بين الغيظ وانعدام التفكير».

أنتَ تسألني عن كيف انتهى به الأمر إلى نيوارك في يوم لقائكما. لم يكن أيرا يميل إلى الانغماس في الحياة بطرُق تؤدي إلى حلّ مشاكل

الزواج. كانت أياماً مبكّرة، لم يكن قد مضى على زواجه من نجمة مسرحيّة، وسينمائيّة، وإذاعيّة، وانتقاله إلى منزلها الذي في المدينة. كيف كان في وسعي أنْ أخبره بأنَّه ارتكبَ خطأً؟ إنَّ الرجل لم يكن يخلو من غرور، أصلاً. ولم يكن يخلو من عُجب، يا أخي. ولم يكن يخلو من **قشور** أيضاً. كان أيرا يتمتَّع بغريزة مسرحيّة، بموقف مدّعٍ من نفسه. لا تظن أنّه يُمانع في أنْ يُصبح شخصية ذات شأنْ راسخ. وهذا تكيُّف يبدو أنَّ الناس قادرين على تحقيقه في غضون اثنتين وسبعين ساعة، والأثر في العموم مُنشِّط. وكل شيء دفعة واحدة مُترع بالأمل، كل شيء يتحرّك، كل شيء بارز - أيرا يعيش في الدراما بكل معنى للكلمة. لقد قام بإنجاز ضخم في السيطرة على القصة التي كانت حياته كلها. كان قد غُمِرَ دفعة واحدة في الوهم النرجسيّ بأنّه قفز من حقيقتيّ الألم والخسارة، بأنَّ حياته *ليست* عقماً - بأنها أي شيء إلا **عقيمة**. إنّه لم يعُد أسير حدوده. لم يعُد العملاق المنبوذ المُقدَّر له أنْ يكون الغريب إلى الأبد. إنّه يقتحم بشجاعة متهورة - ويصل إلى مُبتغاه. بعيداً عن قبضة خمول الذِكر. وفخور بتحوُّله. يا للبهجة. إنّه يعيشُ حلماً ساذجاً! إنّه أيرا الجديد، أيرا الدنيويّ؛ رجل ضخم يعيش حياة رحبة. فاحذر.

بالإضافة إلى هذا، كنتُ قد أخبرتُه تواً بأنَّه يرتكبُ خطأً - وبعد ذلك تخاصمنا طوال ستة أسابيع، ولم أستعد صداقته إلا بعد أنْ ذهبتُ إلى نيويورك وشرحتُ له أنني أخطأتُ وناشدتُه ألّا يجعله ذلك يحقد عليّ. وإذا حاولتُ معه ذلك مرة ثانية فسوف يتخلّصَ مني إلى الأبد. ستكون قطيعة تامة - كان ذلك سيكون شيئاً فظيعاً لكلينا معاً. كنتُ أعتني بأيرا منذ ولادته. كنتُ في السابعة من العمر، كنتُ أجرّه في عربة الأطفال على طول شارع المصنع. بعد وفاة أمّنا، وتزوج والديَ مرة أخرى ودخلت المنزل زوجة أب، لو لم أكنْ موجوداً، لانتهى الأمر بأيرا في الإصلاحيّة. لقد كان لنا أمٌّ رائعة. ولم تكن تحظى بأي وقت ممتع. لقد كانت متزوجة من والدنا. ولم تكن الحياة معه ممتعة.

سألت كيف كان والدك؟

لن نخوض في هذا الموضوع.

هذا ما كان أيرا يقوله.

هذا كل ما يمكن قوله. لقد كان لدينا والد... حسن، لقد عَلِمتُ في وقت لاحق كثيراً من حياتي ما الذي كان يحفّزه. ولكن عندئذٍ كان الأوان قد فات. على أيّة حال، كنتُ أوفر حظاً من أخي. عندما توفيتْ أمّنا، بعد قضائها تلك الأشهر الفظيعة في المستشفى، كنتُ قد وصلت إلى المرحلة الثانوية في المدرسة. ثم حصلتُ على المنحة الدراسيّة في جامعة نيوارك. كدتُ أوشك أنْ أغادر. لكنَّ أيرا كان طفلاً. طفلاً صلباً. طفلاً خاماً. مملوءاً بالشك.

هل سمعت عن جنازة طائر الكناري في الجناح القديم في المستشفى، عندما دفن إسكافيّ من المحليين عصفوره الكناري الذي يُربّيه؟ سوف يُبيِّنُ لك هذا كم كان أيرا متيناً – وكم كان ليس متيناً. حدث ذلك في عام 1920. كنتُ في الثالثة عشرة وكان أيرا في السابعة من العمر، وفي شارع بويدن، على مسافة شارعَين من مسكننا، كان هناك إسكافيّ، اسمه روسّومانو، إميديو روسّومانو، عجوز يبدو عليه الفقر، ضئيل الحجم، بأذنين كبيرتين ووجه هزيل ولحية بيضاء، ويضع على ظهره رداءً رقيقاً عمره مائة عام. وكان روسّومانو يحتفظ بطائر كناري ليُسلّيه. وكان اسم الكناري جيمي وعاش جيمي عمراً مديداً ومن ثم أكل جيمي شيئاً ما كان ينبغي أنْ يأكله ومات.

وانهار روسّومانو، واستأجر فرقة استعراض موسيقيّة، واستأجر نعشاً وعربتين تجرّهما أحصنة وبعد أنْ مُدَّ الكناري على لوح خشب من أجل النظر إليه في دكان الإسكافيّ – عُرِضَ بشكل جميل مع أزهار، وشموع، وصلبان – أُقيمَ موكب جنازة جاب شوارع المنطقة كلها، مرَّ الموكب من أمام محل بقالة دل غيرسيو، حيث وضع أصداف البطلينوس في الخارج داخل سلال البوشل ووضع علماً في الواجهة، ومن أمام كشك ميليلو

لبيع الفاكهة والخضروات، ومن أمام مخبز جيوردانو، ومن أمام مخبز مسكيلينو، ومن أمام مخبز آرْ لبيع الفطائر الرقيقة الإيطاليّة اللذيذة. ومرَّ من أمام ملحمة بيوندي ومحل ديه لوكا لصنع أطقم الأحصنة ومن أمام مرأب دي كارلو ومقهى دينونتشنزيو وصانع الأحذية باريزي ومحل نول لتأجير الدراجات و*latteria* (محل بيع الألبان) لتشيلينتانو وصالة غرانده للعب البلياردو ومحل حلاقة باسّو ومحل حلاقة إسبوزيتو وكشك ماسح الأحذية بكرسييه القديمين المملوءَين بالندوب التي على الزبون أنْ يرتقي منصّة عالية لكي يصل إليهما.

لقد انقضى على هذا حتى الآن أربعون عاماً. وهدّت المدينة ذلك الحيّ الإيطاليّ كله في عام 1953 من أجل إفساح المجال لبناء مجمعات سكنيّة مرتفعة ومنخفضة الإيجار. وفي عام 1994 هدموا المجمعات السكنية العالية ببثّ مباشر على شاشة التلفزيون. وحينئذٍ لم يكن قد سكن فيها أحد منذ حوالي عشرين عاماً. لم تعُد صالحة للسكن. والآن لم يعُد هناك أي شيء. فقط كنيسة سينت لوسي لا أكثر. لا شيء قائماً غيرها. إنها الكنيسة الأبرشيّة، لكنّها بلا أبرشيّة وبلا رعايا.

كانت هناك مقهى نيكوديمي في الجادّة السابعة ومقهى روما في الجادة السابعة ومصرف داوريا في الجادة السابعة. وهو المصرف الذي سمح لموسوليني بفتح حساب له، قبل اندلاع الحرب. وعندما احتل موسوليني أثيوبيا، قرع القسيس نواقيس الكنيسة طوال نصف ساعة. وهنا في أميركا فعلوا ذلك، في حيّ الجناح الأول في نيوارك.

«ومن أمام مصنع المعكرونة ومصنع الزخرفة ومحل بيع التذكارات ومسرح العرائس ودار السينما وصالة لعب البولينغ الإيطاليّة ومصنع الثلج والمطبعة ومقرّات النوادي والمطاعم. ومن أمام المربع الذي يتسكّع فيه رجل العصابات ريتشي بوياردو، ومقهى النصر. وفي حقبة الثلاثينيات، بعد أنْ خرج بوياردو، افتتح فيتوريو مطعم «القلعة» عند منعطف الشارعين الثامن وسَمَرْ. وكان فنانو الاستعراض يُسافرون

من نيويورك لكي يتناولوا الطعام في «القلعة». وفي «القلعة» تناول الملاكم جو ديماجيو الطعام عندما جاء إلى نيوارك وأقامت صديقته حفل خطبتهما. ومن «القلعة» هيمن بوياردو على حيّ «الجناح الأول». وتحكَّم ريتشي بوياردو في الإيطاليين في «الجناح الأول» ولونغي زويلمان تحكَّمَ في اليهود، ورجلا العصابات هذان كانا دائماً يتقاتلان».

«ومرّ موكب الجنازة من أمام عدد من حانات الحيّ ثم انتقل من جهة الشرق إلى جهة الغرب، من شمال شارع إلى جنوب شارع آخر، حتى وصل إلى الحمّام العمومي في جادّة كليفتون - وهو كتلة ضخمة جداً من الفن المعماري في «الجناح الأول» ويأتي في المرتبة الثانية بعد الكنيسة والكاتدرائيّة، الحمّام العمومي الضخم القديم حيث كانت أمي تأخذنا ونحن أطفال صغار لكي نستحمّ. وأبي أيضاً كان يتردد إلى هناك. حيث الدش مجّانيّ وأجر المنشفة بنس».

«وُضِعَ طائر الكناري في تابوت أبيض صغير يحمله أربعة من حاملي بساط الرحمة. وتجمّع حشدٌ هائل، ربما يبلغ عدده عشرة آلاف شخص امتدّ على طول مسار موكب الجنازة. كان الناس يتزاحمون على سلالم الحريق ويرتقون الأسطح. وكانت عائلات بأكملها تطل من نوافذ مساكنها لكي تتفرّج».

«ركبَ روسّومانو عربة خلف النعش، وكان إيميدو روسّومانو يبكي بينما الآخرون في «الجناح الأول» كلهم كانوا يضحكون. كان البعض يضحكون بقوة إلى أنْ وقعوا على الأرض ولم يتمكنوا من النهوض من فرط الضحك من أعماقهم. حتى حاملو بساط الرحمة كانوا يضحكون. كان شيئاً مُعدياً. وسائق عربة الموتى كان يضحك. وحاول الناس الواقفون على الرصيف أنْ يتحكّموا في أنفسهم إلى أنْ تعبر عربة روسّومانو، لكنَّ المشهد كان مُضحِكاً جداً بالنسبة إلى معظمهم، وخاصة بالنسبة إلى الأطفال».

كان حيّنا صغيراً جداً ويعجّ بـالأولاد: أولاد في الأزقّـة، وأولاد

يحتشدون في أروقة المباني، وأولاد يتدفقون من المساكن وينتشرون من جادّة كليفتون إلى شارع برود. وطوال النهار، خلال فصل الصيف، وحتى منتصف الليل كنتَ تسمع أولئك الأولاد يصرخون منادياً أحدهم الآخر «غوال – يو! غوال – يو!». أينما نظرتَ تجد مجموعات من الأولاد، بأعداد غفيرة – ينقرون قطع البنس، يلعبون الورق، يُدحرجون حجر النرد، يتدرّبون على الرمي، يلعقون حجارة النرد، يلعبون بالكرة، ويُضرمون ناراً، ويُخيفون الفتيات. لا يمكن إلا لراهبات يحملن مساطر أنْ يضبطن أولئك الصِبية. كانوا آلافا وآلافاً من الصِبية، وكلهم تحت سن العاشرة. وكان أيرا واحداً منهم. آلاف وآلاف من الصِبية الإيطاليين المُشاكسين الصِغار، أبناء الإيطاليين الذين مدّوا خطوط سكك الحديد ومهّدوا الشوارع وحفروا المجاري، أبناء باعة جوالين وعمّال مصانع ومُنقبي نفايات وأصحاب حانات. صِبية يحملون أسماء جيوزيبّي ورودولفو ورافائيل وغايتانو، وصبي يهوديّ واحد اسمه أيرا.

في الواقع، لقد كان الإيطاليون يعيشون أفضل أوقات حياتهم. لم يكونوا قد شاهدوا شيئاً مُشابهاً لجنازة ذلك الكناري. ولم يشاهدوا مثيلاً لها بعد ذلك. لا شك في أنّه كانت قد جرت مواكب جنازات قبل ذاك، وعزفت فِرقٌ موسيقيّة ألحاناً جنائزيّة وغصّتْ الشوارع بالمُعزّين. كانت الأعياد تملأ أيام العام وتُقام مواكب من أجل كل أولئك القديسين الذين جلبوهم معهم من إيطاليا، ومئات ومئات من الناس يُبجّلون قديس مجتمعهم الخاص بارتداء ملابس خاصة وحمل راية القديس المُزخرفة وشموع بحجم إطار دولاب السيارة الحديديّ. وكان هناك *presepio* (مِذْوَد) القديسة لوسي بمناسبة عيد الميلاد، ونسخة عن قرية نيابوليتانيّة تمثّل مولد يسوع، ومائة تمثال إيطاليّ صغير مُثبّتة عليها إلى جوار مريم، ويوسف، والـ *Bambino* (الطفل). وكان هناك موكب عازفي القُرَب الإيطاليين مع تمثال من الجص للطفل، ومن خلف الطفل، ينشد المشاركون في الموكب تراتيل عيد الميلاد بالإيطاليّة.

والباعة على طول الشوارع يبيعون الأنقليس من أجل وجبة عشيّة عيد الميلاد. كان الناس يتجمّعون حشوداً من أجل المناسَبة الدينيّة، ويحشرون أوراقاً نقديّة بقيمة دولار في كل أنحاء الرداء الموضوع على التمثال الجصّي للقديس المُحتفى به ويرمون أوراق الورد من نوافذهم وكأنها شريط التلغراف الكاتب. بل كانوا يُحرّرون عصافير من أقفاصها، ويُطلقون الحمائم التي تطير كالمجنونة فوق الحشود منتقلة من عمود كهرباء إلى آخر. وفي عيد قديسٍ ما لا بدّ أنَّ الحمائم كانت تتمنى لو أنّها لم تر خارج الأقفاص.

«في عيد القديس مايكل، كان الإيطاليون يُلبِسون فتاتين صغيرتين زيّ الملائكة. ومن على سلالم الحريق على كلا جانبيّ الشارع، كانتا تتدليان فوق الجموع بحبال مربوطتَين بها. كانتا فتاتين صغيرتين ونحيلتين بثوبين أبيضين أُلصِقتْ عليهما هالتان وجناحان، ويرين الصمت على الناس رهبةً عندما تظهران في الجو، ترتلان بعض الصلوات، وبعد أنْ تنتهي الفتاتان من أداء دور الملاكَين، يجنّ جنون الناس. فحينئذٍ يُحرّرون الحمائم وتنفجر الألعاب الناريّة ويَنتهي الأمر بأحدهم في المستشفى بعد أنْ نسف إصبعين من أصابعه».

«وهكذا، لم تكن المشاهد المُبهرجة شيئاً جديداً على الإيطاليين في «الجناح الأول». شخصيات غريبة الأطوار، وبلد قديم يُتابع طريقه، وضجيج وشجارات، وألعاب بهلوانيّة مملوءة بالألوان – لا شيء جديد. الجنازات حتماً لم تكن جديدة. وعندما انتشر وباء الإنفلونزا، مات العديد من الناس بحيث كان على التوابيت أنْ تقف بالصف في الشارع. إنّه عام 1918. لم يستطع مُصممو الجنازات أنْ يؤدوا أعمالهم. وخلف التوابيت، كانت مواكب الجنازات الخارجة من كنيسة القديسة لوسي تبقى ممتدة مسافة الميلين المؤديين إلى مقبرة المدفن المُقدَّس طوال النهار. كانت تتوفّر توابيت صغيرة للأطفال. وكان عليك أنْ تنتظر دورك لتدفن طفلك – كان عليك أنْ تنتظر أولاً أنْ يدفن جيرانك أطفالهم.

وكان ذلك مصدر رعب للأطفال. ومع ذلك بعد زوال وباء الإنفلونزا، كانت جنازة جيمي الكناري... في الواقع، هي ذروتها جميعاً».

«كان الجميع في ذلك اليوم يضحكون ضحكاً لا يمكن التحكُّم فيه. ما عدا شخص واحد. كان أيرا هو الوحيد في نيوارك الذي لم يفهم النكتة. لم أستطع أنْ أشرحها له. حاولت، لكنّه لم يفهم. لماذا؟ ربما لأنه كان غبياً، أو ربما لأنه لم يكن غبياً. ربما ببساطة لم يولَد بعقليّة الاحتفال - ربما الطوباويون ليسوا كذلك. أو ربما لأنَّ أمّنا كانت قد توفيت قبل ذلك ببضعة أشهر وأقمنا جنازتنا التي لم يرغب أيرا في أنْ يكون له دور فيها. أراد بدل ذلك أنْ يخرج إلى الشارع، ويرفس كرة في المكان. وناشدني على ألا أدفعه إلى تبديل رداء العمل والذهاب إلى المقبرة. وجرَّبَ الاختباء داخل خزانة. لكنه مع ذلك رافقنا. وهو ما حرص والدي على حدوثه. وفي المقبرة وقفَ يُراقبنا ونحن ندفنها، لكنّه رفض أنْ يُمسِك بيدي أو أنْ يدعني أحوطه بذراعي. واكتفى بالتجهُّم في وجه الحاخام. وأخذ يُحدِّق إليه. ورفضَ أنْ يلمسه أحد أو يواسيه. بل إنه لم يبك، لم يذرف دمعة واحدة. كان من فرط الغضب بشكل طغى على دموعه».

«ولكن عندما مات طائر الكناري، كان كل مَنْ واكب الجنازة يضحك ما عدا أيرا. لم يكن أيرا يعرف جيمي إلا بسبب مروره من أمام محل الإسكافيّ في طريقه إلى المدرسة والنظر من النافذة إلى القفص. وأعتقد أنّه لم يحدث أبداً أنْ ولج المحلّ، ومع ذلك، باستثناء روسومانو، كان الوحيد الذي بكى».

«وعندما بدأتُ *أنا* أضحك - لأنّ الأمر كان مُضحكاً ***فعلاً***، يا نيثان، مُضحكاً ***جداً*** - فقد أيرا السيطرة على نفسه تماماً. وكانت تلك أول مرة أرى ذلك يحدث لأيرا. وأخذ يهزّ قبضتيه في وجهي ويصرخ. كان حينئذٍ ولداً ضخماً، ولم أتمكن من كبحه، وفجأة بدأ يُهددّ ولدَين مجاورين لنا كانا يضحكان حتى الإيلام، وعندما مددتُ يدي لأحاول أنْ أنتزعه وأنقذه

من ذبحه بأيدي مجموعة كاملة من الصِبية، لكمني بإحدى قبضتيه على أنفي. وكسرَ أنفي عند جسره، وهو في السابعة من عمره. كنتُ أنزف، من الواضح أنَّ ذلك الأنف اللعين قد انكسر، وفرَّ أيرا هارباً».

«لم نعثر عليه إلا في اليوم التالي. كان قد نام في معمل التقطير في جادّة كليفتون. ولم تكن تلك المرة الأولى. نام في الفناء، تحت رصيف التحميل. وعثر عليه الوالد هناك في الصباح. فجرّه من مؤخر عنقه حتى وصلا إلى المدرسة ثم إلى غرفة الدرس حيث كان الدرس قد بدأ. وعندما رأى الأولاد أيرا، يرتدي زي العمل القذر الذي نام به ورأوا والده يدفعه إلى الغرفة، بدؤوا يصيحون «بوو-بوو»، وبقيَ ذلك لقب أيرا على مدى أشهر عديدة بعد ذلك. بوو-بوو رينغولد. الصبي اليهودي الذي بكى في جنازة الكناري».

«لحُسن الحظ، كان أيرا دائماً أضخم بُنية من أقرانه الذين في مثل سنّه، وكان قوياً، ويُحسن اللعب بالكرة. كان يمكن لأيرا أنْ يُصبح نجماً رياضياً لولا حالة نظره. والاحترام الذي حظيَ به في ذلك الحيّ ناله من لعبه بالكرة. ولكن ماذا عن الشجارات؟ منذ ذلك الوقت فصاعداً كان يتشاجر دائماً. وهنا بدأتْ نزعته المُتطرّفة».

«من حُسن حظّنا، في الواقع، أننا لم نولَد في «الجناح الثالث» مع اليهود الفقراء. وبما أننا وُلِدنا في الجناح الأول، كان أيرا دائماً يهودياً منبوذاً كثير الكلام بالنسبة إلى الإيطاليين، ولذلك، على الرغم من ضخامة بُنيته وقوّته وولوعه بالقتال، لم يستطع بوياردو أنْ يعتبره صاحب موهبة محليّة تؤهّله أنْ يكون جزءاً من العصابة. ولكن في «الجناح الثالث»، وبين اليهود، فيمكن أنْ يكون الأمر مختلفاً. هناك لم يكن أيرا منبوذاً بين الأولاد بشكلٍ رسميّ. وبسبب حجمه فقط كان يمكن أنْ يجذب انتباه لونغي زويلْمان. وحسب ما فهمت، كان لونغي، الذي يكبُر أيرا بعشرة أعوان، يُشبه أيرا في نشأته: فهو فتى غاضب، ضخم، خطِر، وترك المدرسة أيضاً، ولا يخشى شيئاً في قتال الشوارع، ويبدو مُسيطراً مع

قدرٍ من التعقُّل. وفي أعمال التهريب، والقمار، وفي آلات البيع، وعلى متن السفن، وفي الحركة العمّاليّة، وفي تجارة البناء - استطاع لونغي أخيراً أنْ يُحقّق النجاح. ولكن حتى وهو على القمة، عندما تعاون مع بغسي سيغل ولانسكي لوتشيانو، كان أصدقاؤه المُقرَّبون هم الذي نشأ معهم في الشوارع. مع صِبية الجناح الثالث الذين يُشبهونه، ومن السهل استفزازهم. نيغي روتكن، القاتل الأجير. وسام كاتز، حارسه الشخصي. وجورج غولدشتاين، مُحاسبه. وبيلي توبليتز، المُختص بالأرقام. ودوك ستاتشر، آلته الحاسبة. وآبيه ليو، قريب لونغي، الذي أدار نقابة كتبة بائعي التجزئة لصالح لونغي. والمسيح، ماير إلينشتاين، وهو صبي آخر من صِبية الشوارع من حي أقليات الجناح الثالث - عندما كان عمدة نيوارك، كاد إلينشتاين يُدير المدينة بدلاً عن لونغي».

«كان يمكن أنْ ينتهي الأمر بأيرا أنْ يُصبح أحد أتباع لونغي المُخلصين، يؤدي بأمانة أحد أعمالهم. كان مُهيّأً ليُصبح واحداً منهم. ولم يكن في ذلك أي ضلال؛ كانت الجريمة هي ما وُلِدَ أولئك الصِبية لممارسته. كانت الخطوة المنطقيّة التالية. كانوا ينطوون على ذلك العنف اللازم كأسلوب في أداء المهنة من أجل بثّ الخوف واكتساب حافز التنافُس. كان يمكن لأيرا أنْ يباشر من ميناء نيوارك، وهو يُفرِغ الويسكي المُهرَّب من كندا بقوارب بخاريّة سريعة وبشاحنات لونغي، وكان يمكن أنْ ينتهي به الأمر، على غرار لونغي، في قصر جديد بمليونير في ويست أورانج وبحبل معقود حول عنقه».

«أمرٌ مُعقّد جداً، أليس كذلك، ما كان يمكنْ أنْ يؤول إليه أمرك، وكيف ينتهي أمرك؟ وبسبب حادث جغرافيّ صغير لم تسنح الفرصة لأيرا للانضمام إلى لونغي. فرصةُ مباشرة مسيرة مهنيّة ناجحة باستخدام ورقة رابحة مع متنافسي لونغي، بالضغط بقوة على زبائن لونغي، بمراقبة طاولات القمار في مرابع قمار لونغي. فرصة ختمها بالإدلاء بشهادته

طوال ساعتين أمام لجنة كيفوفر[28] قبل أنْ يعود إلى المنزل ويشنق نفسه. وعندما قابل أيرا شخصاً أقوى منه وأذكى ويوشك أنْ يُصبح شخصيّة بارزة ذات نفوذ، كان قد التحقَ بالجيش، وهكذا كان الشخص الذي غيَّره ليس رجل عصابات من نيوارك. لم يكن الرجّل الذي غيّره هو لونغي زويلْمان بل جوني أوداي».

«لِمَ لم أُطلبِ منه، في أول مرة اجتمع معنا، أنْ يتخلُّص من الزواج والخروج؟ لأنَّ ذلك الزواج، تلك المرأة، وذلك المنزل الجميل، وكل تلك الكتب، والأسطوانات، واللوحات المُعلَّقة على الجدران، وتلك الحياة التي عاشتها مملوءة بأناسٍ مرموقين، أنيقين، مُثيرين للاهتمام، والمُثقفين – كان كل ما لم يعرفه أبداً. دعكَ من أنّه كان قد أصبحَ هو نفسه شخصيّة مرموقة. لقد أصبح للرجل *منزل*، لم يكن قد حظيَ به من قبل، وكان حينئذٍ قد بلغ الخامسة والثلاثين من العمر. في الخامسة والثلاثين ولم يعُد يقطن في غرفة مُستأجرة، ولم يعُد يتناول طعامه في مطاعم صغيرة، ولم يعُد يُضاجع نادلات وعاملات في حانة وأسوأ – بعضهن كنَّ نُسوة لا يُحسنّ كتابة أسمائهن».

«بعد أنْ صُرِفَ من الخدمة، عندما وصل إلى كالومت سيتي أول مرة وقطن مع أوداي، أقام أيرا علاقة مع متعرّية في التاسعة عشرة، اسمها دونا جونز، كان قد قابلها في مكان الغسّالة الكهربائيّة. في أول الأمر اعتقدَ أنّها تلميذة في الثانويّة المحليّة، وبقيت فترة لا تأبه له. كانت ضئيلة الحجم، عدوانيّة، وقحة وصلبة. على الأقلّ كانت صلبة ظاهرياً. وكانت تبدو عاهرة قليلاً، وطوال الوقت تضع يدها على كسّها».

«كانت دونا من ميتشيغان، من بلدة مُنتجع تقع على البحيرة وتُدعى بنتون هاربر. وفي بينتون هاربر، كانت دونا تعمل في الصيف في فندق يقع على واجهة البحيرة. كانت في الساسة عشرة، خادمة غرف النوم،

28- لجنة كيفوفر: لجنة أُقيمت في الولايات المتحدة ما بين عاميّ 1950 و1951، وكانت تبحث في مكافحة الجريمة بين الولايات – المترجم.

وحبلتْ من أحد الزبائن من شيكاغو. ولم تعرف مَنْ هو الأب. حملتْ الطفل، ووهبته للتبنّي، وتركت البلدة مُسربلة بالعار، وانتهى بها الأمر إلى أنْ أضحت مُتعرّية في أحد مرابع كال سيتي».

«عندما لا يؤدي شخصيّة آبيه لينكولن لصالح النقابة في أيام الأحد، كان أيرا يستعير سيارة أوداي لكي يصطحب بها دونا إلى بينتون هاربر لتزور أمّها. وكانت أمّها تعمل في مصنعٍ صغير يصنع السكريات وحلوى الفدج، ويبيعها لمَن يقضون العُطل ويعيشون في الشارع الرئيس من بينتون هاربر. حلوى للمنتجع. كانت حلوى الفدج مشهورة، وتُشحَن بالسفينة إلى أرجاء الغرب الأوسط كلّه. وتحدّثَ أيرا مع الشخص الذي يُدير مصنع الحلوى، وفهم كيف يصنعون تلك المادة، وسرعان ما كتبَ لي عن زواجه من دونا وانتقاله معها إلى البلدة مسقط رأسها، وعاشا في كوخ من القصب يُشرف على البحيرة ويستعين بما تبقّى من نقود صرفه من الخدمة لكي يبدأ في مجال عمل ذلك الشخص. وكانت هناك الألف دولار التي ربحها من لعب القمار بالنرد على متن سفينة نقل الجنود في طريقه إلى الوطن - كان يمكن أنْ يُنفِق المبلغ كله في صناعة الحلوى. وفي مناسبة عيد الميلاد في ذلك العام أرسل بالبريد هديّة إلى لورين وهي علبة من حلوى الفدج. بست عشرة نكهة مختلفة: جوز الهند بالشوكولاتة، وبزبدة الفول السوداني، والفستق الحلبي، ورقائق الشوكولاتة بالنعناع، وحلوى البسكويت القاسية... وكلها طازجة وطريّة، خرجتْ تواً من مطبخ الفدج في بينتون هاربر، ميتشيغان. أخبِرني، أيُّ شيءٍ يمكن أنْ يكون أبعدَ عن كونه شيوعيّاً يهذي مُصمماً على قلب النظام الأمريكي من كونه شخصاً من ميتشيغان يُرسِل هدايا ملفوفة من حلوى الفدج بالبريد إلى عمّتك العجوز بمناسبة موسم الأعياد؟ «أطايب صُنِعَتْ على ضفة البحيرة» - هذا هو الشِعار الذي كُتِبَ على العلبة. ليس «يا عمّال العالم اتّحدوا» بل «أطايب صُنِعَتْ على ضفّة البحيرة». لو أنَّ أيرا اكتفى بالزواج من دونا جونز، لأصبح *ذاك* هو شِعاره الذي يعيش على أساسه».

«كان أوداي، وليس أنا، هو الذي أقنعه بترك دونا. ليس لأنّ ظهور فتاةٍ في التاسعة عشرة في نادي «كيت كات في كال سيتي» بشخصيّة الآنسة شاليمار، التي أوصيَ بها للظهور في إعلان «طعام طيب» من إنتاج دنكان هاينز، يمكن أنْ يكون بأيّة حال مُخاطرة سيئة بالنسبة إلى زوجة وأمّ؛ وليس لأنَّ السيد جونز المفقود، والد دونا، كان سكّيراً ويضرب زوجته وأولاده؛ وليس لأنَّ آل جونز في بينتون هاربر هم أجلافٌ جهلة ولا يمكن لربّ عائلة محترَم عائد بعد قضاء أربعة أعوام في خدمة الجيش أنْ يرغب في تنكّبها كمسؤوليّة أخيرة – وهذا ما حاولت بكل تهذيب أنْ أقوله له. ولكن بالنسبة إلى أيرا كل ما يُشكّل وصفة مضمونة للكارثة المنزليّة يشكّل جداً *الأصالح* دونا. غواية المسحوق. كان صراع المحروم للنهوض من القاع غواية ***لا تُقاوَم***. فيشرب بشراهة، يشرب حتى الثمالة: كانت الإنسانيّة بالنسبة إلى أيرا رديفاً للشقاء والكارثة. وكانت صِلته بالشقاء، حتى في أسوأ أشكاله، لا تنفصم. واستلزم الأمر وجود أوداي ليفكّ الشبق الجنسي الذي يكتنفه والمتمثل في دونا جونز والفدج بنكهاته الست عشرة. إنَّ أوداي هو الذي انتقده بشدّة لأنه جسّد سياسته، ولم يفعل أوداي ذلك مع تفكيري «البورجوازيّ». وأوداي لم يعتذر لأنه تجرّأ وانتقد عيوب أيرا. وأوداي لم يكن يعتذر على أيّ شيء. كان أوداي يُقوِّم الناس».

«وهكذا، مضتْ ثمانية أشهر، وأخبر أيرا دونا أنَّ كل شيء قد انتهى، فتناولتْ عدداً من الأقراص وحاولتْ أنْ تنتحر قليلاً. وبعد ذلك بحوالي شهر – وكانت دونا حينئذٍ قد عادت إلى نادي كيت كات وحصلت على عشيق جديد – وظهر والدها السكّير الذي كان قد طال غيابه مع أحد إخوة دونا على باب بيتها قائلاً إنّه سوف يُلقِّن أيرا درساً جرّاء ما ارتكبَ بحق ابنته. وكان أيرا عند الباب يتقاتل مع الإثنين ليبعدهما، والوالد يشهر سكيناً فيُسدِّد له أوداي لكمة سريعة يكسر بها فكّ ابن الحرام ويُمسك بالسكين... تلك كانت العائلة الأولى التي كان أيرا ينوي أنْ يناسِبها».

«ليس دائماً من السهل التخلُّص من مثل تلك المهزلة، ولكن بحلول عام 1948 كان المُنقِذ المزعوم للصغيرة دونا قد أصبح أيرون رنْ صاحب برنامج «*الأحرار والشجعان*» ويوشك أنْ يرتكب خطأه الكبير التالي. كان ينبغي أنْ تسمعه عندما علِمَ أنَّ إيف أصبحت حاملاً. أصبح لديه طفل. وعائلة خاصة به. وليس مع متعرّية سابقة استهجنها أخوه بل مع ممثّلة ذائعة الصيت تعبدها الإذاعة الأمريكية. كان أعظم ما قابل في حياته، موطئ القدم الراسخ ذاك الذي لم يُحقّقه قبل ذلك. كاد لا يُصدِّق. عامان - وهذا! لم يعُد الرجل كائناً مؤقّتاً».

«أكانت حاملاً؟ متى حدث ذلك؟».

«بعد زواجهما، الذي لم يدُم أكثر من عشرة أسابيع. ولهذا أقامَ معي وهكذا تقابلتما أنتما الاثنان. وقرّرتْ أنْ تجهض».

كنا قد عدنا نجلس على المصطبة، وننظر إلى البركة ومن بعدها إلى سلسلة الجبال ناحية الغرب. إنني أعيش هنا وحدي والمنزل صغير، في إحدى الغرف أكتبُ وأتناول وجباتي - غرفة عمل مع حمّام وركن للمطبخ في إحدى الزوايا، وموقد حجريّ في موقع مناسب من جدار من الكتب، وصفّ من خمس نوافذ بزجاج مُضاعف 12X 12 تطلّ على حقل ممتد من القش وعلى ستار واقٍ من أشجار القيقب تفصلني عن الطريق القذرة. والغرفة الأخرى حيث أنام، هي غرفة مريحة في حجمها وبسيطة تضمّ سريراً واحداً، ومرآة للزينة، ومدفأة على الحطب، مع روافد قديمة مكشوفة قائمة في الزوايا الأربع، والمزيد من رفوف الكتب، وكرسي مريح حيث أجلس لأقرأ، وطاولة صغيرة للكتابة، وعلى الجدار الغربيّ باب زجاجي منزلق يُفتَح على المصطبة حيث كنتُ أنا ومري نشرب كأساً من المارتيني قبل وجبة العشاء. كنتُ قد اشتريتُ المنزل، وهيّأته للإقامة فيه خلال فصل الشتاء - فقد كان كوخاً يملكه شخص لقضاء فصل الصيف - وأتيتُ إلى هنا وأنا في الستين من العمر لكي أعيشَ وحدي، وبصورة عامّة لأكون بعيداً عن الناس. كان ذلك قبل أربعة

أعوام. وعلى الرغم مِن أنّه ليس دائماً مرغوباً العيش بتقشُّف هكذا، بعيداً عن النشاطات المختلفة التي يتألَّف منها عادة الوجود الإنسانيّ، أعتقد أنّني انتقيتُ الخيار الأقل ضرراً. لكنَّ عزلتي ليست هي الموضوع هنا؛ ليستْ قصّة بأي شكل. لقد أتيتُ إلى هنا لأنني لم أعُدْ أريد قصّة. لقد سبقَ أنْ حصلتُ على قصّتي الخاصّة.

تساءلتُ إنْ كان مري قد رأى في منزلي نسخة مُحسَّنة من كوخ الغرفتين على جانب جيرزي من ديلاوير ووتر غاب الذي كان مُعتَزَل أيرا الحبيب إلى قلبه والبقعة التي تصادف أنْ تذوّقتُ فيها للمرة الأولى طعم ريف أميركا وذلك عندما ذهبتُ، بين فصليّ صيف عاميّ 49 و50، لكي أقضي أسبوعاً معه. لقد أحببتُ فكرة الإقامة وحدي مع أيرا للمرة الأولى في ذلك الكوخ، وعندما رأيتُ هذا المنزل تراءى لي على الفور كوخه. وعلى الرغم من أنني كنتُ أبحثُ عن مكان أرحب ومنزل بالمعنى التقليديّ، إلا أنني اشتريته فوراً. كانت الغرف بحجم غرف أيرا وموضوعة بالطريقة نفسها. والبركة الطويلة البيضاويّة كانت بأبعاد بركته نفسها وتبعد المسافة نفسها عن الباب الخلفيّ. وعلى الرغم من أنَّ منزلي كان وضّاءً أكثر بكثير – مع مرور الوقت، أصبحتْ ألواح جدران منزله من خشب الصنوبر المُبقّعة سوداء اللون تقريباً، والأسقف ذات الدعامات الخشبيّة كانت منخفضة (كان يراها منخفضة بدرجة سخيفة)، وكانت النوافذ صغيرة وليست متعددة – نوافذي كانت مدسوسة بعيداً وتطل على درب مُغبرّ كنوافذه، وإذا لم يبدُ منظره من الخارج مُظلِماً ومُتداعياً وكأنه يقول «ابتعد – هنا يُقيم ناسك!»، فإنَّ حالة صاحب المكان العقليّة تتجلّى في غياب أي شيء يُشبه الدرب يمتد عبر حقل القشّ ويؤدّي إلى الباب الأماميّ المُرتَج. كان هناك ممشى للسيارات ضيِّق قذر يرتفع ثم يلتفّ نحو جانب غرفة العمل من المنزل، ويصل إلى سقيفة مفتوحة حيث أركنُ سيارتي في الشتاء؛ والسقيفة، التركيبة الخشبيّة المُتداعية والأقدم عهداً من الكوخ، كان يمكن رفعها عن أرض أيرا التي نما عليها العشب واستطال.

كيف صمدتْ فكرة أيرا عن الكوخ كل ذلك الوقت؟ حسن، إنَّ الصور المُبكّرة - للاستقلال والحريّة، على وجه الخصوص - هي التي تبقى بعناد، على الرغم من روعة وثقل وفرة الحياة. وفكرة الكوخ، أصلاً، ليست فكرة أيرا. إنها من التاريخ. هي فكرة روسّو. وفكرة ثورو. هي الشكل المُخفَّف للكوخ البدائيّ. هي المكان الذي تتجرّد فيه وتعود إلى جوهرك، وتعود إليه - حتى وإنْ تصادفَ أنّه ليس المكان الذي انحدرتَ منه - لكي تتطهَّر وتحلّ نفسك من واجب الكفاح. إنّه المكان حيث تتعرَّى، وتنفض عنك كل شيء، الملابس التي ارتديتَ والأزياء التي لبست، وحيث تخلّصتَ من اضطهادك ومن امتعاضك، من تهدئتك للعالم ومن تحدّيك للعالم، من تلاعبك بالعالم ومن ثم قسوة العالم عليك. إنَّ الرجل العجوز يغادرُ ويدخل الغابة - غابة الفكر الفلسفي الشرقي المُرتبط بذلك الدافع، والفكر الطاويّ، والفِكر الهندوسيّ، والفِكر الصينيّ. إنَّ «ساكن الغابة»، هو آخر مراحل درب الحياة. فكِّر في تلك اللوحات الصينيّة التي تبيِّن رجلاً عجوزاً جالساً في أسفل الجبل، الرجل العجوز الصينيّ وحده في أسفل الجبل، متراجعاً من الهياج الذاتيّ. لقد دخل بنشاط في منافسة مع الحياة؛ والآن، بعد أنْ هدأ، دخل في منافسة مع الموت، جُرَّ إلى التقشُّف، العمل الأخير.

***

كان شرب المارتيني فكرة مري. فكرة جيّدة لكنها ليست عظيمة، بما أنَّ شرب كأس في نهاية يوم صيفيّ مع شخص أستمتع بصُحبته، وبالتحدث معه مثل مري، جعلني أتذكّر مباهج الصُحبة. لقد استمتعتُ بصُحبة الكثير من الناس، ولم أكن مُساهماً لا مبالياً في الحياة، ولم أنسحب منها...

لكنَّ القصّة هي قصّة أيرا. لماذا كان الأمر مستحيلاً *عليه*.

قال مري «لقد رغب في إنجاب صبي، ومُشتاقاً إلى تسميته باسم صديقه، جوني أوداي رينغولد. أنا ودوريس كان لدينا لورين، ابنتنا،

وكلما مكثَ عندنا ونام على الأريكة كانت لورين دائماً ترفع من معنوياته. كانت لورين تحب أنْ تراقب أيرا وهو نائم. تحب أنْ تقف عند ممر الباب وتراقب ليمويل غاليفر[29] نائماً. لقد تعلَّقَ بتلك الفتاة الصغيرة بخصلات شعر جبينها السوداء تلك. وهي تعلَّقتْ به. وعندما كان يأتي إلى المنزل، تجعله يلعب بدُماها الروسيّة المُستكينة. وكان هو الذي أهداها إليها في عيد مولدها. أنت تعرفها، تمثّل تلك المرأة الروسيّة التقليديّة التي تربط رأسها بمنديل بابوشكا، وثمة نسخ منها تستكين كلٌّ منها داخل الأخرى، إلى أنْ تصل إلى الدمية الصغيرة بحجم الجوزة في القلب. وكانا يختلقان حكايات عن دمية وكم تتعب تلك المخلوقات الصغيرة في العمل في روسيا. ثم يجمع الدُمى كلها في راحة كفّه حتى لا تكاد تراها، وتختفي داخل تلك الأصابع المنبسطة - أصابع غريبة الشكل، طويلة، أصابع جديرة بباغانيني[30]. كانت لورين تحب أنْ تراه يفعل ذلك: كانت الدُمية الأكبر بينها هي هذا العمّ الضخم».

«بمناسبة عيد مولد لورين التالي اشترى لها أسطوانة كبيرة لفرقة وجوقة الجيش السوفييتي تؤدي أغانٍ روسيّة. كانت جوقة تضمّ أكثر من مائة رجل، ومائة رجل أخرى في الفرقة الموسيقيّة. كانت الأصوات الجهيرة العميقة ذات الهدير الهائل - تُصدر ضجيجاً ضخماً. وكانت هي وأيرا يقضيان وقتاً ممتعاً في الاستماع إلى تلك التسجيلات. كان الغناء بالروسيّة، وكانا يُصغيان معاً، ويتظاهر أيرا بأنه صاحب صوت جهير منفرد، ينطق الكلمات المُبهمة ويؤدّي إيماءات «روسيّة» مسرحيّة، وعندما يحين وقت ترديد اللازمة، كانت لورين تنطق الكلمات المُبهمة التي تؤديها الجوقة. لقد كانت طفلتي تعرف كيف تكون ممثلة هزليّة».

وهناك أغنية بعينها كانت تحبّها. أغنية شعبيّة جميلة، حماسيّة، وكئيبة، أشبه بالترتيلة، اسمها «دوبينوشكا»، أغنية بسيطة مع عزف على

29- ليمويل غاليفر: بطل رواية رحلات غاليفر لجوناثان سويفت - المترجم.

30- نيكولو باغانيني (1782 - 1840): موسيقار وعازف كمان بارع، إيطاليّ - المترجم.

آلة البالالايكا في الخلفيّة. وكلمات أغنية «دوبينوشكا» كانت مكتوبة بالإنكليزيّة على الغلاف الداخلي من الألبوم، وحفظتها عن ظهر قلب وظلّتْ طوال أشهر تدور في المنزل وتُغنّيها:

سمعتُ الكثير من الأغاني في وطني الأم –
أغانٍ مرحة وحزينة.
لكنَّ واحدة منها حُفِرَتْ عميقاً في ذاكرتي:
إنها أغنية العامل العادي.

كان ذلك هو الجزء الذي يُغنّيه الصوت المنفرد. لكنَّ أشدَّ ما كانت ترغب في غنائه هو الجزء الخاص بالجوقة. لأنه يحتوي «صياحاً»:

آه، ارفع الهراوة،
عالياً!
انضموا كلكم معاً،
معاً!

«عندما تنفرد لورين بنفسها في غرفتها، كانت تضع الدُمى الجوفاء في صفٍ واحد ومن ثم تُشغّل أسطوانة «دوبينوشكا»، وتغني بنبرة مأساويّة «عالياً!» وهي تُحرّك الدُمى إلى هذه الجهة وتلك على مساحة الأرض».

قلتُ توقف دقيقة. مري، توقف، ونهضتُ وانتقلتُ من الكرسيّ إلى داخل المنزل، ثم إلى غرفة النوم، حيث أحتفظ بمُشغّل سي دي وبفونوغرافي القديم. كانت أسطواناتي في مُعظمها محفوظة داخل علب ومُخزّنة داخل خزانة، لكنني كنتُ أعلم في أي صندوق أجد ما أبحث عنه. وأخرجت الألبوم الذي كان أيرا أعطاه لي في عام 1948

وانتقبتُ الأسطوانة التي سجّلت عليه الفرقة الموسيقيّة وجوقة الجيش السوفييتي أغنية دوبينوشكا».

نقلتُ سرعة الـدوران إلى 78، وأزلتُ الغبار عن الأسطوانة ثم وضعتها على المُشغِّل. ثبّتُ الإبرة على الهامش قُبيل آخر مسار على الأسطوانة، ورفعت صوت المُكبِّر بدرجة كافية لكي يتمكّن مري من سماع الموسيقى ممن خلال الأبواب المفتوحة الفاصلة غرفة نومي عن المسطبة، وخرجتُ لأنضمّ إليه من جديد.

أصغينا في الظلام، ولكن الآن لم أعد أُصغي إليه ولا هو يُصغي إليّ بل كلانا أصغينا إلى «دوبينوشكا». لقد كانت كما وصفها مري: أغنية شعبية جميلة، حماسيّة، وحزينة وأشبه بالترتيلة. وفيما خلا الشرخ على السطح البالي للأسطوانة القديمة - التي كان صوت دورانها أشبه بضجيج ليلي طبيعي أليف في ريف فصل الصيف - بدت كأنَّ الأغنية تسافر إلينا من ماضٍ ناءٍ في التاريخ. لم يبدُ الأمر أبداً كأنني أجلس على مسطبة منزلي وأستمع في ليلة يوم سبت إلى حفلة موسيقيّة تُبثّ عبر المذياع بنقلٍ حيّ من تانغلْوود. كان هتاف «عالياً! عالياً!» يأتي كأنما من مكان وزمان نائيين، كبقايا وهميّة من تلك الأيام الثوريّة المنتشية عندما كان الجميع يتوقون إلى حدوث تغيير مُبرمج، ساذج - مجنون، لا يُنسى - يستخفّ بالطريقة التي يشوّه بها الجنس البشريّ أشدّ أفكاره نُبلاً ويحوّلها إلى مهزلة مأساويّة. عالياً! عالياً! وكأنَّ المكر، والضعف، والحماقة، والفساد الإنسانيّ لا أمل له في مواجهة المجموع، في مواجهة قوة الناس المتكاتفين معاً لتجديد حياتهم والقضاء على الظلم. عالياً.

بعد انتهاء أغنية «دوبينوشكا»، رانَ الصمتُ على مري وبدأتُ من جديد أسمع كل ما رشح إليّ من حديثه: الشخير، الخُنّة، ونقيق الضفادع، وطيور التفلِق في بلو سوامب، والمُستنقع الذي يعجّ بالأعشاب الضارة القائم مباشرة إلى الشرق من المنزل، تُصدر أصواتاً مُختلفة، وطيور الصعو هناك تؤدي تغريدها. وطيور آكلة السمك، وبكاء وضحك طيور

آكلة السمك المهووسة والكئيبة. وبعد كل بضع دقائق يُسمَع صهيل بعيد لبوم مذعور، وأصوات جوقة صرار الليل في غرب نيو إنغلاند تجيب موسيقى بارتوك المستمر والمُنتشر. وحيوان الراكون يُصدر صوتاً مُرتعشاً في الغابة القريبة، ومع مرور الوقت، ظننتُ أنني أسمعُ القنادس تنهشُ شجرة حيث كانت روافد النهر في الغابة تُغذّي بركتي. ويبدو أنَّ أيلاً خدعه الصمت فأوغل في الاقتراب من المنزل، لأنّه على الفور – عندما أحسَّ الأيل بوجودنا – سُمِعَ وقع هروبه السريع فائق الحساسيّة: الشخير، والوطء المكبوت في المكان، وضرب الحوافر، وتلاشي الضرب بعيداً. اندفعت الأجساد برشاقة داخل أكثف دغل، ومن ثم أطلقت سيقانها للريح، بشكل يكاد لا يكون مسموعاً. لم يُسمَع إلا تنفُّس مري المهمهم، وبلاغة رجل عجوز تخمد بانتظام.

لا بدّ أنَّ ما يُقارب نصف ساعة قد مرّت قبل أنْ يُباشر بالكلام. لم ترجع ذراع الفونوغراف إلى وضع البداية، والآن أصبحَ في استطاعتي أنْ أسمع الإبرة، أيضاً، تهرّ فوق المادة المكتوبة. لم أدخل لكي أُصحّحها وأُقاطع كائناً ما كان وأسكتَ رواية قصّتي وخلقَ كثافة صمته. وتساءلتُ كم سيمر من وقت قبل أنْ يقولَ شيئاً، وإنْ كان سيتكلَّم أصلاً ويكتفي بالنهوض ويطلب أنْ أوصله بالسيارة إلى المنامة – إنْ كانت أيّة أفكار انبجستْ فيه سوف تتطلَّب نومَ ليلةٍ كاملة لكي تهدأ.

لكنَّ مري قال أخيراً، وهو يضحك بنعومة، «لقد ضرب ذلك على وترٍ حسّاس عندي».

«أحقاً؟ لماذا؟».

«اشتقتُ إلى حبيبتي».

«وأين هي؟».

«لورين ماتت».

«متى حدثَ ذلك؟».

«لورين توفيت قبل ستة وعشرين عاماً. في عام ألفٍ وتسعمائة وواحد وسبعين. توفيت وهي في الثلاثين من العمر، تاركة طفلَين وزوجاً. من التهاب السحايا، توفيت بين ليلة وضُحاها».

«ودوريس توفيتْ».

«دوريس؟ طبعاً».

ولجتُ غرفة النوم لكي أرفع الإبرة وأُعيدها إلى مُستقرّها. هتفت لمَري «أترغب في سماع المزيد؟».

في هذه المرّة ضحك من أعماق قلبه وقال: أتحاول أنْ تعرف كم أستطيع التحمُّل؟ إنَّ فكرتك عن قوّتي يا نيثان، فخمة أكثر مما ينبغي. لقد قابلتُ نِدّاً لي في أغنية «دوبينوشكا».

قلت، وأنا أعود إلى الخارج وأجلس على كُرسيَّ، «أشكُّ في هذا. كنتَ تقول لي...؟».

«كنتُ أقول لك... كنتُ أقول لك... نعم. إنّه عندما طُرِدَ أيرا، شعرتْ لورين بالوحدة. لم تكن قد تجاوزت التاسعة أو العاشرة، لكنها ثارت. وبعد أنْ طُرِدَ لأنّه شيوعيّ، رفضَتْ أنْ تُحيّي العلم».

«العلم الأمريكي؟ أين؟».

قال مَري «في المدرسة. في أيِ مكان آخر تُحيّي العلم؟ حاول المُدرِّس أنْ يحميها، فأخذها جانباً وقال لها يجب أنْ تُحيّي العلم. لكنَّ تلك الطفلة رفضَتْ أن تفعل. كانت مشحونة بالغضب. غضب آل رينغولد حقيقيّ. لقد كانت تحبّ عمّها، واقتدتْ به».

«وماذا حدث؟».

«تحدثتُ معها مُطولاً فعادتْ إلى تحيّة العلم».

«ماذا قلتَ لها؟».

«قلتُ لها إنني أيضاً أحبّ أخي. وإنني أنا أيضاً لم أجد ما حدث له مُنصِفاً. قلتُ لها إنَّ رأيي من رأيها، وإنّ طَرْدَ أيَّ شخصٍ بسبب معتقداته السياسيّة خطأ فادح. وإنني أؤمن بحريّة الفِكر. في الحريّة ***المُطلقة***

للتفكير. لكنني قلتُ لها إنكِ لا تسعين إلى إثارة ذلك النوع من الشجار. إنها ليست قضيّة هامة. ما الذي تُنجزين؟ ماذا تكسبين؟ قلتُ لها، لا تُثيري شجاراً تعلمين أنكِ لن تفوزي به، بل ولا يستحق الفوز به. أخبرتها بما حاولتُ أنْ أخبر به أخي عن مشكلة الخطاب المُتَّقد - حاولتُ ذلك منذ أنْ كان طفلاً، لمصلحته. ليس المهم أنْ نغضب، بل أنْ نغضب للأسباب الصحيحة. قلتُ لها، انظري إلى الأمر من المنظور الداروينيّ. إنَّ الغضب يجعلك فعّالة. هذا هو عمله من أجل البقاء. ولهذا وُهِبَ لك. إنْ كان يجعلك غير فعّالة، فاتركيه كما تتركين البطاطا الساخنة».

عندما كان مري رينغولد أستاذي قبل ذلك بخمسين عاماً، كان يُؤدي كل شيء تمثيلاً، يُحوِّل الدرس إلى عرضٍ مسرحيّ، ويلجأ إلى الكثير من الخِدع لكي يُبقينا يقظين. بالنسبة إليه كان التدريس مهنة الشغف، وكان هو شخصاً مُثيراً للاهتمام. أما الآن، على الرغم من أنّه لم يُصبح رجلاً عجوزاً فاقداً لحيويته، إلا أنّه وجد أنّه لم يعُد ضرورياً أنْ يُجهِدَ نفسه من أجل إيضاح المعنى الذي يرمي إليه، لكنّه اقتربَ من أنْ يُصبح خالياً تماماً من الشغف. كانت نبرة صوته بصورة أو بأخرى ثابتة، معتدلة - لا يُحاول أنْ يقودك (أو يُضلّلك) بكونه مفهوماً وواضحاً بالاستعانة بصوته أو بوجهه أو بيديه عندما يُغني «عالياً. عالياً».

عندئذٍ بدتْ جمجمته هشّة جداً وصغيرة جداً. ومع ذلك كانت تحتوي تسعين عاماً من الماضي. كان فيها الكثير. والموتى كلهم كانوا هناك، على الأقلّ، مع إنجازاتهم وآثامهم بالإضافة إلى الأسئلة التي لم تجد أجوبة عليها، تلك الأشياء التي لا يمكن التيقّن منها... لكي تعرض عليه مهمّة تتطلّب براعة فائقة: أنْ يُفكِّر بصورة عادلة، أنْ يحكي هذه القصّة من دون ارتكاب الكثير من الأخطاء.

كما نعلم، الزمن يمرُّ بسرعة عندما يقترب الأجل، لكنَّ مري اقترب من الأجل منذ زمن بعيد إلى درجة أنّه عندما تكلَّم بطريقته المعروفة، بصبر، ودخل في صُلب الموضوع، مع قدرٍ من الرقّة - لم يسكتْ إلا

على فترات متقطّعة ليرشف بنهم من ذلك المارتيني - انتابني شعور بأنَّ الزمن تلاشى من أجله، بأنّه لا يُسرِع ولا يُبطئ، بأنّ مري لم يعُد يعيشُ في الزمن لكنّه يعيش حصراً داخل جلده. وكأنَّ تلك الحياة النشطة، المترعة بالعمل، المُنتهية، التي عاشها كمُدرِّس ومواطن وربّ عائلة حيّ الضمير، كانت معركة طويلة لبلوغ حالةٍ من الخمول. لم يكن التقدُّم في السن نحو العجز شيئاً لا يُحتَمَل ولا هو الغوص في النسيان التامّ، ولا هو تلاشي كل شيء. كان الأمر *كلّه* مُحتَمَلاً، وحتى احتقار ما يستحق الاحتقار، من دون استثناء.

كنتُ أعتقد أنَّ السخط الإنسانيّ وجدَ له نظيراً عند مري روينغولد. لقد نجا من السخط. وهذا ما يتبقّى بعد زوال كل شيء، الحزن الرواقي المُنضبط. إنّه البرود. لقد ساد الحرّ مدة طويلة، وكان كل شيء في الحياة غزيراً، ثم شيئاً فشيئاً تلاشى، ومن ثم برُد، ومن ثم أصبح رماداً. إنَ الرجل الذي كان أوَّلَ مَنْ علَّمني كيف أتقاتل مع كتاب عاد الآن لكي يُبيِّن لي كيف أتقاتل مع التقدُّم في السن.

وهذا يتطلَّب براعة نبيلة، مُذهلة، إذ ليس هناك ما يُعلِّمك عن الشيخوخة أقلّ من عيش حياةٍ شاقّة.

- 3 -

تابع مَري قائلاً: «كان السبب في لجوء أيرا إليّ، والمكوث سحابة الليل معنا قبل أنْ تتقابلا أنتما الإثنين هو ما سمعه في صباح ذلك اليوم».

«لقد أخبرَتْه عن رغبتِها في إجهاض الطفل».

«كلا، كانت قد أخبرتْه بهذا في الليلة التي سبقت، أخبرته بأنها سوف تذهب إلى كامدن لكي تُجري عمليّة إجهاض. كان هناك طبيب في كامدن يلجأ إليه العديد من الأثرياء طلباً للدعم عندما كان الإجهاضُ عملاً غير مشروع. ولم يكن قرارها مُفاجئاً جداً. ذلك أنّها كانت تتردَّد على مدى أسابيع غير متيقّنة ماذا تفعل. كانت في الحادية والأربعين – كانت أكبر سناً من أيرا. لم يبدُ ذلك على وجهها، لكنَّ إيف فريم لم تكن طفلة. كانت قلقة بشأن إنجاب طفل وهي في مثل سنّها. وتفهَّم أيرا ذلك، لكنّه لم يقبله ورفض أنْ يُصدِّق أنَّ كونها في سن الواحدة والأربعين يُشكِّلُ عائقاً. كما تعلم، لم يكن حذراً كثيراً. كان يتَّصِف بذلك الجانب المندفع المتهوّر، وحاول مراراً وتكراراً أنْ يُقنعها بأنّه ليس لديهما ما يقلقان بشأنه».

«واعتقدَ أنّه أقنعها. لكنَّ مشكلةً أخرى برزت – العمل. كان صعباً جداً الاستمرار في العمل مع وجود طفلة أولى، سيلفيد، الابنة. عندما وُلدتْ سيلفيد لم تكن إيف تتجاوز الثامنة عشرة – كانت نجمة صغيرة ثم انتقلتْ إلى هوليوود. كانت متزوجة من ذلك الممثل، بيننغتون. كان صاحب اسم كبير عندما كنتُ شاباً صغيراً. كارلتون بيننغتون، بطل

الأفلام الصامتة مع سيرة حياة صيغَتْ لتتلاءم بالضبط مع المواصفات الكلاسيكيّة. رجلٌ طويل القامة، نحيل، بشعرٍ فاحم وأملس كريش الغراب وشارب أسود. أنيق حتى نخاعه. وعضو بمركز راسخ في المجتمع الأرستقراطيّ وفي أرستقراطيّة الأداء الشهوانيّ - كان أداؤه التمثيليّ يستفيد من كليهما. كان أميراً كما في الحكايات الخرافيّة - وصاحب طاقة شهوانيّة - في جسدٍ واحد، وكان ذلك كفيلاً بدفعك إلى الانتشاء كأنك تركب سيارة فارهة مُلبّسة بالفضّة».

«أعدَّ طاقم الاستوديو العرس. وكانت هي وبيننغتون قد حقّقا نجاحاً باهراً معاً، وكانت متيَّمة بحبّه، حتى أنَّ طاقم الاستوديو قرَّرَ أنَّ عليهما أنْ يتزوّجا. وأنَّ عليهما أنْ يُنجبا طفلاً حالما يتزوّجان. وكان ذلك كلّه جديراً بأنْ يُخرِس الشائعات القائلة إنَّ بيننغتون مثليّ. وطبعاً كان كذلك فعلاً».

«لكي تتزوج من بيننغتون كان عليها أولاً أنْ تتخلَّص من زوج أول. كان بيننغتون هو الزوج الثانيّ. الأول كان رجلاً اسمه ميولر، كانت قد هربتْ معه وهي في السادسة عشرة. كان جلفاً جاهلاً عاد تواً من خدمة سلاح البحريّة مدة خمس سنوات؛ فتى أمريكياً-ألمانياً، ضخماً، فظاً، نشأ ابناً لنادل في بار في كيري، بالقرب من نيوارك. بيئة فظّة، لشاب فظ. أشبه بأيرا من دون مِثاليّة. قابلتْه مع جماعة مسرحية في الحيّ. كان يريد أنْ يُصبح ممثلاً وهي أرادتْ أنْ تكون ممثّلة. هو كان يُقيم في غرفة مُستأجَرة وكانت هي في المدرسة الثانويّة ولا تزال تعيش في المنزل، وهربا معاً إلى هوليوود. هكذا انتهى الأمر بإيف في كاليفورنيا، فرّت وهي طفلة مع ابن نادل في بار. وفي غضون عام أصبحتْ نجمة، ولكي تتخلَّصَ من ميولر، الذي كان نكِرة، دفع له الاستوديو نقوداً ليرحل. وقد ظهر ميولر في عدد من الأفلام الصامتة - كجزء من الثمن - بل إنه حظي بدورَين بشخصيّة خشنة في الأفلام الناطقة الأولى، لكنَّ صِلته بإيف لم تُمحَ من الذاكرة. أي، إلا بعد مرور وقت طويل. وسوف نعود إلى ميولر

لاحقاً. والمهم هو أنَّها تتزوج من بيننغتون، وهو بمثابة انقلاب بالنسبة للجميع: هناك حفل عرس في الاستوديو، وهناك الطفلة الصغيرة، ومن ثم العيش مع بيننغتون على مدى أحد عشر عاماً كراهبة».

«كانت تأخذ سيلفيد لزيارة بيننغتون في أوروبا حتى بعد أنْ تزوّجت من أيرا. وبيننغتون مات الآن، لكنّه أقام على شاطئ الريفيرا الفرنسيّة بعد انتهاء الحرب. كانت لديه فيلا فوق التلال في سان تروبيه. ويسكر في كل ليلة، ويتسلل خلسة، شخصاً كان معروفاً يحمل مرارة، يصخب ويهذي عن اليهود الذين يُديرون هوليوود والذين دمّروا مسيرته المهنيّة. وأخذت سيلفيد إلى فرنسا لرؤية بيننغتون، وخرجوا جميعاً لتناول طعام العشاء في سان تروبيه وشرب زجاجتين من النبيذ وأخذَ هو يُحدِّق عبر مائدة العشاء إلى أحد النُدُل، ومن ثم أعاد إيف وسيلفيد إلى الفندق. وفي صباح اليوم التالي ذهبوا إلى مقرّ بيننغتون لتناول طعام الإفطار فوجدتا النادل جالساً إلى المائدة مرتدياً مئزر استحمام ويتناولان معاً ثمار التين الطازجة. وعادتْ إيف إلى أيرا وهي تبكي، قائلة إنَّ الرجل كان بديناً وسكّيراً وأنه كان يوجد هناك دائماً شاب في الثامنة عشرة ينام عنده، نادل، أو متسكّع على الشاطئ، أو عامل تنظيف في الشارع، وأنها لا يمكن أنْ تعود إلى فرنسا بعد ذلك. لكنّها عادتْ – للسرّاء أو الضرّاء وأخذتْ سيلفيد إلى سان تروبيه مرّتين أو ثلاث مرّات لرؤية والدها. ولم يكن الأمر سهلاً على الطفلة».

«بعد تركها بيننغتون، تزوجتْ إيف من مُضاربٍ في العقارات، ذلك المدعو فريدمان، ادّعتْ أنّه أنفق كل ما تملك وكاد يجعلها توقّع على تخلّيها له عن المنزل. وعندما سمعته يُمثّل مشهداً في المذياع في نيويورك، أحبّته فوراً؛ ذلك القويّ النبيل، المُنبسِط، النقي، الضمير الكبير الضخم السائر على قدمين الذي يُبربر عن العدالة والمساواة للجميع. وكانت مُثُل أيرا العليا تجذب إليه أنواع الناس كلها، بدءاً بدونا جونز وانتهاءً بإيف فريم، وكل ما هو إشكاليّ بينهما. وكانت النساء الحزينات

مولعات به. بالحيويّة. وبالطاقة. بالعملاق الثوريّ شبيه شمشون. بالشهامة البطيئة التي يتّصف بها. وكانت رائحته طيّبة. أتتذكّر هذا؟ رائحته الطبيعيّة. وكانت لورين تقول: إنَّ رائحة العم أيرا تتشبه رائحة شراب القيقب. وكان كذلك فعلاً. كان يفوح برائحة النسغ».

«في البداية، كانت فكرة تسليم إيف ابنتها لبيننغتون تُثير جنون أيرا. وأعتقد أنّه شعر بأنَّ الأمر لا يقتصر على إتاحة الفرصة لسلفيد أنْ ترى بيننغتون - وأنَّ إيف ما تزال ترى في بيننغتون شيئاً يجذبها إليه. وربما كانت كذلك. ربما ما جذبها إلى بينغتون هي مثليّته. وربما كان منشؤه الراقي. لقد كان بيننغتون ثرياً عجوزاً من كاليفورنيا. وبماله عاش في فرنسا. وبعض المجوهرات التي كانت سيلفيد تضعها كانت إسبانيّة من مجموعة عائلة والدها. كان أيرا يقول لي: إنَّ ابنته في المنزل معه، في غرفة واحدة، وهو في غرفة أخرى مع بحّار. يجب أنْ تحمي ابنتها من ذلك الوضع. لا ينبغي أنْ تجرّها إلى فرنسا لتجعلها تشهد مثل ذلك المشهد. لِمَ لا تحمي ابنتها؟».

«أنا أعرف أخي - أعرف ماذا يريد أنْ يقول. يريد أنْ يقول، إنني أمنعكِ من الذهاب إلى هناك من جديد. لقد قلتُ له: أنتَ لستَ والد الطفلة. ولا تستطيع أنْ تمنع ابنتها من فعل أي شيء. وقلتُ: إذا أردتَ أنْ تفصم الزواج لهذا السبب، فافصمه لهذا السبب. وإلّا، امكثْ وعِش مع الواقع».

«كانت الصدمة الأولى التي حصلتُ عليها من مجرّد التنويه إلى ما كنتُ أريد أنْ أقول طوال الوقت. أنْ أُضاجعها أمرٌ. إنها نجمة سينمائيّة - لِمَ لا؟ أما الزواج؟ فخطأ فادح بكل المعايير. إنَّ تلك المرأة لا صِلة لها بالسياسة وخصوصاً ليس بالشيوعيّة. إنها تعرفُ كيف تلتفّ حول الحبكات المُعقّدة للروائيين الفيكتوريين، وتستطيع أنْ تذكر بسرعة أسماء شخصيات روايات ترولوب، لكنّها لا تعرف أي شيء عن المجتمع والأعمال اليوميّة لأي شيء. المرأة ترتدي من تصميم ديور.

ملابس مذهلة. وتمتلك ألف قبّعة صغيرة مع أخمرة صغيرة. وأحذية وحقائب يد مصنوعة من جلود الأفاعي. وتنفقُ الكثير من المال على شراء الملابس. في حين أنَّ أيرا يُنفِقُ أربعة دولارات وتسعة وتسعين لشراء حذاء. فقد عثر على إحدى فواتيرها بمبلغ ثمانمائة دولار ثمناً لثوب. ولا يعرف حتى معنى ذلك. إنه يفتح خزانة ملابسها وينظر إلى الثوب ويُحاول أنْ يفهم لِمَ هو مُكلِف إلى تلك الدرجة. فبوصفه شيوعيّاً، عليه أنْ يغضب منها من اللحظة الأولى. فما هو مُبرِّر هذا الزواج منها وليس من رفيق حزبيّ؟ أما كان في استطاعته أنْ يجد في الحزب شخصاً يدعمه، ويكون معه في الكفاح؟».

«كانت دوريس دائماً تعطيه العذر وتمدّه بمُخصّصات ماليّة، وتهبّ إلى نجدة أيرا كلما تدخّلتُ. كانت تقول: «نعم، ها هنا لدينا شيوعيّ، ثوريٌّ كبير، وحزبيّ ينطوي على هذا النوع من الحماس، وفجأة يقع صريع حبّ ممثّلة غير مناسِبة ترتدي تلك السترات ذات الخصر النحيل والتنانير الطويلة من آخر طراز تليقُ بسيدة محترمة، مشهورة وجميلة تغوصُ ككيس الشاي في المظاهر الأرستقراطيّة، زواج يتناقض مع كامل معياره الأخلاقيّ- لكنَّ الحبَّ أعمى». وسألتها «أهو حقاً كذلك؟ إنه يبدو لي سذاجة وفوضى. إنَّ أيرا مُجرّد من الحدس فيما يخص الأمور العاطفيّة. والافتقار إلى الحدس العاطفي يتماشى مع كونه راديكاليّاً مُطلقاً. إنَّ أولئك الأشخاص ليسوا منسجمين من الناحية النفسيّة». لكنَّ ردّ دوريس هو بتبريرها له وذلك عبر نفي قوة الحب ولا أقلّ. تقول دوريس: الحبّ ليس شيئاً منطقياً. والغرور ليس شيئاً منطقياً. وأيراً أيضاً ليس شيئاً منطقياً. وكل منّا في هذا العالم يتّصف بغرور خاصّ، وبالتالي يتّصف بعمى على مقاسه. وعمى أيرا هو إيف فريم».

«حتى في جنازته، التي لم يواكبها أكثر من عشرين شخصاً، وقفتْ دوريس وألقت خطاباً بهذا الخصوص بالذات، وهي المرأة التي كانت تخشى الكلام علناً. قالت إنّه كان شيوعيّاً نقطة ضعفه هي حبّه للحياة؛ كان

شيوعياً متحمّساً، لكنّه لم يُخلَق ليعيش داخل كهف الحزب المُغلَق، وهذا ما أفسده ودمّره. لم يكن مثالياً من وِجهة نظر الشيوعيّة - شكراً لله. لم يستطع أنْ يشجب الشخصيّ. وظل الشخصيّ يتفجّر من أيرا، على الرغم من محاولته أنْ يكون متعصّباً وأحاديّ الفِكر. أنْ تُحافظ على ولائك للحزب هو أمر وأنْ تكون نفسك وغير قادر على كبح نفسك أمرٌ آخر. لم يكن هناك جانبٌ منه يمكن كبته. لقد عاش أيرا كل شيء على المستوى الشخصيّ، كما قالت دوريس، حتى آخر رمق، بما في ذلك تناقضاته».

«حسن، ربما نعم، وربما لا. لقد كانت التناقضات حتميّة. الانفتاح الشخصيّ والسريّة الشيوعيّة. الحياة المنزليّة والحزب. الحاجة إلى طفل، والرغبة في إنشاء عائلة - هل ينبغي على حزبيّ صاحب طموحات أنْ يهتم بإنجاب طفل كهذا؟ على المرء ربما أنْ يفرِض حدّاً حتى على تناقضاته. شاب من الشارع يتزوج من *فنّانة*؟ شاب في ثلاثينيات عمره يتزوج من امرأة في أربعينيات عمرها مع طفلة كبيرة راشدة ما زالت تعيش معها في المنزل؟ والفوارق لا نهاية لها. ولكن، كان هذا هو التحدّي. ومع أيرا، كلما كثُرَ الخطأ، زاد ما يتطلّب التصحيح».

«قلتُ له: «أيرا، إنَّ الوضع مع بيننغتون ***لا يمكن تصحيحه***. والسبيل الوحيد لتصحيحه هو بتواجدك هناك». وأخبرته بصورة ما عمّا كان أوداي يخبره به وهو مع دونا: هذه ليستْ سياسة - هذه حياة خاصّة. لا يمكنكَ أنْ تجلب إلى الحياة الخاصّة الأيديولوجيا التي جلبتها إلى العالم الواسع. لا يمكنكَ أنْ تُغيِّر دونا. يجب أنْ ترضى بما لديك؛ فإذا كان لا يُحتَمَل، فغادر. هذه امرأة تزوّجتْ مثليّاً، عاشتْ اثنا عشر عاماً مع زوج مثليّ لم يلمسها، واستمرّتْ في تورّطها معه على الرغم من أنّه يتصرَّفُ أمام ابنتها بطريقة تعتبرها ضارّة بمصلحة ابنتها. وينبغي عليها أنْ تعتبر ذلك حتى ضاراً أكثر بسيلفيد لأنها لا ترى والدها أبداً. لقد وقعت في ورطة، ربما *ليس* هناك حل مناسب تلجأ إليه - لذلك دع الأمر، لا تزعجها بشأنه، دعها».

«ثم سألته: أخبرني، هل الأشياء الأخرى لا تُطاق؟ أشياء أخرى تريد أنْ تعمل على تغييرها؟ لأنه إنْ كان هذا صحيحاً، فدعك منه. لا تستطيع أنْ تغيِّر *أيَّ شيء*».

«لكنَّ التغيير هو ما عاش أيرا من أجله. *لماذا* عاش. لماذا عاش حياة *شاقّة*. إنَّ جوهر الرجل هو أنْ يتعامل مع كل شيء على أنّه تحدٍ لإرادته. عليه دائماً أنْ يبذل جهداً. يجب أنْ يُغيِّر كل شيء... بالنسبة إليه ذلك كان هدف الوجود في العالم. كان كل ما أراد أنْ يُغيِّره موجود هنا».

«ولكن حالما ترغب بشغف فيما هو بعيد عن سيطرتك، تصبح قابلاً للإحباط - تُصبح مُستعداً للركوع».

«قلتُ لأيرا: أخبرني، إذا اضطُررتَ إلى وضعتَ كل الأشياء التي لا تُطاق في رتل ووضعتَ خطّاً تحتها وجمعتها معاً، فهل يكون حاصل الجمع «لا تُطاق على الإطلاق»؟ لأنها إنْ كانت كذلك، فحتى لو أنكَ وصلتَ إلى هناك يوم قبل أمس، حتى إنْ كان هذا الزواج لا يزال حديث العهد، فيجب أنْ تذهب. لأنَّك تميل، عندما ترتكب خطأً، إلى ألّا تذهب. إنَّ ميلك هو إلى أنْ تُصحِّح الأشياء بتلك الطريقة العنيفة التي يُحب أفراد هذه العائلة أنْ يُصحّحوا الأشياء بها. وهذا ما يُقلقني الآن».

«لقد أخبرني تواً عن زواج إيف الثالث، الزواج ما بعد بيننغتون، من فريدمان، فقلتُ له: يبدو أن الكوارث تتوالى. فماذا تنوي أنْ تفعل، بالضبط - أنْ تُبطِل الكوارث؟ هل المُحرِّر الأكبر بعيداً عن خشبة المسرح هو نفسه عليها؟ ألهذا السبب تسعى إليها في المقام الأول؟ هل سوف تبيِّن لها أنّكَ أفضل من النجم الهوليووديّ؟ هل ستبيِّن لها أنَّ اليهوديّ ليس رأسمالياً كفريدمان بل آلة تُحقّق العدل مثلك؟».

«لقد ذهبتُ مع دوريس لتناول طعام العشاء هناك. شاهدتُ عائلة بيننغتون فريم في بثّ حيّ، وأفضيتُ بما لديّ أيضاً حول هذا الموضوع. أفضيتُ بكل شيء: إنَّ تلك الابنة هي بمثابة قنبلة موقوتة، يا أيرا. إنها ممتعضة، متجهّمة، ومؤذية - وتكاد لا تستعرض نفسها حتى كأنها غير

موجودة. إنها ذات إرادة قوية ومتعوّدة على أنْ تحصل على ما تريد، وأنت، يا أيرا رينغولد، تقفُ عائقاً في طريقها. لا ريب في أنكَ أنتَ أيضاً قويّ الإرادة، وأضخم جثّة وأكبر سناً ورجل. لكنّكَ لن تتمكّن من إظهار إرادتك. وفيما يتعلَّق بالابنة، ليست لك عليها أيّة سلطة أخلاقيّة **لأنكَ** أضخم جثّة وأكبر سناً ورجل. وسوف يكون هذا مصدر إحباط بالنسبة إلى واحد من أساطين مجال السلطة الأخلاقيّة مثلك. سوف تكتشف فيك الابنة معنى كلمةٍ ما كان يمكن أنْ تبدأ بتعلُّم معناها من أمّها: المقاومة. أنت تشكّلُ عائقاً طوله ستُّ أقدام وستُّ بوصات، وخطراً يتهدَّد طغيانها على النجمة التي هي أمّها».

«استخدمتُ لغة قوية. كنتُ أنا نفسي شخصاً انفعالياً في تلك الأيام. كنتُ أضطرب بسبب التصرُّف اللاعقلانيّ، خاصة عندما يكون مصدره أخي. كنتُ أشدّ حماساً مما ينبغي، لكنني لم أُبالغ حقاً في تقدير حالتي. رأيتُها على الفور، تظهر من البوابة، في الليلة التي ذهبنا فيها إلى هناك لتناول العشاء. أعتقد أنكَ لم تكن لتفوّت تلك المناسَبة، لكنَّ السخط انتاب أيرا: «كيف تعرف كل هذا؟ كيف تعرف كل هذه الأشياء؟»، يقول «ألأنك شديد الذكاء، أم لأنني شديد الغباء؟». قلتُ له: أيرا، هناك عائلة من شخصَين تعيش في ذلك المنزل، لا تتألَّف من ثلاثة أشخاص، بل من شخصَين وليست لها صلات إنسانية حقيقية إلا كلٌّ منها مع الآخر. هناك عائلة تعيش في ذلك المَنزل لا تستطيع أنْ تعثر على الميزان الصحيح **لأي شيء**. وكانت الابنة تبتز أمّها عاطفياً. وأنتَ لن تعيش حياة سعيدة كحامٍ لشخص يتعرَّض للابتزاز العاطفي. لا شيء أشدّ وضوحاً في ذلك المنزل من عكس السلطة. وسيلفيد هي التي تشهر السوط. ولا شيء أشدّ وضوحاً من كون الابنة تنطوي على ضغينة توغر صدرها ضد الأم. ولا شيء أشدّ وضوحاً من كون الابنة ضمرت تلك الضغينة ضد الأم لارتكابها جريمة لا تُغتَفَر. لا شيء أشدّ وضوحاً من مدى انعدام القدرة على كبح الاثنتين بسبب عواطفهما المتوتّرة. ليس هناك حتماً أيّة مسرّة

متبادلة بين الاثنتين. ولن يكون هناك أيُّ شيء يُشبه حالة راقية ومتواضعة من الانسجام بين أمٍ ينتابها رعبٌ شديد وهذه الابنة المتعجرفة التي لم تُفطَم بعد».

«أيرا، إنَّ العلاقة بين أم وابنة أو بين أم وابن ليست شديدة التعقيد على الإطلاق، وقلت له: أنا لديّ ابنة، وأعرفُ كيف هنّ البنات. أنْ تكون مع ابنتك لأنكَ مُتيَّمٌ بها، لأنكَ تحبّها، هو أمر؛ وأمرٌ آخر أنْ تكون معها لأنكَ تشعر بالرعب منها. يا أيرا، إنَّ حنق الابنة من زواج أمّها من جديد سوف يُدمّر منزلك من أساسه. «إنَّ كل عائلة تعيسة تكون كذلك على طريقتها الخاصة»[31]. إنني ببساطة أصِفُ لك طبيعة تعاسة تلك العائلة».

«هنا أضاء وجهه. قال: اسمع، أنا لا أُقيمُ في جادّة ليهاي. أنا أحبّ دوريس، إنّها زوجة رائعة وأمٌ رائعة، لكنني شخصياً لستُ مُهتماً بالزواج اليهوديّ البورجوازي بوجود شخصَين مختلفَين. أنا لم أعش أبداً داخل التقاليد البورجوازيّة ولا نيّة لديّ في أنْ أبدأ بذلك الآن. إنكَ في الحقيقة تفترض أنني أتخلّى عن امرأة أحببتُها، عن مخلوقة موهوبة، رائعة – والتي، بالمناسبة، لم تكن حياتها أيضاً مفروشة بالورود – أتخلّى عنها وأهرب بسبب هذه الطفلة التي تعزف على آلة الهارب؟ وأنَّ هذا بالنسبة إليك هي مشكلة حياتي الكبرى؟ إنَّ مشكلة حياتي هي تلك النقابة التي أنتمي إليها، يا مَري، هو نقل نقابة الممثِّلين اللعينة تلك من مكانها الآن إلى حيث تنتمي. مشكلة حياتي هي إيجاد كاتب لعرْضي. مشكلتي ليست كوني أقفُ عائقاً في طريق ابنة إيف – بل في كوني أقفُ عائقاً في طريق آرتي سوكولو، *هذه هي* المشكلة. إنني أجلس مع هذا الرجل قبل أنْ يُسلّمني الحوار، وأراجعه معه، وإذا لم يُعجبني دوري، يا مري، أخبره بذلك. لن *أؤدي* الدور اللعين إذا لم يُعجبني. وأجلسُ وأتشاجر معه إلى أنْ يُعطيني دوراً يبثّ رسالة اجتماعيّة...».

«اترك الأمر لأيرا وسوف يُسيء الفهم بعدوانيّة. إنَّ عقله يتحرّك،

31- الجملة التي تبدأ بها رواية آنّا كرنينا لليو تولستوي - المترجم.

ولكن ليس بوضوح. إنه لا يتحرّك إلّا بالقوة. قلت له: لا يهمني إنْ كنتَ تقفُ على خشبة المسرح وتُخبر الناس كيف يكتبون حواراتهم. أناأ أتكلَّم عن شيء آخر. أنا لا أتحدّث عمّا هو تقليدي أو غير تقليديّ أو بورجوازيّ أو بوهيميّ. أنا أتحدث عن المنزل حيث الأم سجّادة تدعو إلى الرثاء تطؤها الابنة. ومن الجنون أنَّك أنت، ابن والدنا، الذي ترعرع في منزلنا، يرفض أنْ يُدرك كم يمكن للترتيبات العائليّة أنْ تكون مُدمّرة، مُدمِّرة للناس. أقصد التشاجُر الموهِن. واليأس اليوميّ. والمفاوضات التي لا تنتهي. هذا هو المنزل المُدمَّر بالكامل...».

«حسن، لم يكن صعباً على أيرا أنْ يقول «اغرب عن وجهي» ويرفض أنْ يراني بعد ذلك. وهو لم يتغيَّر. إنّه يُقلِع ثم ينطلق كالصاروخ، ثم يتلاشى. لم أستطع أنْ أتوقّف، ولم أرغب في التوقُّف، وهكذا قال لي أنْ أغرب عن وجهه وغادر. وبعد ذلك بستة أسابيع كتبتُ له رسالة لم يردّ عليها بجواب. ثم صرت أتّصل به هاتفياً فلا يردّ. وفي النهاية ذهبتُ إلى نيويورك وحاصرت الرجل واعتذرتُ له. «كنتَ على صواب، وكنتُ مُخطئاً. هذا ليس من شأني. لقد اشتقنا إليك. ونريدك أنْ تأتي إلينا. وإذا أردتَ أنْ تُحضِر إيف، فليكن – وإذا لم ترغب، فلا بأس. إنَّ لورين مشتاقة إليك...». إلى آخره إلى آخره. لقد أردتُ أنْ أقول: لقد وضعتَ عينك على التهديد الخطأ. إنَّ ما يُهدّدك ليس الرأسماليّة الإمبرياليّة. ما يُهدّدك ليس تصرفاتك العامة، بل هو حياتك الخاصة. لطالما كانت هذه هي المشكلة وسوف تبقى كذلك دائماً».

«مرّتْ عليّ ليالٍ لم أستطع خلالها النوم. كنتُ أقول لدوريس «لِمَ لا *يتركها*. لِمَ لا يستطيع أنْ *يتركها*؟»، أتعلم بمَ كانت دوريس تُجيب؟ – «لأنه يشبه أي شخص آخر» – إنكَ لا تُدرك الأشياء إلا بعد أنْ تنتهي. لِمَ أنتَ لا تتركني *أنا*؟ ألسنا نتّصفُ بالشيء الإنسانيّ الذي يجعل من الصعب على أي شخص أنْ يرتبط بأي شخص آخر؟ لقد تناقشنا. واختلفنا. وحصلنا على ما حصل عليه الجميع – قليل من هذا وقليل من

ذاك، الإهانات الصغيرة التي تتراكم، والإغراءات التي تتراكم. ألا تعتقد أنني أعلمُ أنَّ هناك نساءً ينجذبنَ إليك؟ وأنَّ المعلّمات في المدرسة، والنساء في النقابة، ينجذبن بقوة إلى زوجي؟ ألا تعتقد أنني أعلم أنك، بعد عودتك من الحرب، أمضيتَ عاماً وأنت لا تعلم لماذا ما زلت معي، وتتساءل في كل يوم «لِمَ لا أتركها؟» لكنكَ لم تفعل. لأنَّ الناس في العموم لا يفعلون. الجميع ساخطون، ولكن في المُجمل الناس **لا** ***يُغادرون***. خاصة أولئك الذين سبقَ أنْ هُجِروا، كما حدث معك ومع أخيك. افعلا ما كنتما قد تعرّضتما له وسوف تُقدّران الاستقرار عالياً. بل وقد تغاليان في تقديره. إنَّ أصعب شيء في العالم هو قطع روابطك في الحياة والرحيل. إنَّ الناس يُجرون آلاف التعديلات من أجل إصلاح أشد سلوك مَرَضيّ. فلماذا، من الناحية العاطفيّة، يرتبط رجلٌ من هذا النوع بامرأة من نوعها بعلاقة متبادلة؟ إنَّ السبب المعتاد هو: أنَّ عيوبهما متطابقة. إنَّ أيرا لا يستطيع أنْ يفصِم ذلك الزواج بقدر ما لا يستطيع أنْ يترك الحزب الشيوعيّ».

«على أيّة حال، بشأنْ الطفل، جوني أوداي رينغولد. أخبرتْ إيف أيرا أنّه عندما أنجبتْ سيلفيد في هوليوود، كان الأمرُ مختلفاً بالنسبة إليها عمّا كان بالنسبة إلى بيننغتون. فعندما كان بيننغتون يخرج في كل يوم إلى العمل في السينما، كان الجميع يقبلون الأمر؛ وعندما كانت هي تخرج إلى العمل في السينما كل يوم، كانت الطفلة تُترَك مع مربّية، ولذلك كانت إيف تُعتبَر أمّاً سيّئة، أُمّاً مُهمِلة، أُماً أنانيّة، وكان الجميع غير سعيد، بمَن فيهم هي. فقالت له إنها لا تستطيع أنْ تتحمّل أكثر من ذلك. لقد كان الأمر صعباً جداً عليها وعلى سيلفيد. قالت لأيرا إنَّ ذلك التوتّر هو الذي أدّى، من نواحٍ عِدَّة، إلى دمّار ***مسيرتها*** المهنيّة في هوليوود».

«لكنَّ أيرا قال إنها لم تعُد تعمل في السينما، وإنها تعمل في الإذاعة. كانت نجمة في الإذاعة ولم تكن تذهب في كل يوم إلى الاستوديو – كانت تذهب يومين في الأسبوع. والأمر ليس هو نفسه. وأيرا لن يفعل

ما فعله كارلتون بيننغتون، لن يتركها تائهة مع الطفلة. ولن يحتاجوا إلى مُربّية. اللعنة عليها. كان مُستعداً لتربية ابنهما جوني أوداي بنفسه لو اضطرَّ إلى ذلك. إنّ أيرا حالما يُمسك بشيء لا يتركه أبداً. وإيف ليست من النوع الذي يتحمّل الحشود. وأخذ الناس يُلاحقونها فانهارتْ. وهكذا اعتقد أنّه أقنعها في هذا الموضوع، أيضاً. وأخيراً قالت له إنه على صواب، إنَّ الأمر ليس نفسه، وقالت حسناً، سوف أُنجِب الطفل، وفرح كثيراً، وصل إلى السماء السابعة - كان يجب أنْ تراه».

«ولكن في تلك الليلة قبل أنْ يأتي إلى نيوارك، قبل أنْ تلتقيا أنتما الاثنان، انهارتْ وقالت إنها لا تستطيع أنْ تخوض التجربة. أخبرته بمدى إحساسها بالبؤس لأنها تحرمه من شيءٍ يُريده بشدّة، لكنّها لا تستطيع أنْ تخوض تلك التجربة من جديد. واستمر ذلك الجدال ساعات طوال، وماذا كان في وسعه أنْ يفعل؟ ما الفائدة المرجوّة لأي شخص - لها، أو له، أو لجوني الصغير - أنْ يكون هذا بمثابة خلفيّة لحياتهم العائليّة؟ كان بائساً، وبقيا يقظَين حتى الساعة الثالثة أو الرابعة فجراً في تلك الليلة، أما بالنسبة إليه فكان الأمر قد انتهى. كان رجلاً مُثابراً لكنّه لم يتمكّن من تثبيتها إلى سريره وإبقائها هناك مدة سبعة أشهرٍ أخرى لكي تحمل طفلاً. إنْ كانت لا تريده، فهي لا تريده. وهكذا قال لها إنه سيذهبُ معها إلى كامدن إلى طبيب الإجهاض، وإنها لن تكون وحدها».

***

لم يسعني وأنا أُصغي إلى مري أنْ أوقف سيل ذكرياتي مع أيرا بالتوافد عليّ، ذكريات لم أكنْ أعرف حتى أنني أحتفظُ بها، حول كيف كنتُ ألتهمُ كلماته وقناعاته الناضجة، ذكريات واضحة عنا نحن الإثنين ونحن نمشي في متنزّه اليهود وهو يُخبرني عن الأطفال المُعدمين الذين شاهدهم في إيران - كان أيرا ينطقها: أيْ - ران.

قال لي أيرا: «عندما وصلتُ إلى إيران كان السكان المحليون يُعانون من كل ما يمكن تخيّله من أمراض. وبما أنّهم مسلمون، كانوا يتوضؤون

قبل التغوُّط وبعده – لكنهم كانوا يفعلون ذلك بماء النهر، النهر الذي كان يسيل أمامنا، إنْ صحّ التعبير. كانوا يغسلون أيديهم بالماء نفسه الذي تبوّلوا فيه. كانت ظروف حياتهم فظيعة، يا نيثان. البلاد يحكمها الشيوخ، وهم ليسوا شيوخاً بصورتهم الرومانسيّة، بل أشبه بطغاة القبيلة. أتفهم؟ كان الجيش يعطيهم الكثير من المال لكي يعمل المواطنون المحليون لصالحنا، وكنّا نُعطي المواطنين حُصصاً من الأرز والشاي. فقط. أرزاً وشاياً. لم أشهد في حياتي كلها ظروفاً للعيش كتلك. ونقّبتُ عن عمل في فترة الكساد الاقتصاديّ. أنا لم أنشأ في فندق الريتز – لكنَّ ذلك كان شيئاً آخر. عندما كنا نُضطر إلى التغوُّط، على سبيل المثال، كنا نفعل ذلك في دلاء من الحديد المطلي بالزنك- دلاء من الحديد، هذا ما كان متوفراً. وكان على أحدهم أنْ يصب الماء لأجلك، وهكذا كنا نُفرِغها فوق مكبّ النفايات. ومَنْ تظن كان هناك؟».

فجأة لم يعُد أيرا قادراً على الاستمرار، لم يتمكّن من الكلام. ولم يتمكن من المشي. كان دائماً ينتابني الخوف عندما يحدث له ذلك. ولأنه كان يعلم هذا، كان يربت على الهواء بيده، مُشيراً لي أنْ أبقى ساكناً، أنْ أنتظره، وسوف يُصبح بخير.

لم يكن في استطاعته أنْ يُناقش بتوازن الأشياء التي لا تعجبه. كان يمكن لهيئته الرجوليّة كلها أنْ تتغيَّر حتى تكاد لا تتعرَّف عليه عند ذِكر أيّ شيء يتضمّن الانحطاط الإنسانيّ، وربما بسبب نشأته غير السويّة وهو صغير، تضمَّنَ ذلك على وجه الخصوص مُعاناة الأطفال وانحطاطهم. وعندما قال لي «ومَنْ تظن كان هناك؟» عرِفتُ مَنْ كان هناك من الطريقة التي بدأ بها يشهق «آآآه... آآآه... آآآه» وكأنه يوشك أنْ يموت. وعندما استعاد تماسكه العاطفيّ بالقدر الكافي ليستمر في المشي، سألتُه وكأنني لا أعلم، «مَنْ، أيرا؟ مَنْ كان هناك؟».

«الأطفال. إنهم يعيشون هناك، وكانوا يُنقّبون في النفايات بحثاً عن طعام».

هذه المرّة عندما توقف عن الكلام استولى عليّ الخوف تماماً؛ خشيتُ أنْ يُعقَد لسانه، أنْ يتغلّب عليه انفعاله - ليس فقط بسبب اضطراب مشاعره بل من إحساسه بالوحشة الساحقة التي بدا فجأة أنّها تُجرِّده من قوّته - حتى أنّه لم يعثر على طريق العودة إلى كونه بطلاً شجاعاً، غاضباً، الذي تولّعت به، وعرفتُ أنني ينبغي أنْ أفعلَ شيئاً، أيَّ شيء أستطيع فعله، وحاولتُ على الأقلّ أنْ أُكمِل الفكرة بالنيابة عنه. قلتُ «وكان شيئاً مُريعاً».

ربتَ على ظهري وعاودنا المشي من جديد.

أخيراً أجاب «كان كذلك بالنسبة إليّ. أما بالنسبة إلى رفاقي في الجيش فلم يُثِر اهتمامهم. لم أسمع أياً منهم يُعلّق عليه. ولم أر أحداً - من بلدي أميركا - يأسى على ذلك الوضع. وثار غضبي. ولكن لم يكن في وسعي أنْ أفعلَ أيَّ شيء بهذا الشأن. في الجيش لا توجد ديمقراطيّة. أتفهم؟ لا يمكن أنْ تذهب وتحكي ذلك لصاحب رتبة أعلى من رتبتك. وهذا الوضع مُستمر منذ يعلمُ الله كم من الوقت. هذا هو تاريخ العالم. هكذا يعيش الناس». ثم انفجر قائلاً، «هذا ما يجعل *الناس* يعيشون!».

تجوَّلنا معاً في أرجاء نيوارك لكي يُريني أيرا الأحياء غير اليهوديّة. أنا لم أكن أعرفها حقاً - حي الجناح الأول، حيث ترعرع وحيث يعيشُ الإيطاليون الفقراء؛ داون نِك، حيث يعيش الفقراء الأيرلنديون والفقراء البولنديون - وكان أيرا طوال الوقت يشرح لي قائلاً إنّه على عكس ما قد أكون قد سمعتُ من البالغين، هؤلاء لم يكونوا ببساطة من غير اليهود بل «أناساً عاملين ككل العاملين في هذا البلد، كادّين، فقراء، لا حول لهم ولا قوة، يُكافحون في كل يوم لعين لكي يعيشوا حياة لائقة وكريمة».

ولجنا الجناح الثالث في نيوارك، حيث كان الزنوج قد جاؤوا لكي يحتلوا الشوارع والمنازل في حي المهاجرين اليهود الحقير. وتحدّث أيرا مع كل مَنْ قابل، رجال أو نساء، وفتية وفتيات، وسألهم عن أعمالهم وكيف يعيشون وعن رأيهم ربما في تغيير «النظام القذر وكامل الأسلوب

اللعين في القسوة الجاهلة» التي حرمتهم من المساواة. ويجلس على مقعد خارج محل حلاقة خاص بالزنوج في شارع سبروس البائس، عند منعطف المنطقة حيثُ كان والدي قد نشأ في مسكن جادّة بلمونت، ويقول للرجال المجتمعين على الرصيف، «إنني دائماً أتدخّل في أحاديث الناس»، ويبدأ بالتحدُّث معهم عن مساواتهم، ولم يبدُ لي أبداً أكثر من نسخة طويلة القامة من أبراهام لينكولن التمثال البرونزي القابع عند أسفل الدَرَج العريض المؤدي إلى أعلى إلى قاعة محكمة مقاطعة إسكس في نيوارك، نسخة غتزون برغلوم[32] المشهورة محلياً للينكولن، الجالس منتظراً بترحاب على مقعد من الرخام أمام قاعة المحكمة، بهيئته المؤنِسة ووجهه النحيل ذي اللحية الذي ينمّ عن حِكمته وجدّيته وأبويّته وحُسن تمييزه وطيبته. وهناك أمام محل الحلاقة في شارع سبروس - عندما طلبَ أحدهم منه الإدلاء برأيه، وأعلَنَ أيرا بنبرة صوته الخطابيّة، قائلاً إن «للزنجي الحقّ في أنْ يتناول طعامه في أي مكان يستطيع أنْ يُسدِّد فيه فاتورته!» - أدركتُ أنني لم أتخيّل، ناهيك عن أنْ أرى، شخصاً أبيض مُتساهلاً إلى تلك الدرجة مع الزنوج.

«ما أشدّ ما يعتبره غالبية الناس خطأ تجهُّم الزنجي وحماقته - أتعلم ما هو، يا نيثان؟ إنّه درعٌ واقٍ. ولكن عندما يُقابلون شخصاً مُتحرّراً من تحامُله العرقيّ - سوف ترى ما يحدث، إنهم لا يعودون في *حاجة* إلى ذلك الدرع. لقد حصلوا على نصيبهم من المعتوهين، لا ريب في ذلك، ولكنْ قُلْ لي مَنْ لم ينله».

عندما اكتشفَ أيرا ذات يوم خارج محل الحلاقة رجلاً طاعناً في السن، أسود ويشعر بالمرارة فإنَّ أشدَّ ما أراده هو أنْ يُنفّس عن حقده بنقاش عنيف عن وحشيّة الإنسانيّة - «إنَّ ما نعرفه لم ينتج عن طغيان

32- غتزون برغلوم (1876 - 1941): نحّات أمريكيّ. مشهور خاصة لتنفيذه التماثيل النصفيّة للرؤساء الولايات المتحدة، وخاصة رؤوس الرؤساء الضخمة التي تتبوّأ جبل روشمور - المترجم.

الطُغاة بل عن طغيان جشع الإنسانيّة، وجهلها، ووحشيّتها، وحقدها. إنَّ طغيان الشرّ موجود في ***كل مكان***» – ورجعنا مرات عِدَّة أخرى، وتجمَّع الناس حولنا لكي يستمعوا إلى أيرا يتكلَّم بإحساسه الساخط المؤثِّر وكان دائماً يتأنّق بارتداء بذلة سوداء ووضع ربطة عنق وهو الذي يُخاطبه الرجال الآخرون باحترام بلقب «السيد بريسكوت»: كان أيرا يستقطب حوله شخصاً بعد آخر، زنجيّاً بعد آخر، وتدور مناظرات حول لينكولن ودوغلاس بشكل غريب وجديد.

سأله أيرا، بكياسة، «أما زلتَ مُقتنعاً بأنَّ الطبقة العاملة سوف تستمرّ في السعي وراء فُتات مائدة الإمبرياليّ؟»، «نعم، يا سيدي! إنَّ جماهير الرجال من كل الألوان هي وسوف تبقى بلا عقل، وبليدة، وخبيثة، وحمقاء. وإذا أصبحتْ أقلّ فقراً، فسوف تُصبح أكثر من ذي قبل بلا عقل، وبليدة، وخبيثة، وحمقاء!». «في الواقع، هذا ما كنتُ أفكِّرُ فيه، سيد بريسكوت، وأنا مُقتنِع بأنّكَ مُخطئ. والحقيقة البسيطة القائلة إنَّه ليس هناك ما يكفي من الفُتات لإطعام الطبقة العاملة وإبقائها سهلة القياد تُفنِّد هذه النظريّة. إنكم جميعاً أيّها السادة الحضور هنا تستخفّون باقتراب حدوث انهيار صناعي. صحيحٌ أنَّ غالبيّة العاملين سوف يقفون مع ترومان ومع خطة مارشال إذا تيقّنوا من أنَّ ذلك سوف يحفظ لهم وظائفهم. لكنَّ النقيض هو ما يلي: إنَّ توجيه كمّ الإنتاج إلى مواد حربيّة، للقوات الأمريكية ولتلك الحكومات الألعوبة، ***يُفقِرُ العمال الأمريكيين***».

حتى في وجه كراهية البشر التي يبدو أنَّ السيد بريسكوت اكتسبها بصعوبة، حاولَ أيرا أنْ يُقحِم بعض العقل والأمل إلى النقاش، زارعاً إنْ لم يكن في السيد بريسكوت ففي جمهور الرصيف وعياً بالتحوّلات التي يمكن إحداثها في حياة الرجال عبر الفعل السياسيّ المنسجم. وبالنسبة إليّ كان، كما يصفُ ووردسوورث أيام الثورة الفرنسيّة، «سعادة قُصوى»: «في ذلك الفجر كان النعيم أنْ أكون حياً / أما أنْ أكون شاباً فهو سعادة قُصوى!». نحن الاثنان، من البيض ويُحيط بنا عشرة رجال

أو اثنا عشر رجلاً من السود، وليس لدينا ما نقلقُ بشأنه ولا شيء لديهم يخشونه: لم نكن نحن مُضطهديهم أو كانوا هم أعداءنا - كانت علاقة المُضطهِد-العدو التي شعرنا كلنا بالرعب منها هي الأسلوب الذي نُظِّمَ به المجتمع وأُدير.

بعد الزيارة الأولى لشارع سبروس استضافني لتناول كعكة الجبن على مائدة عشاء يهوديّة، وفي أثناء تناول الطعام، أخبرني عن الزنوج الذين عمِلَ معهم في شيكاغو.

قال «كان ذلك المصنع قائماً في قلب نطاق شيكاغو الأسود. وحوالي خمسة وتسعين بالمئة من المُستخدمين كانوا من الملوّنين، وهناك يأتي دور الروح المرحة التي حكيتُ لك عنها. إنه المكان الوحيد الذي عرفته ووجدتُ فيه الزنوج متساوين بشكل مُطلق مع كل شخصٍ آخر. وهكذا لا يشعر البيض بالذنب ولا يشعر السود بالغضب طوال الوقت. أتفهم؟ والترقيات تعتمد فقط على الأقدميّة - ولا تحايُل في ذلك».

«كيف هو التعامُل مع الزنوج؟».

«حسب تقديري، لم يكن هناك شكٌ فينا نحن البيض. أولاً، كان الملوّنون يعلمون أنَّ أيَّ أبيض أرسلته النقابة إلى هذا المصنع هو إمّا شيوعيّ أو رفيق سفر مُخلِص. لذلك لا يُثبّطونه. كانوا يعلمون أننا متحرّرون من التحامُل العرقيّ كأي راشد في هذا الزمن وهذا المجتمع. عندما ترى أحدهم يقرأ صحيفة ففي الغالب أنها «*الديلي ووركر*». أما صحيفتا «*شيكاغو ديفندر*» و «*ريدنغ فورم*» فتأتيان في الدرجة الثانية. كان هيرست[33] وماكورميك[34] يتحكّمان على هذا المسار».

«ولكن كيف هم الزنوج حقاً؟ برأيك الشخصي».

«في الواقع، يا صاحبي، بعضهم من النوع القبيح، إنْ كان هذا ما تسأل

33- هيرست ناشر لعدد من الصحف الرائجة.

34- ماكورميك: ماركة تجاريّة لعدد هائل من مصانع إنتاج الأطعمة والمطاعم.

عنه. وهذا له أساس في الواقع. لكنها أقلّية صغيرة، ومرور قطار مرفوع خلال أحياء الزنوج مؤشّر واضح لكل مَنْ لديه عقل متفتّح إلى ما يجعل الناس بتلك الأشكال. والميزة التي لاحظتُها أكثر من غيرها بين الزنوج هي ودّهم الدافئ. وفي مصنع التسجيلات الذي نعمل فيه، يُحبّون الموسيقى. في مصنعنا، هناك مُكبّرات صوت ومُضخمات صوت في كل مكان، ويمكن لأي شخص يريد أنْ يستمع إلى لحن – وهذا كله في أثناء العمل – يكفي أنْ يطلبه. إنَّ أولئك القوم يُغنون، ويرقصون – وأمرٌ عاديّ أنْ يُمسك رجل بفتاة ويرقصان. والفتيات الزنجيات يُشكّلنَ ثُلث المُستخدمين. وهن فتيات لطيفات. وكنا نُدخّن، ونقرأ، ونُعدّ القهوة، ونتناقش بأعلى أصواتنا، والعمل مُستمر دوال الوقت من دون توقّف أو انقطاع».

«هل لديك أصدقاء من الزنوج؟».

«طبعاً، طبعاً لديّ. كان هناك شاب ضخم الجثّة اسمه إيرل شيءٌ ما أو ما شابه حاز على إعجابي في الحال لأنه بدا أشبه ببول روبسون. لم يستغرق مني الكثير من الوقت لأكتشف أنه من نوعية المتشرد العامل باجتهاد التي أنا منها. كان إيرل يستقلّ الحافلة والقطار المرفوع بقدر ما أفعل، وكنا نصرّ على أنْ نستقل الحافلات نفسها، كما يفعل الرفاق، وعلى أنْ نجد مَنْ نتبادل الحديث معه. كنتُ وإيرل نتبادل الأحاديث ونضحك كما نفعل ونحن نعمل إلى أنْ نصل إلى بوابة المصنع. ولكن حالما ندخل، وحيث يوجد من البيض مَنْ لا يعرفهم، يلزم إيرل الصمت المُطبِق ويكتفي بالقول «أراك لاحقاً»، عندما أترجّل من القطار المُعلّق. وهذا كل شيء. أتفهم؟».

على صفحات الدفاتر الصغير والبُنيّة التي كان أيرا قد جلبها معه من الحرب، تناثرت بين ملاحظاته وتصريحات بما يؤمن به، أسماء وعناوين أمريكية لكل الجنود الذين تبنّوا آراء سياسيّة تشبه آراءه ممَّن قابلهم خلال الخدمة. كان يقتفي آثار أولئك الرجل، بإرسال رسائل إلى كل أنحاء البلد ويقوم بزيارة الذين يُقيمون في نيويورك وجيرزي.

وذات يوم خرج إلى ضواحي ميبلْوودْ، إلى الغرب من نيوارك، لزيارة الرقيب السابق إروين غولدستين، الذي كان في إيران موالياً لليسار على غرار جوني أوداي - كان أيرا يُسمّيه «الماركسي المتطور جداً» - ولكنْ، في أرض الوطن، اكتشفنا أنّه متزوج من عائلة تمتلك مصنعاً للفرش في نيوارك والآن، وهو والد لثلاثة أطفال، أصبح وارثاً لكل ما كان ذات يوم يُعارِضه. لم يكن حتى يُناقش أيرا حول تافت هارلي[35]، أو العلاقات بين الأعراق المُختلفة، أو كبح الأسعار، بل لم يكن حتى يتناقش مع أيرا. كان يكتفي بالضحك.

كانت زوجة غولدستين خارج المنزل مع أولاده لقضاء بعد الظهيرة مع أقربائها، فجلسنا معاً في مطبخه نشرب الصودا بينما غولدستين، النحيل والضئيل الحجم بهيئة المتسكّع عند منعطف الشارع المتغطرس، والعارف، وحادّ الذكاء، يضحك ويسخر من كل ما قاله أيرا. وتفسير تحوّله؟ قال غولدستين لي: إنني لا أعرف أيَّ شيء. لا أعرف عمّا كنتُ أتكلَّم. يا بنيّ، لا تُصغي إليه. أنت تعيش في أميركا، أعظم دولة في العالم وأعظم نظام في العالم. طبعاً، الناس يُعاملون بشكل سيء. أتعتقد أنهم لا يُعامَلون بشكل سيء في الاتحاد السوفييتي؟ إنّه يقول لك إنَّ الرأسماليّة نظام تنافُس. وما معنى الحياة إذا لم تكن نظام تنافُس؟ هذا نظام منسجم مع الحياة. ولأنه كذلك، هو ينجح. اسمع، إنَّ كل ما يقوله الشيوعيون عن الرأسماليّة صحيح، وكل ما يقوله الرأسماليون عن الشيوعيّة صحيح. والفرق هو أنَّ نظامنا ينجح لأنه قائم على أساس حقيقة أنانيّة الناس، ونظامهم لا ينجح لأنه قائم على أساس حكاية خرافيّة عن *الأخوّة* بين الناس. وهي حكاية خرافيّة مجنونة بحيث إنّهم لكي يدفعوا الناس إلى تصديقها اضطروا إلى إرسالهم إلى سيبيريا. ولكي يدفعوهم إلى الإيمان بأخوّتهم، كان عليهم أنْ يتحكّموا بكل فكرة تخطر للناس أو أنْ يقتلوهم. في حين أنَّ الشيوعيين في أميركا، وفي أوروبا، يستمرون

35- قانون تافت هارتلي: قانون أمريكي يحدّ من نشاطات نقابات العمّال - المترجم.

في هذه الحكاية الخرافيّة حتى وهم يعلمون حقيقتها. طبعاً، أنت لا تعلم لبعض الوقت. ولكن ما الذي لا تعرفه؟ أنت تعرف المخلوقات البشريّة. إذن فأنت تعرف كل شيء. أنت تعرف أنَ هذه الحكاية الخرافيّة لا يمكن أنْ تكون حقيقيّة. وإذا كنتَ شاباً صغيراً جداً فلا بأس. في العشرين، أو الواحد والعشرين، أو اثنين وعشرين، لا بأس. ولكن بعد ذلك؟ ليس هناك من سبب يدفعُ شخصاً يتمتّع بذكاء عاديّ إلى أنْ يُصدِّق تلك القصة، الحكاية الشيوعيّة الخرافيّة، ويتقبّلها. سوف ننجزُ شيئاً رائعاً... لكننا نعرف ما هو أخونا، ألا نعرف؟ إنّه قذارة. ونعرف ما هو صديقنا، ألا نعرف. إنّه شبه قذارة. ونحن أيضاً شبه قذارة. فكيف يمكن أنْ تكون إنجازاً رائعاً؟ ليس السُخرية، ولا الشك، بل مُجرّد القِوى العاديّة للملاحظة الإنسانيّة تُخبرنا بأنَّ *ذلك غير ممكن*.

أتريد أنْ تأتي إلى مصنعي الرأسماليّ وتراقب كيف يُصنع الفراش على الطريقة الرأسماليّة؟ تعال معي وسوف تتحدّث مع عُمّالٍ حقيقيين. إنَّ هذا الرجل نجمٌ في الإذاعة. أنتم تتحدثون مع عامل، تتحدثون مع نجم في الإذاعة. تعال، يا أيرا، أنت نجم مثل جاك بيني – ماذا تعرف عن العمل بحقّ الله؟ دع الشاب يأتي إلى مصنعي وسوف يرى كيف نصنع فراشاً، سوف يرى العناية التي نوليها، سوف يرى كيف أُضطر إلى الإشراف على العمليّة كلها مع كل خطوة لكي أحرص على جودة العمل. سوف يرى معنى أنْ تكون المالك الشرير لوسائل الإنتاج. إنّه يعني أنْ تُرهق نفسك بالعمل على مدى أربع وعشرين ساعة في اليوم. العمال يتوجهون إلى منازلهم في الساعة الخامسة – أنا لا أذهب. أنا أبقى هناك حتى منتصف كل ليلة. وأعود إلى المنزل ولا أنام لأنني أُجري حساباتي في رأسي ومن ثم أعود إلى هناك من جديد عند الساعة السادسة صباحاً لكي أفتح المصنع. لا تدعه يملؤك بالأفكار الشيوعيّة، يا بنيّ. كلها أكاذيب. اكسب المال. المال ليس أكذوبة. المال هو الأسلوب الديمقراطيّ للاستمرار في النجاح. اكسب مالك – ثم، إنْ بقيتَ مُضطراً، حينئذٍ اهتم بالإخوّة الإنسانيّة.

استرخى أيرا على كرسيه، ورفع ذراعيه إلى أنْ تشابكت يداه الضخمتان خلف رأسه. ثم قال، من دون إخفاء امتعاضه - ولكن ليس لمُضيفنا بل لي، لكي يُغضبه أكثر - «أتعرف ما هو أحد أفضل المشاعر في الحياة؟ ولعلّه الأفضل *قاطبة*؟ هو ألّا تشعر بالخوف. أتعرف ما هي مشكلة الأحمق الجشع - الذي نحن الآن في منزله؟ إنه خائف. هذه هي الحقيقة البسيطة. في الحرب العالميّة الثانية لم يكن إروين غولدستين خائفاً. أما الآن بعد انتهاء الحرب، أصبحَ إروين غولدستين يخاف زوجته ويخاف حماه، ويخاف جابي الديون - إنه يخاف كل شيء. تنظر بعينيك الكبيرتين إلى داخل واجهة المحل الرأسمالي، وتشتهي وتشتهي، وتنتزع وتنتزع، وتأخذ وتأخذ، وتكسب وتمتلك وتُراكِم، وتنتهي قناعاتك وتبدأ مخاوفك. أنا ليس لديّ ما لا أستطيع التخلّي عنه. أتفهم؟ لم أُصادفَ شيئاً أرتبطُ به وأتمسك كما يفعل الجشع. كيف انتقلتُ من بيت والدي البائس إلى شارع المصنع إلى تلبُّس شخصيّة أيرون رن، وكيف توصّل أيرا رينغولد، بعد قضاء عام ونصف في المدرسة الثانوية، إلى مقابلة الأشخاص الذيم قابلتُهم وأتعرَّف إلى الناس الذين أعرفهم وأحظى بوسائل الراحة التي أستمتع بها الآن بوصفي عضواً يحمل بطاقة في الطبقة الاجتماعيّة المُتميِّزة - إنَّ هذا كلّه لا يُصدَّق إلى درجة أنَّ فقدان كلّ شيء بين ليلة وضُحاها لن يبدو أمراً غريباً جداً. أتفهم؟ أتفهمني؟ أستطيع أنْ أعود إلى الغرب الأوسط. وأستطيع أنْ أعمل في المصنع. وإذا اضطُرِرتُ، سوف أفعل. أفعل أيَّ شيء إلا أنْ أصبحَ أرنباً كهذا الرجل. هذا ما أنت عليه من الناحية السياسيّة»، قال هذا وهو ينظر أخيراً إلى غولدستين - «ليس رجلاً، بل أرنب، أرنب لا أهميّة له البتّة».

«لقد امتلأتَ بالقذارة في إيران وما تزال كذلك، أيها الرجل الحديديّ» ثم، من جديد وجّه كلامه إليّ - كنتُ موجِّه الصوت، الرجل المستقيم، فتيل القنبلة - قال غولدستين: «لا أحد يستطيع أنْ يُصغي إلى ما يقول. لا أحد يستطيع أنْ يتقبّله بجديّة. إنَّ هذا الرجل مُهرِّج. إنه عاجز عن

التفكير. ولم يستطع ذلك أبداً. إنّه لا يعرف أيَّ شيء، ولا يرى أيّ شيء، ولا يتعلَّم أيّ شيء. إنَّ الشيوعيون يحصلون على أبله كأيرا ويستغلّونه. إنَّ الإنسانيّة في أشد مراحلها غباءً لم تبلغ درجة غبائه» ثم، التفتَ إلى أيرا، وقال: «اخرج من بيتي، أيها الأير الشيوعي الغبي».

كان قلبي قد بدأ يخفق بعنف حتى قبل أنْ أرى المُسدس الذي أخرجه غولدستين من درج خزانة المطبخ، الدرج الذي يقع خلفه مباشرة حيث تُخزّن الفضّيات. لم أكنْ قد رأيت قبل ذلك مُسدّساً، عن قُرب، إلا وهو مدسوس بأمان بعيداً في جِراب الورك مع شرطي من نيوارك. والمُسدّس لم يبدُ كبيراً لأنَّ غولدستين كان ضئيل الحجم. لقد كان كبيراً فعلاً، كبيراً بصورة غير عاديّة، وأسود اللون، وحسن الصُنع، وأنيقاً، ومصنوعا آلياً – ويعِدُ بكل الاحتمالات.

على الرغم من أنَّ غولدستين كان واقفاً ويوجّه المسدّس إلى جبين أيرا، حتى وهو يقفُ على قدميه لم يكن أطول كثيراً من أيرا وهو جالس.

قال غولدستين له «إنني أخاف منك، يا أيرا. ولطالما خفتُ منك. أنت رجل جامح، يا أيرا. ولن أنتظر حتى تفعل معي ما سبق أنْ فعلت مع بتس. أتتذكَّر بتس؟ أتتذكَّر الصغير بتس؟ انهض واخرج، أيها الرجل الحديديّ. خُذ الصبي لاعق المؤخرات معك»، ثم قال غولدستين لي «لاعق المؤخرات، ألم يسبق للرجل الحديديّ أنْ أخبرك عن بتس؟ لقد حاولَ أنْ يقتل بتس. حاول أنْ يُغرِق بتس. لقد جرَّه من قاعة الطعام – ألم تُخبر الصبي، يا أيرا، عنك وأنت في إيران، عن نوبات الحنق والغضب في إيران؟ لقد جاء رجل يزنُ مائة وعشرين رطلاً إلى الرجل الحديديّ شاهراً سكين الجنود، وهي سلاح خطير جداً، في الواقع، فرفعه الرجل الحديديّ وحمله إلى خارج قاعة الطعام ثم جرَّه إلى رصيف التحميل، وعلَّقه بالمقلوب فوق الماء، ممسكاً إيّاه من قدميه، وهو يقول اسبح، يا راعي البقر، وبتس يصرخ كلا، كلا، لا أستطيع، والرجل الحديديّ يقول: ألا تستطيع؟ وأسقطه فيه. بدءاً برأسه من حافة الرصيف إلى شط العرب،

وهو نهر بعمق ثلاثين قدماً. فغاص بتس إلى القاع. ثم التفت أيرا وصرخ في وجهنا: اتركا ابن الحرام المتخلِّف وشأنه! واخرجا من هنا! ولا أحد يقترب من تلك المياه! إنّه يغرق، أيها الرجل الحديديّ، فقال أيرا: دعه يغرق، وابتعد! أنا أعرف ماذا أفعل! دعه يغرق! فقفز أحدهم إلى الماء وحاولَ أنْ ينتشل بتس، وكذلك قفز أيرا في إثره، وأمسك به، وبدأ يلكم ذلك الشخص على رأسه ويفقأ عينيه ويُبقيه في الأسفل. ألم تُخبر الصبي عن بتس؟ كيف ذلك؟ ولم تُخبره عن غارويتش أيضاً؟ وعن سولاك؟ وعن بيكر؟ انهضْ. انهضْ واخرج، أيّها المجرم المجنون اللعين».

لكنَّ أيرا لم يتحرّك، لم يتحرّك فيه غير عينيه. كانت عيناه أشبه بعصفورَين يريدان أنْ يحلّقا خارج وجهه. كانتا تنتفضان وتطرفان بطريقة لم أرها من قبل، بينما بدا كأنَّ طوله بأكمله قد تحجَّرَ، وأصبح مشدوداً بصورة مُرعِبة مثل رفرفة عينيه.

قال «كلا، إروين، لا تضع سلاحك في وجهي. لكي تُخرجني من هنا عليكَ إمّا أنْ تضغط على الزناد أو أنْ تستدعي الشرطة».

لم أستطع أنْ أتبيَّن أيُّهما كان أشدّ بثّاً للرعب. لِمَ لمْ يفعل أيرا ما أراده غولدستين – لِمَ لمْ ينهض الاثنان ويرحلان؟ مَنْ منهما كان الأشدّ جنوناً، صانع الفرش حامل المُسدَّس المحشو أم العملاق الذي يتحدّاه بإطلاق النار عليه؟ ما الذي كان يحدث هنا؟ كنا موجودين في مطبخ تغمره الشمس في ميبلْوود، نيو جرزي، نشرب الرويال كراون من الزجاجة. كنا نحن الثلاثة من اليهود. كان أيرا قد عرَّجَ لكي ليُسلِّم على رفيق قديم في السلاح. فماذا *ألَمَّ* بهؤلاء الرجال؟

عندما بدأتُ أرتجف زالت عن وجه أيرا تلك النظرة التي شوّهتها تلك الفكرة اللاعقلانيّة التي كانت تدور في ذهنه. ومن الطرف المقابل من الطاولة رأى أسناني تصطك من تلقائها، ويديّ ترتجفان بحركة لا إراديّة، فعاد إلى صوابه ونهضَ ببطء عن كرسيه. رفعَ ذراعيه فوق رأسه كما تفعلان عندما يصرخ لصوص المصارف في السينما «إنها سرقة!».

«انتهى كل شيء، يا نيثان. لقد نشب الشجار بسبب الظلام». ولكنْ على الرغم من الطريقة السهلة التي نجح في أنْ يقول بها ذلك، وعلى الرغم من مظهر الاستسلام الذي بدا على ذراعيه المرفوعين بحركة ساخرة مُحاكية، حالما غادرنا المنزل من باب المطبخ وخرجنا إلى ممشى السيارات نحو سيارة مري، استمرّ غولدستين في السير خلفنا، ومسدّسه لا يبعد أكثر من بضع بوصات عن رأس أيرا.

قاد أيرا السيارة بنا وهو في حالة من الغشوة خلال شوارع ميبلْوود، مُجتازاً كل منازل العائلة الواحدة الجميلة التي يُقيمُ فيها يهود نيوارك السابقون الذين اكتسبوا لاحقاً أول منازل خاصة بهم ومرجهم الخاص وأول انتماءات لهم إلى النادي الريفيّ. إنهم ليسوا نوع الناس ولا الحيّ الذي قد تتوقّع أنْ تعثر فيه على مسدس مع أدوات الطعام.

بعد أنْ اجتزنا خط إرفنغتون وولجنا نيوارك، التفتَ أيرا وسأل «أأنت بخير؟».

كنتُ بائساً، وإنْ كنت قد أصبحتُ عندئذٍ خائفاً أقلّ من كوني مُهاناً وشاعراً بالخزيّ. وتنحنحتُ لكي أتيقّن من أنني سأتكلّم بصوتٍ ثابت، وقلت «لقد تبولّتُ في سروالي».

«أحقاً؟».

«حسبتُ أنّه سيقتلك».

«أنت كنتَ شجاعاً. بل فائق الشجاعة. كنتَ رائعاً».

قلتُ بغضب «وأنا أمشي على مسار السيارات، تبوّلتُ في سروالي! اللعنة! تفوه!».

«إنّه خطأي أنا. كل ما حدث. بتعريضك لذلك الأبله وهو يشهر مُسدساً! *مُسدّساً*!».

«ولِمَ *فعل* ذلك؟».

قال أيرا فجأة «إنَّ بتس لم يغرق. ***لا أحد*** غرِق. لا أحد كان ***سيغرق***».

«هل رميته؟».

«طبعاً. طبعاً رميته. كان ذاك هو راعي البقر الذي نعتني باليهودي بسخرية. لقد أخبرتك القصّة».

«أنا أتذكّر»، ولكن ما أخبرني هو به كان فقط طرفاً من تلك القصّة. «أنَّ ذلك وقع في الليلة التي نصبوا لك فيها كميناً، وضربوك».

«نعم. لقد أوسعوني ضرباً. بعد أنْ أخرجوا ابن الحرام من الماء».

أنزلني عند منزلي، حيث لم يكن هناك أحد واستطعتُ أنْ أضع ملابسي الرطبة في السلة وآخذ دشاً وأُهدِّئ من روعي. انتابني الارتعاش من جديد وأنا تحت الدش، ليس لأنني كنتُ أتذكّر وأنا جالس على طاولة المطبخ وغولدستين يوجّه مُسدّسه إلى جبين أيرا أو وأنا أتذكّر عينيّ أيرا تبدوان كأنهما تريدان أنْ تطيرا وتغادرا رأسه، بل لأنني كنتُ أقول لنفسي: مُسدّس بين الشوك والسكاكين؟ في ميبلْوود، نيوجرزي؟ لماذا؟ بسبب غارويتش، هذا هو السبب! بسبب سولاك! وبسبب بيكر!

إنَّ كل الأسئلة التي لم أجرؤ على طرحها عليه ونحن في السيارة، بدأتُ أطرحها بصوتٍ مرتفع وأنا وحدي تحت الدش، «ماذا فعلتَ لهم، يا أيرا؟».

إنَّ والدي، خِلاف والدتي، لم يرَ في أيرا وسيلة للتقدُّم الاجتماعيّ بالنسبة إليّ وكان دائماً يُحرَج وينزعج من اتصاله بي: ما الذي يُثير اهتمام ذلك الرجل البالغ بذلك الصبي؟ لقد رأى أنَّ ثمة شيئاً مُعقّداً، وشريراً حتماً، يجري. وسألني والدي «إلى أين تذهب معه؟».

ذات ليلة انفجر شكّه بعنف عندما وجدني جالساً على طاولة المكتب أقرأ نسخة من صحيفة «*الديلي ووركر*». أمرني والدي «لا أريد أنْ أرى صُحُف هيرست *تلك* في منزلي. كلها متشـــابهة. إنْ كان ذلك الرجل يُعطيك صحيفة *الديلي ووركر*-عن أي رجل تتكلَّم؟»، «عن صديقك

الممثل. *رنْ*، كما يُسمّي نفسه»، «ليس هو مَنْ أعطاني *الديلي ووركر*. أنا اشتريتُها من المدينة. أنا اشتريتُها بنفسي. هل هناك قانون يمنع ذلك؟»، «مَنْ دفعكَ إلى شِرائها؟ هل هو الذي طلبَ منك أنْ تخرج وتشتريها؟»، «إنّه لا يدفعني إلى فعل أيَّ شيء»، «آمل أنْ يكون هذا صحيحاً»، «أنا لا أكذبْ! هذه هي الحقيقة!».

وقد كانت كذلك. وتذكّرتُ قول أيرا أنَّ هناك عموداً في صحيفة «*الووركر*» بقلم هاوارد فاست، لكنني اشتريتُ الصحيفة من تلقاء ذاتي، من كشك بيع الصحف في شارع ماركيت قبالة دار سينما بروكتور، ظاهرياً لكي أقرأ هاوارد فاست ولكن أيضاً بدافع الفضول البسيط، العنيد. سألتُ والدي «وهل تنوي أنْ تُصادرها؟». «كلا - أنت لستَ محظوظاً. لن أجعل منك شهيد التعديل الأول[36]. إنني فقط آمل أنك بعد أنْ تقرأها وتمحّصتَ في محتواها وفكّرت، أنْ يكون لديك من الحسّ السليم ما يجعلك تعلم أنّها لا تضمّ إلا الأكاذيب وأنْ تقوم أنتَ نفسك بمُصادرتها».

مع نهاية العام الدراسيّ، عندما دعاني أيرا إلى قضاء أسبوع في الكوخ معه في ذلك الصيف، قال والدي إنّه لن يسمح لي بالذهاب إلا بعد أنْ يتحدّث مع أيرا أولاً.

سألته «لماذا؟».

«أريدُ أنْ أطرح عليه بعض الأسئلة».

«مَنْ تعتقد نفسك، لجنة المنزل للأنشطة المُعادية لأميركا؟ لِمَ تُضخِّم الأمر؟».

«لأنكَ في نظري شيء كبير. ما رقم هاتفه في نيويورك؟».

«لا يمكنكَ أنْ تُحقِّق معه. حول ماذا؟».

36- التعديل الأول: في الدستور الأمريكي يضمن حرية التعبير وممارسة المُعتقدات - المترجم.

«تقول إنَّ لك الحقّ كمواطن أمريكي أنْ تشتري وتقرأ *الديلي ووركر*؟ وأنا لديّ الحق كمواطن أمريكي أنْ أطرح أسئلة على أي شخص أشاء. فإذا لم يرغب في الإجابة، فذلك من حقّه هو».

«وإذا لم يرغب في الإجابة، فماذا من المُفتَرَض أنْ يفعل، أنْ يُطبِّق التعديل الأول من الدستور؟».

«كلا. في استطاعته أنْ يطلب مني أنْ أغرب عن وجهه وأرمي نفسي في البحيرة. لقد شرحتُ الأمر لك تواً: هكذا نفعل في أميركا. أنا لا أقول إنّ هذه الطريقة سوف تنجح معك في الاتّحاد السوفييتي بوجود الشرطة السريّة، أما هنا فهذا كل ما يلزم في الحالة العاديّة بالنسبة إلى قرينك المواطن لكي يدعك وشأنك فيما يتعلَّق بآرائك السياسيّة».

سألته بمرارة «وهل *حقاً* يدعونك وشأنك؟ هل يدعك عضو مجلس الشيوخ دايز[37] وشأنك؟ وهل سيدعك عضو مجلس الشيوخ رانكن وشأنك؟ ربما عليك أنْ تشرح الأمر *لهما*».

هنا كان عليّ أنْ أجلس – كما طلبَ مني – وأُصغي إليه وهو يطلب من أيرا، عبر الهاتف، أنْ يأتي إلى مكتبه ليتحدث معه. وكان أيرون رين وإيف فريم هما أكبر شخصيتين تدخلان منزل زوكرمان من العالم الخارجي، ومع ذلك كان جليّاً من نبرة صوت والدي أنَّ ذلك لا يُزعجه على الإطلاق.

سألتُ والدي بعد أنْ وضعَ سمّاعة الهاتف «هل وافق؟».

«قال إنّه سيحضر إذا كان نيثان موجوداً. سوف تأتي».

«أوه، كلا لن أحضر».

«بلى» قال والدي «سوف تحضر. سوف تحضر إذا أردتَ مني حتى أنْ أبدأ بالتفكير بالسماح لك بالذهاب إلى هناك والقيام بزيارتك. ممَّ أنتَ خائف، من نقاشٍ مفتوح للأفكار؟ سوف ترى الديمقراطيّة في

37- مارتن دايز جونيور (1900 – 1972): رجل سياسة وعضو في الحزب الديمقراطي الأمريكي وعضو مجلس الشيوخ – المترجم.

ممارسة عمليّة، في يوم الأربعاء القادم، بعد انتهاء الدوام المدرسي، عند الساعة الثالثة والنصف في مكتبي. لا تتأخّر، يا بنيّ».

ممَّ كنتُ خائفاً؟ من غضب والدي. من مزاج أيرا. ماذا لو أنَّ أيرا، بسبب الطريقة التي يُهاجمه بها والدي، رفعه جسدياً كما كان قد رفع بتس وحمله إلى البحيرة في المتنزّه اليهوديّ ثم رماه فيها؟ ماذا لو نشب قتال، لو أنَّ أيرا سدَّد له لكمة قاتلة.

كان مكتب والدي لمُعالجة الأقدام يقع في الطابق الأرضي من منزل تشغله ثلاث عائلات يقع في أسفل جادّة هوثورن، وهو مسكن متواضع يحتاج إلى عملية شدّ وجه بالقرب من الحافة المتهدّمة لحيّنا الذي فيما عدا ذلك مبتذل. وصلتُ إلى هناك باكراً، شاعراً بالاشمئزاز من أعماقي. بدا أيرا جادّاً وليس غاضباً على الإطلاق (حتى ذلك الوقت)، وصل مُسرِعاً عند الساعة الثالثة والنصف. وطلب منه والدي أنْ يجلس.

«سيد رينغولد، إنَّ ابني نيثان ليس صبياً عادياً. إنّه الابن الأكبر وطالب متفوق، وأعتقد أنّه مُتقدّم وناضج بصورة تتفوّق على سنّه. ونحن فخورون به. وأريد أنْ أمنحه قدر ما أستطيع من هامش الحريّة. وأحاولُ ألا أقفَ عائقاً في طريق حياته. ولكن لأنّه تصادفَ أنني أعتقد بكل صِدق أنَّ الأفق مفتوح له، لا أريد لأنْ يقع له أيَّ مكروه. فإذا ما حدث أيّ شيء لهذا الفتى...».

أصبحَ صوت والدي أجشاً فتوقف بسرعة عن الكلام. أُصِبتُ بالرعب من أنْ يضحك أيرا منه، من أنْ يُحاكيه بسخرية كما يسخر من غولدستين. كنتُ أعلم أنَّ والدي غصَّ ليس فقط بسببي وبسبب وعدي بل لأنَّ أخويه الأصغر سناً منه، العضوين الأوّلين في تلك العائلة الضخمة، والفقيرة، اللذَين كانا يهدفان إلى الالتحاق بالجامعة ويُصبحا طبيبين، توفيا متأثّرين بالمرض وهما لا يزالان في أواخر عهد المُراهقة. وثمة صورتا استوديو لهما تستقران جنباً إلى جنب فوق خزانة غرفة الطعام ضمن إطارين متشابهَين. ورأيتُ أنّه كان ينبغي أنْ أحكي لأيرا عن سام وسيدني.

«يجب أنْ أطرح عليك سؤالاً، يا سيد رينغولد، لا أرغبُ في طرحه عليك. إنني لا أعتبر أنَّ معتقدات أيَّ شخصٍ آخر - دينيّة كانت، أم سياسيّة، أم غيرها - من شأني. إنني أحترم خصوصيّتك. وأستطيع أنْ أؤكّد أنَّ أيَّ شيء تقوله هنا لم يتجاوز جدران هذه الغرفة. لكنني أريد أنْ أعرف إنْ كنتَ شيوعياً، وأريد لابني أنْ يعرف إنْ كنتَ شيوعياً. أنا لا أسأل إنْ كنتَ شيوعياً ذات مرة. ولا يهمّني الماضي. ما يهمّني هو الزمن الحاضر. ويجب أنْ أقول لك إنّه قبل مجيء روزفلت كنتُ أشعر باشمئزاز من الطريقة التي تجري بها الأمور في هذا البلد، ومن سواد المُعاداة للساميّة والتحامُل ضد الزنوج في هذا البلد، ومن الطريقة التي يزدري بها الجمهوريون الذين لم يُحالفهم الحظ في هذا البلد، ومن الطريقة التي يستنزف بها جشع الأعمال الكبرى الناسَ حتى الموت في هذا البلد، إلى درجة أنّه ذات يوم، هنا في نيوارك - وهذا سوف يصعقُ ابني، الذي يعتقد أنَّ والده، الديمقراطي طوال حياته، ويقفُ إلى يمين فرانكو - ولكن ذات يوم...» ثم قال وهو ينظر إليّ الآن، «حسنٌ، يا نيثان، كان لديهم مركز قيادة - أتعرف أين يقع فندق روبرت تريت؟ في آخر الشارع. الطابق العلويّ. ثمانية وثلاثون ساحة بارك. كانت لديهم مكاتب هناك فوق. كان أحدها مكتب الحزب الشيوعيّ. إنني لم أُخبر هذا حتى لأمّك. كان يمكن أنْ تقتلني. حينئذٍ كانت صديقتي - لا بدّ أنَّ ذلك كان في عام 1930. حسن، ذات مرة، ذات يوم. انتابني الغضب. كان أمرٌ ما قد حدث. بل إنني لم أعُد أتذكّر حتى ما هو، لكنني قرأتُ شيئاً في الصُحف وأتذكّر أنني توجّهتُ إلى هناك، ولم يكن هناك أحد. كان الباب مُوصداً. كانوا قد ذهبوا لتناول طعام الغداء. ورحتُ أهزّ مقبض الباب. وتلك كانت أقرب مسافة أصل إليها من الحزب الشيوعيّ. هزتُ مقبض الباب وقلت «دعوني أدخل». لم تكن تعلم ذلك يا بنيّ، أليس كذلك؟».

قلت «كلا».

«حسن، ها أنت تعلم الآن. من حُسن الحظ أنَّ ذلك الباب كان

موصداً. وفي الانتخابات التي تلتْ أصبح فرانكلين روزفلت رئيساً، والرأسماليّة التي دفعَتْ بي إلى مكتب الحزب الشيوعيّ بدأتْ تتعرّض لعمليّة تفحُّص لم تر البلد مثيلاً لها قط. لقد أنقذَ رجلٌ عظيم رأسماليّة هذا البلد من الرأسماليين وأنقذَ الوطنيين أمثالي من الشيوعيّة. دعني أُخبركَ شيئاً سوف يصدمك - إنّه موت ماساريك[38]. هل هذا يزعجك، يا سيد رينغولد، بقدر ما أزعجني. لطالما أُثار ماساريك إعجابي في تشكوسلوفاكيا، منذ أنْ سمعتُ اسمه للمرة الأولى وعرفتُ ما كان يفعله من أجل الناس. ولطالما اعتبرتُه روزفلت التشيكيّ. لا أعرِفُ كيف أُعلِّل اغتياله. أتعرفُ أنت، يا سيد رينغولد؟ لقد هزَّني ذلك. لم أُصدِّق أنَّ في استطاعة الشيوعيين أنْ يغتالوا رجلاً كهذا. لكنّهم فعلوا... يا سيدي، أنا لا أريدُ نْ أخوض في نقاشٍ سياسيّ. سوف أسألك سؤالاً واحداً، وأودّ منك أنْ تُجيب عنه لكي نعرف أنا وابني مع مَن نتعامل. هل أنتَ عضوٌ في الحزب الشيوعيّ؟».

«كلا، يا دكتور، لستُ كذلك».

«والآن أُريدُ من ابني أنْ يسألك... نيثان، أريدُ منك أنْ تسأل السيد رينغولد إنْ كان هو الآن عضواً في الحزب الشيوعيّ».

لقد كان طرحُ مثل ذلك السؤال على أي شخص يُناقضُ كل مبدأ من مبادئي السياسيّة. ولكنْ لأنَّ والدي أراد مني ذلك ولأنَّ والدي سأل أيرا تواً بلا نيّة سيئة وإكراماً لسام وسيدني، شقيقيّ والدي الأصغر سناً، فعلتُ.

سألتُه «أحقاً، يا أيرا؟».

«كلا. كلا، يا سيدي».

سأل والدي «ألا تحضر اجتماعات الحزب الشيوعيّ؟».

38- توماش غاريك ماساريك (1850 - 1937): سياسي، ورجل دولة وعالِم اجتماع وفيلسوف تشيكي. نجح في نيل تشيكوسلوفاكيا استقلالها وأصبح أول رئيس لها - المترجم.

«لا أفعل».

«ألا تُخطِّط، هناك حيث تريد لنيثان أنْ يزورك – ما اسم المكان؟».

«زنك تاون. زنك تاون، نيوجرزي».

«لا أظنك تنوي أنْ تصحبه إلى إحدى تلك الاجتماعات؟».

«كلا، يا دكتور، لا أنوي. أنا أنوي أنْ أصحبه للسباحة والتمشّي وصيد السمك».

قال والدي «يُسعدني أنْ أسمعَ هذا. أنا أُصدّقك، يا سيدي».

سألَ أيرا، مبتسماً لوالدي بتلك الطريقة المنحرفة المُضحكة التي يبتسم بها عندما يؤدي دور أبراهام لينكولين، «هل لي أنْ أطرح ***عليك*** سؤالاً، دكتور زوكرمان؟ لماذا اعتبرتني من الحُمر منذ البداية؟».

«إنّه الحزب التقدُّمي، سيد رينغولد».

«هل تعتبر هنري والاس من الحُمر؟ نائب الرئيس السابق للسيد روزفلت؟ هل تعتقد أنَّ السيد روزفلت سوف ينتقي واحداً من الحُمر نائباً لرئيس الولايات المتّحدة الأمريكية؟».

أجاب والدي «إنَّ الأمر ليس بهذه بساطة. ليته كان كذلك. لكنَّ ما يجري في العالم ليس بسيطاً على الإطلاق».

قال أيرا، مُغيّراً أسلوبه، «دكتور زوكرمان، أتتساءل عمّا أفعله مع نيثان؟ إنني أحسده – هذا ما أفعله معه. إنني أحسده على أنَّ لديه والداً مثلك. أحسده على أنَّ لديه أستاذاً على غرار أخي. وأحسده على عينيه اللتين يستطيع بهما أنْ يقرأ من دون الاستعانة بنظارات بسُمك قدم وليس أحمقَ بحيث يترك المدرسة لكي يخرج ويحفر الخنادق. أنا ليس لديّ شيءٌ مُخبّأ وليس لديّ ما أُخفيه، يا دكتور. ما عدا أنني لا أُمانع في أنْ يكون لي ابنٌ مثله ذات يوم. ربما العالم اليوم ليس بسيطاً، لكنَّ هذا حتماً أمرٌ بسيط: إنني أستمتع بالحديث مع ابنك. ليس كل فتى في نيوارك يعتبر توم بين بطلاً له».

هنا نهضَ والدي واقفاً ومدَّ يده لأيرا. «*أنا* والد، يا سيد رينغولد –

لولدَين، نيثان وهنري، أخيه الأصغر، الذي بدوره جدير بالافتخار به. ومسؤولياتي كوالد... حسن، هذا كل شيء».

أمسك أيرا بيد والدي ذات الحجم العادي بيده الضخمة وضغط عليا مرّة واحدة بقوة شديدة - بصدقٍ وبدفءٍ - حتى أنَّه كان يمكن لزيت، أو على الأقلّ لماء، أو لنبع حار صافٍ لشيءٍ ما، أنْ يندفع نتيجة لذلك من فم والدي. قال أيرا «دكتور زوكرمان، أنت لا تريد أنْ يُسرَق ابنك منك، ولا أحد هنا سيسرقه».

على الأثر كان عليّ أنْ أبذل جهداً خارقاً لكيلا أبدأ بإطلاق صرخة عالية. كان عليّ أنْ أتظاهر أمام نفسي بأنَّ هدف الحياة كله هو ألا أصيح، ألا أصيح أبداً، لمرأى رجلَين يتصافحان بحبّ - وبالكاد نجحتُ في ذلك. لقد فعلاها! من دون صراخ! من دون سفك دماء! ومن دون الحنق المُشوِّه، والمُحرِّض! لقد حقّقا نجاحاً رائعاً - وإنْ كان السبب يعود بدرجة عالية إلى أنَّ أيرا أخبرنا الحقيقة.

سوف أُضيفُ هذا هنا ولن أعود إلى موضوع الجرح الذي أصاب وجه أبي. وأنا أعتمد على القارئ لكي يتذكّره عندما يجد ذلك مناسِباً.

غادرنا أنا وأيرا معاً مكتب أبي، ولكي نحتفل - نحتفل ظاهرياً بزيارتي الصيفيّة المُقبلة لزينك تاون ولكن أيضاً، كمشتركين في جريمة، لكي نحتفل بانتصارنا على والدي - ذهبنا إلى مطعم ستوش، القريب، لكي نتناول واحدة من شطائر ستوش المحشوّة بلحم الخنزير. وأفرطتُ في الأكل مع أيرا عند الساعة الرابع والربع حتى أنني عندما وصلتُ إلى المنزل في الساعة السادسة إلا خمسة، لم تعد لديّ أيّة شهيّة وجلستُ في غرفتي على الطاولة بينما الباقون يأكلون الوجبة اتي أعدّتها أمي - عندئذٍ لاحظتُ الجُرح على وجه والدي. كنتُ قد أحدثتُه هناك في وقت مُبكّر في أثناء خروجي من باب مكتبه مع أيرا ولم أمكث لكي أتحدث معه قليلاً وأرجأتُ الأمر إلى اليوم التالي.

في أول الأمر حاولتُ أنْ أعتقد أنّه ربما كنتُ أتخيّل مع شعور بالذنب ذلك الجرح لأنني شعرتُ، ليس بالضرورة مع امتعاضٍ منه، ولكن حتماً بأنني أغادر، مع أيرون رن صاحب برنامج «*الأحرار والشجعان*»، متشابِكَي الذراعين، مع إحساسٍ بالتفوُّق. إنَّ والدي لم يرغب في أنْ يُسرَق ولده منه، وعلى الرغم من أنَّ لا أحد سرق أحداً، بالمعنى الصارم، فإنَّ الرجل ليس غبياً وكان يعلم أنّه خسر وأنَّ الدخيل ضخم الجثّة، سواء أكان شيوعياً أم لا، خرج فائزاً. ورأيتُ على وجه والدي نظرة خيبة الاستسلام، وقد رقّتْ عيناه الرقيقتان الرماديتان بفعل - وخمدتا بحزن بفعل - شيءٍ يقع في منتصف المسافة بين الكآبة والعقم. كانت نظرة لم أنسها بالكامل عندما انفردتُ بأيرا، أو، لاحقاً، وأنا مع ليو غلوكسمان، أو جوني أوداي، أو كائناً مَنْ كان. كنتُ أبدو لنفسي، بمجرد تلقّي تعليمات من أولئك الرجال، كأنني أبخسُ والدي حقّه. كان وجهه يلوح لي من بعيد مع تلك النظرة التي يحملها، نظرة مفروضة على وجه الرجل الذي كان حينئذٍ يُثقّفني باحتمالات الحياة. وجهه يحمل جرح الخيانة.

إنَّ اللحظة التي تلاحظ فيها للمرّة الأولى أنَّ والدك هشّ في عيون الآخرين سيّئة جداً، ولكن عندما تفهم أنّه هشّ في عينك *أنت*، ويحتاجُ إليك أكثر مما لم تعُد تعتقد أنّك تحتاج إليه، عندما تُدرك أنّك في الواقع قادر على إخافته، حتى أنْ *تسحقه* إنْ أردتَ - حسن، تُصبح الفكرة على تعارُض الأهداف مع ميول الابن الاعتياديّة بحيث لا يعود لها معنى. بعد كل الجهد الذي بذله لكي يُصبح اختصاصياً في طب الأقدام، كمُعيل لأسرة، وحاميها، ها أنا أهرب مع رجل آخر. لقد كانت لعبة أشدّ خطراً، أخلاقياً وشعوريّاً، من أي شيء معروف حينئذٍ، أي الحصول على كل أولئك الآباء الزائدين كما تحصل الفتيات الجميلات على شبّان وسيمين. ولكن هذا ما كنتُ أفعله. لقد اكتشفتُ، وأنا أعمل دائماً على التواؤم بصورة واضحة، معنى الخيانة الناتجة عن محاولة العثور على والد بديل لأيرا أو أي شخص آخر مقابل فائدة رخيصة - كان يكفي،

بممارسة حرّيتي، أنْ أتخلّص من الرجل الذي أحببتُ من أجل شخص آخر. ليتني كرهتُه، كان ذلك أسهل.

في عامي الثالث في شيكاغو، صحبتُ معي فتاة إلى المنزل خلال إجازة عيد الشُكر. كانت فتاة رقيقة، مُهذّبة وذكيّة، وأتذكّر السرور الذي استمدّه والدي من التحدُّث معها. وذات أمسية، بينما كانت أمي في غرفة الجلوس تتسامر مع خالتي، التي كانت قد تناولتْ طعام العشاء معنا، خرج والدي إلى الدكان القريب معي ومع الفتاة، وجلسنا نحن الثلاثة في أحد الأركان وأكلنا المثلجات. وفي أثناء ذلك ذهبتُ لأشتري شيئاً ربما معجون حلاقة من قسم الصيدليّة، وعندما رجعتُ إلى الطاولة، رأيتُ والدي يميل على الفتاة. وكان يُمسك يدها، وتناهى إلى سمعي وهو يقول لها «لقد خسرنا نيثان عندما كان في السادسة عشرة. تركنا وهو في السادسة عشرة». وكان يقصد بذلك أنني *تركتُه هو*. وبعد ذلك بسنوات قال الكلام نفسه عن زوجاتي. «تركنا وهو في السادسة عشرة». كان يقصد بذلك أنَّ أخطائي كلها في الحياة نبعت من رحيلي المُفاجئ ذاك.

وكان على صواب. فلولا أخطائي لبقيتُ في المنزل جالساً في الشرفة الأماميّة.

***

بعد ذلك بأسبوعَين قطع أيرا شوطاً كبيراً نحو إخباري بالحقيقة. كان موجوداً في نيوارك ذات يوم أحد لزيارة أخيه، والتقينا في المدينة لنتناول طعام الغداء، في بار ومحل لبيع الشِواء بالقرب من بلديّة المدينة حيث يُقدّمون مقابل خمسة وسبعين سِنتاً – «ستة بنسات» كما يقول أيرا – كانوا يُقدّمون شطائر شريحة اللحم المشويّة على الفحم، مع البصل المشوي، والمُخلّل، ومقليات منزليّة، وسلطة كرنب، وصلصة البندورة. وكفاكهة بعد الطعام طلب كلٌ منا فطيرة تفاح مع شريحة مطّاطيّة من الجبن الأمريكي، وهذا مزيج عرَّفني إليه أيرا وادَّعَى أنّه الطريقة الوحيدة لتناول قطعة من فطيرة في محل «بار وشِواء».

ثم فتح أيرا حزمةً كان يحملها وقدَّم لي ألبوماً موسيقياً عليه تسجيل «*فرقة وجوقة الجيش السوفييتي في برنامج من ألحانها المُفضَّلة*»، بقيادة قائد الأوركسترا بوريس ألكسندروف. مع آرثر إيسن وألكسي سيرغييف، بطبقة الجهير، ونيكولاي أبراموف، بطبقة الصادح. وعلى الغلاف صورة «فوتوغرافيّة بالإذن من **سوفْوتو**» تمثّل قائد الأوركسترا، والفرقة، والجوقة، التي تتألَّف من حوالي مائتي رجل، وكلهم يرتدون زياً عسكرياً روسيّاً ويقومون بالأداء في مجلس الشعب. مجلس الطبقة العاملة الروسيّة.

مكتبة
t.me/t_pdf

«ألم تسمع بهم؟».

قلتُ «أبداً».

«خُذه معك إلى المنزل واستمع إليه. إنّه لك».

«شكراً لك، أيرا. هذا شيء عظيم».

لكنه كان شـنيعاً. كيف آخذ هذا الألبوم إلى المنزل، ثم كيف أسـتطيع في المنزل أنْ *أستمع*؟

بدل أنْ أقود السيارة عائداً إلى الحيّ مع أيرا بعد الغداء، أخبرته بأنَّ عليّ أنْ أذهب إلى المكتبة العامّة، الفرع الرئيس في شارع واشنطن، من أجل العمل على أُطروحة في التاريخ. وخارج محل البار والشواء أشكره من جديد على وجبة الغداء وعلى الهديّة، واستقلّ سيارته الستيشن واغون وقادها عائداً إلى منزل مري في جادّة ليهاي بينما تابعتُ طريقي إلى شارع برود باتجاه المتنزّه العسكريّ ومنه إلى فرع المكتبة الرئيس. مشيتُ متجاوزاً شارع ماركيت وقطعت المسافة كلها حتى المتنزّه، وكأنَّ وجهتي هي حقاً المكتبة، ولكن، بدل أنْ انعطفتُ يساراً إلى شارع ريكتور، انحدرتُ إلى اليمين وسرتُ في درب خلفيّ على طول النهر لكي أبلغ محطة بنسلفانيا.

طلبتُ من بائع الصحف في المحطة لكي يفكّ لي مبلغ دولار.

أخذتُ الأرباع الأربعة وذهبتُ إلى منطقة المخزن ووضعت رُبعاً في شق القطع النقديّة لأصغر خزانة، وألقيتُ بالألبوم إلى داخل تلك الخزانة. وبعد إغلاق الباب، وضعت مفتاح القفل بلا اهتمام في جيب بنطلوني، *وبعدئذٍ* توجّهتُ إلى المكتبة، وهناك لم يكن لديّ ما أفعل سوى أنْ أجلسَ على مدى عدّة ساعات في غرفة المراجع ينتابني القلق حول المكان الذي سأُخفي فيه المفتاح.

كان والدي يتواجد في المنزل طوال عطلة الأسبوع، ولكن في يوم الإثنين يعود إلى المكتب، وفي فترات بعد ظهيرة أيام الإثنين تذهب أمي إلى إرفينغتون لزيارة أختها، وهكذا بعد انتهاء الدوام المدرسي أستقلّ الحافلة رقم 14 من الطرف المقابل للمدرسة، وأركبها حتى آخر الخط، لأصل إلى محطة بن، وأُخرِج الألبوم من الخزانة، وأضعه داخل حقيبة تسوُّق بامبرغر التي كنتُ قد طويتها داخل دفتري في صباح ذلك اليوم وأخذتها معي إلى المدرسة. وفي المنزل أُخفي الألبوم داخل صندوق صغير بلا فُتحات في الطابق التحتيّ حيث كانت أمي تُخزِّن أطباق الزجاج الخاصة بعيد الفصح داخل علب البقالة المصنوعة من الورق المقوّى. وعندما يحلّ الربيع وعيد الفصح، وتُخرِج الأطباق لكي نستخدمها في ذلك الأسبوع، سوف أُضطر إلى البحث عن مكان آخر لإخفائه، ولكن من الآن وحتى ذلك الحين، كانت المادة القابلة للانفجار في ذلك الألبوم مُعطّلة.

لم أتمكّن من تشغيل ذلك الألبوم على الفونوغراف إلا بعد أنْ وصلتُ إلى المرحلة الجامعيّة، وحينئذٍ كنتُ وأيرا قد تباعدنا. وهذا لا يعني أنني عندما استمعتُ إلى جوقة الجيش الروسي تغني «انتظروا جنودكم» و «إلى رجل من الجيش» و«وداع جندي» - وأيضاً، نعم، «دوبينوشكا» - لم تستيقظ داخلي رؤى المساواة والعدالة للعاملين تسود العالم أجمع. في غرفة نومي، شعرتُ بالفخر لأنني تحلّيتُ بالشجاعة بحيث لم أتخلَّص من ذلك الألبوم - حتى وإنْ كنتُ لم أتحلَّ بما يكفي من الشجاعة لأفهم أنَّ أيرا، والألبوم، كانا يُحاولان أنْ يُخبراني: «نعم، أنا

شيوعيّ. طبعاً أنا شيوعيّ. لكني لستُ شيوعياً شريراً، لستُ شيوعياً يمكن أنْ يغتال ماساريك أو أيّ شخصٍ آخر. أنا شيوعيٌ جميل، ومُخلص، يُحبّ الناس ويُحبّ هذه الأغاني!».

سألني مري «ماذا حدث في صباح اليوم التالي؟ لماذا جاء أيرا إلى نيوارك في ذلك اليوم؟».

«حسن، في صباحِ ذلك اليوم أطال أيرا النوم حتى وقتٍ متأخِّر. كان قد بقيَ مُستيقظاً يُناقش أمر إجهاض إيف حتى الرابعة صباحاً، وعند حوالي الساعة العاشرة صباحاً كان لا يزال نائماً عندما أيقظه صراخ أحدهم من الدَرَج. كان في غرفة النوم الرئيسة في الطابق الثاني في الشارع الحادي عشر الغربي، وكان الصوت قادماً من أسفل مطلع الدَرَج. كانت سيلفيد...».

هل سبقَ أنْ أخبرتكَ أنَّ أول ما أثار جنون أيرا كان إبلاغ سيلفيد إيف إنها لن تحضر زفافهما؟ وأخبرت إيف أيرا بأنَّ سيلفيد تؤدّي ما يُشبه البرنامج مع عازف فلوت وأنَّ يوم الأحد الذي سيُقام فيه الزفاف هو اليوم الوحيد الذي يمكن للفتاة الثانية أنْ تتدرَّب فيه. هو نفسه لا يهتم بوجه خاص إنْ كانت سيلفيد ستحضر العرس أما إيف فيهمّها ذلك، وقد بكتْ بسببه واضطربتْ بشدّة، وهذا أزعجه. كانت على الدوام تمنح الابنة الأدوات والقوة لكي تؤذيها – ومن ثم تتأذّى، ولكن كانت تلك هي المرة الأولى التي يرى فيها ذلك، وهو حانق. قال أيرا «*زفاف* أمّها. كيف لا تحضر زفاف أمّها إنْ كان هذا ما تريده الأم؟ *مُريها* بأنْ تذهب. لا تطلبي منها – بل *مُريها*!»، تقول إيف «*لا أستطيع* أنْ آمرها. هذه حياتها المِهنيّة، هذه موسيقاها» يقول أيرا «حسن، أنا *سآمرها*».

«خلاصة الأمر أنَّ إيف تحدثت مع ابنتها، ويعلمُ الله ماذا قالت، أو وعدتْ، أو كيف توسّلتْ إليها، لكنَّ سيلفيد ظهرت في العرس، بملابسها تلك. وهي تحيط شَعرها بوشاح. كان شعرها مُشوشاً، لذلك

كانت تُحيطه بتلك الأوشحة اليونانيّة، بشكل متمرِّد كما وصفته، وأثارتْ جنون أمّها. وكانت ترتدي بلوزات الفلاحات التي تجعلها تبدو ضخمة الحجم. فقط بلوزات عليها زخارف يونانيّة. مع أقراط دائريّة، والكثير من الأساور. وعندما تمشي كانت تقعقع. وتسمعها قادمة. بملابسها الرثّة الموشّاة والكثير من الحُليّ، وتنتعل صندلاً يونانياً من النوع الذي تستطيع أنْ تشتريه من غرينيتش فيليج. وتضع أربطة من الجلد حول رُكبتيها تترك علامات عليهما، وهذه أيضاً آثار بؤس إيف. لكنَّ الابنة على الأقلّ حضرتْ، ولا يهمّ مظهرها، وكانت إيف سعيدة، وأيرا أيضاً فرح».

«في نهاية شهر آب، عندما انتهى بث عرضيهما في الإذاعة، تزوّجا وذهبا إلى كيب كود لقضاء عطلة أسبوعيّة طويلة، ومن ثم عادا إلى منزل إيف ولم يجدا لسيلفيد أيَّ أثر. لم تترك رسالة، ولا أيّ شيء. واتّصلا بأصدقائها، واتّصلا بوالدها في فرنسا، لاعتقادهما أنّها ربما قرّرتْ أنْ تعود إليه. ثم اتصلا بالشرطة. وفي اليوم الرابع وصلتْ سيلفيد أخيراً. إنها تُقيمُ في الحيّ الغربيّ العُلويّ مع مُعلِّمة عجوز كانت تُدرّسها في معهد جوليارد. كانت سيلفيد تتصرَّف وكأنّها لا تعلم متى سيعودان، وهذا يُفسِّرُ كونها لم تزعج نفسها بالاتّصال من الشارع السادس والتسعين».

«في تلك الليلة تناولوا وجبة العشاء معاً ورانَ عليهم صمت رهيب. لم يُرضِ الأم أنْ ترى ابنتها تأكل. كان وزن سيلفيد في ليلةٍ ممتعة يُثير حفيظة إيف – وهذه الليلة لم تكن ممتعة».

«عندما كانت سيلفيد تنتهي من أكل كل صنف كانت دائماً تنظِّفُ طبقها بالطريقة نفسها. كان أيرا قد عرف قاعات طعام في الجيش، ومطاعم صغيرة زريّة – لم يكن غياب آداب المائدة يُزعجه كثيراً. لكنَّ إيف كانت تجسيداً للرهافة، وكانت مراقبة سيلفيد وهي تقوم بالتنظيف، بمثابة التعذيب بالنسبة إلى أمّها، وكانت سيلفيد تعْلم ذلكَ جيداً».

«في الواقع، كانت سيلفيد تضعُ جانب إبهامها، وتُمرّره على طول حافة الطبق الفارغ لكي تزيل كل صلصة مرق اللحم والبقايا. وتلعق كل شيء

عن إصبعها ومن ثم تعيد الكرّة مرة بعد أخرى إلى أنْ يبدأ إصبعها بإصدار صرير على الطبق. في الواقع، في الليلة التي قرّرت سيلفيد أنْ تعود إلى المنزل بعد اختفائها، بدأتْ تُنظِّف طبقها بتلك الطريقة على مائدة العشاء، وانهارتْ إيف، التي تلقّتْ ضربة موجِعة في أمسية عاديّة. ولم تستطع أنْ تُحافِظ على ابتسامة الأمّ المِثاليّة مُلصَقَة بهدوء على وجهها أكثر من ذلك. وصرخت» كفى! كفى! أنتِ في الثالثة والعشرين من العمر! كفى، أرجوك!

وفجأة نهضَتْ سيلفيد واقفة على قدميها وأخذت تضرب رأس أمها - وتلاحقها شاهرة قبضتيها. فأجفل أيرا، وهنا بدأتْ سيلفيد تصرخ في وجه إيف «أيتها العاهرة اليهوديّة!» وغاص أيرا في كرسيه، وهو يقول «كلا، كلا. هذا لا يجوز. أنا أعيش هنا الآن. أنا زوج أمّك، ولا يمكنكِ أنْ تضربيها في حضوري. لا يمكنكِ أنْ تضربيها، انتهينا. إنني أمنعك. ولا يمكنكِ أنْ تستخدمي تلك الكلمة، ليس أمامي. أبداً. *ليس أمامي*. إياكِ أنْ تستخدمي تلك الكلمة القذرة *من جديد!*».

«نهضَ أيرا وغادر المنزل ليقوم بإحدى جولاته المُهدِّئة للأعصاب سيراً على قدميه - سار من منطقة فيليج وقطع المسافة كلها حتى هارلم وعاد أدراجه. جرَّبَ كل شيء لكي يتفادى الانفجار. وسردَ على نفسه كل الأسباب التي دفعت الابنة إلى الغضب. زوجة أبينا ووالدنا. وتذكّر كيف كانا يُعاملانه. تذكّر كل ما كرهه فيهما. كل شيء شنيع حتى أنّه أقسمَ على أنّه لن يبقى في الحياة. ولكن ماذا سيفعل؟ لقد انقضّتْ البنت على أمّها، ونعَتتْها ساخرةً باليهودية، بالعاهرة اليهوديّة - فماذا سيفعل أيرا؟».

«رجعَ إلى المنزل حوالي منتصف الليل ولم يفعل *أيَّ شيء*. وأوى إلى السرير، نام مع زوجته الجديدة، والمُذهل أنّه لم يحدث أيّ شيء. وفي الصباح جلسَ على مائدة الإفطار مع الزوجة الجديدة ومع ابنة الزوجة الجديدة وفسَّرَ ذلك بأنّهم جميعاً سيتعايشون معاً بسلام وانسجام، وأنّهم بفعلهم ذلك يجب أنْ يجمع بينهم احترامٌ مُتبادل. وحاولَ أنْ يُفسِّر كل شيء بعقلانيّة، كما لم يُشرَح له أيَّ شيء وهو طفل. كان لا يزال مُرتاعاً

جرّاء ما شاهد وسمع، وشديد الغضب، ومع ذلك ظلَّ يُحاول أنْ يبذل أقصى جهده لكي يُصدِّق أنَّ سيلفيد ليستْ حقاً مُعاديّة للساميّة بالمعنى الحقيقيّ للكلمة التي تستخدمها العُصبة المُعادية للافتراء. والغالب أنَّ هذه هي القضيّة: إنّ إصرار سيلفيد على تحقيق العدالة الذاتيّة لسيلفيد كان شاملاً جداً، وحصرياً جداً، ***وأوتوماتيكياً*** جداً، إلى درجة أنَّ عِداءً تاريخيّاً كبيراً من النوع الأبسط، وغير المُتطلِّب، ككراهيّة اليهود، ما كان يمكن أنْ يتجذَّر فيها – لم يكن لديها حيِّزٌ له. على أيّة حال، كانت مُعاداة الساميّة بالنسبة إليها مسألة نظريّة بحت. والناس الذين لم يكن في مقدرة سيلفيد أنْ تتحمّلهم، كانت لا تتحملهم لسبب وجيه، ملموس. المسألة ليست شخصيّة: إنهم يقفون عائقاً في طريقها ويسدّون أفق نظرها؛ إنهم يهينون حس الهيمنة الفخم لديها، *droit de fille* (حقّ الفتاة). إنَّ الحادث بأكمله، في اعتقاد أيرا، لم تكن له أيّة صِلة بكراهيّة اليهود. فلم تكن تأبه بشأن اليهود، ولا بشأن الزنوج، ولا بشأن أيّة جماعة تشكّل مشكلة اجتماعيّة شائكة بأي حالٍ من الأحوال – نقيض شخص يطرح مشكلة خاصّة فوريّة. في تلك اللحظة كانت تهتم فقط به. ونتيجة ذلك، جهرت بعبارة خبيثة اعتبرتها غريزياً بغيضة، وكريهة ومُثيرة للاشمئزاز وتخرج عن حدود اللياقة، بدرجةٍ تدفعه إلى الخروج من الباب ولا تطأ قدمه بيتها بعد ذلك. كان استخدامها عبارة «عاهرة يهوديّة» يُعبِّر عن احتجاجها ليس على وجود اليهود – أو حتى على وجود أمّها اليهوديّة – بل على وجوده ***هو***».

ولكن بعد أنْ خرج بهذا كله بين ليلة وضحاها، استمر أيرا – مُفكِّراً بحذر – في ألّا يطلب من سيلفيد أن تُقدِّم الاعتذار الذي تُدين به له، بالإضافة إلى أنْ يتقبّل ما قالتْ ويختفي، بل أنْ يُقدِّم ***لها*** اعتذاراً. هكذا سيُروّضها الشرس، بتقديم اعتذار لأنه تطفَّلَ. ولأنه كان غريباً، دخيلاً، ولأنه ليس والدها بل نكرة مجهول الهويّة ليس لديها أيّ سبب مهما كان لتحبّه أو لتثق فيه. ويقول لها إنّه مجرد كائن بشريّ عادي، والكائنات البشريّة ليس لديها سجل عظيم، وربما لديها كل الأسباب ***لكراهيّته وعدم***

الثقة فيه. يقول: أنا أعلم أنَّ الشابّ الأخير لم يكن جذّاباً جداً. ولكن لِمَ لا تجربينني؟ إنَّ اسمي ليس جمبو فريدمان. أنا شخص مختلف من فئة مختلفة وأحمل رقماً مُتسلسلاً مختلفاً. لِمَ لا تمنحينني فرصة، يا سيلفيد؟ ما رأيك في إعطائي مهلة تسعين يوماً؟

ثم يشرح لسلفيد ضراوة جمبو فريدمان - كيف أنّ تلك الضراوة نبتت من فساد *أميركا*. ويقول لها: إنّ مجال الأعمال في أميركا لعبة قذرة. إنّه لعبة داخليّة، وكان جمبو الشخص المثاليّ العارف ببواطن الأمور. وجمبو ليس حتى مُضارباً في العقارات، وهذا أمر سيئ. إنّه حصانٌ يجوسُ بحثاً عن مُضارب. ويحصل على طرفٍ من الصفقة حتى من دون أنْ يدفع قرشاً واحداً. وفي الأساس، تُجمَع الأموال الطائلة في أميركا عبر الأسرار. أتفهم؟ من الصفقات التي تتم تحت الأرض. صحيح أنَّ على الجميع أنْ يتبع القواعد نفسها - وصحيح أنَّ هناك ادِّعاء بالفضيلة، وادِّعاءً بأنَّ الجميع يتبع الأصول. اسمعي، يا سلفيد - هل تعرفين الفرق بين مُضارب بالأموال ومُستثمر؟ إنَّ المُستثمر يمتلك عِقاراً ويُجازف؛ إنّه يستمتع بالأرباح أو يُعاني الخسارة. أما المُضارب فيُتاجر. يُتاجر بالأراضي كما يُتاجر بسمك السردين. والثروات تُجمَع بهذه الطريقة. وقبل حدوث الانهيار الاقتصاديّ، كان الناس يُضاربون بالمال الذي حصلوا عليه من اقتطاع قيمة الملكيّة، من استخلاص القيمة المُستهلَكة من المصارف نقوداً سائلة. وما حدث هو أنّه عندما استردّوا كل تلك القروض، خسروا أراضيهم. عادت الأراضي إلى المصارف. ذهبتْ إلى أمثال جمبو فريدمان في العالم. فلكي تجمع المصارف بعض المال مقابل تلك الورقة عديمة القيمة، كان عليها أنْ تبيعها بخصم هائل، بنس عن كل دولار...

أيرا المثقَّف، الاقتصاديّ الماركسيّ. أيرا التلميذ اللامع لجوني أوداي. حسن، وتباهت إيف، إنّها امرأة جديدة، وها قد أصبح كل شيء رائعاً من جديد. حصلتْ على رجل حقيقيّ، وعلى والد حقيقيّ لابنتها. أخيراً حصلتْ على والد يقوم بما يُفتَرَض بالوالد أنْ يقوم به.

وشرح أيرا قائلاً: والآن، إنَّ الجانب غير القانوني من هذا الأمر، يا سيلفيد، هو كونه صفقة مُدبَّرة، وتنطوي على مؤامرة...

بعد انتهاء المُحاضرة أخيراً، نهضتْ إيف وانتقلتْ لتُمسك بيد سيلفيد وتقول، «أنا أحبّك». ولكن ليس مرة واحدة. كلا. بل «أحبّك أحبّك أحبّك أحبّك أحبّك...» وبقَيتْ ممسكة بيد البنت وهي تقول «أحبّك». وكان كل ترداد للعبارة يصدر أعمق من القلب من الذي قبله. إنها مُمثّلة - تستطيع أنْ تُقنِع نفسها عندما يتعلَّق الأمر بشيء يلمس شِغاف القلب. «أحبّك أحبّك أحبّك» - وهل قال أيرا لنفسه، ابدأ؟ هل قال أيرا في نفسه: إنَّ هذه المرأة تتعرَّض للاعتداء، هذه المرأة تواجه شيئاً لا أعرفه: هذه عائلة في حالة حرب وليس في وسعي أنْ أفعل *أي شيء* لها.

«كلا. إنّه يعتقد أنَّ الرجل الحديديّ الذي واجه كل الصعوبات من أجل بلوغ ما حصل عليه لن تهزمه فتاة في الثالثة والعشرين من العمر. لقد رقَّ الرجل بفعل العاطفة: إنه مُدلَّه في حب إيف فريم، وهو لم يعرف امرأة مثلها، ويريد أنْ يُنجب طفلاً منها. يريد أنْ يكون له منزل وعائلة ومستقبل. يريد أنْ يتناول طعام العشاء كما يفعل الناس - ليس وحده على طاولة في مكان ما، يصبّ السُكَّر في القهوة من علبة صغيرة قذرة، بل على طاولة جميلة تجمع أفراد عائلته الخاصة. هل سيحرم نفسه من كل ما حلُمَ به، لمجرّد أنَّ فتاة في الثالثة والعشرين انفجرت في نوبة غضب؟ كافِحْ أولاد الحرام. **ثقِّف** أولاد الحرام. **غيِّرهم**. إنْ كان هناك مَنْ يستطيع أنْ يحلّ المشاكل ويُقوِّم الناس، فهو أيرا وإلحاحه».

«وهدأتْ الأمور. بلا تبادُل لكمات. ولا انفجارات. وبدا أنَّ سيلفيد قد استلمتْ الرسالة. بل إنّها كانت أحياناً تحاول أنْ تُصغي دقيقتين على مائدة الطعام إلى ما يقوله أيرا. وقال في نفسه، إنها صدمة وصولي. هذا كل ما في الأمر. ولأنه أيرا، لأنه لا يستسلم، لأنه لا يتوقف، ولأنه يشرح كل شيء لكل شخص اثنين وستين مرة، فإنه يؤمن بأنّه انتصر. إنَّ أيرا يطلبُ من سيلفيد احترام أمّها ويؤمن بأنّه سوف يحصل على ما يُريد.

لكنَّ هذا الطلب بالذات هو الذي لا تستطيع سيلفيد أنْ تسامحه. وما دامت تستطيع أنْ تسيطر على أمّها فإنَّها تستطيع أنْ تحصل على ما تريد، مما يجعل أيرا يُشكِّل عقبة على الفور. أيرا صرخ، أيرا زعق، لكنّه أول رجل في حياة إيف عاملها بكياسة... وهذا ما لم تتقبّله سيلفيد».

«كانت سيلفيد قد بدأتْ تعزف بحِرفيّة؛ وكانت عازفة آلة قيثارة ثانية في فرقة إذاعة قاعة الموسيقى في المدينة. كانت تُستدعى بانتظام، مرة أو مرتين في الأسبوع، وحصلت أيضاً على عمل للعزف في مطعم فاخر في إيست سكستيز ليلة يوم الجمعة. كان أيرا يوصلها بالسيارة من الفيليج وحتى المطعم مع قيثارتها ومن ثم يذهب لكي يقلّها مع القيثارة بعد أنْ تنتهي. كانت لديه سيارة ستيشن واغون وكان يوقفها أمام المنزل ويحمل القيثارة بغطائها من اللباد ويهبط الدَرَج. كان أيرا يضعُ يداً على العمود ويداً في فوهة إصدار الصوت في الخلفيّة ويرفعها، ويضع القيثارة على الفرشة التي يضعونها في السيارة، ويقلّ سيلفيد مع الآلة إلى المطعم في المدينة. وفي المطعم يُخرِج القيثارة ويحملها إلى الداخل، هو النجم الإذاعي الكبير. وعند الساعة العاشرة والنصف، بعد أنْ ينتهي المطعم من تقديم وجبة العشاء وتستعد سيلفيد للعودة إلى الفيليج، يذهب لكي يقلّها وتتكرّر العمليّة كلها في كل يوم جمعة. كان يكره العبء الجسدي الثقيل الذي يحمله - فتلك الأشياء تزن حوالي الثمانين رطلاً - لكنه كان يحملها. وأتذكّر أنّه في المستشفى، عندما أصيب بانهيار، قال لي: لقد تزوّجَتْني لكي أحمل قيثارة ابنتها! لهذا السبب تزوّجتني تلك المرأة! لكي أنقل تلك القيثارة اللعينة!».

«خلال رحلات ليالي أيام الجمعة تلك، اكتشف أيرا أنَّ في استطاعته أنْ يتحدّث مع سيلفيد بطرق لم يكن يستطيع أنْ يلجأ إليها بوجود إيف. سألها عن إحساسها بوصفها ابنة نجمة سينمائيّة. قال لها: «عندما كنتِ طفلة صغيرة، متى خطرَ لكِ أنَّ هذه ليست الطريقة التي ينشأ بها كل شخص؟» فقالت له: إنَّ ذلك حدث عندما بدأتْ الحافلات السياحيّة

تجوب شارع بيفرلي هيلز جيئة وذهاباً. قالتْ إنها لم تشاهد أفلام والديها إلى أنْ بلغت مرحلة المراهقة. كان والداها يُحاولان أنْ يُبقياها فتاة عاديّة ولذلك أهملا تلك الأفلام في المنزل. حتى حياة كل طفل ثريّ في بيفرلي هيلز مع أولاد نجوم سينما آخرين بدا شيئاً عادياً جداً إلى أنْ بدأتْ الحافلات السياحيّة تتوقف أمام منزلها وصارت تسمع قائد الجولة السياحيّة يقول، هذا منزل كارلتون بيننغتون، حيثُ يُقيم مع زوجته، إيف فريم».

«أخبرتْه عن حفلات عيد الميلاد التي كانت تُقام لأطفال نجوم السينما - بوجود مهرجين، وسَحَرَة، وجياد صغيرة، وعروض مسرح العرائس، وكان كل طفل يحضر مع مربّية ترتدي زيّ الممرّضة الأبيض. وعلى مائدة العشاء، كانت كل مربّية تقفُ خلف كل طفل. وكان لدى آل بيننغتون غرفة خاصة للعرض السينمائيّ تُعرَض فيها أفلامٌ سينمائيّة. وكان الأطفال يتوافدون، خمسون، أو عشرون طفلاً. وتأتي المربيات أيضاً لهذا السبب ويجلسن جميعاً في الخلف. وأثناء عرض الأفلام تظهر سيلفيد مرتدية أبهى ملابسها».

أخبرته عن ملابس *أمّها*، وكم كانت ملابس أمّها مُرعبة بالنسبة إلى طفلة صغيرة مثلها. وأخبرته عن كل الأحزمة وحاملات الصدر والمشدّات وأحزمة الخصر والجوارب والأحذية البغيضة - كل تلك الأشياء التي كنّ يرتدينها في تلك الأيام. وتساءلت سيلفيد كيف كانت تستطيع أنْ تخلعها. أمر مستحيل. وتسريحات الشَعر. والقمصان التحتيّة. والعطر النفّاذ. وتذكّرتْ كيف كانت تتساءل كيف سيحدث ذلك كلّه لها.

بل إنها أخبرته عن والدها، أشياء قليلة فقط، لكنّها كافية بالنسبة إلى أيرا لكي يُدرك كم كانت مولعة به وهي طفلة. كان لديها قارب، قارب اسمه *سيلفيد*، انطلقَ من ساحل سانتا مونيكا. وفي أيام الآحاد، كانوا يُبحرون إلى كاتالينا، ويقود والدها القارب. كان الاثنان يركبان الخيل معاً. في تلك الأيام كان هناك درب خاص بالجياد يمتد على طول روديو

درايف ثم نحو صنسيتْ بوليفار. وكان والدها يمارس لعبة البولو خلف فندق بيفرلي هيلز ومن ثم يذهب ليركب الخيل مع سيلفيد وحدهما على طول درب الخيل. وذات عيد ميلاد كان والدها قد أعدَّ لها هدايا جلبها من نادي بايبر أحد مؤدّي الأعمال الجسورة في استوديو التصوير. جاء من فوق المرج الخلفي ووضعها هناك. وأخبرته أنَّ قمصان والدها تُصنَع في لندن. وبذلاته وأحذيته تُصنع في لندن. في ذلك الوقت، لا أحد في بيفرلي هيلز كان يتجوّل من دون ربطات عنق وبذلات رسميّة، لكنه كان أفضل مَنْ يرتديها بينهم جميعاً. وبالنسبة إلى سيلفيد، لم يكن هناك والدٌ يفوق والدها وسامة، وبهجة، وفِتنة في هوليوود كلها. ومن ثم، عندما بلغت الثانية عشرة، تطلّقتْ أمّها منه، واكتشفت سيلفيد أمر مغامراته الطائشة.

أخبرتْ أيرا هذه الأمور كلها خلال ليالي أيام الجمعة تلك، وفي نيوارك نقلها إليّ، وكان من المُفترَض أنْ ينتهي بي الأمر إلى الاعتقاد أنني مُخطئ كل الخطأ، وأنَّ أيرا سوف يجعل من تلك البنت صديقة له. كانوا في عيشهم المُشترك معاً لا يزالون في البداية، وكان الهدف من الأحاديث كلّها التواصُل مع سيلفيد، وعقد سلام معها وما إلى ذلك. وبدا أنَّ المُحاولة نجحتْ - بدأ ما يُشبه العلاقة الحميمة يتطوّر. بل إنّه بدأ يذهب ليلاً بينما سيلفيد تتدرّب. ويسألها، كيف تعزفين ذلك الشيء بحقّ الله؟ يجب أنْ أعترف لكِ بأنني كلما شاهدتُ أحداً يعزف على آلة القيثارة (الهاربْ) -فتقول سيلفيد، تفكّر في هاربو ماركس، ويضحكان معاً لأنَّ هذا التفسير صحيح. وسألها: من أين يخرج الصوت؟ لماذا للأوتار ألوانٌ مختلفة؟ كيف تستطيعين أنْ تميِّزي بين الدوّاسات؟ ألا تؤلمكِ أصابعك؟ طرح أسئلة كثيرة لكي يُبيِّن لها أنّه مُهتمٌ، وأجابت عنها وشرحتْ له كيف تعمل آلة القيثارة وعرضَتْ عليه الجَسْء[39] على أصابعها، وبدأتْ الأمور تزدهر، كانت الأمور بلا ريب قد بدأتْ تبدو جيدة.

ولكن في صباح ذلك اليوم بعد أنْ قالت إيف إنها لا تستطيع أنْ تحمل

39- الجَسْء: تصلُّب الجلد في مواقع معيَّنة بسبب العمل الشاقّ - المترجم.

بذلك الطفل، وبكتْ وبكتْ، وقال في نفسه، لا بأس، انتهينا، ووافقَ على أخذها إلى الطبيب الذي في كامدن - في صباح ذلك اليوم سمع سيلفيد في أسفل الدَرَج. كانت تنقضّ على أمها، وتنهال عليها بالضرب، فقفز أيرا من السرير ليفتح باب غرفة النوم، وسمع ما كانت سيلفيد تقول. هذه المرّة لم تُطلِق على إيف وصف العاهرة اليهوديّة. بل أسوأ من ذلك. سيئ إلى درجة استدعاء أخي من نيوارك مباشرة. وحينئذٍ التقيتَه. وأمضى ليلتين معنا.

في صباح ذلك اليوم، وفي تلك اللحظة، أدركَ أيرا أنّه ليس صحيحاً أنَّ إيف شعرتْ بأنّها كبيرة في السن ولا تستطيع أنْ تُنجب طفلاً منه. ودقَّ جرس الإنذار وأدرك أنّه ليس صحيحاً أنَّ إيف قلقة بشأن تأثير وجود طفلٍ جديد على مسيرتها الفنيّة. أدرك أنَّ إيف أيضاً رغبتْ في الطفل، كرغبته فيه تماماً، وأنّه ليس من السهل تقرير إجهاض طفل من رجلٍ أحبّته، *خاصّة* وهي في سن الحادية والأربعين. ها هنا امرأةٌ أعمقُ إحساسٍ لديها هو إحساسها بالعجز، واختبارُ عجزها عن أنْ تكون كريمة بما يكفي لتفعل ذلك، وعن أنْ تكون راشدة بما يكفي لتفعل ذلك، وعن كونها حَرّة بما يكفي لتفعل ذلك - هو السبب في بكائها بحُرقة.

في صباح ذلك اليوم أدرك أنَّ الإجهاض لم يكن قرار إيف - بل قرار سيلفيد. في صباح ذلك اليوم أدرك أنّ ليس طفله هو الذي يُقرِّر ماذا نفعل به - بل طفل سيلفيد هو الذي يُقرِّر ماذا نفعل به. لقد كان الإجهاض بمثابة طريقة إيف لتفادي غضب ابنتها. نعم، جرس الإنذار يدقّ، لكنه لم يُصبح عالياً جداً بحيث يسمعه أيرا بوضوح.

نعم، كل الأشياء الأساسيّة رشحَتْ من سيلفيد ولم تكن لها أيّة صِلة بالعزف على القيثارة. إنَّ ما سمع سيلفيد تقوله لأمها كان «إنْ حصل وحاولتِ أنْ تحبلي، مجرّد محاولة ثانية، فسوف أخنق الأبله الصغير في مهده!».

- 4 -

منزل المدينة الكائن في الشارع الحادي عشر الغربيّ حيث أقام أيرا مع إيف فريم وسيلفيد، برُقيّه، وجماله، وما يوفّره من وسائل راحة، بهالة الجو الحميم الفاخر المُعتِم، والانسجام الجماليّ الهادئ الذي يعمّ تفاصيله الوافرة - المسكن الدافئ كعمل فنيّ نفيس - غيَّرَ مفهومي عن الحياة بقدر ما ستفعل جامعة شيكاغو عندما انتسبتُ إليها بعد ذلك بعام ونصف. كان يكفيني أنْ ألجَ من الباب حتى أشعر بأنني أكبر سناً بعشرة أعوام وبأنني مُتحرِّر من تقاليد العائلة التي، أعترفُ، نشأتُ على التقيُّد بها في الغالب بسرور ومن دون بذل الكثير من الجهد. وبسبب وجود أيرا، بسبب الطريقة التي يُقعقع بها، ومشيته السهلة وهو يتجوّل في المكان ببنطلون فضفاض من الجوخ وحذاء خفيف قديم وقمصان الفانيلا بخطوطها المتقاطعة بأكمامها مُفرِطة القِصَر، لم أشعر بالخوف من جو الثراء والتميُّز، المجهول لديّ، وبسبب تلك القدرات الشعبيّة على الاستحسان التي ساهمتْ إلى حدٍ بعيد في دعم فتنة أيرا - بتلاؤمه معاً مع شارع سبروس الخاص بالسود في نيوارك ومع صالون إيف - فهمتُ على الفور كم يمكن للحياة المُرفّهة أنْ تكون مُريحة ومُمتعة، *وصالحة لتكوين عائلة*. والثقافة العالية أيضاً. كان الأمر أشبه باختراق لغة جديدة واكتشاف أنَّ الأجانب، على الرغم من اتّسام ذلك بالسِمة الأجنبيّة المُنفِرة، يستخدمونها بطلاقة ولا يقولون إلا ما كنتَ تسمعه بالإنكليزيّة طوال حياتك.

تلك المئات والمئات من الكتب الجادّة المصفوفة على رفوف المكتبة - من دواوين شِعر، وروايات، ومجلدات في التاريخ، وكتب عن الآثار، وفي العصور القديمة، والموسيقى، والأزياء، والرقص، والفن، والأساطير - وتسجيلات الموسيقى الكلاسيكيّة التي تتراكم بعلوّ ست أقدام داخل خزائن على كلا جانبيّ مُشغّل الأسطوانات، وتلك اللوحات الفنيّة والرسوم والحفريات على الجدران، والأعمال الفنيّة المُرتَّبة على طول رف المدفأة وتزدحم على الطاولات - تماثيل صغيرة، وصناديق مُطعَّمة بالمينا، وقِطع صغيرة من الأحجار الكريمة، وأطباق صغيرة مُزخرفة، وأدوات عتيقة تخصّ عِلم الفلك، وأشياء غريبة مُشكّلة بالزجاج والفضّة والذهب، بعضها يُمثّل أشياء واضحة، وأخرى مُبهمة وتجريديّة - لم يكن الغرض منها الزينة، ولا هي أشياء تافهة زخرفيّة، بل ممتلكات ترتبط بحياة سعيدة، وفي الوقت نفسه، ***بقَيم أخلاقيّة***، بطموح الإنسانيّة إلى تحقيق الأهميّة عبر الخبرة والتفكير. وفي مثل تلك البيئة، كان الانتقال من غرفة إلى أخرى بحثاً عن صحيفة المساء، والجلوس وأكل تفاحة أمام الموقد يمكن أنْ يكون بحدّ ذاته جزءاً من مشروع عظيم. أو هكذا بدا لطفل لم يوقِظ فيه منزله أو في أي شخص آخر، على الرغم من نظافته، وترتيبه، وما يحتوي من وسائل راحة، تأملات في الشرط الإنسانيّ المثاليّ. وقد بدا منزلي بالمقارنة - بمكتبته التي تضمّ «*تقويم المعلومات*» وتسعة كتب أو عشرة وصلت إلى حيازتنا كهدايا لأفراد العائلة في أثناء فترة نقاهة - بدتْ بالية وكئيبة، أو كزريبة باهتة. وحينئذٍ، لم يكن في إمكاني أنْ أُصدِّق أنَّ هناك أيّ شيء في الشارع الحادي عشر الغربي يمكن لأي شخص أنْ يرغب في الهروب منه. لقد بدا لي أشبه بباخرة فخمة تمرّ على الموانئ، ***وآخر*** مكان يمكن أنْ تقلق فيه على فقدان توازنك. في قلبه، ترى ذلك الرمز، منتصباً وأنيقاً بضخامته على السجّادة الشرقيّة للمكتبة، وغاية في الجمال بكتلته ويُرى حالما تنعطف من المدخل إلىٍ غرفة الجلوس، يعود في زمنه إلى بدايات الحضارة المُستنيرة، التي تُمثّل عالم الوجود الروحيّ الصِرف،

والأداة الرائعة التي يجسّدُ شكلها وحده تذكيراً بكل نقص في الخشونة والفظاظة في طبيعة الإنسان الدنيويّة... إنّها تلك الأداة المهيبة للسموّ، قيثارة سيلفيد ماركة ليون وهيلي المُلبَّسة برقائق الذهب.

«تلك المكتبة كانت تقع في خلفيّة غرفة الجلوس وعلى علوّ مقدار دَرَجة»، هكذا تذكَّرَ مري. «كانت هناك أبواب منزلقة من خشب الزان تفصل بين الغرف، ولكنْ عندما كانت سيلفيد تتدرَّب كانت إيف تحب أنْ تستمع، لذلك كانت الأبواب تُترَك مفتوحة وينساب صوت تلك الآلة في أرجاء المنزل. ولم تكن إيف، التي دفعتْ سيلفيد إلى تعلُّم العزف على آلة القيثارة في بيفرلي هيلز عندما كانت في السابعة من العمر، تكتفي من الاستماع، لكنَّ أيرا لم يكن لديه ميل إلى تذوُّق الاستماع إلى الموسيقى الكلاسيكيّة - ولا يستمع إلى أي شيء، حسب عِلْمِي، ما عدا الأغاني الشائعة التي تُبثّ في الإذاعة وجوقة الجيش السوفييتي - ولذلك في الليل، عندما يُفضِّل أنْ يجلس في الطابق السفليّ في غرفة الجلوس مع إيف، يتحدثان، أو يقرآن الصحيفة، كأيّ زوج في المنزل وما إلى ذلك، كان ينسحب بالتدريج إلى غرفة مكتبه. وتتابع سيلفيد عزفها وتمارس إيف شغل الإبرة أمام موقد النار، وعندما ترفع بصرها، تجد أنّه اختفى، ارتقى إلى الطابق العِلويّ لكي يكتب رسائل إلى أوداي».

ولكن بعد ما مرّت به خلال تلك الزيجة الثالثة، كانت الرابعة، عندما وقعتْ، لا تزال رائعة. وعندما قابلتْ أيرا، كانت تخرج من إجراءات طلاق مُرهِقة وتتعافى من انهيارٍ عصبيّ. والزوج الثالث، جمبو فريدمان، كان مُهرِّجاً في ممارسة الجنس كما يبدو من اسمه، وخبيراً في تسليتهما في غرفة النوم. وأمضوا وقتاً ممتعاً جداً معاً إلى أنْ كان يوم عادتْ فيه باكراً من التدريب فوجدته في مكتبه في الطابق العِلويّ مع فتاتين. لكنّه كان يختلف في كل شيء عن بيننغتون. كانت قد أقامتْ علاقة معه في كاليفورنيا، ويبدو أنّها كانت عنيفة جداً، وهذا مؤكَّد مع امرأة بقيتْ

اثنا عشر عاماً مع كارلتون بيننغتون، وفي النهاية يترك فريدمان زوجته وهي تترك بيننغتون، وتشدّ هي وفريدمان وسيلفيد الرحال إلى الشرق. وتشتري ذلك المنزل الكائن في الشارع الحادي عشر الغربي وينتقل فريدمان للعيش معها، ويجعل مكتباً له ما أصبحَ لاحقاً غرفة مكتب أيرا، ويباشر تجارة العقارات في نيويورك كما في لوس أنجليس وشيكاغو. وأمضى فترة يشتري ويبيع العقارات في تايمس سكوير، وهكذا قابل كبار مُنتجي المسرح، وأصبحوا يلتقون معاً، وسرعان ما أصبحتْ إيف فريم تظهر على مسارح برودواي. في مسرحيات كوميدية تجري أحداثها في غرف الجلوس، ومسرحيات إثارة وكلها من بطولة نجمة السينما الصامتة الجميلة. ونجحتْ كلها. وبدأتْ إيف تكسب الكثير من النقود، وكان جمبو يحرص على إنفاقها كلها.

إنَّ كونها إيف كما نعرفها، سايرت تصرفات ذلك الرجل المُتطرّفة، وأذعنتْ لأساليبه الجامحة، بل وتورّطتْ بالأساليب الجامحة. وأحياناً عندما كانت إيف تبكي بلا مُقدّمة ويسألها أيرا عن السبب، تقول له، «إنَّها الأشياء التي يدفعني إلى القيام بها - ما أُضطر إلى فعلها...». وبعد أنْ ألَّفَتْ ذلك الكتاب وأُذيع خبر زواجها من أيرا في الصحف كلّها، استلمَ أيرا رسالة من امرأة في سينسيناتي، قالت له فيها إنْ كان مُهتماً بكتابٍ خاصٍ به، فقد يرغب في المجيء إلى أوهايو لإجراء حديث معها. كانت في حقبة الثلاثينيات تعمل في مجال الترفيه في نادٍ ليليّ، مُغنّية، ورفيقة جمبو. قالت إنَّ أيرا يمكن أنْ يرغب في أنْ يُشاهد بعض الصور الفوتوغرافيّة كان جمبو قد التقطها. وربما يتعاون أيرا معها في وضع مُذكّرات خاصة بهما - هو يُملي الكلام، وهي، مقابل مبلغٍ معيَّن، تُضيف الصور. وفي ذلك الوقت كان أيرا يرغب رغبة محمومة في الانتقام إلى درجة أنّه كتب لتلك المرأة، وأرسل لها شيكاً بقيمة مائة دولار. وادّعتْ أنَّ في حوزتها عدداً كبيراً من تلك الصور لذلك أرسل إليها المائة دولار التي طلبتها فقط لكي تُريه واحدة منها.

«وهل حصل عليها؟».

«لقد صدقتْ في وعدها، وأرسلتْ له واحدة فعلاً بالبريد العائد. ولكنْ لأنني لم أكنْ أنوي أنْ أسمح لأخي بالقيام بالمزيد لتشويه فكرة الناس عن معنى حياته، أخذتُها منه ومزّقتُها. يا له من أحمق. عاطفيّ، مُتزمِّتْ، غبي، ولم يُفكِّر فيّ. كان نشر الصورة سيُعتبَر عملاً خيِّراً بالمقارنة بما حدث».

«أراد أنْ يُشوِّه سُمعة إيف بالصورة».

اسمع، في وقتٍ ما كان أقصى ما فكَّرَ فيه أيرا هو كيف يُخفِّف من تأثيرات القسوة الإنسانيّة. كان كل شيء يمرّ من خلال ذلك المبدأ. ولكن بعد صدور كتابها ذاك، أصبح كلّ ما يُفكّر فيه هو تدمير ذلك الكتاب. وجرّدوه من عمله، ومن حياته العائليّة، ومن صيته، ومن سُمعته، وعندما أدركَ أنّه خسر ذلك كلّه، خسر مركزه ولم يعُد مُضطراً إلى العيش على أساسه، تخلَّصَ من شخصيّة أيرون رنْ، ومن برنامج «*الأحرار والشجعان*»، ومن الحزب الشيوعيّ. بل إنّه توقف عن الإكثار من الكلام. وعن اللجوء إلى كل تلك الخُطب المُنمّقة الغاضبة التي لا تنتهي، وتستمر وتستمر في حين أنَّ كل ما أراده هذا الرجل الضخم حقاً هو توجيه الضربات. كان الكلام هو وسيلة للتخفيف من تلك الرغبات.

«ماذا في اعتقادك كان الهدف من أداء دور آبيه لينكولن؟ وهو يعتمر تلك القبعة التي تُشبه المدخنة. ويُردِّد كلمات لينكولن. ولكنّه تخلّى عن كل ما أدّى إلى ترويضه، كل وسائل الراحة المتحضّرة، وعاد إلى أيرا الذي حفر الخنادق في نيوارك، وإلى أيرا الذي عمل في مناجم الزينك في تلال جيرزي. استعاد تجربته المُبكّرة، عندما كان الرفش هو مُعلّمه. وتواصل مع أيرا الذي ينتمي إلى ما قبل فترة حدوث كل التصحيح الأخلاقي، قبل أنْ يلتحق بمدرسة إيف فريم للإعداد وتلقّي كل دروس السلوك القويم تلك، وقبل أنْ يلتحق بمدرسة الإعداد *معك*، يا نيثان، ويقوم بدور الأب ويُبيِّن لك كم يستطيع أنْ يكون رجلاً مُسالماً، صالحاً،

قبل أنْ يلتحق بمدرسة الإعداد معك. وقبل أنْ يلتحق بمدرسة الإعداد مع أوداي، مدرسة الإعداد التابعة لماركس وإنغلز، مدرسة الإعداد من أجل ممارسة العمل السياسيّ. لأنَّ أوداي كان، في الحقيقة، النسخة الأولى من إيف، وكانت إيف نسخة أخرى من أوداي، جرّته خارج خندق نيوارك لتضعه في عالَم الضوء».

«كان أيرا يعرف طبيعته، ويعرف أنّه جسدياً يفوق كل المقاييس وأنَّ ذلك جعل منه رجلاً خطراً. كان ينطوي على الغضب، وعلى العنف، وعندما يقف يبلغ طوله ستة أقدام ونصف، كانت لديه الموارد. كان يعلم أنّه يحتاج إلى الذين روَّضوه - إلى كل أولئك المُعلِّمين، وإلى فتى مثلك، بل كان يتوق إلى فتى مثلك، حصلَ على كل ما لم يحصل هو عليه ويكون ابناً مُثيراً للإعجاب. ولكن بعد نشر كتاب «*تزوجتُ شيوعياً*»، تخلّى عن تثقيف مدرسة الإعداد، واستعاد أيرا الذي لم تعرفه أبداً، الذي أوسع عناصر الجيش ضرباً، أيرا الذي انطلقَ وحده، واستخدم الرفش لكي يحمي نفسه ضد أولئك الرجال الإيطاليين. استخدم أداة العمل كسلاح. لقد كانت حياته كلها صراعاً لكي لا يستخدم ذلك الرفش. ولكن بعد صدور كتابها، انطلقَ أيرا لكي يُصبح ذاته الأولى الخاصة غير المُصحَّحة».

«وهل فعل؟».

«إنَّ أيرا لم يتهرَّب أبداً من أداء عمل جدير برجل، مهما كان صعباً. وقد ترك عمله كحفّار خنادق تأثيره عليها. جعلها تُدرِك عملياً ما فعلته. قال لي: حسن، سوف أُؤدِّبها بعيداً عن الصورة القذرة».

«وفعل ذلك».

«فعل ذلك حتماً. بالتنوير عبر الرفش».

***

في أوائل عام 1949، بعد الهزيمة النكراء التي نزلت بهنري والاس - وبعد إجرائها عمليّة الإجهاض، أنا أعلمُ هذا - أقامتْ إيف فريم حفلة

كبيرة (سبقتها حفلة عشاء أصغر حجماً) في محاولة لإدخال البهجة إلى قلب أيرا، واتّصل بمنزلنا لكي يدعوني إلى حضورها. كنتُ قد رأيته مرة واحدة فقط من جديد في نيوارك بعد تظاهرة هنري والاس في الجامع، إلى أنْ وصلتني مكالمة هاتفيّة مُذهلة «أيرا رينغولد، يا صاحبي. كيف حال ولدي؟». كنتُ قد بدأتُ أؤمن بأنني لن أراه بعد ذلك. فبعد لقائنا الثاني – وخروجنا لنتمشّى للمرة الأولى في متنزّه اليهود، حيث سمعتُ عن تجربته في «أيْ-ران» – أرسلتُ إليه في نيويورك نسخة الكربون من مسرحيّتي الإذاعيّة «*مهرّج توركويمادا*». ومرّت الأسابيع ولم يصلني ردٌّ منه، وأدركتُ الخطأ الذي ارتكبتُهُ بإرسال مسرحيتي إلى ممثّل إذاعي مُحترف، وأعتَبِره أيضاً أفضل ممثّل لديّ. وتيقّنتُ عندئذٍ من أنّه تبيَّن مدى ضآلة موهبتي، وأنني قضيتُ على أدنى اهتمام كان لديه بي. ثم، بينما كنتُ ذات ليلة أؤدي وظيفتي المدرسيّة، رنَّ جرس الهاتف فهرعتْ أمي إلى غرفتي. «نيثان – عزيزي، إنّه السيد أيرون رن!».

كان هو وإيف يدعوان الناس على العشاء، ومن بينهم آرثر سوكولو، الذي كان قد أعطاه مخطوطي لكي يقرأه. لقد رأى أيرا أنني ربما أرغب في لقائه. ودفعتني أمي للذهاب إلى شارع بيرغن بعد ظهيرة اليوم التالي لكي أشتري حذاءً يتلاءم مع ملابس سوداء، وأخذتُ بذلتي الوحيدة إلى دكّان الخيّاط الكائن في جادّة تشانسلر لكي أطلب من شابيرو أنْ يُطيل الكُمَّين والبنطلون. ومن ثم في وقت مبكّر من أمسية يوم سبت، وضعتُ بعض حُبيبات السن-سن في فمي، وكان قلبي ينبض وكأنني أنوي أنْ أجتاز حدود الولاية وأرتكب جريمة قتل، وخرجتُ إلى جادّة تشانسلر واستقللتُ حافلة متوجّهة إلى نيويورك.

كانت رفيقتي على مائدة العشاء هي سيلفيد. لقد نُصِبَتْ لي الفِخاخ كلها – القطع الثماني من السكاكين، كؤوس الشرب الأربع مختلفة الأشكال، المُشهّي الكبير المُسمّى أرضي شوكي، وأطباق التقديم

التي وُضَعَتْها من خلف ظهري وعبر كتفيّ امرأة سوداء رصينة ترتدي زيّ خادمة، وطاس غسل الأصابع، ولغز طاس غسل الأصابع - كل ما جعلني أشعر بأنني صبي صغير جداً وليس شخصاً كبيراً، وكانت سيلفيد تعبِّر عن إحباطها بملاحظة متهكِّمة بارعة، أو بتفسير ساخر، أو حتى فقط بابتسامة متكلِّفة أو بتدوير عينيها، تُساعدني بها تدريجياً على فهم أنّه ليس هناك ما هو مهمّ كما توحي به هذه الفخفخة. ورأيتُ أنّها رائعة، خاصة بسخريتها.

قالت سيلفيد «إنَّ أمي تحب أنْ تحوّل كل شيء إلى توتّر كما كان الحال عندما نشأتْ في قصر بكنغهام. إنها تستغل كل فرصة أحسن استغلال من أجل تحويل الحياة اليوميّة إلى نكتة». وحافظتْ سيلفيد على هذا المزاج طوال فترة تناول الوجبة، وصبّت في أُذني ملاحظات حافلة بدنيويّة شخصٍ نشأ في بيفرلي هيلز - بجوار منزل الممثل الهزلي جيمي ديورانت - ومن ثم في غرينتش فيليج، باريس أميركا. حتى عندما ضايقَتْني شعرتُ بارتياح، كأنَّ حظي العاثر لا يقع على بُعد خطوات مني. «لا تُغالي في القلق حول فعل الأمر الصائب، يا نيثان. سوف تبدو أقلّ إثارة للضحك وأنت تقوم بالأمر الخطأ».

وأيضاً استمددتُ الشجاعة من مراقبة أيرا. كان يأكل هنا بالطريقة نفسها التي كان يأكل بها السجق عند الكشك الكائن قبالة المتنزّه اليهودي؛ وكان يتكلَّم أيضاً بالطريقة نفسها. كان وحده بين الرجال المجتمعين حول المائدة الذي لا يضع ربطة عنق ولا يرتدي قميصاً رسمياً وسترة، وعلى الرغم من أنّه لم يكن يفتقر إلى سلوكيات المائدة الاعتياديّة، كان جلياً من مراقبته وهو يلتهم طعامه ويبتلعه أنَّ أطباق مطبخ إيف المُرهفة لا تتلاءم بحساسيّة فائقة مع ذائقته. بدا أنّه لا يُفرِّق بين السلوك المسموح به عند كشك بيع السجق والسلوك في غرفة الطعام في مانهاتن الراقية، لا في السلوك ولا في الحديث. حتى هنا، حيثُ يُضاء الشمعدان الفضيّ بعشرة من الشموع الطويلة وتُنيرُ أوعيةٌ من الأزهار البيضاء الخوانَ،

جَعَلَه كل شيء يشعر بالحَرّ من تحت الياقة - في تلك الليلة، بعد وقوع هزيمة هنري والاس النكراء بشهرَين (حصل الحزب التقدُّمي على ما يفوق المليون صوت في أرجاء البلاد، بمقدار سُدس ما كان مُتوقَّعاً)، وحتى حدوث أمرٍ يبدو عاديّاً كيوم الانتخاب.

أعلنَ على المائدة، «سوف أخبركم شيئاً واحداً»، وتلاشى صوت كل شخص آخر، بينما كان صوته، القويّ والطبيعيّ، مشحوناً بالاحتجاج ومُـزوّداً بأشواكِ احتقارِ حماقةِ أقرانه منِ الأمريكيين، وهو يأمرهم في الحال. *يجب أنْ تُصغوا إليّ*. أعتقد أنَّ بلدنا الحبيب هذا لا يفهم السياسة. في أي مكان آخر في العالم، في أمّة ديمقراطيّة، يتوجّه الناس إلى العمل في يوم الانتخاب؟ في أي مكان آخر تبقى مدارس فاتحة أبوابها؟ وإذا كنتَ صغيراً وتكبُر وتقول هيه، إنه يوم الانتخاب، ألن نأخذ يوم عطلة؟ فإنَّ أباكَ وأمك يقولان: كلا، إنّه يوم الانتخاب، لا أكثر. فماذا يتبقّى لك لتعتقد؟ إذ ما أهميّة يوم الانتخاب إذا كنتُ مُضطراً إلى الذهاب إلى المدرسة؟ كيف يمكن أنْ يكون شيئاً هاماً إذا كانت المتاجر وكل المحلات الأخرى تفتح أبوابها؟ أين ذهبتْ قيمُك، يا ابن الحرام؟

لم يكن يُلمِّح بعبارة «ابن الحرام» إلى أيٍ من الحضور على المائدة. كان يوجّه خطابه إلى كل شخص في حياته اضطرَّ إلى أنْ يُحاربه.

هنا وضعتْ إيف إصبعها على شفتيها لدفعه إلى كبح جِماح نفسه. قالت بصوتٍ منخفضٍ جداً حتى كاد لا يُسمَع «حبيبي». أجاب بصوت مرتفع «في الواقع، إنَّ الأمر الأهمّ هو البقاء في المنزل في يوم كولومبوس؟ إنكم تغلقون المدارس في أيام عُطل تافهة، ولا تُغلقونها في يوم الانتخاب؟»، قالت إيف مع ابتسامة، «ولكن لا أحد يُناقش هذه النقطة، فما الداعي إلى الغضب؟»، قال لها: «اسمعي، إنني أغضب، ودائماً أغضب، وآمل في أنْ *أبقى* غاضباً حتى يوم مماتي. والغضب يوقعني في المشاكل. وأقع في المشاكل لأنني لا أسكتْ. وأغضبُ كثيراً من بلدي الحبيب عندما يقول السيد ترومان للناس، ويُصدّقونه،

إنَّ الشيوعيّة هي أكبر مشاكل البلد. وليس العنصريّة. وليس الظلم. هذه ليست مشاكل. بل الشيوعيون هم المشكلة. الأربعون ألفاً أو الستون ألفاً أو المائة ألف شيوعيّ. سوف يقلبون حكومة بلدٍ يبلغ تعداد سكانه مائة وخمسون مليون نسمة. لا تهيني ذكائي. سوف أُخبرك ما الذي سوف يقلب المكان كلّه رأساً على عقب - إنها الطريقة التي نعامل بها الملوّنين. والطريقة التي نعامل بها العمّال. ليس الشيوعيون هم الذين سيقلبون نظام الحكم في هذا البلد. إنَّ هذا البلد سوف ينقلب على نفسه لمعاملته الناس كأنّهم حيوانات!».

كان يجلس قبالتي على المائدة آرثر سوكولو، كاتب البرامج الإذاعيّة، وهو أحد اليهود الذين ثقّفوا أنفسهم بأنفسهم، والجازمين الذين حدَّدت ولاءاتهم القديمة التي اكتسبوها في الحيّ (وآباؤهم المُهاجرون الأميّون) قوة أسلوبهم الانفعاليّ، الجافّ كرجال، وكانوا شباناً عادوا حديثاً من خوض حربٍ اكتشفوا فيها أوروبا والسياسة، وفيها اكتشفوا حقاً أميركا من خلال الجنود الذين اضطروا إلى أنْ يعيشوا معهم جنباً إلى جنب، وفيها بدؤوا، من دون مساعدة رسميّة بل بإيمان ساذجٍ هائل بقوّة الفن المُغيِّرة، بقراءة الصفحات الخمسين أو الستين الأولى من روايات دوستويفسكي. إلى أنْ دمّرتْ اللائحة السوداء مسيرة آرثر سوكولو المهنيّة، ولكنْ على الرغم من أنَّه لم يكن كاتباً بشهرة كورْوين، إلا أنّه كان حتماً بمرتبة كُتّاب الإذاعة الآخرين الذين أنا شديد الإعجاب بهم: آرثر أوبولر، الذي كتب «*أُطفئت الأنوار*»، وهيمان براون، الذي كتب «*المُعتزل الداخلي*»، وبول رايمر، الذي كتب «*فيك وسيد*»، وكارلتون إ. كورس، الذي كتب «*أحبّ لغزاً*»، ووليم ن. روبسون، الذي ألّف العديد من الأعمال الإذاعيّة عن الحرب والتي نسبتُها إلى نفسي. وكانت تمثيليات آرثر سوكولو الإذاعيّة التي فازت بجوائز (بالإضافة إلى مُسرحيتين عُرِضتا على مسارِح برودواي) تتميَّز بأنها تنطوي على كراهية شديدة للسلطة الفاسدة مُمثّلة بشخصيّة الأب شديد النِفاق. وطوال فترة تناول العشاء كنتُ أخشى أنْ

يُشير سوكولو إليّ، وهو الرجل قصير القامة، المتحدّي القاسي الذي كان ذات يوم لاعب خط الدفاع في فريق المدرسة الثانوية في ديترويت، ويتّهمني أمام جميع المجتمعين حول المائدة بأنني مُنتحل أعماله بسبب كل ما سرقته من أعمال نورمن كورْوين.

بعد انتهاء وجبة العشاء، دُعيَ الرجالُ للصعود إلى غرفة مكتب أيرا في الطابق العُلويّ لتدخين السيجار بينما ذهبت النسوة إلى غرفة إيف ليتنشّطن قبل أنْ يصل ضيوف ما بعد العشاء. وكانت غرفة مكتب أيرا تطلّ على مجموعة من التماثيل التي غمرتها أشعة القمر في الحديقة الخلفيّة، وكان يحتفظ على الجدران الثلاثة برفوف من كتب عن لينكولن، وبالمكتبة السياسيّة التي حملها معه إلى المنزل داخل ثلاث حقائب من القماش المتين من الحرب، والمكتبة التي جمعها منذ ذلك الحين وهو يستعرض الكتب في محلات بيع الكتب المُستعملة في الجادّة الرابعة. وبعد توزيع السيجار ونُصح ضيوفه بشرب قدر ما يشاؤون من عربة الويسكي، أخرجَ أيرا مخطوط مسرحيَّتي الإذاعيّة من الدرج العُلويّ لطاولة كتابة ضخمة من خشب الماهوغاني - الدرج الذي تخيَّلتُ أنّه وضع فيه مراسلاته مع أوداي - وباشر بالقراءة بصوتٍ مرتفع خطاب المسرحيّة الافتتاحيّ. لكي يقرأه وليس ليشجبني بسبب انتحالي ما ليس لي. بالأحرى، بدأ بإخبار أصدقائه، بمَنْ فيهم آرثر سوكولو، «أتعلمون ما الذي يمنحني الأمل في هذا البلد؟» وأشار بإصبعه إليّ، فتوهّج وجهي وأنا أنتظر وأرتجف أنْ يخترقني الجميع بنظراتهم، «إنَّ لديّ إيماناً بأمثال هذا الفتى أكثر من إيماني بكل أولئك المُسمّون بالناضجين في بلدنا الحبيب الذين يتوجهون إلى صناديق الانتخاب متأهّبين للتصويت لهنري والاس، وفجأة يرون الصورة الضخمة لديوي ماثلة أمام عيونهم - وأنا أتحدّث عن أشخاص بين أفراد *عائلتي* - فيُنزلون صورة هاري ترومان. هاري ترومان، الذي سيقود هذا البلد إلى الاشتراك في الحرب العالميّة الثانية، وهذا هو خيارهم المُستنير! إنّها خطّة مارشال، هذا هو خيارهم.

إنَّ كل ما يُفكّرون فيه هو أنْ يتجاوزوا الأمم المتّحدة ويُحاصروا الاتّحاد السوفييتي ويُدمّروا الاتّحاد السوفييتي بينما يُنفقون على خطّة مارشال الخاصة بهم مئات ومئات الملايين من الدولارات التي كانت جديرة برفع مستوى حياة الفقراء في البلد. ولكن أخبروني، مَنْ سيُحاصر السيد ترومان عندما سيُسقِط القنابل النووية على شوارع موسكو ولينينغراد؟ أتظنون أنّهم لن يُسقطوا قنابل على أطفال روسيا الأبرياء؟ وأنّهم لن يفعلوا ذلك حِفاظاً على ديمقراطيتنا الرائعة؟ أخبروني شيئاً آخر. أصغوا إلى هذا الفتى هنا. إنه ما زال في المرحلة الثانويّة ويعرف عن علَّة هذا البلد أكثر من كل شخص جاء للتصويت في بلدنا الحبيب».

لم يضحك أحد أو حتى يبتسم. كان آرثر سوكولو يستند بظهره على خزانة الكتب، ويُقلِّب صفحات كتاب تناوله من مجموعة أيرا عن لينكولن، ووقفَ باقي الرجال يُدخنون سيجارهم ويرشفون من الويسكي ويتصرّفون وكأنَّ وجهة نظري عن أميركا هي ما خرجوا مع زوجاتهم ليُصغوا إليه. ولم أُدرك إلا بعد ذلك بوقتٍ طويل أنَّ الجديّة الجماعيّة التي استُقبِلَتْ بها مُقدّمتي دلّتْ على مدى تعوّدهم على نوبات هياج ضيفهم المُتغطرس.

قال أيرا: «اسمعوا، فقط اسمعوا هذا. إنها مسرحيّة عن عائلة كاثوليكيّة في بلدة صغيرة وعن المتعصبين المحليين». وعلى الأثر بدأ أيرون رن يتلو ما كتبته: أيرون رن يقوم بدور، ويتلبَّس **صوت**، أمريكي مسيحيّ عادي، ودود، من النوع الذي كنتُ أتخيّله ولا أعرف عنه أيَّ شيء.

يباشر أيرا بالقول، وهو يغوص في كرسيّه الجلديّ ذي الظهر المرتفع ويرفع ساقيه على طاولة المكتب، أنا بيل سميث. أنا روب جونز. أنا هاري كامبل. اسمي لا يهمّ. ليس الاسم ما يُزعج أي إنسان. أنا أبيض وبروتستانتي، ولستَ مُضطراً إلى أنْ تقلق بشأني. إنني أسير معك، ولا أزعجك، لا أضايقك، ولا حتى أكرهك. إنني أكسب لقمة عيشي بهدوء في بلدة صغيرة جميلة. اسمها سنترفيل. أو ميدلتاون. أو أوكيه فولز.

دعك من اسم البلدة. قد يكون أي مكان. *فلنسمِها* أي مكان. العديد من الناس في أيّ مكان يدعمون نفاقاً مكافحة التمييز العنصريّ. إنهم يتحدثون عن الحاجة إلى تحطيم الحدود التي تحجز الأقليات ضمن معسكرات اعتقال. لكنَّ الكثيرين جداً منهم يواصلون كفاحهم بعبارات مُجرَّدة. إنّهم يفكّرون ويتحدثون عن العدالة والأصول والحق، عن الأمركة، والأخوَّة الإنسانيّة، وعن الدستور وإعلان الاستقلال. كل هذا عظيم، لكنّه يُبيِّن أنّهم في الحقيقة لا يعون أيَّ شيء عن التمييز العنصري، والدينيّ، والوطني. خذ مثلاً هذه البلدة، خذ أيّ مكان، خُذ ما حصل هنا في العام الفائت عندما اكتشفَتْ عائلة كاثوليكيّة قريبة من هنا أنَّ المذهب البروتستانتيّ المتحمّس يمكن ألّا يكون أقل قسوة مما كان مذهب توركويمادا[40]. أنت تعرف توركويمادا. الجزّار الذي عمل لصالح فرديناند وإيزابيلا. الذي أدار محاكم التفتيش لصالح ملك وملكة إسبانيا. إنّه الشخص المسؤول عن طرد اليهود من إسبانيا لصالح فرديناند وإيزابيلا في عام 1492. نعم، إنَّ سمعَكَ صحيح يا صاح - عام 1492. طبعاً كان هناك كولومبوس، وكانت هناك السفن *نينيا*، والـ *بينتا*، و*سانتا ماريا*[41] - ومن ثم كان هناك توركويمادا. هناك دائماً توركويمادا. وربما سوف يكون هناك دائماً واحدٌ... حسن، إليك ما حدث هنا في «أيّ مكان»، في الولايات المتحدة الأمريكية، تحت راية النجوم والأشرطة، حيث كل الناس متساوين، وليس في عام 1492...

استعرضَ أيرا الصفحات. ويستمر على هذا المنوال... وهنا، النهاية. هذه هي النهاية. ويعود الراوي من جديد. لقد تحلّى فتى في الخامسة عشرة بالشجاعة لكتابة هذا الكلام، أتفهمون؟ أخبروني عن محطة بثّ تتحلّى بالشجاعة لتذيع هذا. أخبروني عن راعٍ يمكنه أنْ يقف في عام 1949 في

40- توماس دو توركيماد (1420 - 1498): راهب دومينيكاني إسباني. مسؤول عن إحراق حوالي 2000 من المُهرطقين في فترة محاكم التفتيش التي كان يُديرها - المترجم.

41- بينيا وبينتا وسانتا ماريا: هي السفن الثلاث التي قادها كريستوف كولومبوس في رحلة استكشافه للأرض المجهولة، أميركا - المترجم.

وجه القائد وود ولجنته، ومستعدّ لمواجهة القائد هوفر ووحوشه من قوات الصاعقة، ومستعد لمواجهة الفيلق الأمريكي وجنود الحرب الكاثوليكيّة القُدامى والـ VFW (مقاتلو الحروب الأجنبيّة) والـ DAR (بنات الثورة الأمريكية) وكل مواطنينا الصالحين الأحبّاء، الذين لا يأبهون إنْ لقّبوه بابن الحرام الأحمر اللعين وهدَّدوا بمُقاطعة إنتاجه الثمين. أخبروني مَنْ يتحلّى بالشجاعة لفعل ذلك لأنّه الصواب. لا أحد! لأنهم لا يأبهون البتّة بحريّة الكلام بقدر ما كان الرجال الذين عشتُ معهم في الجيش لا يأبهون بها. لم يكونوا يتكلَّمون معي. هل سبقَ أنْ أخبرتكم هذا؟ كنتُ أسير في قاعة الطعام، أتفهمون، بين أكثر من مئتيّ رجل، من دون أنْ يُحيّيني أحدٌ منهم، ولا أحد كان يقول أيَّ شيء بسبب ما كنتُ أقوله وبسبب الرسائل التي كنتُ أكتبها لـ «*النجوم والأشرطة*». كان أولئك الرجال يُعطون انطباعاً واضحاً بأنَّ الحرب العالمية الثانية نشَبتْ نكاية بهم. وخِلافاً لِما يمكن أنْ يعتقد بعض الناس عن شبابنا الأعزاء، لم تكن لديهم أدنى فكرة، ولم يكونوا يعلمون سبب وجودهم هناك، ولم يأبهوا بالفاشيّة، ولا بهتلر – فبماذا اهتموا؟ أتجعلهم يتفهمون مشاكل الزنوج الاجتماعيّة؟ أتجعلهم يتفهّمون السُبُل المُراوغة التي تلجأ إليها الرأسماليّة لإضعاف العمّال؟ أتجعلهم يفهمون لماذا عندما قصفنا فرانكفورت بالقنابل لم نلمس مصانع أ. غ فاربن[42]؟ ربما أنا نفسي كنتُ مُعاقاً بافتقاري إلى الثقافة، لكنَّ العقول الضعيفة لـ «شبّاننا» تُثير اشمئزازي بعنف! وفجأة قرأ من مخطوطي «وينتهي العمل كلّه بما يلي، إذا أردتَ مبدأً أخلاقيّاً، ها هو: إنَّ مَنْ يتقبّل هذا الهراء عن الجماعات العِرقيّة، والدينيّة، والوطنيّة، إنسانٌ أبله. إنّه يؤذي نفسه، وعائلته، ونقابته، ومجتمعه الصغير، وولايته، وبلده. إنّه أحمق توركويمادا». وقال أيرا، وهو يرمي بغضب المخطوط على طاولة المكتب: «وهذا كله كتبه فتى في الخامسة عشرة!».

***

42- أ. غ فاربن: شركة ألمانيّة للصناعة الكيميائيّة والدوائيّة – المترجم.

لا بدّ أنَّ حوالي خمسين شخصاً جاؤوا بعد انتهاء وجبة العشاء. وعلى الرغم من المكانة الخارقة التي فرضها أيرا عليّ في غرفة مكتبه، ما كان يمكن أنْ أتّصف بالشجاعة لأمكث وأختلط مع كل شخص ولج غرفة الجلوس لو لم تهرع سيلفيد إلى نجدتي. كان هناك ممثلون وممثلات، ومُخرجون، وكُتّاب، وشُعراء، وكان هناك محامون ووكلاء أدب ومُنتجو مسرح، وكان هناك آرثر سوكولو، وكانت هناك سيلفيد، التي لم تكن فقط تُخاطب الضيوف بأسمائهم بل وتعرف بتفصيل مُبالغ فيه كل عيب فيهم. كانت متهوّرة، ومتكلِّمة مُسلّية، وكانت كارهة كبرى بموهبة طبّاخ في تقطيع الشرائح، وصنع اللفائف، وشيّ قطعة كبيرة من اللحم، وأنا، الذي كان هدفي أنْ أُصبح نجماً إذاعياً يُخبر الحقيقة بشجاعة، وبلا مهاودة، كنتُ هيّاباً من عدم فعلها أيّ شيء لجعل امتعاضها المرح عقلانياً، إذا لم أقُلْ تُخفيه. إنَّ ذاك الرجل أشد شخصيات نيويورك تفاهة... وذاك يجب أنْ يكون متفوقاً... وذاك يمثّل انعدام الصدق... وذاك لم تكن لديه أدنى فكرة... وذاك أصبح سكران طينة... وذاك موهبته شبه معدومة، وتافهة... وذاك ينطوي على مرارة شديدة... وذاك شديد الفسق... وأشدّ ما يُثير الضحك في ذلك المجنون هو تكلُّفه العظمة...

ما أمتع التصغير من قيمة الناس - ومراقبتهم وهم يتضاءلون. خاصة بالنسبة إلى فتى أقصى رغبة لديه في تلك الحفلة كانت أنْ يُبدي توقيره. ومع أني كنتُ قلقاً من تأخّري في العودة إلى المنزل، إلا أنني لم أتمكّن من حرمان نفسي من هذه الثقافة الراقية في مسرّات النكاية. ولم أكنْ قد قابلتُ أحداً يشبه سيلفيد: صغيرة السن ومع ذلك ومُعادِيَة إلى أقصى حد، وحكيمة دنيويّة ومع ذلك، كانت ترتدي ملابس طويلة جداً ومُبهرجة وكأنها عرّافة، وغريبة الأطوار بصورة جليّة. وسعيدة جداً لأنَّ *كل شيء* يُثير نفورها. ولم تكن لديّ أدنى فكرة عن مدى كوني مُروَّضاً ومكبوحاً، وتوّاقاً إلى إرضاء الآخرين، إلى أنْ رأيتُ مدى توق سيلفيد إلى مُعاداة كل شيء، ولا فكرة لديّ عن كميّة الحرية المتوفّرة لديّ

لأستمتع بها حالما أُطلقُ العنان للأنانيّة من قيد الخوف الاجتماعيّ. كان هناك الافتتان بروعتها. لقد رأيتُ سيلفيد متحرّرة من الخوف، لا تخاف أنْ تُنمّي داخلها التهديد الذي يمكنها أنْ توجّهه نحو الآخرين.

أعلنتْ أنَّ هناك شخصين لا تُطيقهما هما الاثنان اللذان تصادف أنْ كان برنامجهما الذي يُبثّ في الإذاعة في صباح يوم السبت هو المُفضّل لدى أمي. وعنوان البرنامج «*فان تاسل وغرانت*» الذي كان يُبثّ من المنزل الريفي في نهر هدسن، في مقاطعة دتْشس، في نيويورك، ويحكي عن الروائيّة المعروفة كاترينا فان تاسل غرانت وزوجها، برايدن غرانت الذي يكتبُ عموداً في صحيفة «*جورنال أميركان*» وهو ناقد ترفيهي. كانت كاترينا نحيلة بصورة مُرعبة طولها ستة أقدام ولها حلقات شعر قاتمة وطويلة لا بدّ أنّها كانت ذات يوم تُعتبَر مُغرية ورمزٌ يوحي إلى أنّها لا تفتقر لحسّ التأثير الذي نقلته إلى أميركا عبر رواياتها. لم أكنْ أعرف عنها إلا النذر اليسير حتى تلك الأمسية - حفلة العشاء تلك التي أُقيمت في منزل غرانت كانت مُخصّصة لنقاش جرى مع أولادها الأربعة الوسيمين حول التزاماتهم الاجتماعيّة، التي كان أصدقاؤها في مدينة شتاتسبرغ التقليدية العريقة (حيث استقرَّ أسلافها، آل فان تاسل، للمرة الأولى، كأرستقراطيّة محليّة كما أُشيع، في القرن السابع عشر، قبل وصول الإنكليز بزمن طويل) بمثابة أوراق اعتماد ثقافيّة وأخلاقيّة لا تشوبها شائبة - عندما تناهت إلى سمعي بينما كانت أمي تستمع إلى برنامج «*فان تاسل وغرانت*».

كانت عبارة «لا تشوبها شائبة» مُفضّلة كثيراً في حوار كاترينا الأسبوعي المُنفرِد حول وجودها الثريّ والمتنوِّع الذي كسر الرقم القياسيّ في المدينة الصاخبة وفي الريف الرعويّ. ولم تكن جُمَلها *فقط* مُبتلية بعبارة «لا تشوبها شائبة» بل وجُمَل أمي أيضاً بعد استماعها مدة ساعة إلى كاترينا فان تاسل غرانت - التي كانت أمي تعتقد أنها «مُهذَّبة» - وهي تمدح تفوُّق كائناً مَنْ حالفه الحظ وولج دائرة آل غرانت الاجتماعيّة،

سواء كان الرجل الذي رمّم لها أسنانها أم الرجل الذي أصلح لها مرحاضها. قالت، بينما أمي، كالملايين غيرها، تُصغي مفتونة إلى نقاش مشاكل الصرف الصحيّ التي تُصيب منازل حتى أشد البيوت الأمريكية أصالة، «إنه اسكافيّ لا تشوبه شائبة، يا برايدن، لا تشوبه شائبة»، وقال أبي، الذي كان من أنصار سيلفيد الثابتين: «أوه، أرجوك، من فضلك، أسكتي تلك المرأة؟».

وعن كاترينا غرانت تمتمت سيلفيد لي قائلة «إنَّ أشدّ ما يُثير الضحك في تلك المجنونة هو ادّعاؤها العَظَمَة»؛ وعن الزوج، برايدن غرانت، قالت: «ذلك الرجل هو أشد مَنْ عرفتُ غروراً في نيويورك».

إنَّ أمي ترافقُ كاترينا لتناول وجبة الغداء ثم تعود إلى المنزل شاحبة من شدّة الغضب. تلك المرأة لا تُطاق. إنها تحكي لي عن المسرح وتكلّمني عن آخر ما صدر لها من روايات وتعتقد أنّها تعرف كلّ شيء وهي *لا تعرف أيّ شيء*. وهذا صحيح: عندما تذهبن لتناول الغداء، كانت كاترينا دائماً تلقي على مسمع أمي محاضرات حول الشيء الوحيد الذي تعرف أمي عنه كل شيء. إنَّ أمي لا تُطيق كتب كاترينا، بل لا تستطيع حتى أنْ تقرأها. وتنفجر بالضحك عندما تحاول ذلك، ثم تُخبر كاترينا كم هي رائعة. وأمي تبتكر لقباً لكل مَنْ يُخيفها – وكاترينا هي المعتوهة. وتُخبرني يجب أنْ تستمع إلى ما تقوله المعتوهة عن مسرحيّة أونيل. لقد تفوّقتْ على نفسها. ثم اتّصلتْ المعتوهة عند الساعة التاسعة في صباح اليوم التالي وأمضتْ أمي ساعة وهي تتحدث معها عبر الهاتف. وأمي تمرّ بنوبات عنيفة من السخط كما يمرّ المُبذّر بفترات من وفرة المال، ثم تستدير في الحال وتتملّقها بسبب كلمة فان في اسمها. ولأنَّ برايدن عندما ذكر اسمَ أمي في مقالته، سمّاها سارة برنار الأثير. مسكينةٌ أمي وطموحاتها الاجتماعيّة. إنَّ كاترينا هي الأشدّ ادّعاءً بين كل سيل الأثرياء المُدّعين في شتاتسبرغ، ومن المُفترَض أنّه ينحدر من سلالة يوليسيس س. غرانت. إليكَ. قالت، ووسط الحفلة، والضيوف منتشرون في كل

مكان ومنضمون معاً حتى بدوا كأنهم بذلوا أقصى جهدهم لكي يتجنّبوا أنْ تنغمس أنوفهم في كأس أحدهم الآخر، التفتت سيلفيد لتبحث في جدارٍ خلفنا من خزائن الكتب عن رواية من تأليف كاترينا فان تاسل غرانت، وعلى كلا جانبيّ موقد غرفة الجلوس كانت خزائن الكتب يمتد من الأرض وحتى السقف، مرتفعة عالياً بحيث كان ينبغي ارتقاء سُلَّم المكتبة من أجل بلوغ الرفوف الأعلى...

قالت: إليكَ كتاب *إلويز وأبيلار*. قلت أمي قرأتْ هذا، فأجابت سيلفيد إنَّ أمك عاهرة وقحة، فشعرتُ بوهن في رُكبتيّ إلى أنْ أدركتُ أنها كانت تمزح. وليس فقط أمي، بل حوالي نصف مليون أمريكي اشتروا الرواية وقرأوها. إليك - افتحه على صفحة، أيّة صفحة، وضعْ إصبعاً في أي موقع، ومن ثم استعدّ لكي تُفتَن، يا نيثان يا ابن نيوارك.

فعلتُ كما طلبتْ مني، وعندما رأتْ سيلفيد أين وضعتُ إصبعي ابتسمتْ وقالت: أوه، لستَ مُضطراً إلى أنْ تذهبَ بعيداً لتعثر على ف. ت. ج وهي في ذروة موهبتها، وقرأتْ سيلفيد على مسمعي بصوتٍ مرتفع قبضتْ يداه على خصرها، وقرَّبها منه، فشعرت بقوّة عضلات ساقيه. وترجع رأسها إلى الخلف. وتباعدت شفتاها لتستقبلا قُبلته. وذات يوم سوف يُعاني من الإخصاء كعقوبة وحشيّة له وانتقاماً من حبّه العنيف هذا لإلويز، أما الآن فهو أبعد ما يكون عن الإخصاء. وكلما شدّ قبضته، ازداد الضغط على أعضائها الحسّاسة. كم كان مُثاراً، هذا الرجل الذي سوف تُجدِّد عبقريته وتُحيي التعليم التقليديّ للاهوت المسيحيّ. انضغطت حلمتا ثدييها بقوة وحِدَّة، وشُدَّتْ بطنها وهي تقول في نفسها: إنني أُقبِّل أعظم كاتبٍ ومُفكِّرٍ في القرن الثاني عشر! وهمس في أُذنها إنَّ قوامك رائع، والثديان خلّابان، وخصرك نحيل! ولا يمكن حتى لأذيال ثوبك الساتان أنْ تُخفي كفلك وفخذك الجميلين عن الأعين وهو المعروف بحلّه لمشكلة القضايا الكُليّة ولاستخدامه الأصيل للمنطق، وعرِفَ بجلاء، حتى الآن، وهو في ذروة شهرته الفكريّة، كيف يُذيب

قلب امرأة... وبحلول الصباح يكونان قد ارتويا. وأخيراً حانت فُرصتها لتقول لكاهن نوتردام وسيّدها والآن علِّمني، من فضلك. علِّمني، يا بيير! اشرح لي تحليلك المنطقي للغز الله والثالوث. وهذا ما فعله، متفحّصاً بأناة دقائق تأويله العقلانيّ لعقيدة الثالوث المُقدَّس، ثم أخذها كامرأة للمرة الحادية عشرة.

قالت سيلفيد، وهي تحضن نفسها من فرط ابتهاجها مما سمعت: إحدى عشرة مرّة. إنَّ زوجها لا يعرف معنى الرقم *اثنين*. تلك الجنيّة الصغيرة لا تعرف معنى الرقم *واحد*. ولم تتمكّن من التوقف عن الضحك إلا بعد فترة – أو يتمكّن أيٌّ منا عن التوقف. هتفت سيلفيد أوه، علِّمني، *أرجوك*، بيير، ومن دون أيّ سبب في العالم – خِلاف كونها سعيدة – قبَّلتني بصوت مرتفع على ذؤابة أنفي.

قبل أنْ تُعيد سيلفيد رواية *إلويز وأبيلار* إلى الرفوف ويستعيد كلانا نوعاً ما رصانتنا، شعرتُ بأنَّ لديّ الشجاعة لأطرح عليها سؤالاً كنتُ أرغب طوال الأمسية في طرحه عليها. هو أحد الأسئلة التي طالما رغبتُ في طرحه عليها. ليس ما شعورك وأنتِ تنشئين في بيفرلي هيلز؟ ولا ما شعورك وأنتِ تسكنين بجوار منزل جيمي ديورانت؟ ولا ما شعورك وأنتِ ابنة اثنين من نجوم السينما؟ لأنني كنتُ أخشى من أنْ تسخر مني، بل طرحتُ عليها فقط ما اعتبرته أشد الأسئلة جدّيّة.

قلت ما شعورك وأنتِ تمثلين في إذاعة قاعة موسيقى المدينة؟

إنّه أمر فظيع. *قائد الأركسترا* فظيع. يقول سيدتي العزيزة، أنا أعلم أنَّه أمرٌ صعب جداً أنْ تعدّي حتى الرقم أربعة في تلك الجُملة الموسيقيّة، ولكن إذا *لم يكن لديك* مانع في أنْ تفعلي، فسوف يكون ذلك لطفاً *غامراً* منك. وكلما ازداد كياسة، تعلمُ أنَّ شعورة يزداد سوءاً. إنّه شديد الغضب، ويقول سيدتي العزيزة *العزيزة* وكانت كلمة عزيزة تقطرُ سُمّاً. هذا ليس صحيحاً تماماً، يا عزيزتي، يجب أنْ تؤدّي هذا بإيقاع سريع. ودورِكِ مطبوع *من دون* إيقاع سريع. لا يمكنكِ أنْ تعودي إلى الخلف، من دون أنْ

تبدي مولعة بالجدل ومبدِّدة للوقت، وتقولين عُذراً، يا مايسترو، في الواقع إنّه مطبوع بالطريقة الأخرى. فينظر الجميع إليك، ويقولون في أنفسهم، ألا تعرفين كيف ينبغي أنْ تؤدّيه، أيّتها البلهاء - أينبغي أنْ يُخبرك؟ إنّه أسوأ قائد أوركسترا في العالم. وكل ما يستطيع قيادته هو موسيقى من المخزون التقليديّ، ومع ذلك يجب أنْ تتساءل، ألم **يسمع** أبداً هذه المقطوعة من قبل؟ ثم هناك عربة الفرقة. أنت تعرفها، تلك المنصّة، في قاعة الموسيقى، التي تنقل الفرقة لتظهر. إنها تتحرك إلى أعلى وإلى الخلف وأمام والأسفل، وكلما تحرّكتْ، تهتز - إنها تستقرّ على مصعد هيدروليكي - وتجلس العازفة وتتشبّث بآلة القيثارة كتشبُّثِها بالحياة العزيزة حتى وهي غير مُدوزنة. إنَّ عازفي القيثارات يقضون نصف أوقاتهم في الدوزنة والنصف الثاني في العزف نشازاً. إنني أكره القيثارات كلها.

قلت، وأنا أضحك، من ناحية لأنها كانت مُضحكة ومن ناحية أخرى بسبب مُحاكاتها الساخرة لقائد الأوركسترا، أحقاً تكرهينها؟ وضحكتْ هي أيضاً.

قالت: إنّ العزف على القيثارة أمر صعب. إنَّ أوتارها تنقطع دائماً. يكفي أنْ *تنفخ* على القيثارة حتى تصبح نشازاً. إنَّ محاولتي الحصول على قيثارة في حالة مثاليّة تدفعني إلى حافة *الجنون*. ونقلها من مكان إلى آخر - يُشبه نقل حاملة طائرات.

فلماذا تعزفين على القيثارة إذن؟

لأنَّ قائد الأوركسترا على صواب - أنا *حقاً* غبيّة. إنَّ عازفي المزمار أذكياء. وعازفو الكمان أذكياء. ولكن ليس عازفو القيثارة. إنَّ عازفي القيثارة أغبياء، بلهاء، حمقى. كيف تكون ذكياً وتنتقي آلةً سوف تُدمِّر حياتك وتوجّهها كما تفعل القيثارة؟ ولو لم أكنْ في السابعة حينئذٍ وغبيّة جداً، لكان مُحالاً أنْ أباشر العزف على القيثارة، ناهيك أنْ أبقى أعزف حتى الآن. إنني حتى لا أعي أيّة ذكريات عن حياتي قبل أنْ أعزف القيثارة.

لماذا بدأتِ في سن مُبكّرة جداً؟

إنَّ مُعظم الفتيات الصغيرات اللواتي يبدأن العزف على القيثارة يفعلن ذلك لأنَّ الماما تعتقد أنّه شيء *جميل جداً* أنْ يفعلنَ ذلك. كان يبدو أمراً جميلاً والموسيقى كلها كانت تبدو شيئاً عذباً جداً، وكان العزف عليها يتمّ بكل تهذيب في غُرفٍ صغيرة من أجل أناس مُهذَّبين ليسوا مُهتمين بها البتّة. والعمود المكسو بأوراق الذهب - كنت تحتاج إلى نظارات لتتمكّن من النظر إليه. شيء رائع حقاً. إنه ينهض هناك ويجعلك تتذكّره دائماً. وحجمه هائل، ولا يمكنك أنْ تنقله. *أين* يمكن أنْ تضعه؟ إنه موجود دائماً، شامخ ويسخر منك. ولا يمكنك الهروب منه. أشبه بأمي.

فجأة ظهرت امرأة شابة لا تزال ترتدي معطفها وتحمل حقيبة صغيرة سوداء بيدها إلى جوار سيلفيد، تعتذر بلكنتها الإنكليزيّة لأنّها تأخّرت في الوصول. كان بصُحبتها شابٌ ضخم، أسود الشعر - بدا أنيقاً، وكأنّه مشدود بكل امتيازه، ومُحتفظاً ببدانته الشابّة منتصبة انتصاباً عسكرياً - مع امرأة شابّة حسّية كعذراء، تبدو ناضجة، تميل قليلاً إلى الامتلاء، مع شعر مُجعّد ذهبيّ يميل إلى الحُمرة وبتناسب مع بشرتها الصافية. وهبّتْ إيف فريم إلى استقبال الوافدين الجُدد. عانقتْ الفتاة التي تحمل الحقيبة الصغيرة السوداء، التي اسمها باميلا، ثم عرَّفتها باميلا إلى الثنائي الفاتن، المرتبطين بالخُطبة وسوف يتزوجان قريباً، وهما روزاليند هالاداي ورامون نوغيرا.

في غضون بضع دقائق أصبحتْ سيلفيد في المكتبة، والقيثارة على رُكبتيها وتسندها على كتفها بينما تدوزنها، وخلعتْ باميلا عنها معطفها ووقفتْ بمُحاذاة سيلفيد تُجرّب مفاتيح عودها، وبعد أنْ جلستْ روزاليند بجوار الإثنين الآخَرين أخذت تضبط الآلة ذات الأوتار التي افترضتُ أنّها الكمان لكنني سرعان ما اكتشفت أنّها أكبر حجماً بقليل واسمها الفيولا. وشيئاً فشيئاً توجّه الجميع إلى غرفة المكتبة، حيث وقفتْ إيف فريم تنتظر أنْ يرين الصمت، إيف فريم ترتدي ثوباً وصفتهُ

لاحقاً لأمي قدر استطاعتي حتى أنَّ أمي أخبرتني أنّه ثوب من الشيفون الأبيض ذي ثنيات مع غطاء للكتفين وخمار من شاش الشيفون الأخضر الزمرّدي. وعندما وصفتُ تسريحة شعرها كما تذكّرتها، أخبرتني أمي أنها تُسمّى قصّة الريشة، مع لفائف طويلة من الشعر تتدلّى حول الرأس وتاج أملس. حتى بينما إيف فريم تنتظر بصبر، كثَّفتْ ابتسامة واهنة من جمالها (وسِحرها في عيني)، وكان جلياً أنَّ إثارة البهجة تتصاعد داخلها. وعندما تكلَّمتْ، عندما قالت: ثمة أمرٌ جميل سوف يقع، بدا أنَّ مخزونها من الأناقة كلّه يوشك أنْ يتدفّق.

كان أداءً رائعاً، خصوصاً بالنسبة إلى مراهق كان سيُضطر في غضون نصف ساعة إلى العودة على متن حافلة نيوارك رقم 107 إلى منزلٍ لم تعُد توتّراته القوية تترك فيه أكثر من الشعور بالإحباط. لقد جاءت إيف فريم وذهبتْ في أقلّ من دقيقة، ولكنَّ بالطريقة الفخمة وحدها التي هبطتْ بها الدَرَجة وعادتْ إلى غرفة الجلوس بثوبها الشيفون الأبيض ذي الثنيات مع غطاء الكتفين، أضفَتْ على الأمسية بأكملها معنى جديداً: إنَّ المغامرة التي تُعاش الحياة من أجلها أوشكتْ أنْ تتكشّف.

لا أريد أنْ يبدو كأنَّ إيف فريم كانت تمثّل دوراً. حاشا: لقد كانت تُعبِّر عن إحساسها ***بالحرّية***، عن إيف فريم بلا قيود، متحرّرة بنشوة من الخوف، وفي حالة من السمو الهادئ. وكأنّها هي التي أسندتْ إلينا دور حياتنا – دور الأرواح المتميِّزة التي يوشك أحبّ حُلم لديها أنْ يتحقَّق. كانت الواقعيّة قد وقعتْ ضحيّة قوة سحريّة فنيّة؛ كأنَّ مخزوناً من السِحر المُستتر قد نقَّى الأمسية من دورها الاجتماعيّ الدنيويّ، طهَّرَ ذلك التجمُّع من أنصاف الثملين اللامعين من كل الغرائز الشريرة والخُطط الوضيعة. وهذا الوهم نشأ عملياً من لا شيء: من بضعة مقاطع لفظيّة منطوقة بصورة ممتازة من حافة دَرَجة المكتبة، وذاب كل السعي التافه إلى الذات الذي اتّسمتْ به أمسية في مانهاتن داخل محاولة رومانسيّة للهرب إلى نعيم جماليّ.

سوف تعزف سيلفيد بيننغتون وعازفة المزمار الشابة اللندنيّة باميلا سولومون معزوفتين ثُنائيتين على المزمار والقيثارة. الأولى من تأليف فوريه وتسمّى تهويدة، والثانية من تأليف فرانتز دوبلر، وتُسمّى كاسيلدا فانتازيا. والاختيار الثالث والأخير سوف يكون الحركة الثانية الحيويّة، الفصل الإضافي، من سوناتة للمزمار، والفيولا، والقيثارة من تأليف ديبوسي. عازفة الكمان هي روزاليند هالاداي، التي جاءت من لندن في زيارة لنيويورك. مسقط رأس روزاليند هو كورنوال، في إنكلترا، وتخرّجتْ ن مدرسة غيلدهول للموسيقى والدراما. في لندن، تقوم روزاليند بالعزف هذه الأيام برفقة أوركسترا دار الأوبرا الملكيّة.

كانت عازفة المزمار فتاة تبدو عليها الكآبة، ذات وجه طويل، وعينين سوداوين، وقوام نحيل، وكلما أطلتُ النظر إليها أحببتُها أكثر - وكلما أطلتُ النظر إلى روزاليند أحببنُها هي أكثر - ورأيتُ بجلاء أكثر مدى عجز صديقتي سيلفيد في أي شيء مُخصَّص لإثارة رغبة رجل. نظرتْ سيلفيد إليّ بجذعها المُربَّع الشكل وساقيها السمينتين وكتل اللحم الغريبة الزائدة التي تجعلها أكثر بدانة بقليل كثورٍ أمريكي عبر الجزء العلويّ من الظهر، في أثناء عزفها على القيثارة - على الرغم من الأناقة الكلاسيكيّة ليديها وهما تتحركان على طول الأوتار - كأنّها مُصارِع يُصارعُ القيثارة، كأنّها أحد مُصارعي السومو اليابانيين أولئك. ولأنّني خجلتُ من إثارة هذه الفكرة في ذهني، فإنها لم تستمر إلا مع استمرار العزف.

لم أفهم شيئاً من الموسيقى. كنتُ، كأيرا، لا أتذوّق أي نوع من الموسيقى خلاف الاعتياديّة منها (وفي حالتي، تلك التي أسمعها في صباح أيام السبت عبر إذاعة ***قاعة رقص الادّعاء*** وفي أمسيات أيام السبت في برنامج ***استعراض أغانيك المُفضّلة***)، لكنَّ مرأى سيلفيد واقعة بجديّة تحت تأثير سِحر الموسيقى التي تحاول أنْ تستخلصها من تلك الأوتار، وأيضاً، **شغف** عزفها، شغف مُركَّز يمكن رؤيته في عينيها - شغف مُتحرِّر

من كل ما هو متهكِّم وسلبيّ فيها - دفعني إلى التساؤل عن القِوى التي يمكن أنْ تتمتَّع بها لو أنَّ وجهها، بالإضافة إلى براعتها في الموسيقى، كان نحيلاً بصورة مُغرية كوجه أمها الرقيق.

لم أفهم، إلا بعد مرور عقود لاحقة من الزمن، بعد زيارة مري رينغولد، أنَّ الطريقة الوحيدة التي كان يمكن لسيلفيد أنْ تبدأ بها الشعور بالارتياح هي كراهيّة أمها والعزف على القيثارة. فكراهية أمّها التي هي نقطة ضعف مُثيرة للغيظ وإصدار أصوات أثيريّة ساحرة، شكّلا مع موسيقى فوريه ودوبلر وديبوسي كل الصِلة العاطفيّة التي يمكن للعالم أنْ يسمح بها.

عندما نظرتُ إلى إيف فريم، في الصف الأول للمشاهدين، وجدتُ أنّها كانت تحدِّق إلى سيلفيد بشوق شديد حتى أنَّ المرء يعتقد أنَّ في سيلفيد يكمن أصل إيف فريم وليس العكس.

ثم بدأ من جديد كل ما كان قد توقف. فكان هناك التصفيق، وعبارات المديح، والانحناءات، وترجّلتْ سيلفيد، وباميلا، وروزاليند عن خشبة المسرح التي تحوّلتْ غرفة المكتبة إليها وكانت إيف فريم في الانتظار لكي تُعانق كلاً منهنّ بدورها. وكنتُ قريباً بقدرٍ كافٍ لأسمعها تقول لباميلا، أتعلمين مَنْ تُشبهين؟ أميرة عبريّة! وقالت لروزاليند: وأنت كنتِ ممتعة، ممتعة إلى أقصى حد! وأخيراً قالت لابنتها: سيلفيد، سيلفيد، سيلفيد جولييت، لم يحدث أبداً، أبداً أنْ عزفتِ بمثل هذا الجمال! أبداً، يا حبيبتي! ومقطوعة دوبلر على وجه الخصوص كانت جميلة.

قالت سيلفيد: ماما، مقطوعة دوبلر كانت قمامة صالونات.

هتفت إيف أوه، كم أحبّك! إنَّ أمّك تحبّك حباً جماً!

بدأ آخرون يتوافدون لتهنئة ثلاثي العازفات، والشيء التالي الذي عرفته، هو أنَّ سيلفيد أحاطتْ خصري بذراعها وأخذت تُقدِّمني بكل ودّ إلى باميلا، وإلى روزالند، وإلى الخطيب رامون. قالت سيلفيد: هذا نيثان من نيوارك. نيثان يتلقّى الحماية السياسيّة من الوحش. ولما كانت

قد قالتْ ذلك مع ابتسامة، ابتسمتُ أيضاً، مُحاولاً أنْ أُصدِّق أنَّ الجملة قيلَتْ بحُسن نيّة، وليستْ أكثر من نكتة عائليّة عن طول قامة أيرا.

تلفّتُ حولي في الغرفة بحثاً عن أيرا فلم أجده، ولكن بدل أنْ أطلب الإذن بالذهاب لأفتش عنه وأعثر عليه، سمحتُ لنفسي بالاستسلام لقبضة سيلفيد - وبأنْ يكتنفني رُقيّ أصدقائها. لم أكنْ قد رأيتُ شاباً كرامون نوغيرا أنيقَ الملبس ولائقاً ومُتحضّراً مع كياسة. أما باميلا السمراء وروزاليند الشقراء، فبدت كلٌ منهما في عيني جميلة إلى درجة أنني لم أستطع أنْ أُطيل النظر إلى أي منهما لأكثر من جزء من الثانية في كل مرة، وإنْ كنتُ في الوقت نفسه عاجزاً عن انتهاز الفرصة بالبقاء واقفاً بحركة عفويّة على مسافة بضع بوصات من لحميهما.

كان من المتوقع زواج روزاليند ورامون في غضون ثلاثة أسابيع في عزبة آل نوغيرا الواقعة خارج هافانا مباشرة. كان آل نوغيرا يزرعون التبغ، وكان والد رامون قد ورثَ عن جد رامون آلافاً من الفدادين الصالحة للزراعة في منطقة تُدعى باتريدو، وهي أرضٌ سوف يرثها رامون، وذات يوم سوف يرثها أولاد رامون وروزاليند. كان صمت رامون مُطبقاً - كان جديّاً بحسّه بتقرير مصيره بنفسه، ومُصمماً باجتهاد على تحمُّل موقع السلطة الذي أسنده إليه مُدخّنو السيجار في العالم، بينما روالیند - التي كانت قبل بضع سنين فقط طالبة موسيقى فقيرة في لندن وتنحدر من ركنٍ ريفيّ قصيّ من إنكلترا وأضحتْ الآن قريبة من التخلّص من مخاوفها كلها بما أنّها تقترب من بداية عصر الإنفاق - كانت تزداد حيويّة باطراد. وثرثرة. أخبرتنا عن جدّ رامون، الأشهر والأشدّ احتراماً بين آل نوغيرا، الذي كان قبل حوالي ثلاثين عاماً حاكماً محلياً بالإضافة إلى كونه مالكاً لمساحة شاسعة من الأرض إلى أنْ وصل إلى حكومة الرئيس مينديتا (الذي تصادف أنّني كنتُ أعلم أنَّ رئيس أركانه هو صاحب السُمعة السيئة فولجينسيو باتيستا)؛ وحكتْ لنا عن جمال مزارع التبغ، حيث كانوا يزرعون، تحت غطاء من القماش، أوراق اللف من أجل صناعة السيجار

الكوبيّ؛ ثم أخبرتنا عن الأسلوب الإسباني الفخم الذي سيُقام على طرازه العرس كما قرَّره آل نوغيرا من أجلهما، وكانت باميلا، صديقتها منذ الطفولة، قد طارت من نيويورك إلى هافانا، على نفقة عائلة نوغيرا، وسوف تقيم في منزل الضيوف في العزبة؛ وقالت روزاليند المنهمكة في العمل: إذا وجدت سيلفيد الوقت فهي تُرحّب بمجيئها مع باميلا.

تكلَّمَتْ روزاليند ببراءة متلهّفة، بخليط مُبهِج من الفخر وتحقيق الإنجاز، عن الثروة الهائلة لآل نوغيرا بينما كنتُ أقول لنفسي، ولكن ماذا عن الفلاحين الكوبيين الذين يعملون في زراعة التبغ - مَنْ يطير بهم من نيويورك إلى هافانا من أجل حضور عرس العائلة؟ في أي نوعٍ من بيوت الضيوف يُقيمون في مزارع التبغ الجميلة؟ وماذا عن المرضِ وسوء التغذية والجهل المُنتشرة بي عمالكم، يا آنسة هالاداي؟ فبدل كل ذلك التبديد الفاحش للمال على زفافكم الإسبانيّ الطراز، لِمَ لا تبدئين بالتعويض على الجماهير الكوبيّة التي استولت عائلة خطيبة على أراضيهم بأساليب غير شرعيّة؟

لكنني لزمتُ الصمت كما كان حال رامون نوغيرا، لكنّه، من الداخل، كان أبعد ما يمكن عن الهدوء العاطفيّ كما بدا عليه، مُحدِّقاً أمامه من دون أنْ يرف له جفن وكأنّه يستعرض القوات العسكريّة. إنَّ كل ما قالته روزاليند أفزعني، لكنني لم أتمكن من أنْ أكون شاذا اجتماعياً بحيث أُخبرها بذلك. ولم أتمكّن من استجماع القوة لمواجهة رامون نوغيرا بتقديرات الحزب التقدُّمي لثرواته ومصدرها. ولم أتمكّن من الابتعاد طوعاً عن توهُّج روزاليند الإنكليزيّ، الشابة الجميلة جسداً والموهوبة موسيقياً التي بدا أنّها لا تفهم أنها بتخلّيها عن مُثُلها العليا من أجل مُغريات رامون - أو، إذا لم نقُل مُثُلها العليا، فبتخلّيها عن مُثُلي أنا - وبانتسابها إلى الطبقة الكوبيّة الراقية مالكة الأراضي، المُستغلّة، لم تكن فقط تُعرِّض قيمها كفنانة للشُبهة بشكل قاتل، بل، حسب تقديري السياسيّ، تُهين نفسها بارتباطها بشخص أقلّ جدارة بكثير بموهبتها -

وشعرها الذهبي المائل إلى الحُمرة والبشرة التي تُغري بالمداعبة - مني، على سبيل المِثال.

وكما تبيَّنَ، كان رامون قد حجز طاولة في نادي اللقْلقْ من أجل باميلا، وروزاليند، وله، وعندما طلبَ من سلفيد أنْ تنضمَ إليهم، قام أيضاً، بقدرٍ من الثقة في النفس الجافّة، بنوعٍ من كياسة الطبقة الراقبة، بمدّ دعوته إليّ، قائلاً أرجوك يا سيد أنْ تقبل دعوتي كضيف.

قلت لا أستطيع، كلا -، ولكن بعد ذلك، من دون شرح - بما أنني كنتُ أعلمُ أنّني يجب، وينبغي، ويجدر بي أنْ أقول... بما أنني أعلم أنَّ *أيرا* كان سيقول - إنني لا أقبلك أو أقبل أمثالك! لكنني أضفتُ بدل ذلك شكراً، شكراً مع ذلك، واستدرتُ، وكأنني أهرب من وباء وليس من فرصة ثمينة لكاتبٍ مبتدئ أنْ يُشاهد نادي اللقْلقْ الشهير الخاص بشيرمان بيلينغزلي[43] والطاولة التي جلس عليها والتر وينشل[44]، واندفعتُ مبتعداً عن المُغريات التي عَرَضَها عليّ أول مُتنفِّذ ثريّ أقابله في حياتي.

ارتقيتُ وحدي إلى غرفة الضيوف في الطابق العُلويّ، وتمكّنتُ من العثور على مِعطفي في أسفل كمية كبيرة متراكمة على سريرين متشابهين، وقابلتُ هناك آرثر سوكولو، الذي قال أيرا إنّه قرأ مسرحيّتي. وكنتُ شديد الحياء لأقول له أيَّ شيء ونحن هناك في غرفة مكتب أيرا بعد قراءة أيرا الموجزة، ولم يبدُ، وهو يستعرض ذلك الكتاب عن لينكولن، أنَّ لديه أيّ شيء يقوله لي. ولكن، خلال الحفلة، تناهى إلى سمعي شيءٌ كان يقوله بنبرة عدوانيّة لشخص في غرفة الجلوس. سمعته يقول لقد أثار ذلك جنوني. وجلستُ وأنا في حالة من الهياج ودوّنتُ القطعة بين ليلة وضُحاها؛ وسمعته يقول لقد كانت الاحتمالات غير

43- شيرمان بيلينغزلي (1900 - 1966): أمريكي صاحب النادي الليلي المذكور الذي كان يؤمّه المشاهير. وكان قبل ذلك يصنع الكحول بطريقة غير شرعيّة - المترجم.

44- والتر وينشل (1897 - 1972): مُعلق صحفي وإذاعي. كان مُختصاً في نشر فضائح المشاهير - المترجم.

محدودة. كان يسود جوٌ من الحريّة، والرغبة في إقامة جبهات جديدة؛ ثم سمعته يضحك ويقول حسن، لقد قبلوني في مواجهة البرنامج الإذاعي المُصنَّف رقم واحد... وكان تأثير ذلك عليّ كأني قابلتُ الحقيقة التي لا ريب فيها.

حصلتُ على أوضح تصوُّر لِما أردتُ لحياتي أنْ تكون عليه عندما استمعتُ إلى سوكولو، مُقترباً عن عمد من مرمى سماعه، يصِفُ لامرأتين مسرحيّة ينوي أنْ يكتبها من أجل أيرا، وهي عرض من رجلٍ واحد يقوم ليس على الكلام بل على أساس حياة أبراهام لينكولن برمّتها، منذ ولادته وحتى مماته. خطاب التولية الأول، ثم خطاب غيتسبرغ، ثم خطاب التولية الثاني - وهذه ليستْ القصّة. هذا فن الخطابة. وطُلِبَ من أيرا أنْ يصعد إلى هناك ليحكي القصّة. أنْ يحكي كم كان الأمر *صعباً* جداً: الانقطاع عن الذهاب إلى المدرسة، والوالد الأحمق، وزوجة الأب الرهيبة، والمستشارون القانونيّون، والترشُّح ضد دوغلاس، والخسارة، ثم زوجته تلك المرأة المهووسة بالتسوُّق، وخسارة الابن بصورة وحشيّة - موت ويلي - والإدانة من كل حدب وصوب، والهجوم السياسي اليوميّ منذ اللحظة التي استلم فيها الرجل منصِبه. وحشيّة الحرب، وعدم كفاءة القادة العسكريين، إعلان تحرير العبيد، وإحراز النصر، الحِفاظ على الاتحاد وتحرير العبيد - *ثم* الاغتيال الذي غيَّرَ هذا البلد إلى الأبد. إنها مادة رائعة للممثّل. مدّتها ثلاث ساعات. من دون توقّف. سوف يجعل المشاهدين يتسمّرون على مقاعدهم. سوف يتألّمون على ما كان يمكن أنْ تؤول إليه أميركا اليوم، على الزنوج وعلى البيض معاً، لو أنّه دام في ولايته الثانية وأشرف على إعادة الإعمار. لقد فكّرتُ مُطوّلاً في ذلك الرجل. لقد قتله ممثّل مَنْ غيره؟ وضحك: مَنْ غيره يمكن أنْ يكون تافهاً وأحمق إلى درجة قتل أبراهام لينكولن؟ هل يستطيع أيرا أنْ يستمر على خشبة المسرح ثلاث ساعات وحده؟ ويُلقي النصّ الخطابيّ - نحن نعلم أنّه يستطيع. وإلّا، سوف نعمل معاً على أنْ يستطيع، وسوف

يحفظه: لقد كان قائداً تمتَّعُ بقدرٍ عالٍ من الذكاء والبراعة والقوة الفِكريّة، تعرَّض لكم هائل من المُضايقة، كان مخلوقاً ضخماً تتناوب عليه فترات من علوّ الهِمّة والكآبة القاسية، وحتى الآن هنا ضحك سوكولو من جديد، لم يُقدِّر بكونه لينكولن صاحب النُصُب التذكاري.

هنا اكتفى سوكولو بالابتسام، وبصوتٍ فاجأني برقّته، قال: أيها الشاب، سيد زوكرمان، لا بدّ أنَّها كانت ليلة فريدة بالنسبة إليك أومأتُ برأسي ولكن من جديد وجدتُني معقود اللسان، عاجز عن طلب أي نصيحة لي وعمّا إذا كان لديه أيّ نقد لمسرحيتي. أنبأني حسٌّ متطوِّر بالواقع (بالنسبة إلى فتى في الخامسة عشرة) بأنَّ آرثر سوكولو لم يقرأ المسرحيّة.

في أثناء خروجي من غرفة النوم حاملاً مِعطفي، رأيتُ كاترينا فان تاسل غرانت قادمة نحوي من الحمّام. كنتُ صبياً طويل القامة بالنسبة إلى سنّي ولكن، بسبب حذائها عالي الكعبين، بدتْ أطول مني بكثير، على الرغم من أنني ربما كنتُ سأقع تحت تأثير سِحر مهابتها، شعرتُ بأنّها تعتبر نفسها المِثال الأشدّ رِفعة لشيءٍ ما، حتى وإنْ كنتُ أطول قامة بمقدار قدم واحد. لقد حدث كل شيء بصورة عفويّة جداً حتى أنني لم أتمكّن من البدء بفهم كيف لهذا المخلوق الذي يُفترَضُ بي أنْ أكره – ومن دون بذل أي عناء – أنْ يتقرَّب مني إلى هذه الدرجة. إنّها كاتبة تافهة وتدعم فرانكو وعدوّة للاتحاد السوفييتي، ومع ذلك أين كانت كراهيتي، عندما احتجتُ إليها؟ عندما سمعتُ نفسي أقول، سيدة غرانت؟ هل لي أنْ أحصل على توقيعك – من أجل أمي؟ كان يجب أنْ أتساءل مَنْ أنا أو ما هذه الهلوسة التي أمرّ بها. لقد كان ذلك أسوأ من سلوكي مع أسطون تجارة التبغ.

قدَّمتْ السيدة غرانت، وهي تبتسم لي، اقتراحاً إليّ، كائناً مَنْ كنتُ، بشرح سبب وجودي في هذا البيت العظيم، ألستَ صديق سيلفيد الشاب؟

لم أكنْ حتى قد فكّرتُ بالكذب. قلت نعم. لم أكنْ أعلم أنَّني بدوت كبيراً بقدرٍ كافٍ، ولكنْ ربما كان الفتية المراهقون هم من اختصاص

سيلفيد. أو ربما كانت السيدة غرانت لا تزال ترى في سيلفيد مجرد طفلة. أو ربما رأتْ سيلفيد وهي تُقبّلني على أنفي، وافترضَتْ أنَّ تلك القُبلة تتعلَّق بنا وليس بمُضاجعة أبيلار لإلويز للمرّة الحادية عشرة.

هل أنتَ أيضاً موسيقيّ؟

قلت نعم.

على أيّة آلة تعزف؟

على الآلة نفسها. القيثارة.

أليس هذا أمراً غريباً على صبيّ؟

كلا.

سألتْ على ماذا سأكتب؟

أعتقد أنَّ في مِحفظة نقودي قطعة من الورق – لكنني تذكّرتُ ذلك الدبوس المُثبَّت داخل محفظتي على شكل زر يمثّل حملة والاس لمعركة الرئاسة الذي كنتُ أضعه وأنا في المدرسة على جيب قميصي في كل يوم وعلى مدى شهرَين وتذكّرتُ أنني، بعد الانتخابات الكارثيّة، رفضتُ أنْ أتخلّى عنه. والآن أبرزته كأنّه شارة رجل الشرطة كلّما ذهبتُ لكي أدفع نقوداً من أجل شيءٍ ما. قلت لقد نسيت مِحفظتي.

أخرجت من الحقيبة المشغولة بالخرز التي تحملها بيدها دفتر ملاحظات وقلم حبر فضياً. ما اسم أمّك؟

سألتني ذلك بلطفٍ كافٍ، لكنني لم أستطع أنْ أخبرها.

قالت بابتسامة ليست خبيثة: ألا تتذكّر؟

فقط اسمك *أنت*. ويكفي. من فضلك.

بينما كانت تكتب، قالتْ لي: ما هي خلفيتك، أيها الشاب؟

في أول الأمر لم أفهم أنّها كانت تسأل عن النوع الإنساني الفرعي الذي أنتمي إليه. كانت كلمة خلفيّة عصيّة على الفهم – لكنّها لم تكن كذلك. ولم تكن لديّ نيّة في أنْ أُظهِر ظُرفي عندما أجبت قائلاً ليست لديّ واحدة.

والآن، لماذا بدتْ نجمة أسطع، وأشدّ ***إثارة للخوف***، من إيف فريم؟

وخاصة بعد أنْ انتقدتْها سيلفيد وانتقدتْ زوجها، كيف يغمرني إعجابٌ شديد وأُخاطبها بنبرة شخص أبله؟

إنَّ السبب هو قوّتها، طبعاً، قوة الشُهرة؛ قوة امرأة تتقاسم قوّة زوجها أيضاً، إذ إنّ برايدن غرانت كان قادراً، ببضع كلمات تُقال عبر المذياع أو بعبارة ترد في عموده الصحفيّ - *بإشارة* ترد في عموده - على تدمير مستقبل الكثير من العاملين في مجال الاستعراض. لقد كان يمثّل القوة التي تُشيع القشعريرة لشخص يبتسم له الناس دائماً ويشكرونه ويُعانقونه ويكرهونه.

ولكن لماذا تملّقتُها؟ إنّني بعيد عن مجال الاستعراض. ماذا كنتُ سأكسب - أو أخسر؟ لقد استغرقَ مني أقلّ من دقيقة لأتخلّى عن كل مبدأ ومُعتقد أو ولاء ألتزمُ به. وكنتُ سأستمر في فعل ذلك لو لمْ توقّع باسمها بحمد اللَّه وتعود إلى الحفلة. لم يكن مطلوباً مني أكثر من تجاهُلها، كما أنها لم تجد أيّة مشكلة في تجاهلي إلى أنْ طلبتُ منها توقيعها من أجل أمّي. لكنَّ أمي لم تكن من النوع الذي يهوى جمع التواقيع، ولا أجبرني أحدٌ على التزوير والكذب. كل ما في الأمر أنَّ ذلك كان أسهل حلّ. بل كان أسوأ وليس أسهل. كان تصرّفاً آلياً.

كان بول روبسون قد حذّرني في كواليس الجامع قال: لا تفقد شجاعتك. صافحته بفخر، وفقدتُها، منذ المرة الأولى. فقدتُها بحماقة. لم أُجرّ إلى مركز للشرطة ولم أُضرَب بهراوة. وخرجتُ إلى الرواق مع معطفي. هذا كل ما تطلّبَ لكي يُصاب توم بين الصغير بالاضطراب. أخذتُ أهبط الدَرَج وأنا أغلي من احتقاري لنفسي كشاب صغير لم يفكّر في أنَّ عليه أنْ يقصد كل ما يقول. كنتُ مُستعداً لأنْ أهِبَ أيَّ شيء لكي أستعيد ما حدث وأُريها مركزها - فقط بسبب تصرُّفي الذي يدعو إلى الرثاء. ولكنْ سرعان ما قام بَطَلي بهذا بالنيابة عني، بعيداً عن تهذيبي الفظيع الذي يُخفِّف التهوُّز الشديد لعدائيّته. كان أيرا سيُعوِّض عن كل ما لم أقله.

***

عثرتُ على أيرا في المطبخ في الطابق التحتيّ، كان يُجفِّف الأطباق التي غسلتها في المغسلة المزدوجة واندروس، الخادم التي قدّمت لنا العشاء، مع فتاة في نحو عمري والتي تبيَّنَ أنّها ابنتها، مارفا. عندما ولجتُ المكان، كانت واندروس تقول لأيرا لم أرغب في أنْ أُبدِّد تصويتي، سيد رنغولد، لم أرغب في تبديد تصويتي الثمين.

قال أيرا لي: أخبرها. المرأة لا تريد أنْ تُصدّقني. ولا أعلم لماذا. أخبرها عن الحزب الديمقراطيّ. لا أعلم كيف تُصدِّق امرأة زنجيّة أنَّ الحزب الديمقراطيّ سوف يتوقف عن النكث بوعوده لسلالة الزنوج. لا أعلم مَنْ الذي أخبرها بهذا أو لماذا تُصدّقه. مَنْ الذي أخبركِ هذا، يا واندروس؟ أنا لم أفعل ذلك. اللعنة، لقد قلتُ لكِ قبل ستة أشهر – لن يُنهي ليبراليو الحزب الديمقراطي العُرج العمل بقانون جيم كرو[45]. إنهم ليسوا شركاء الزنوج ولم يكونوا مرةً كذلك! هناك فقط حزبٌ واحد في الحملة الانتخابيّة يمكن للزنوج أنْ يُصوتوا له، حزبٌ واحد يُحاربُ من أجل المسحوقين، حزبٌ واحد مُكرَّسٌ لجعل الزنوج في هذا البلد مواطنين من الدرجة الأولى. ولم يكن حزب هاري ترومان الديمقراطيّ!

لم أستطع أنْ أجعل صوتي يذهب هباءً، سيد رينغولد. لم يكن أمامي إلا أفعل هذا. أنْ أرميه في المجرور.

إنَّ الحزب التقدُّمي رشَّح من الزنوج من أجل شغل المنصب أكثر مما فعل أيّ حزب على مدى التاريخ الأمريكي – هناك خمسون مُرشَّحاً زنجياً من أجل مناصب وطنية مهمّة على لوائح الحزب التقدُّمي! لشغل مناصب لم يسبق لأي زنجيّ أنْ رُشِّحَ لها، ناهيك عن أنْ يتولاها! أهذا ما تسمّيه برمي الصوت إلى المجرور؟ اللعنة. لا تُهيني ذكاءك، ولا تُهيني

45- قانون جيم كرو: هو قانون التفرقة العنصريّة في أميركا بين البيض والسود، وفرضَه الديمقراطيون البيض في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، واستمر تطبيقه حتى عام 1965 – المترجم.

ذكائي. إنَّ غضبي يثور من المجتمع الزنجي عندما أفكِّر في أنكِ لم تكوني وحدكِ في عدم التفكير فيما كنتِ تفعلين.

أنا آسفة، لكنَّ رجلاً يخسر كما خسر ذلك الرجل لا يستطيع أنْ يفعل أيَّ شيء من أجلنا. إنَّ علينا أنْ نعيش بصورة ما، أيضاً.

حسن، إنَّ ما *فعلتِهِ* لا شيء، بل أسوأ من لا شيء. إنَّ ما فعلتِهِ بصوتك هو بمثابة إعادة الذين سوف يمارسون عليكم التمييز العنصريّ والجور والإعدام من دون مُحاكمة وفرض ضريبة الرؤوس طوال حياتكم، إلى سدّة الحُكم. طوال فترة حياة مارفا. وطوال فترة حياة *أطفال* مارفا. أخبرها، يا نيثان. أنتَ قابلتَ بول روبسون. هو قابل بول روبسون، يا واندروس. إنّه في رأيي أعظم زنجي شهده التاريخ الأمريكي. بول روبسون صافحه، وماذا أخبرك، يا نيثان؟ أخبر واندروس ما قاله لك.

قال: لا تفقد شجاعتك.

وهذا ما فقدتِهِ، يا واندروس. فقدتِ شجاعتك داخل حُجيرة التصويت. إنّكِ تُدهشينني.

قالت: حسنٌ، يمكنكم جميعاً أنْ تنتظروا إذ شئتم، أما نحن فيجب أنْ نعيش بصورة ما.

لقد خذلتني. والأسوأ من هذا، أنّك خذلتِ مارفا. وخذلتِ *أطفال* مارفا. أنا لا أفهم ولن أفهم. كلا، لا أفهم الطبقة العاملة في هذا البلد! وأشدّ ما أكره هو الإصغاء إلى أناسٍ لا يعرفون كيف يُصوّتون لصالحهم اللعين! أودّ أنْ أكسر هذا الطبق، يا واندروس!

افعل ما تشاء، مستر رينغولد. إنه ليس *طبقي*.

إنني شديد الحنق من المجتمع الزنجي وممّا فعل ولم يفعل من أجل هنري والاس، وما فعل ولم يفعل من أجل *أفراده*، حتى أكاد أرغبُ في كسر هذا الطبق!

قلت تصبح على خير، أيرا، بينما أيرا واقفٌ هناك يُهدِّدُ بكسر طبق العشاء الذي كان يُنهي ما فيه حتى يمسحه، يجب أنْ أذهبَ إلى المنزل.

هنا بالضبط، تناهي صوت إيف فريم من أعلى مسطبة الدَرَج، تعال وتمنَّ ليلة هانئة لآل غرانت، يا عزيزي.

تظاهر أيرا بأنّه لم يسمع والتفتَ من جديد نحو واندروس، الكلام الفخم كثير، يا واندروس، يمزح به الرجال في كل مكان عن عالمٍ جديد...

أيرا؟ إنَّ آل غرانت مغادرون. تعال إلى فوق لتتمنى لهما ليلة هانئة.

فجأة رمى الطبق، تركه يطير. فصرخت مارفا ماما! عندما ارتطم بالجدار، لكنَّ واندروس هزّتْ كتفيها استخفافاً - إنَّ انعدام العقلانيّة حتى عند البيض الموجّه ضد قانون جيم كرو لم يُفاجئها - وباشرتْ بالتقاط الشظايا بينما اندفع أيرا، ومنشفة الأطباق في يده، يرتقي الدَرَج، متوجهاً إليهم، ثلاث درجات في كل مرة، ويهنف لكي يكون مسموعاً وهو في أعلى الدَرَج، أنا لا أفهم، عندما تتمتعين بحريّة الاختيار وتعيشين في بلدٍ كبلدنا، حيث من المُفترَض أنَّ لا أحد يُجبركِ على فعل أيّ شيء، كيف يمكن لأي شخص أنْ يجلس على مائدة العشاء مع ابن الحرام النازيّ القاتل ذاك. كيف يفعلون ذلك؟ مَنْ يُجبرهم على الجلوس مع رجلٍ يقضي حياته في ابتكار شيءٍ جديدٍ من أجل قتل الناس أفضل من ذاك الذي كان يقتلهم به من قبل؟

كنتُ أقفُ خلفه مباشرة. لم أكنْ أعلم ما الذي كان يتحدث عنه إلى أنْ رأيته يتوجّه نحو برايدن غرانت، الواقف عند ممر الباب مرتدياً معطف تشسترفيلد ويضع وشاحاً من الحرير ويحمل قبّعته بإحدى يديه. كان غرانت رجلاً ذا وجه مربَّع وفكّين بارزين ورأس بشَعرٍ كثيف فضيّ ناعم يُحسَدُ عليه، متين البُنية في الخمسين من العمر ومع ذلك يكتنفه شيء - وفقط لأنّه صاحب جاذبيّة طاغية - يبدو نفيذاً[46].

46- النفيذ: الذي له مسام تنفذ منها السوائل، مثلًا - المترجم.

اندفع أيرا بسرعة نحو برايدن غرانت ولم يتوقّف إلى أنْ تقارب وجهاهما ولم تفصل بينهما أكثر من بضع بوصات.

قال له: أنتَ غرانت، غرانت، أليس كذلك؟ أليس هذا اسمك؟ غرانت، خرّيج الجامعة. غرانت، من هارفارد. خريج هارفارد وصحفيّ في هيرست، وأنت من آل غرانت – آل غرانت المشاهير! ومن المُفترَض أنْ معرفتك أفضل مما يرِد في أخبار الـ ABC. أنا أعلم من القذارة التي تكتبها أنّ مخزونك يخلو من أيّة قناعات، ولكن هل أنت مُجرّد من أيّة قناعات في كل شيء؟

أيرا! كفى! وضعت إيف فريم يديها على وجهها، الذي أصبحَ شاحباً، ومن ثم قبضَتْ على ذراعيّ أيرا. هتفتْ برايدن! وهي تنظر خلفها بعجز وتحاول أنْ تُجبِر أيرا على ولوج غرفة الجلوس، أنا شديدة، شديدة – لا أعلم.

لكنَّ أيرا أبعدها عن طريقه بسهولة وقال: أُكرِّر السؤال؛ هل أنت مُجرّد، يا غرانت، من *أيّة* قناعات؟

ليس هذا أفضل صِفاتك، يا أيرا. أنت لا تكشف عن أفضل صِفاتك. تكلَّمَ غرانت بفوقيّة رجلٍ تعلَّمَ منذ طفولته ألّا يتنازل ويُدافع عن نفسه لفظياً أمام شخص أدنى منه في المنزلة الاجتماعيّة. وقال للضيوف الذين كانوا لا يزالون في المنزل ويتجمّعون في الرواق ليتبيَّنوا سبب الهياج: تصبحون على خير، جميعاً، تصبحين على خير، عزيزتي إيف. قال هذا، وهو يرمي لها قُبلة، ومن ثم، يلتفت ليفتح الباب المؤدي إلى الشارع، ويُمسك ذراع زوجته لكي يُغادرا.

يهتف أيرا له فرنر فون براون! المهندس ابن الحرام النازي. ابن الحرام الفاشيّ القذر. إنكَ تجلسُ معه وتتناول العشاء معه. صحيح أم لا؟

ابتسم غرانت وبتماسُكٍ تامّ قال لأيرا – وقد أفْشَتْ نغمةُ صوته الهادئة نبرة التحذير: هذا تصرُّف شديد التهوُّر منك، يا سيدي.

لقد استقبلتَ هذا النازيّ في منزلك على مائدة العشاء. صح أم خطأ؟

إنَّ الذين يعملون ويفعلون أشياء تؤدي إلى قتل الناس هم سيئون جداً، لكنَّ صديقك هذا كان صديقاً لهتلر، يا غرانت. لقد عمل لصالح أدولف هتلر. ربما أنتَ لم تسمع عن هذا كله لأنَّ الأشخاص الذين أراد أنْ يقتلهم لم يكونوا من آل غرانت، يا غرانت - كانوا أناساً مثلي!

طوال ذلك الوقت، كانت كارينا تُحدِّقُ بغضب إلى أيرا وهي واقفة إلى جوار زوجها، وهي التي أجابت هذه المرّة بالنيابة عنه. إنَّ كل مَنْ يستمع إلى برنامج *فان تاسل وغرانت* في صباح يوم واحد قد يُخمِّن أنَّ كاترينا غالباً ما تُجيب بالنيابة عنه. وبتلك الطريقة كان يُحافظ على سلوكه الاستبداديّ المنذر بالشؤم وعليها أنْ تُغذّي جوعاً إلى السيادة لم تبذل أي مجهود لإخفائه. وبينما برايدن يعتبر نفسه بوضوح مُخيفاً أكثر إذا قلَّ كلامه وترك السيطرة تتدفَّق من الداخل إلى الخارج، فإنَّ ما يُخيف في كاترينا - كما هو حال أيرا - ينبع من بوحها بكل شيء.

لا شيء مما تقول له أي معنى. كان فم كاترينا غرانت كبيراً ومع ذلك - كما ألاحظ الآن - لم تستخدم منه إلا ثقباً صغيراً للكلام، ثقباً يقع في مركز شفتيها بحجم قرص مُضاد للسعال. ومن خلاله كانت تقذف بالإبر الصغيرة والحارّة التي شكّلتْ دفاعها عن زوجها. كان ثقل المناوشة يقع على كاهلها - كانت حرباً - وبدت فخمة بصورة مُثيرة للإعجاب، حتى وهي في مواجهة شخص ضخم وطويل. أنت رجل جاهل، وساذج، وفظ، ومُتنمِّر، وأبله، ومتعجرف، أنتَ جلف، ولا تعرف الحقائق، ولا تعرف الواقع، ولا تعرف فيما تفكِّر، الآن أو في أي وقت! كل ما تعرف هو أنْ تُردد ما يرِدُ في صحيفة *ديلي ووركر!*

ردَّ أيرا هاتفاً ألمْ يقتُل ضيفُكِ على العشاء فون براون ما يكفي من الأمريكيين؟ والآن يُريد أنْ يعمل مع الأمريكيين من أجل قتل الروس؟ عظيم! فلنقتل الشيوعيين من أجل عيون السيد هيرست والسيد دايس والاتحاد الوطني للصناعيين. إنَّ هذا النازيّ لا يهمّه مَنْ يقتل، ما دام يحصل على نقوده وعلى مهابة الـ...

صرختْ إيفا. لم تكن صرخة مسرحيّة أو محسوبة، بل في ذلك الرواق الممتلئ بروّاد الحفلات الأنيقين - حيث لا يقوم مُصارِع بطعن مُصارِع آخر - كأنها وصلتْ بسرعة كبيرة لدى سماعها صرخة عالية النبرة ومرعبة كأيّة نبرة صوت إنسانيّة سمعتها، على خشبة المسرح أو خارجها. من الناحية العاطفيّة، لم يبدُ على إيف فريم أنّها تصل إلى مُبتغاها.

قالت كاترينا: التي كانت قد تقدَّمتْ لكي تُمسِك إيف من كتفيها وتعانقها لكي تحميها، عزيزتي.

قال أيرا: وهو يهبط الدرج من جديد عائداً إلى المطبخ، آه، كفاك هراءً. إنَّ عزيزتك على ما يُرام.

قالت كاترينا: إنها *ليست* على ما يُرام، ولا **ينبغي** أنْ تكون كذلك، وهتفت خلفه إنَّ هذا المنزل ليس قاعة اجتماعات سياسيّة لاستقبال السفّاحين السياسيين! أيجبْ أنْ تُثير عاصفة في كل مرة تفتح فيها فمك المُثير للشغب، أيجبْ أنْ تجرّ إلى منزلٍ متحضّر، جميل، آرائك الشيوعيّة -

كان قد خرج من مطلع الدَرَج، ويهتف: هذه ديمقراطيّة، يا سيدة غرانت! إنَّ مُعتقداتي تخصّني. فإذا أردتِ أنْ تعرفي معتقدات أيرا رينغولد، فكل ما عليك أنْ تفعلي هو أنْ تطلبي منه ذلك. لا يهمّني إنْ لم تُعجبك *أو* لم أُعجبكِ أنا. هذه هي معتقداتي، ولا يهمّني إنْ لم تُعجِب *أحداً*! ولكن كلا، إنَّ زوجك يتلقّى راتبه من فاشيّ، لذلك يمكن لأي شخص أنْ يتجرَّأ ويقول ما لا يرغب الفاشيون في سماعه، وهو شيوعيّ، شيوعيّ، هناك شيوعيّ في منزلنا المُتحضِّر، ولكن لو أنكِ تتَّصفين بقدر كافٍ من المرونة في تفكيرك بحيث تعرفين أنّه في الديمقراطيّة الفلسفة الشيوعيّة، أو أيّة فلسفة.

هذه المرّة عندما صرخت إيف فريم كانت صرخة لا عُمق لها ولا قمّة، صرخة تشير إلى حالة طوارئ من تهديد الحياة وأنهتْ بصورة فعّالة كل الأحاديث السياسيّة، وبانتهائها، انتهت أول أمسية كبرى لي أقضيها خارج المنزل في المدينة.

- 5 -

قلتُ لمري على الرغم من كراهيّة اليهود، وهذا التصوُّر لليهود، تزوّجتْ أيرا، وتزوجتْ فريدمان من قبله...

كانت جلستنا الثانية. فقبل تناول طعام العشاء، جلسنا في الخارج على المصطبة المُطلّة على البركة، وأخبرني مري، ونحن نحتسي المارتيني، عن محاضرات اليوم في الكليّة. ما كان ينبغي أنْ أُفاجأ بطاقته العقليّة، أو حتى بحماسه لتنفيذ واجب كتابة ثلاثمائة كلمة - ناقِشْ، من وِجهة نظر خِبرة حياة كاملة، أيَّ بيت شِعر من أشهر مناجاة نفس من مسرحيّة *هاملت* - الذي أعطاه الأستاذ لطلابه الكبار في السن. لكنَّ رجلاً شديد القُرب من النسيان يعدُّ وظيفة مدرسيّة من أجل اليوم التالي ويُثقِّف نفسه من أجل حياة انتهتْ - واستمرَّ اللغز يُحيِّره، وبقيَ التوضيحُ حاجةً حيويّة - هذا فاجأني كثيراً: رزح فوقي إحساسٌ بالخطأ، يقترب من الإحساس بالعار، لأنني أعيش لنفسي وأبتعد عن كل شيء. ولكن بعد ذلك تلاشى الإحساس بالخطأ. لم تعُد هناك أيّة مصاعِب تمنّيتُ أنْ أخلقها.

شويت دجاجاً على آلة الشيّ وتناولنا طعام العشاء في الخارج على المصطبة. كانت الساعة قد تجاوزت الثامنة بكثير عندما انتهينا من تناول وجبتنا، لكننا كنا لا نزال في الأسبوع الثاني من شهر تموز، ولكن على الرغم من أنني في صباح ذلك اليوم خرجتُ لكي أُحضِر بريدي أخبرتني عاملة البريد بأنَّنا سوف نخسر تسعاً وأربعين دقيقة من شمس ذلك الشهر - وأننا إذا لم نحصل على المطر قريباً، فسوف نُضطر إلى الذهاب إلى

المتجر وطلب توت العلّيق المحفوظ؛ وأنَّ عدد القتلى المحليين على الطريق يفوق أربعة أضعاف ما وقع في العام الفائت؛ وأنَّه شوهِدَ من جديد، بجوار مُطعِم طيور أقامه أحدهم على حافة الغابة، دبٌّ ضخم الجثّة أسود مُقيم – فالنهار لم ينته بعد. كان الليل مختفياً خلف سماءٍ واضحة لا توحي إلا بالاستمرار. بحياة بلا نهاية وبلا اضطراب.

قال مري: أكانت يهوديّة؟ لقد كانت يهوديّة مُرتبكة بشكلٍ مَرَضيّ. لا شيء سطحياً في ذلك الارتباك. كانت مرتبكة لأنها تبدو يهوديّة – وشكل وجه إيف فريم كان يهودياً تماماً وبكل رهافة، يحمل أدقّ أسارير وجه ريبيكا، وكأنها خارجة تواً من رواية سكوتْ *إيفانو* – مرتبكة لأنَّ ابنتها تبدو يهوديّة. عندما علِمَتْ أنني أُحسِنُ الإسبانيّة، قالت لي: الجميع يعتقدون أنَّ سيلفيد إسبانيّة. عندما ذهبنا إلى إسبانيا، الجميع اعتبروها من أهل البلد. وكان الجدال معهم سيكون شيئاً بائساً جداً. مَنْ يأبه على أيّة حال؟ أيرا لم يأبه بذلك. ولا حاجة لأيرا إليه. إنّه مُعارضٌ سياسيّ. ولا يطيق الدِين بأنواعه. في عيد الفصح اليهوديّ، كانت دوريس تُعِدُّ للعائلة الطبق التقليدي للمناسبة ولم يكن أيرا يقربه. كان يعتبره تطيُّراً قبليّاً.

أعتقد أنّه عندما قابل إيف فريم للمرة الأولى أربكته، أربكه كل شيء – كان جديداً على نيويورك، وجديداً على برنامج *الأحرار والشجعان*، ويضع حول ذراعه شِعار مسرح *الإذاعة الأمريكي* – أعتقد أنَّ كونها أو عدم كونها يهوديّة مسألة لم تُثَر. أيّ فرق كان سيشكّل ذلك له؟ أما مُعاداة الساميّة؟ فهذه تشكِّل الفرق *كلّه*. وبعد مرور سنين عديدة أخبرني كيف أنّه كلما نطق كلمة يهودي علناً كانت تحاولُ أنْ تُسكته. كانا يستقلان المصعد في بناءٍ سكنيّ بعد قيامهما بزيارة أحدهم في مكان ما وكانت هناك امرأة تحمل طفلاً على ذراعها أو تجرّه في عربة، ولم يُلاحظ أيرا وجودهما، ولكن عندما وصلا إلى الشارع، قالت له إيف: يا له من طفل شنيع بكل معنى الكلمة. ولم يفهم أيرا ماذا ألمَّ بها إلى أنْ أدركَ أنَّ الطفل الشنيع كان دائماً طفل امرأة بدت لها يهوديّة بصورة فاضحة.

كيف كان في استطاعته أنْ يتحمّل خمس دقائق من ذلك الهراء؟ حسن، لم يستطع. ولكن لم يكن السبب هو الجيش، فلم تكن إيف فريم فتاة عادية من الجنوب، وهو لم يكن يوشك أنْ يتولّه بها. بدل ذلك انهال عليها بثقافة البالغين. حاولَ أيرا أنْ يقوم بدور أوداي مع إيف، لكنّها لم تكن مثل أيرا. إنها الأصول الاجتماعيّة والاقتصاديّة لمُعاداة الساميّة. ذلك كان المسار. أجلسها في غرفة مكتبه وقرأ عليها بصوتٍ مرتفع مقتطفات من كتبه. قرأ على مسمعها بصوت مرتفع من الدفاتر التي كان يحملها معه في أثناء الحرب، ويُدوِّن فيها مشاهداته وأفكاره. ليس في كون المرء يهودياً تفوُّق - وليس فيه نقص أو انحطاط. أنت يهوديّ، وهذا كل شيء. هذه هي القصة كلها.

اشترى لها ما كان في ذلك الوقت إحدى أفضل الروايات لديه، أحد كتب آرثر ميلر. ولابد أنَّ أيرا ووزَّع عدداً من النسخ منه. عنوانه *ركّز*. أعطى إيف نسخة، وعلَّمَ على كل الأشياء المُهمَّة فيه، لكي لا تفوتها الفِقرات المهمّة. وشرحها لها كما كان أوداي يشرح الكتب في القاعدة العسكريّة في إيران. أتذكُرْ رواية ميلر *ركّز*؟

أتذكّرها جيداً. كان أيرا قد أهداني نسخة منه أيضاً، في عيد مولدي السادس عشر، وعلى عادة أوداي، شرحه *لي*. وخلال سنواتي الأخيرة في المرحلة الثانويّة، احتلَّ كتاب *ركّز* مكانه، جنباً إلى جنب مع كتاب ***على مقام الانتصار*** وروايات هاوارد فاست (وأعطاني روايتين عن الحرب، ***العُراة والموتى والأشبال***، وهو كتاب شدّدَ على قناعاتي السياسيّة بالإضافة إلى أنّه أعدَّ لي مصدراً مُحترماً أخذتُ منه أسطراً استخدمتها في مسرحياتي الإذاعيّة.

نُشِرَ كتاب *ركّز* في عام 1945، في عام عودة أيرا من وراء البحار مع حقائبه المصنوعة من قماش خشن الممتلئة بالكتب وألف دولار كان فقد ربحه من لعب النرد على متن السفينة التي تقلّ القوات، وقبل أنْ يجعل إنتاج مسرحية ***موت بائع جوّال*** لمسارح برودواي آرثر ميلر كاتباً مسرحياً

مشهوراً بثلاثة أعوام. ويحكي الكتاب عن المصير الساخر بخشونة للسيد نيومان، الذي يعمل في دائرة الموظفين لصالح شركة كبيرة في نيويورك، وهو رجل في أربعينيات عمره مُلتزم، وحذر وقلق - بل مُفرط في حذره بحيث لا يستطيع أنْ يكون عملياً المتعصِّب دينياً وعِرقياً كما هو سرّاً في قلبه. وبعد أنْ يضع السيد نيومن نظارته للمرة الأولى، يكتشف أنّها تُبرِز النتوء الساميّ لأنفه وتجعله يبدو بصورة خطِرة يهودياً. وليس فقط في عين نفسه. فعندما ترى أمّه العجوز المُعاقة بالنظارة الجديدة، تضحك وتقول في الحقيقة، تبدو شديد الشبه بيهوديّ. وعندما يذهب إلى مركز عمله واضعاً النظارة، تكون ردّة الفعل على تحوّله ليست وديّة على الإطلاق: وفي الحال تُخفَّض منزلته من مركزه الحالي في هيئة الموظفين إلى عمل متواضع ككاتب، فيستقيل السيد نيومان من عمله مُهاناً. ومنذ تلك اللحظة فصاعداً يُصبح هو، الذي يحتقر اليهود لمظهرهم، ولروائحهم، ولخسّتهم، ولجشعهم، ولسوء سلوكهم، وحتى لشبقهم المُفرِط للنساء، موصوماً بأنّه يهوديّ أينما يذهب. وتكون مشاعر العِداء له واسعة الانتشار اجتماعياً حتى ليُخيَّل للقارئ - أو لي كمُراهِق - أنّه لا يمكن أنْ يكون وجه نيومان وحده هو المسؤول بل أنَّ مصدر الحُكم عليه هو الشبح الضخم لانتشار مُعاداة الساميّة الواسع الذي هو نفسه كان أضعف من أنْ يُمثّله. لقد أمضى حياته كلّها يحمل هذا الاشمئزاز لليهود والآن يُصدِرُ عليه ذلك الاشمئزاز، المُتجسِّد في شارع كوينز الذي يُقيم فيه وفي أرجاء نيويورك كلها وكأنّه كابوس يعمّه الرعب، حُكماً وحشياً - وفي النهاية، يكون عنيفاً - من جانب الجيران الذين تملَّقَ قبولهم له بتبنّيه الخانع لأبشع أحقادهم.

ولجتُ المنزل ورجعتُ مع نسخة ركّز التي ربما لم أكن قد فتحتها منذ أنْ حصلتُ عليها من أيرا وقرأتُها كلها في ليلة واحدة، ثم قرأتها مرتين كلها، وذلك قبل أنْ أضعها بين مسندين للكتب على طاولة كتابة في غرفة النوم حيث كنتُ أحتفظ بمخزوني السرّي من النصوص المُقدَّسة. وكان

أيرا قد كتب على صفحة العنوان رسالة موجّهة إليّ. وعندما أعطيتُ الكتاب لمري، حمله برهة (كان من أثر أخيه) قبل أنْ يقلبه نحو ما هو مكتوب وقرأ بصوت مرتفع:

نيثان – نادراً ما أقابل أحداً أُجري معه حديثاً فكرياً. إنني أقرأ كثيراً وأعتقد أنَّ أفضل ما أحصل عليه من ذلك يجب أنْ يُحفَّز ويتجسّد على شكل نقاش مع أناسٍ آخرين. وأنت واحدٌ منهم. إنني أقلّ تشاؤماً بشأن المستقبل لأنني أعرفُ شاباً في مُقتبل العمر مثلك

أيرا، نيسان 1949

تصفَّح أستاذي السابق كتاب ركّز ليرى ما الذي وضعتُ تحته خطّاً في عام 1049. وتوقّفَ عند رُبع الطريق داخل الكتاب وعاد من جديد يقرأ على مسمعي بصوتٍ مرتفع، وهذه المرة من إحدى الصفحات المطبوعة. قرأ مري وجهه، **هو** لم يكن وجهه. لا يحقُّ لأحد أنْ ينبذه هكذا بسبب وجهه. لا أحد! لقد كان *نفسه*، كائناً بشرياً ذا تاريخ مُعيَّن ومُحدَّد وهو لم يكن هذا الوجه الذي يبدو كأنّه نبتَ من وجه مخلوق غريب آخر ومن تاريخ قذر.

إنها تقرأ هذا الكتاب تلبيةً لطلب من أيرا. إنها تقرأ ما وضعَ خطاً تحته من أجلها. وهي تُستمع إلى مُحاضرته. وما هو موضوع المُحاضرة؟ الموضوع هو موضوع الكتاب – *الموضوع* هو الوجه اليهوديّ. حسن، كما كان أيرا يقول: من الصعب معرفة مقدار ما تسمع. كان هذا تحاملاً لم تتمكّن من التخلُّص منه، مهما كان ما تستمع إليه، ومهما استمعتْ.

قلت عندما أعاد مري الكتاب إليّ، إنَّ كتاب ركّز لم يُفدِها.

اسمع، لقد قابلا آرثر ميلر في منزل أحد الأصدقاء. ربما كان ذلك في حفلة على شرف والاس، لا أتذكَّر. وبعد أنْ قدَّمته إيف إليه، تبرَّعتْ

بإخبار آرثر ميلر كم وجدتْ كتابه *آسراً*. ربما لم تكن تكذب، أيضاً. إنَّ إيف تقرأ الكثير من الكتب، وبفهم أعمق بكثير وباستحسان أكثر من أيرا، الذي إذا لم يعثُر على مضامينَ سياسيّة واجتماعيّة في الكتاب، لا يجده يستحق الاهتمام. ولكن كائناً ما كان ما تعلَّمتْه من القراءة أو من الموسيقى أو الفن أو التمثيل - أو من تجربة شخصيّة، من كل الحياة المضطربة التي عاشتها - فإنها بقيتْ بعيدة عن حيث يعمل الحقد عمله. ولم تتمكن من الخلاص منه. ليس لأنها كانت لا تستطيع أنْ تُحدِثَ تغييراً. فقد غيَّرتْ اسمها، وغيَّرتْ أزواجها، وانتقلتْ من مجال السينما إلى المسرح إلى المذياع عندما تبدّلتْ مصائرها المِهنيّة وبات لا مناص من إحداث تغيير، لكنَّ هذا كان قد تثبَّتَ فيها.

أنا لا أقصد أنَّ الأمور لم تتحسَّن مع دوام كفاح أيرا - أو بدا كأنّها لم تتحسَّنْ. ولكي تتجنّب محاضراته تلك، ربما مارست على الأقلّ بعض الرقابة على نفسها. أما عن تغيير ما في القلب؟ فإنّها عندما *تُضطر* - لإخفاء شعورها عن محيطها الاجتماعيّ، عن *اليهود* البارزين في محيطها الاجتماعيّ، لإخفاء مشاعرها عن أيرا نفسه - كانت تغيِّره. كانت تتساهل معه، تُصغي إليه بصبر عندما ينطلق في حديثه عن مُعاداة الساميّة في الكنيسة الكاثوليكيّة ووسط الفلاحين البولنديين وفي فرنسا أثناء قضيّة درايفوس[47]. ولكن عندما كانت ترى وجهاً يهودياً بصورة غير مُبرَّرة (كوجه زوجتي، ووجه دوريس)، لم تكن تتبنّى أفكار أيرا أو أفكار آرثر ميلر.

كانت إيف تكره دوريس. لماذا؟ لأنها كانت تعمل في مختبر في مستشفى؟ لأنها اختصاصيّة مختبر سابقة؟ لأنها أمٌ ومُدبّرة منزل من نيوارك؟ أيّ تهديد يمكن أنْ أشكّله لنجمة مشهورة؟ كم من الجهد

47- ألفريد درايفوس (1859 - 1935): ضابط فرنسي يهودي اتُّهِمَ ظُلماً بالخيانة، مما أثار الرأي العام فيما سُمّيَ بقضيّة درايفوس عام 1894، وأحدثت أزمة سياسيّة لم تنته إلا بإطلاق سراحه في عام 1906 - المترجم.

يتطلَّب الأمر لتحمُّلها؟ إنَّ لدى دوريس انحرافاً في عمودها الفِقري، ومع تقدُّمها في السن ازداد الألم، وكان ينبغي أنْ تخضع لعملية جراحيّة من أجل إقحام قضيب وهذا الأمر لم يجرِ بصورة جيدة، إلى آخره إلى آخره. والحقيقة هي أنَّه كان لدى دوريس، التي كانت بالنسبة إليّ جميلة كلوحة فنيّة منذ اليوم الذي قابلتُها فيه وحتى يوم مماتها، تشوُّهٌ في العمود الفِقري وأنتَ لاحظتَ ذلك. وأنفها لم يكن مُستقيماً كأنف الممثّلة لانا تيرنر. وأنت لاحظتَ *ذلك*. لقد نشأت على التحدُّث باللغة الإنكليزيّة كما يتحدث بها أهالي حيّ برونكس عندما كانت طفلة - وإيف لم تكن تطيق وجودها. ولا النظر إليها. كان مجرد النظر إلى زوجتي يزعجها.

خلال تلك السنوات الثلاث من حياتهما الزوجيّة، دُعينا إلى مائدة العشاء مرة واحدة بالضبط. كنتَ ترى ذلك في عينيّ إيف. ماذا ترتدي دوريس، ماذا تقول دوريس، كيف تبدو دوريس - كل شيء بالنسبة إليها كان مُنفِراً. كانت إيف تخشاني؛ ولم تأبه بي لأسباب أخرى. كانت مُدرِّسة من جيرزي، نكرة في عالمِها، ولكن لا بدّ أنّها رأتْ فيَّ خصماً مُحتمَلاً ولذلك كانت دائماً تعاملني بتهذيب. بل بشكل ساحر. كما عاملتك، أنا واثقٌ من هذا. كان عليّ أنْ أعترف بإعجابي بشجاعتها؛ وهي الهشّة، والشديدة الحساسيّة، ومن السهل تعكير صفوها، ويمكن أنْ تتمادى كما فعلتْ، كانت امرأة واسعة الخبرة - وهذا يتطلَّبُ عِناداً. ولكي تستمر في المُحاولة، في الظهور على السطح بعد كل ما مرَّتْ به، بعد كل العوائق التي واجهتها في حياتها المهنيّة، من أجل تحقيق النجاح في الإذاعة، لكي تُنشئ ذلك المنزل، لتؤسّس ذلك الصالون، لتُسلّي كل أولئك الناس... لا شك في أنها كانت مُخطئة بشأن أيرا. وهو كان مُخطئاً بشأنها. لم يكونا ينسجمان. ومع ذلك، فقبولها له، قبوله كزوجٍ آخر، وعيش حياة كبيرة جديدة، ذلك استغرقَ ***جهداً عظيماً***.

إذا نظرتُ إلى زواجها من أخي بشكلٍ منفصل، إذا استثنيتُ موقفها من زوجتي، إذا حاولتُ أنْ أنظر إليها بمعزلٍ عن ذلك كلّه - فهي، في

الواقع، مخلوقة صغيرة، مشرقة، ومُفعمة بالنشاط. استبعِدْ تلك الأشياء كلها وسوف تبقى المخلوقة الصغيرة المشرقة والمُفعمة بالنشاط التي انتقلتْ إلى كاليفورنيا وأصبحت ممثلة في السينما الصامتة وهي في سن السابعة عشرة. كانت نشطة. يظهر ذلك في تلك الأفلام الصامتة. وتحت كل تلك الكياسة، كانت تُخفي الكثير من الحيويّة - وأُغامر فأقول، إنها حيويّة *يهوديّة*. وعندما تكون مسترخية تظهر جانبها الكريم، ولم يكن ذلك يحدث كثيراً. عندما كانت تسترخي كنتَ تشعر بأنَّ فيها شيئاً يريد أنْ يقوم بالعمل الصحيح. وحاولتْ أنْ تولي انتباهها. لكنَّ المرأة كانت مُقيَّدة - لم ينجح الأمر. لا يمكن تأسيس أيّ نوع من العلاقة المُستقلّة معها، ولم تتمكَّن من أنْ توليكَ أيَّ اهتمامٍ مُستقلّ. ولم يكن في الإمكان أيضاً الاعتماد على حُكمها لفترة طويلة، خاصة مع وجود سيلفيد إلى جوارها.

حسن، بعد أنْ غادرنا في تلك الليلة، قالت لأيرا: بخصوص دوريس، كم أكره تلك الزوجات الرائعات، الخانعات. لكنَّ إيف لم تكن ترى في دوريس خانعة. بل رأتْ امرأة يهوديّة من النوع الذي لا تطيقه.

كنتُ أعلم هذا؛ لم أكنْ في حاجة إلى أيرا ليُخبرني. بدا متصالحاً جداً على أيّة حال. كان في استطاعة أخي الأصغر أنْ يُخبرني بأي شيء، أنْ يُخبر *أي شخص* بأي شيء - يفعل ذلك منذ أنْ بدأ يُحسن الكلام - أما *هذا* الأمر فلم يُخبرني به إلّا بعد حلول الدمار الكامل. ولكن بالنسبة إليّ لم يكن مُضطراً إلى فعل ذلك لأعلمَ أنَّ المرأة قُبِضَ عليها بالجُرم المشهود. لقد كانت مُعاداة الساميّة تشكّل جزءاً من الدور الذي كانت تلعبه، جزءاً لا يأبه بما يحدث جرّاء أداء الدور. كنتُ أقول في نفسي، إنه غير مقصود تقريباً. إنّه إهمال أكثر منه خُبث. وبتلك الطريقة تابعت فعل كل شيء آخر كانت تقوم به. إنَّ ما يحدثُ لها لا تلاحظه.

أنتِ أمريكية لا تريدين أنْ تكوني ابنة أبويك؟ عظيم. لا تريدين أنْ يرتبط اسمك باليهود؟ لا بأس. لا تريدين أنْ يعرف أحدٌ أنكِ يهوديّة بالولادة، وتريدين أنْ تُخفي ممرّك إلى العالم؟ تريدين أنْ تتخلّي عن

المشكلة وتتظاهرين بأنّكِ شخصٌ آخر؟ ممكن. لقد أتيتِ إلى البلد المناسِب. ولكنْ لستِ مُضطرةً إلى كراهيّة اليهود في أثناء ذلك. لستِ مُضطرة إلى شقّ طريقك بقوة خارج شيءٍ ما عبر ضربِ شخصٍ آخر على وجهه. إنَّ المُتع الرخيصة لكراهيّة اليهود ليست ضروريّة. أنتِ مُقنِعةٌ كشخص غير يهوديّ من دونهم. هذا ما يمكن لمُخرِج جيّد أنْ يُخبرها به بشأن أدائها. كان سيقول لها إنَّ الدور مُثقلٌ بمُعاداة الساميّة. وهذا التشويه لا يقلّ عن التشويه الذي كانت تحاول أنْ تُلغيه. كان يمكن أنْ يقول لها أنتِ نجمة سينما الآن - ولستِ في حاجة إلى أنْ تُشكِّل مُعاداة الساميّة جزءاً من صِفاتك المتفوِّقة. كان سيُخبرها أنّه حالما تفعلين ذلك تبدئين بالمبالغة ولا تعودين مُقنِعة على الإطلاق. هذا كثير، وأنت تبذلين جهداً مُبالغاً فيه. إنَّ الأداء مثاليّ، وخالٍ من الروح بصورة منطقيّة. إنكِ تستسلمين لمنطقٍ لا وجود له في الحياة الواقعيّة. دعيه، أنتِ لستِ في حاجة إليه، سيكون الوضع أفضل من دونه.

أولاً، هناك أرستقراطيّة الفن، إنْ كان ما تسعى إليه هو الأرستقراطيّة - أرستقراطيّة الممثّل التي يمكنها بسهولة أنْ تنتمي إليها. والأرستقراطيّة ليس فقط يمكنها أنْ تتوافق مع مُعاداة الساميّة، بل يمكنها حتى أنْ تكون يهوديّة.

لكنَّ غلطة إيف كانت بيننغتون، لأنها اعتبرته قُدوتها. لقد جاءت إلى كارليفورنيا وغيَّرتْ اسمها وحقّقتْ النجاح ودخلت في مجال التمثيل السينمائيّ ثم، تحت ضغطٍ وإلحاح من الاستوديو، وبمساعدته، تركت مولر وتزوجتْ من نجم الشاشة الفضيّة هذا، هذا الأرستقراطي الأصلي، سليل الطبقة الراقية، الذي يلعب البولو، الثريّ، **وعنه** أخذتْ فكرة الشخص الراقي غير اليهودي. **هو** كان المُخرِج الذي أدارها. وهنا أخفقتْ بكل معنى الكلمة. إنَّ اتّخاذ شخص دخيلٍ كقُدوة، كمُعلِّم من غير اليهود، يضمن ألا ينجح الأمر البتّة، وذلك لأنَّ بيننغتون ليس فقط أرستقراطياً؛ إنه أيضاً مثليّ جنسياً. وهو أيضاً مُعادٍ للساميّة.

وتبنّتْ مواقفه. إنَّ كل ما كانت تحاول أنْ تفعله هو أنْ تبتعد عن مسقط رأسها، وهذه ليست جريمة. إنَّ الانطلاق إلى أميركا من دون إزعاجٍ من الماضي - هذا هو خيارك. والجريمة ليست حتى في كونك قريباً من مُعادٍ للساميّة. إنَّ هذا أيضاً خيارك. إنَّ الجريمة هي عجزك عن مواجهة الرجل بجرأة، وعجزك عن ردّ الاعتداء عنك، وتبنّي مواقفه. وفي أميركا، في نظري، أنت حرٌّ في فعل كل شيء ما عدا هذا.

في زمني، كما في زمنك، إنَّ ما يُعتبَر مركز التدريب على هذا النوع من الأشياء، قاعدة التدريب المكفولة - إنْ كان لمثل هذا وجود - من أجل اليهود الذين يريدون التخلُّص من يهوديّتهم، كانت في المعتاد **رابطة اللبلاب**[48]. أتتذكّر شخصيّة روبرت كوهين في رواية ***وما زالت الشمس تشرق***؟ إنّه خريج جامعة برينستون، مارس الملاكمة هناك، ولم يفكِّر أبداً في جانبه اليهوديّ، وبقيَ مع ذلك كياناً غريباً، على الأقلّ في نظر إرنست هيمنغواي. حسن، نالت إيف شهادتها، ليس من جامعة برينستون، بل من هوليوود، تحت إشراف بيننغتون. واستقرّتْ مع بيننغتون لأنه بدا طبيعياً. أي، أنَّ بيننغتون كان أرستقراطياً ليس يهودياً بصورة مُبالغ فيها اعتقدتْ، هي البريئة - أي، اليهوديّة - أنّه لا يُبالغ وأنّه طبيعيّ. في حين أنَّ امرأة غير يهوديّة كان يمكن أنْ تُدرك هذا وتفهمه. وامرأة غير يهوديّة تتمتَّع بذكاء إيف ما كان يمكن أبداً أنْ توافق على الزواج منه، بوجود الاستديو أو من دونه، كانت ستفهم من البداية أنّه مُتحدٍ ومُخرِّب ومتعالٍ باحتقار على الدخيل اليهوديّ.

كان المشروع فاشلاً من البداية. فهيَ لم تكن على تواصُل طبيعي مع المِثال السائد لِما كان يُجسِّد ما تهتم به، لذلك جسَّدتْ الشخص غير اليهودي الخاطئ. كانت صغيرة السن وكانت ملتزمة بشدّة بالدور،

48- رابطة اللبلاب: هي مجموعة من ثماني جامعات (براون، كولومبيا، كورنل، دارتموث كوليج، هارفارد، برينستون، وجامعة بنسيلفانيا، وييل) تشبه في مسيرتها الأكاديميّة والاجتماعيّة في الولايات المتحدة جامعتيّ أوكسفورد وكمبريدج في بريطانيا - المترجم.

وعاجزة عن الارتجال. وحالما يتحدَّد الأداء، من أَلِفه إلى يائه، حتى يملأها الخوف من مسّ أي جزء منه، الخوف من أنْ ينهار التمثيل كلّه. إنها تفتقر إلى الإحساس بالأمان، ولذلك ليس هناك أي مجال لإحداث أدنى تعديل. إنها لا تهيمن على الدور. بل الدور هو الذي يُهيمن عليها. وعلى خشبة المسرح كان يمكن أنْ تقدِّم أداءً أشدّ رهافة. ولكن على خشبة المسرح كانت على قدر من الوعي لم تكن دائماً تُظهره في الحياة.

الآن، إذا أردتَ أنْ تكون أرستقراطياً أمريكياً حقيقياً وليس يهودياً، فسوف تتظاهر، سواء شعرتَ بهذا أم لم تشعر، بأنكَ *تتعاطف* مع اليهود. ستكون تلك هي الطريقة البارعة لفعل ذلك. الأمر الأساسي في أنْ تكون أرستقراطياً راقياً، وذكياً، هو أنْ تُجبر نفسك، خِلافاً لأي شخصٍ آخر، على أنْ تتغلَّب، أو أنْ يبدو أنّكَ تتغلَّب، على ردّة الفعل المُحتقِرة للاختلاف. وتستطيع أنْ تستمر في كراهيتهم في السرّ إنْ شئت. أما عجزك عن الانخراط مع اليهود بسهولة، سهولة ودود، فسوف يؤدي إلى الوصول بحل وسط أخلاقيّ إلى أرستقراطيّة حقيقيّة. بودّ وسهولة – كما فعلتْ إلينور روزفلت. وهكذا فعل نلسون روكفلر[49]. وهكذا فعل أفريل هاريمان[50]. إنَّ اليهود لا يُعتبَرون مشكلة بالنسبة إلى هؤلاء. ولِمَ يكونون كذلك؟ بل هم مُشكلة بالنسبة إلى كارلتون بيننغتون. وإيف سَلَكَتْ طريقه ودُفِنَتْ تحت كل تلك المواقف التي لم تكن في حاجة إليها.

بالنسبة إليها، بوصفها الزوجة الشابة الأرستقراطيّة بشكلٍ ساخر لبيننغتون، فإنَّ الانتهاك المسموح به، الانتهاك *المُتحضِّر*، لم يكنْ الهويّة اليهوديّة ولم يكن في الإمكان أنْ تكون هي؛ الانتهاك المسموح به كان المثليّة الجنسيّة. إلى أنْ جاءت إيف، ولم تكن تعي ليس فقط كم

49- نلسون روكيفلر (1908 – 1974): رجل سياسة أمريكي، شغل منصب حاكم ولاية نيويورك، ومن ثم نائب رئيس – المترجم.

50- وليم أفريل هاريمان (1891 – 1986): رجل سياسة أمريكي، كان مُفوِضاً في معاهدة إجراء التجارب النوويّة مع الاتحاد السوفييتي؛ وشغل منصب حاكم نيويورك – المترجم.

أنَّ أدوات مُعاداة الساميّة مُهينة بل كم أضرَّرتْ بها هي. قالت إيف في نفسها: إذا كرهتُ اليهود، فكيف يمكن أنْ أكون يهوديّة؟ كيف يمكن أنْ تكره شيئاً أنتَ تمثّله؟

لقد كرهتْ ما كانت عليه وكرهتْ شكلها. إيف فريم، من بين الناس جميعاً، كرهتْ شكلها. لقد كان جمالها هو موطن القُبح فيها، وكأنَّ تلك المرأة المحبوبة وُلِدَتْ مع بُقع كبيرة أرجوانيّة تنتشر على كامل وجهها. ولم تتخلَّص من شعورها بالسخط جرّاء ولادتها على تلك الصورة، وغضبها منها. وهي أيضاً، على غِرار بطل رواية آرثر ميلر السيد نيومان، لم تكن تمثّل وجهها.

لا بدّ أنّكَ تتساءل عن فريدمان. وعلى الرغم من إنَّ فريدمان كان شخصيّة كريهة، لكنَّه، خلافاً لدوريس، لم يكن امرأةً. لقد كان رجلاً، وكان ثرياً، ووفَّرَ لإيف الحماية من كل ما تسبَّبَ لها بالاضطهاد بقدر ما فعل كونها يهوديّة أو حتى أكثر. فقد أدار شؤونها الماليّة. وكان ينوي أنْ يجعل منها هي امرأة ثريّة.

وبالمناسبة، كان لفريدمان أنفٌ كبير جداً. حتى كنتَ تظن أنَّ إيف سوف تفرّ هاربة لمرآه – كان يهودياً ضئيلاً داكن البشرة، مُضارباً حقيقيّاً في مجال العِقارات صاحب أنفٍ كبير جداً، وساقين مُقوّستين وينتعل حذاء أدلر المرتفع الممتاز. بل كان للرجل لكْنَة. كان أحد أولئك اليهود البولنديين ذوي الشَعر المُجعَّد، ذي اللون البرتقالي المائل إلى الأحمر ولكْنَة البلد القديم وما يتّصف به المهاجر الضئيل الصلب من حيويّة وحماس. كانت شهيَّته للأكل دائماً مفتوحة، وكان بديناً مُحبّاً للطعام اللذيذ، وعلى الرغم من ضخامة بطنه، إلا أنَّ قضيبه، حسب التقارير كلها، كان أكبر وبارزاً أمامه. وفي الواقع، إنَّ فريدمان كان بمثابة ردّة فعلها ضد بيننغتون كما كان بيننغتون هو ردّة فعلها ضد مولر: فعندما تتزوج من رجل مُغالٍ، فإنك تتزوج من المُغالاة المُضادة في المرة التالية. وفي المرة الثالثة تزوجتْ من شايلوك. ولِمَ لا؟ فمع نهاية حقبة

العشرينيات كان عصر الأفلام الصامتة قد أفُل، وعلى الرغم من ذلك الأسلوب (أو بسببه، لأنه حينئذٍ كان مفرط في الخطابيّة)، لم تنسجم مع السينما الناطقة، ونحن الآن في عام 1938، وأُصيبتْ بالرعب من ألا تتمكن من العمل بعد ذلك، فلجأتْ إلى رجل يهوديّ من أجل ما يذهب المرء إلى يهودي بسببه - المال والعمل وممارسة الجنس بلا قيود. وأعتقد أنّه أنعشها جنسياً لبعض الوقت. إنّه ليس تكافُلاً مُعقّداً. بل هو إجراء. إجراء تعوّدت بموجبه على المُنظفات.

يجب أنْ تتذكَّر شايلوك[51]، وعليك أيضاً أنْ تتذكّر مسرحيّة ***ريتشارد الثالث***. سوف تظن أنَّ الليدي آنْ سوف تبتعد مليون ميلاً عن ريتشارد، دوق غلوسيستر. إنّه الوحش القذر لذي اغتال زوجها. وتبصق في وجهه. فيقول لماذا بصقتِ عليّ؟ فتقول ليتها كانت سُمّاً قاتلاً. ومع ذلك ما يحدث بعد هذا هو أنّه يتودَّد إليها ويفوز بها. يقول ريتشارد سوف أنالها. لكنني لن أحتفظ بها طويلاً. إنها القوة الجنسيّة التي يتَّصِفُ بها وحشٌ قذر.

لم تكن إيف تعرف كيف تواجه أو كيف تقاوِم، ولا كيف تُجادل أو تُخالف الرأي. ولكن على كل شخص في كل يوم أنْ يواجه ويُقاوِم. لستَ مُضطراً إلى أنْ تكون نسخة من أيرا، ولكنْ عليك أنْ تقف بثباتْ في كل يوم. أما بالنسبة إلى إيف، بما أنَّ كل خلاف يُعتبَر اعتداءً، فتنطلق صفارة الإنذار، صفارة إنذار بوقوع غارة جويّة، ولا يتدخّل العقل في الأمر. في ثانية تنفجر بالاحتقار والحنق، وفي اللحظة التالية تستسلم، وتهدأ. إنها امرأة تتّصِف بنوع سطحي من الكياسة والرقّة لكنَّ كل شيءٍ آخر يُربِكها، والحياة تنغّصها وتُسمِّمها، على يد تلك الابنة، وعلى يدها هي، وبشعورها بعدم الأمان، بشعورها التام بغياب الأمان من دقيقة إلى أخرى - ومع ذلك يقع أيرا في حبّها.

51- شايلوك: شخصيّة اليهودي البخيل والشرير في مسرحية تاجر البندقيّة لشكسبير - المترجم.

على الرغم من جهله بالنساء، وجهله بالسياسة، إلا أنَّه تورَّطَ حتى أُذنيه فيهما. كان يتمسّك بكل شيء بالمبالغة نفسها. لماذا إيف؟ لماذا اختار إيف؟ لقد رغبَ أكثر من أي شيء في العالم أنْ يكون جديراً بلينين وستالين وبجوني أوديل، ولذلك تورَّطَ معها. كان يستجيب لكل مُضطهَد بكل الأشكال، ويستجيب لاضطهادهم بالطريقة الخطأ تماماً. ولو لم يكن أخي، أتساءل بكمّ من الجدّيّة كنتُ سأتعامل مع عجرفته. حسن، لا بدّ أنَّ هذه هي مهمّة الإخوة - ليس الإفراط في التهذيب في الأمور الغريبة.

انفجر مري قائلاً باميلا، لكي يتغلَّب على إعاقة صغيرة - عُمر عقله - من أجل الوصول إلى الاسم. صديقة سيلفيد المُقرَّبة كانت إنكليزيّة اسمها باميلا. تعزف على آلة المزمار. أنا لم أقابلها قط. سمعتُ فقط وصفاً لها. ورأيتها مرة واحدة في صورةٍ فوتوغرافيّة.

قلتُ أنا قابلتُ باميلا. أنا أعرفُ باميلا.

أهي جذّابة؟

كنتُ في الخامسة عشرة. أردتُ أنْ يحدث لي أمرٌ غير مسبوق، يجعل كل فتاة جذّابة.

بل جميلة، حسب تعبير أيرا.

قلت وِفقاً لإيف فريم، هي أميرة عبرانيّة. هذا ما نعتتْ به باميلا في ليلة لقائنا.

وماذا غير ذلك؟ كان يجب تُفخِّم كل شيء من الناحية الرومانسيّة. فالمبالغة تزيل التوتّر. من الأفضل أنْ تكون أميرةً إذا كنتَ امرأة عبريّة تتوقَّع أنْ ترحِّبَ بك إيف فريم في منزلها. وأقام أيرا علاقة مع الأميرة العبريّة.

أحقاً؟

وقع في حب باميلا وأراد منها أنْ تهرب معه. كان يصحبها إلى جيرزي في يوم عطلتها. وفي مانهاتن كانت لديها شقّة صغيرة لها وحدها، تقع بالقرب من حي ليتل إيتالي، وعلى مسافة عشر دقائق مشي من الشارع الحادي عشر الغربي، ولكن كان أمراً خطِراً على أيرا أنْ يأتي إلى منزلها. فلا يمكن تجاهُل وجود رجل بذلك الحجم في ذلك الشارع، وفي تلك الأيام كان يؤدي دور لينكولن في كل أرجاء المدينة، مجاناً للمدارس وما إلى ذلك، وكان كثيرٌ من الناس في غرينتش فيليج يعرفون مَنْ يكون. وفي الشارع كان دائماً يتحدث مع الناس، يسألهم عمّا يعملون لسكب عيشهم ويُخبرهم كيف أنْ النظام الحاكم يخدعهم. وهكذا كان في أيام الإثنين يصحب الفتاة إلى زنك تاون. ويقضون النهار هناك ومن ثم يقود السيارة بجنون عائداً إلى المنزل على موعد العشاء.

ولم تكن إيف تعلم؟

لم تعلم أبداً. لم تكتشف الأمر أبداً.

قلت ولم أتمكّن، أنا الصبي الصغير، من تخيُّله. لم يخطر في بالي أنْ يكون أيرا زير نساء. لم يكن ذلك يتماشى مع أدائه دور لينكولن. إنني لا أتذكّر الكثير عنه في ذكرياتي الأولى، وحتى الآن أجد الأمر لا يُصدَّق.

قال مري وهو يضحك: إنْ وجود جوانب متعدِّدة لا تُصدَّق في الإنسان هو، في اعتقادي، الموضوع المشترك في كتبك. إنَّ أدبك يُخبرنا أنَّ *كل شيء* في الإنسان لا يُصدَّق. يا إلهي، نعم، النساء. نساء أيرا. ووعيٌ اجتماعي كبير وشهيّة جنسيّة واسعة لتتماشى معه. شيوعيّ صاحب ضمير وشيوعي مع قضيب.

عندما ينتابني الاشمئزاز من النساء، تنبري دوريس إلى الدفاع عن ذلك، أيضاً. دوريس، التي قد تعتقد، من نمط الحياة التي تعيشها، أنها سوف تكون أوّل مَنْ يُدينه. لكنها فهمته بطريقة رقيقة كابنة حما. وكانت لديها وجهة نظر رقيقة ومُدهِشة بشأنْ ضعفه أمام النساء. ودوريس ليست عاديّة كما تبدو. لم تكن عاديّة كما تعتقد إيف فريم. ولم تكن دوريس

ملاكاً. واحتقار إيف لدوريس له صِلة أيضاً بوجهةِ نظرها المُتسامحة. لِمَ دوريس؟ إنّه يخون تلك النجمة اللامعة - عظيم. سألتني دوريس: إنَّ الرجل دائماً ينجذب إلى النساء. والنساء ينجذبن إليه. فهل هذا أمرٌ سيء؟ أليست هذه سِمة إنسانيّة؟ هل قتل امرأة؟ هل سرق نقوداً من امرأة؟ كلا. إذن ما السيء في الأمر؟ لقد كان أخي يعرف جيداً كيف يُشبع بعض الحاجات. وهناك حاجات أخرى كان عاجزاً عن إشباعها.

ما هي تلك الحاجات؟

الحاجة إلى اختيار معركته. لم يتمكن من ذلك. لقد اضطرّ إلى قتال كل شيء. إلى القتال على الجبهات الأربع، طوال الوقت، كل شخص وكل شيء. وفي تلك الفترة، كان هناك الكثير من الرجال اليهود الغاضبين الشبيهين بأيرا. كان هناك يهود غاضبون في كل أرجاء أميركا، ودائماً في حالة قتال مع شيء ما. إنَّ إحدى مزايا كون المرء أمريكياً ويهودياً أنّه يستطيع أنْ يكون غاضباً في العالم على طريقة أيرا، وعِدائياً بشأنْ معتقداتك لا يترك إهانة من دون ردّ. لم تكن مُضطراً إلى أنْ تكون لا مُبالياً وتنسحب. لم تكن مُضطراً إلى كبت أيّ شيء. لم يعُد صعباً أنْ تكون أمريكياً على طريقتك. فقط اخرجْ إلى العلن وناقش وِجهة نظرك. وهذه من أعظم الأشياء التي منحتها أميركا لليهود - منحتهم غضبهم الخاص. خاصة في جيلنا. جيل أيرا وجيلي. خاصة بعد انتهاء الحرب. أميركا التي لجأنا إليها لتمنحنا فُسحة لكي نُنفِّسَ بقوة عن غضبنا، بعيداً عن وجود حاكم يهوديّ. كان هناك يهودٌ غاضبون في هوليوود. ويهودٌ غاضبون في تجارة الملابس، وبين المحامين، وغاضبون في قاعة المحكمة. في كل مكان. في طابور شراء الخبز. وفي مباريات كرة البيسبول. وفي الملاعب. وغاضبون في الحزب الشيوعيّ، أناسٌ مُشاكسون وعدوانيون، يُمكنهم أنْ يُسدِّدوا لكمات أيضاً. كانت أميركا هي جنّة اليهود الغاضبين. وما زال هناك يهود منطوون، لكنكَ لستَ مُضطراً إلى أنْ تكون منهم إذا لم تشأ ذلك.

والاتحاد الذي انتميتُ إليه. الاتحاد لم يكن اتحاداً للأساتذة – كان اتحاداً لليهود الغاضبين. كانوا مُنظَّمين. ويعرفون شِعارهم. نحن أشدّ غضباً منكم. عن هذا الموضوع يجب أنْ يدور كتابك التالي. ***اليهود الغاضبون منذ الحرب العالميّة الثانية***. طبعاً، هناك يهودٌ دمثون – اليهود الذين يضحكون بصورة غير لائقة، اليهود الذين يحبّون كل الناس من أعماقهم، واليهود الحسّاسون، واليهود الذين يُقدّسون آباءهم، ويهود يفعلون كل شيء من أجل أطفالهم، ويهود يعشقون الموسيقى ويتأثّرون بها، واليهود المُسلّون ودائماً يلجؤون إلى التورية، واليهود المُهرّجون – ولكن لا أعتقد أنّك سوف تؤلِّف كتاباً كهذا.

كنتُ أضحك بصوتٍ مرتفع على تصنيف مري العِلميّ، وهو أيضاً ضحك.

ولكن بعد برهة، تدهور ضحكه إلى سُعال، وقال: يُستحسن أنْ أتقاعد. أنا في التسعين من العمر. يُستحسن أنْ أدخل في الموضوع.

كنتَ تُخبرني عن باميلا سولومون.

قال مري: حسن، لقد انتهى بها الأمر إلى العزف على المزمار مع فرقة كليفلاند السيمفونيّة. وأنا أعلمُ هذا لأنّه عندما سقطتْ تلك الطائرة في حقبة الستينيات، أو ربما السبعينيات – مهما يكن، كان هناك عددٌ من أعضاء فرقة كليفلاند السيمفونيّة على متنها، واعتُبِرَتْ باميلا سولومون من بين الموتى. من الواضح أنّها كانت عازفة موهوبة جداً. وعندما جاءتْ أول مرة إلى أميركا كانت بوهيميّة قليلاً أيضاً. كانت تنحدر من عائلة يهوديّة لندنيّة محترمة، متزمّتة، والدها طبيب إنكليزيّ أكثر من الإنكليز. ولم تتحمّل باميلا فرط احتشام عائلتها، فجاءتْ إلى أميركا. والتحقت بمعهد جوليارد، ولما كانت قد جاءت حديثاً من إنكلترا المُتحفّظة، وقعتْ في حب سيلفيد الجامحة: لتهكّمها، ورُقيّها، ولوقاحتها الأمريكية. أُعجِبَتْ بمنزل سيلفيد الفخم، وأُعجبت بوالدة سيلفيد، النجمة. ولما كانت بلا أمّ في أميركا، أسعدها أنْ تنضوي تحت

جناح إيف. وعلى الرغم من أنّها كانت تُقيم في مكان قريب من سيلفيد، إلا أنّها عندما كانت تقوم بزيارتها كان ينتهي بها الأمر إلى تناول طعام العشاء والنوم في ذلك المنزل. في أوقات الصباح، في المطبخ، كانت تتنقّل وهي برداء النوم، تُعدُّ لنفسها قهوة وخبزاً مُحمّصاً وتتظاهر إمّا بأنّه ليست لديها أعضاءً تناسليّة أو ليست لدى أيرا.

وقبِلَتْ إيف الوضع، عاملتْ الشابة المبتهجة باميلا كأنّها أميرة عبريّة لا أكثر. ومحَتْ اللّكنةُ الإنكليزيّةُ السِمةَ الساميّة، وفي العموم فرحتْ كثيراً لأنَّ لسيلفيد صديقة مُهذّبة، وموهوبة، وفرحت كثيراً لأنَّ لسيلفيد *أي صديق*، لأنها لم تفهم مغزى أسلوب باميلا المجنون في التنقُّل صعوداً وهبوطاً على الدَرَج وهي بقميص النوم.

ذات أمسية ذهبتْ إيف وسيلفيد لحضور حفلٍ موسيقيّ وتصادفَ أنْ مكثتْ باميلا في المنزل، وتصادفَ أنْ بقيتْ هي وأيرا في المنزل وجلسا في غرفة الجلوس، وحدهما للمرة الأولى، فسأل باميلا عن المكان الذي أتتْ منه. وهي طريقته في البدء بكل شيء. فزوّدته باميلا بسردٍ هزليّ فاتن عن عائلتها المتزمتة وعن المدارس التي لا تُطاق التي جعلوها تلتحق بها. وسألها عن عملها في إذاعة المدينة. كانت عازفة المزمار–البيكولو الثالثة، وهو عمل مُشترك. وهي التي سعتْ في حصول سيلفيد على عملها الإضافيّ. وكانت الفتاتان تثرثران معاً عن الفرقة الموسيقيّة طوال الوقت – عن السياسة، وقائد الأوركسترا الأحمق، وهل تصدّقين تلك السترة التي يرتدي، ولماذا لا يقصّ شَعره، وأنَّ ما يفعله بيديه وبعصاه لا معنى له على الإطلاق. إنه لعب أطفال.

في تلك الليلة، قالت لأيرا: إنَّ عازف التشيلو الأساسي لا يتوقف عن مغازلتي. أكاد أفقد صوابي. كم امرأة توجد في الفرقة الموسيقيّة؟ أربع، من بين كم؟ من بين أربعة وسبعين، وكم من الرجال يتودَّد إليك؟ سبعون؟ قالت: نعم. وضحكا. حسن، كلا، ليسوا كلّهم يتّصفون بالشجاعة لفعل ذلك، بل فقط من يتمتعون بالشجاعة، كما أخبرتْه، وماذا

يقولون لك؟ أوه - يقولون إنَّ هذا الثوب يبدو رائعاً حقاً وأنتِ دائماً تبدين فائقة الجمال عندما تأتين إلى التمرين وسوف أعزف في حفل موسيقيّ في الأسبوع القادم، وأنا في حاجة إلى عازفة مزمار. أشياء كهذه. وماذا تفعلين بهذا الشأنْ؟ أستطيع أنْ أحمي نفسي. هل لديك صديق؟ هنا أخبرته باميلا بأنها أقامتْ علاقة على مدى عامين مع عازف الأوبوا الأول.

وسألها أيرا أهو أعزب؟ أخبرته كلا، إنه متزوج، ألا يُزعجك كونه متزوجاً؟ قالت باميلا: إنَّ ما يهمّني هو النسق الشكليّ للحياة، وماذا عن زوجته؟ أنا لا أعرفُ زوجنه. لم أُقابلها البتّة. وليس في نيّتي أنْ أقابلها. لا أريد أنْ أعرف أيَّ شيءٍ على وجه الخصوص عنها. الأمر لا صِلة له بزوجته، ولا صِلة له بأطفاله. إنّه يحبُّ زوجته ويُحبُّ أطفاله، وبمَ له صِلة؟ له صِلة بمتعتنا. إنني أفعل ما أريد فعله لمتعتي الخاصّة. لا تقُلْ لي إنكَ ما زلت تؤمن بقُدسيّة الزواج. أنتَ تعتقد أنّكَ أخذتَ عهداً على نفسك وهذا كل شيء، أنتما الاثنان مُخلصان إلى الأبد؟ يُخبرها نعم، أؤمن بذلك، لم يخطر في بالك أبداً -، كلا، أنتَ وفيٌّ لإيف، طبعاً، وتنوي أنْ تبقي وفيّاً حتى آخر حياتك؟ الأمر يتوقف، علامَ؟ يقول أيرا عليكِ. تضحك باميلا. يضحك الاثنان. تقول الأمر يتوقف على إقناعي لكَ بأنّه لا بأس؟ على أنكَ حرٌّ في أنْ تفعل هذا؟ على أنكَ لستَ المالك البورجوازي لزوجتك وهي ليست المالكة البورجوازيّة لزوجها؟ نعم، حاولي أنْ تُقنعيني. أحقاً أنكَ الأمريكي النموذجي الحقّ الذي استعبَدَتْه الأخلاق الأمريكية للطبقة الوسطى؟ نعم، هذا أنا - الأمريكي المُستعبَد النموذجي الحقّ. ومَنْ تكونين أنتِ؟ ماذا أكون؟ أنا موسيقيّة، وما معنى هذا؟ يُعطونني نوتة موسيقيّة وأعزفها. أعزفُ ما يُعطى لي. أنا عازفة.

والآن، لقد تصوَّرَ أيرا أنّ في استطاعة سيلفيد أنْ توقِعه في شِباكها، بحيث إنّه في الليلة الأولى كان أول ما فعل بعد أنْ انتهتْ باميلا من استعراض تباهيها وبدأتْ ترتقي الدَرَج لتأوي إلى السرير هو أنْ يُمسك

بيدها ويقول أنتِ لستِ طفلة، أليس كذلك؟ لقد استخففتُ بك واعتبرتك طفلة، فتقول لي 'إنني أكبر سناً من سيلفيد. أنا في الرابعة والعشرين. وأنا منفيّة من بلدي. ولن أعود أبداً إلى ذلك البلد الغبيّ بحياته العاطفيّة المدفونة والحمقاء. أنا أحبّ وجودي في أميركا. هنا أنا متحرِّرة من كل ذلك المنع القذر لإظهار المشاعر. أنتَ لا تعلم كيف هي الأجواء هناك. هنا توجد *حياة*. هنا لديّ شقّتي الخاصّة في غرينتش فيليج. وأنا أجتهد في عملي وأكسب لقمة عيشي في العالم. أقدِّم ثلاثة عروض في اليوم، طوال ستة أيام من الأسبوع. أنا لستُ طفلة، بأي شكلٍ من الأشكال، يا أيرون رِن.

هكذا جرى المشهد تقريباً. وما ألهبَ عواطف أيرا كان جليّاً. لقد كانت نضرة، شابّة، مغناجاً، ساذجة – وليست ساذجة، وشرسة أيضاً. وانطلقتْ في مغامرتها الأمريكية الكبرى. إنّه مُعجب بالطريقة التي تعيش بها تلك الطفلة المنتمية إلى الطبقة الراقية خارج نطاق التقاليد البورجوازيّة. والمبنى القذر الذي تُقيم فيه. وبمجيئها وحدها إلى أميركا. إنّه مُعجَب ببراعتها في أداء أدوارها كلّها. وبالنسبة إلى إيف هي تلعب دور الفتاة الصغيرة الظريفة، إنها أشبه بحفلة تُقام بلبس البيجاما مع سيلفيد، وفي إذاعة المدينة تقوم بدور عازفة المزمار، الموسيقيّة، المُحترفة، ومعه تتعامل كأنها نشأتْ في إنكلترا على أيدي الفابيين[52]، كروح حرَّة، مُسالِمة، على قدر عالٍ من الذكاء ولا يُخيفها المجتمع المحترم. وبعبارة أخرى، إنها مخلوق إنسانيّ – هذا مع هذا، وذاك مع ذلك، وشيءٌ آخر مع شيء غيره.

وهذا كلّه عظيم، ومُثير للاهتمام، وللإعجاب. أما الوقوع في شِباك الحب؟ مع أيرا كل ما يتعلَّق بالانفعال يجب أنْ يكون وافراً. وعندما عثر أيرا على هدفه، أطلقَ النار. إنّه ليس فقط تولّه بحبّها. أراد أنْ يحصل على

52- الفابيون: أعضاء الجمعيّة الفابيّة التي تأسّست عام 1884 في إنكلترا والتي تدعو إلى نشر المبادئ الاشتراكيّة بالسُبُل السلميّة – المترجم.

تلك الطفلة الجميلة مع إيف؟ أراد الآن أنْ يحصل عليها مع باميلا. لكنّه خشيَ أنْ يُخيف باميلا ويُبعدها، لذلك لم يذكر أيّ شيء عن هذا فوراً.

قد اكتفيا بتلك العلاقة العابرة اللا بورجوازيّة. إنَّ في وسعها أنْ تُبرِّر لنفسها كل ما تفعل. أنا صديقة سيلفيد وصديقة إيف، وأنا مُستعدّة لفعل أي شيء من أجل كلٍ منهما، ولكن، ما دام ذلك لا يُسبِّب لهما أيّ أذى، لا أفهم ما دخل كوني صديقة بالتضحية البطوليّة بميولي. هي أيضاً لديها أيديولوجيا. لكنَّ أيرا كان في ذلك الوقت يبلغ السادسة والثلاثين من العمر، *ويُريد*. يريد الطفلة، والعائلة، والبيت. الشيوعيّ يريد كل شيء يكمن في *قلب* البورجوازيّ. يريد أنْ يحصل من باميلا على كل شيء يعتقد أنّه كان يحصل عليه من إيف عندما حصل على سيلفيد بدلاً عنها.

عندما يجتمعان في الكوخ كانا يتحدثان كثيراً عن سيلفيد. فيسأل أيرا باميلا ما هي مشكلتها؟ لديها المال. المكانة. الامتياز. دروس في العزف على القيثارة منذ الولادة. وعلى مدى عشرين عاماً كان هناك مَنْ يغسل لها ملابسها، ويُعدّ لها وجباتها، ويُسدِّد لها فواتيرها. أتعرفين كيف نشأتُ؟ لقد غادرتُ المنزل وأنا في الخامسة عشرة. حفرتُ الخنادق. لم أعِش طفولتي *قط*. لكنَّ باميلا تشرح له أنّه عندما لم تكن سيلفيد تتجاوز الثانية عشرة، تركت إيف والد سيلفيد من أجل أشد المُنقذين خشونة، من أجل مُهاجر فحل شبق كان سيجعلها ثريّة، وكانت أمّها فرحة به إلى درجة أنَّ سيلفيد فقدتْها طوال كل تلك السنين، ومن ثم انتقلوا إلى نيويورك وفقدَتْ سيلفيد أصدقائها في كاليفورنيا، ولم تكن تعرفُ أحداً وبدأتْ تزداد بدانة.

كان ذلك كلّه هراء نفسيّ بالنسبة إلى أيرا. وتُخبره باميلا إنَّ سيلفيد تعتبرُ إيف نجمةً سينمائيّة تخلَّتْ عنها ووضعتها بين أيدي المربيات اللواتي تركنها من أجلِ الرجال ومن أجل جنون زوجها، الذي كان يخونها على الدوام. إنَّ سيلفيد ترى أنَّ إيف ترتمي على الرجال لكي

لا تستقل بنفسها. هل سيلفيد مثليّة؟ كلا، إنَّ شِعارها هو، إنَّ ممارسة الجنس تسلبك قوتك. انظر إلى أمّها. إنها تطلبُ مني ألّا أتورَّط مع أي شخص جنسياً. إنها تكره أمّها لأنها تخلَّتْ عنها من أجل كل أولئك الرجال. إنَّ سيلفيد تحمل فكرة غامضة عن الاستقلال الذاتي المُطلَق. إنها تنوي ألا تتمسّك بأي شخص. إنها صلبة، يسأل أيرا صلبة؟ أحقاً؟ إذن كيف حدث أنّها لم تترك أمّها إنْ كانت صلبة جداً؟ لِمَ لم تنطلق في طريقها الخاص؟ إنَّ كلامك ليس منطقياً. إنّها صلابة في فراغ. استقلال ذاتي في الفراغ. استقلال في الفراغ. أتريد أنْ تعرف الجواب على حالة سيلفيد؟ إنَّ سيلفيد ساديّة - ***ساديّة*** في فراغ. إنّ خرّيجة جوليارد تُمرِّرُ إصبعها في كل ليلة خلال ما ترسَّبَ على حواف طبق وجبة العشاء، وتديره مراراً حول حواف طبق العشاء إلى أنْ يبدأ بإصدار صرير، ومن ثم، أفضل ما يمكن فعله لإثارة أعصاب أمّها هو أنْ تضع إصبعها في فمها وتلعقها إلى أنْ تُصبح نظيفة. إنَّ سيلفيد حاضرة لأنَّ أمها تخشاها. وإيف لن تتوقف عن الخوف منها لأنها لا تريد من سيلفيد أنْ تتركها، ولهذا السبب لا تريد سيلفيد أنْ تتركها - إلى أنْ تعثُر على وسيلة أفضل لتعذيبها. إنَّ سيلفيد هي التي تحمل السوط.

إذن، كما ترى، كرَّر أيرا على مسامع باميلا الكلام الذي أخبرته به في البداية عن سيلفيد لكنّه رفضَ أنْ يتعامل بجديّة مع رأيه هو. وكرّر الكلام على مسمع من حبيبته وكأنّه هو نفسه فهمه. كما سيفعل الناس. وخاضا كلاهما في مثل تلك الأحاديث. وكانت باميلا تحب تلك الأحاديث. كانت تُثيرها، وتجعلها تشعر بالقوة وهي تتكلَّم بحريّة هكذا مع أيرا عن سيلفيد وإيف.

وذات ليلة وقع أمرٌ غريب مع إيف. كانت هي وأيرا مستلقيان في السرير والأنوار مُطفأة، ويستعدان للنوم، وإذا بها تجهشُ بالبكاء باضطراب. فسألها أيرا ما الأمر؟ فلم تُجبه. لماذا تبكين؟ ماذا حدث الآن؟ قالت: أحياناً أعتقد... أوه، لا أستطيع. لم تتمكن من الكلام، وأيضاً لم تتمكَّن

من الكفّ عن البكاء. فأضاء الأنوار. طلب منها أنْ تبوح بما في صدرها. أنْ تنطق. قالت: أحياناً أشعر بأنَّ *باميلا* هي التي كان ينبغي أنْ تكون ابنتي. أحياناً يبدو أنَّ هذا هو الأمر الطبيعيّ. ولماذا باميلا؟ لأنَّ التعامُل بيننا أسهل. ولكن ربما لأنها *ليست* ابنتي. قال: ربما هو كذلك، وربما لا. قالتْ إيف: بسبب حيويتها، وخِفّتها. وبدأتْ تبكي من جديد. في الغالب، بسبب إحساسها بالذنب لأنها سمحتْ لنفسها بتلك الرغبة الوهميّة المُسالِمة، الرغبة في أنْ تحصل على ابنةٍ لا تُذكّرها في كل لحظة بفشلها.

لا أعتقد أنَّ إيف كانت تعني بكلمة الخِفَّة بالضرورة فقط الخِفّة الجسديّة، واستبدال البدانة بالنحافة. كانت تُشير إلى شيءٍ آخر، إلى نوع من الإثارة في باميلا. إلى خِفّة *داخليّة*. أعتقد أنّها كانت ترى في باميلا، رُغماً عنها تقريباً، حساسيّة ارتعشتْ ذات يوم تحت سطح احتشامها الخاص. لاحظتْ باميلا ذلك، وإنْ كان بطريقة صبيانيّة، وحسَّنتْ من سلوكها في حضورها، مهما كان تصرّفها لائقاً. وبعد تلك الليلة، لم تعُد إلى قول مثل ذلك الكلام من جديد. لقد حدث الأمر فقط مرة واحدة، وذلك عندما كان شغف أيرا بباميلا، وعلاقتهما المتهوّرة غير الشرعيّة، في أوجها.

وهكذا، طالب كل منهما بعازفة المزمار الشابة الجريئة بوصفها المخلوقة التي تُثير الحلم بعزفها وفشل في الحصول عليها: الابنة أنكرتْ إيف، والزوجة أنكرتْ أيرا.

وتخبره إيف أمر حزين، حزين، حزين جداً، جداً. وتشبّثتْ به طوال تلك الليلة. وطوال فترة الصباح بكتْ، وتنهّدتْ، وتذمّرتْ؛ كل الألم، والاضطراب، والتناقُض، والاشتياق، والوهم، وكل التنافُر كان يتدفّق منها. ولم يكن قد شعر بمثل ذلك الرثاء لأجلها – وبسبب علاقته بباميلا، شعر بالاغتراب عنها. قالت: إنَّ كل شيء يسير بصورة خاطئة. حاولتُ كثيراً، ولم تستقيم الأمور. حاولتُ مع والد سيلفيد. حاولتُ مع جمبو. حاولتُ أنْ أمنحها الثبات والتواصُل وأُمّاً تصبو إليها. حاولتُ أنْ أكون أُمّاً صالحة. ثم كان لا بدّ أنْ أكونَ أباً صالحاً. وأصبحَ لديها عدد كبير

من الآباء. إنَّ كل ما فكّرتُ فيه هو نفسي. قال: أنتِ لم تفكري فقط في نفسك، بل هكذا فعلتُ. فكّرتُ في عملي. في إنجازاتي. في تمثيلي. كنتُ دائماً أُضطَرُّ إلى الاعتناء بتمثيلي. لقد حاولت. وفّرتُ لها أفضل المدارس وأفضل المُعلِّمين وأفضل المربيات. ولكنْ ربما كان عليّ فقط أنْ أكون معها طوال الوقت. لا شيء يُرضيها. إنها لا تكفّ عن الأكل. هذا هو العزاء الوحيد الذي لم أتمكّن من منحه لها. قال: ربما، هذا هو تكوينها الأصليّ. ولكن هناك الكثير من الفتيات يُفرِطنَ في الأكل، ثم يخسرنَ بعضاً من أوزانهن – إنهنَّ لا يكتفين بالأكل من دون توقف. قد جرّبتُ كلَّ شيء. أخذتها إلى أطباء، إلى مُختصّين. ولم تتوقف عن الأكل. إنها تصرّ على الأكل لأنها تكرهني. قال: إنْ كان هذا صحيحاً، فقد حان الوقت لكي تستقلّ بنفسها. وما صِلة هذا بأي شيء؟ لماذا ينبغي أنْ تستقلَّ بنفسها؟ إنها سعيدة هنا. هذا بيتها. على الرغم من كل الخراب الذي جلبتُهُ إلى حياتها، يبقى هذا بيتُها، ولطالما كان بيتها، وسوف يبقى بيتها قدر ما تشاء. وليس هناك من سبب يدفعها إلى الإسراع في مغادرته قبل أنْ تُصبح مُستعدِّة لذلك، قال: لنفرِض أنَّ تركها المنزل سوف يُساهم في توقّفها عن الأكل. لا أفهم الصِلة بين الأكل وعيشها هنا! إنَّ كلامك ليس منطقياً! إنَّ التي نتحدّث عنها هي ابنتي! حسن، حسن. لكنّكِ عبَّرتِ عن قدرٍ من الشعور بالإحباط... لقد قلتُ إنها كانت تأكل لتواسي نفسها. فإذا غادرت هذا المكان، فسوف تُضطر إلى أنْ تسعى إلى مواساة نفسها بشكل *مُضاعَف*. سوف تُضطر إلى مواساة نفسها إلى هذه الدرجة. أوه، ثمة خطأ رهيب في الأمر. كان ينبغي أنْ أبقى مع كارلتون. لقد كان مثلياً، لكنّه والدها. كان ينبغي فقط أنْ ألازمه. لا أعلم فيما كنتُ أفكِّر. ما كان ينبغي أنْ أقابل جمبو، وما كان ينبغي أنْ أتورَّطَ معك، كانت ستحصل على والد، ولما كانت قد لجأتْ إلى الإفراط في الأكل. ولماذا لم تبقي معه؟ أعلمُ أنَّه يبدو كأنّه تصرّفٌ أنانيٌّ مني، كأنّه لصالحي، سعياً وراء إشباع نفسي بالصُحبة. لكنني أردتُ *له* حقاً أنْ يتحرَّر. لماذا يبقى محصوراً داخل قيود الحياة العائليّة ومع تلك الزوجة التي لم يجدها جذّابة أو مُثيرة للاهتمام؟

كنتُ كلما اجتمعنا معاً أعتقد أنّه ربما يُفكّر في صبي المطعم أو النادل. لقد أردتُ له ألّا يُضطر إلى الإغراق في الكذب، كنّه لم يكذب في هذا الأمر، أوه، أعلمُ، وهو يعلمْ أنني أعلم، وكل مَنْ في هوليوود كانوا يعلمون، لكنّه كان لا يزال دائماً يجوس في المكان ويُخطِّط. وتأتيه مكالمات هاتفيّة ويختفي ويُقدِّم أعذاراً لتأخّره في العودة ولعدم حضوره حفلة سيلفيد - لم أستطع تقبُّل المزيد من أعذاره. وهو لم يأبه، واستمر في كذبه. أردتُ أنْ أُريحه من ذلك. أردتُ أنْ أُريح نفسي من ذلك. ليس من أجل سعادتي الشخصيّة، حقاً. بل أكثر من أجل سعادته هو. إذن، لِمَ لم ترحلي وحدك؟ لِمَ رحلتِ مع جمبو؟ في الواقع... كانت تلك الطريقة الأسهل لفعل ذلك. لتجنُّب الوحدة. لاتخاذ القرار بعدم بقائي وحيدة. ولكن كان يمكن أنْ أبقى. وكانت سيلفيد ستحصل على والد، ولَمَا كانت قد عرِفتْ حقيقته، ولمَا كنا قد أمضينا سنين عديدة مع جمبو، ولَمَا قُمنا بتلك الرحلات الفظيعة إلى فرنسا والتي كانت مجرد كوابيس. كان يمكن أنْ أبقى، وكان سيتوفر لها أبٌ غائب كما يحدث لأي شخص والده غائب. وما أهميّة أنْ يكون مثلياً؟ نعم، بعض الأمر يتعلّق بجمبو، وبالشغف. ولكن لم يعُد في استطاعتي أنْ أتقبّل الكذب، والخداع الزائف. لقد كان خِداعاً زائفاً، لأنَّ كارلتون لم يأبه، ولكنْ من أجل القليل من الهيبة، ومن الكياسة، كان يتظاهر بأنّه يُخفيه. آه، كما أحبّ سيلفيد! إنني أحبّ ابنتي. وأنا مُستعدة لفعل أيّ شيء من أجل ابنتي. ولكن ليتها تكون أكثر خِفّة وسهولة وعفويّة - لو أنّها تتصرَّف كابنة أكثر من ذلك. إنها هنا، وأنا أحبّها، ولكن كل قرار صغير يُتّخذ هو صراع، وقوّتها... إنّها لا تعاملني كأمّ، وتُصعِّب عليّ معاملتها كابنة. مع أني مُستعدة لأفعل *أيّ شيء* من أجلها، *أيّ شيء*. لِم لا تدعيها ترحل، إذن؟ دائماً تسألني هذا السؤال! إنها لا تريد أنْ ترحل. لماذا تعتقد أنَّ الحل المناسب لها هو الرحيل؟ إنَّ الحلّ المناسب لها هو البقاء. إنها لا تشبع مني. ولو أنها مُستعدة للرحيل، لكانت رحلتْ الآن. إنها ليست مُستعدة. إنها تبدو ناضجة، لكنها ليست كذلك. أنا أمّها. أنا التي تُعيلها. وأحبّها. إنّها في حاجة إليّ. أعلمُ أنّه لا يبدو أنّها تحتاج إليّ،

لكنها تحتاج إليّ. يقول لكنكِ لستِ سعيدة. أنتَ لا تفهم. أنا لستُ قلقة على نفسي، إنني قلقة على سيلفيد. أنا سأنجو. إنني دائماً أنجو، ما الذي يُقلقكِ بشأنها؟ تقول إيف أريد لها أنْ تعثر على رجل طيب، على رجل تُحبّه ويمكن أنْ يعتني بها. إنها لا تخرج مع الكثير من الرجال بالقدر الكافي. يقول أيرا إنها لا تخرج من أي شخص. هذا غير صحيح، لقد خرجت مع ذلك الفتى، متى؟ قبل تسعة أعوام؟ هناك الكثير من الرجال أبدوا اهتمامهم بها. في قاعة الموسيقى. الكثر من الموسيقيين. إنها لا تستعجل، أنا لا أفهم ما تقولين. يجب أنْ تنامي. أغمضي عينيك وحاولي أنْ تنامي. لا أستطيع. إنني أُغمضُ عينيّ وأفكِّرُ. ماذا سيحدث لها؟ ماذا سيحدثُ لي؟ الكثير من المحاولة والكثير من المحاولة... والقليل من السكينة. القليل من هدوء البال. كل يوم هو شيء جديد... أعلم أنَّ الأمر يبدو للآخرين سعادة. أعلم أنّها تبدو غاية في السعادة وأعلم أننا نبدو سعيدين معاً، ونحن حقاً سعيدتان معاً، لكنَّ الأيام تزداد صعوبة. أتبدوان غاية في السعادة؟ حسن، هي تحبّني. إنها تحبّني. أنا أمّها. طبعاً نبدو سعيدتين معاً. كم هي جميلة! إنها جميلة، ويسألها مَن الجميلة؟ سيلفيد. سيلفيد جميلة. اعتقدَ أنها ستقول باميلا. تقول إيف انظر عميقاً في عينيها وفي وجهها. سوف تجد الجمال والقوة هناك. إنهما لا يصلان إليك مباشرة. ولكن هناك جمالاً عميقاً. عميقاً جداً. إنها فتاة جميلة. إنها ابنتي. إنّها رائعة. وموسيقيّة لامعة. وفتاة جميلة. إنها ابنتي.

لو أنَّ أيرا علِمَ أنّه لا فائدة، وأنَّ السبب هو تلك الليلة. فلن يكون في استطاعته أنْ يرى بصفاء أشدّ مدى استحالة الأمر. إنَّ من الأسهل تحويل أميركا إلى الشيوعيّة، الأسهل جلب ثورة البروليتاريا إلى نيويورك، إلى وول ستريت، من التفريق بين امرأة وابنتها لا تريدان أنْ تتفرّقا. نعم، كان ينبغي أنْ يفترق عنهما. لكنّه لم يفعل. لماذا؟ وأخيراً، يا نيثان، ليس لديّ جواب. اسأل لماذا لا أحد يرتكب أيّ خطأ مأساويّ، ولن تجد جواباً.

***

خلال تلك الأشهر، كان أيرا يزداد انعزالاً أكثر فأكثر في المنزل. وفي الليالي التي لا يحضر اجتماعاً نقابياً تنفيذياً أو لا يحضر اجتماع وحدة حزبه، أو لم يخرجا معاً في المساء، كانت إيف تلزم غرفة الجلوس وتنهمك في شغل الإبرة أو الاستماع إلى عزف سيلفيد على القيثارة ويكون أيرا في الطابق العِلويّ يكتب رسالة إلى أوداي. وعندما تسكت القيثارة ويهبط إلى الطابق السُفلي بحثاً عن إيف، لا يجدها هناك. تكون فوق في غرفة سيلفيد، تستمع إلى الاسطوانات. والاثنتان في السرير، تحت الأغطية تستمعان إلى أوبرا *Cosi Fan Tutte*. وعندما يرتقي إلى الطابق العلوي ويسمع موسيقى موتسارت تدوّي ويشاهدهما معاً في السرير، كان أيرا يشعر وكأنّه هو الطفلة. وبعد مرور ساعة أو نحوها تعود إيف، ولا تزال دافئة من سرير سيلفيد، لكي تأوي إلى السرير معه، وكان ذلك بصورةٍ أو بأخرى نهاية نعيم زوجيّ.

عندما يحين موعد الانفجار، تُدهَش إيف. يجب أنْ تحصل سيلفيد على شقّة خاصّة بها. يقول، إنَّ باميلا تسكن بعيداً عن عائلتها مسافة ثلاثة آلاف ميل. وتستطيع سيلفيد أنْ تُقيم على مسافة ثلاثة أبنية من هنا. ولكنْ كل ما تفعله إيف هو البكاء. هذا ظلم. هذا شيء مريع. إنّه يُحاول أنْ يُبعِد ابنتها عن حياتها. يقول، كلا، قريباً جداً منا – إنها في الرابعة والعشرين من العمر، وحان الوقت لكي تتوقف عن النوم في السرير مع أمّها. إنّها ابنتي! كيف تجرؤ! أنا أحبّ ابنتي! كيف تجرؤ! يقول حسنٌ، ***أنا*** سأُقيم في مكانٍ قريب، وفي صباح اليوم التالي، يعثر على غرفة في شقّة في شمال ساحة واشنطن، في موقع قريب. يدفع العربون، ويوقِّع عقد الإيجار، ويدفع قيمة إيجار الشهر الأول، ويعود إلى المنزل ويُخبرها عمّا فعل. أنت تتركني! سوف تُطلّقني! يقول، كلا، أنا فقط سأُقيم في مكان قريب. والآن تستطيعين أنْ تستلقي في السرير معها ***طوال*** الليل. ومع ذلك، إذا رغبتِ في الاستلقاء معي في السرير طوال الليل، على سبيل التغيير، ارتدي معطفكِ واعتمري قبعتكِ وتعالي

إليّ وسوف يُسعدني أنْ أراك. أما على العشاء، يُخبرها، مَنْ سيلاحظ أنني غير موجود هناك؟ فقط انتظري. سوف يطرأ تحسُّنٌ كبير على وِجهة نظر سيلفيد من الحياة. لماذا *تفعل* هذا معي؟ لكي تدفعني إلى الاختيار بين ابنتي وبينك، لكي تدع أُمّاً إلى الاختيار - هذا تصرُّف لا إنسانيّ! واستغرقَ منه ساعات طويلة أخرى لكي يشرح لها أنّه يطلبُ منها أنْ تجد حلاً يتفادى *الحاجة* إلى الاختيار، ولكن من المشكوك فيه أنْ تكون إيف قد فهمتْ ما كان يقوله. إنَّ قراراتها لم تكُن تقوم على أساس الفهم - بل على أساس اليأس. وعلى أساس الاستسلام.

في الليلة التالية، ارتقتْ إيف كالمعتاد إلى غرفة سيلفيد، ولكن هذه المرَّة لكي تُقدِّم لها العرض الذي اتّفقت عليه مع أيرا، العرض الذي سيجلب السلام إلى حياتهم. وكانت إيف قد رافقته من أجل مشاهدة الشقّة التي استأجرها في شمال ساحة واشنطن. كانت لها أبواب على النمط الفرنسيّ وأسقف وزخرفات وأرضيات من الخشب. ورفّ محفور. وتحت غرفة النوم الخلفيّة كانت هناك حديقة تشبه تلك التي في الشارع الحادي عشر الغربيّ. لم تكن جادّة ليهاي، يا نيثان. في تلك الأيام، كان شمال ساحة واشنطن أجمل شارع في مانهاتن. قالت إيف: إنها جميلة، قال أيرا: إنّها من أجل سيلفيد. وسوف يُبقي عقد الإيجار باسمه، ويدفع قيمته، وإيف، التي دائماً تكسب نقوداً ولكنْ دائماً ينتابها الرعب بشأن المال، دائماً تفقده على يد فريمان أو أشباهه، ليس عليها أنْ تقلق بشأنْ أيّ شيء. قال: هذا هو الحلّ، فهل هو شديد السوء؟ جلستْ تحت أشعة الشمس على أحد مقاعد نوافذ الصالون الأماميّ. كانت قبّعتها مُزوّدة بخِمار، أحد تلك الأخمرة التي عليها بقع صغيرة وجعلتها رائجة باستخدامها في أحد أفلامها، رفعته عن وجهها الصغير المُبهِج وبدأتْ تجهشُ بالبكاء. لقد انتهى صراعهما. انتهى صراعها هي. قفزتْ واقفة على قدميها، وعانقته، وقبَّلته، وبدأتْ تتنقّل من غرفة إلى أخرى، وتقترح أين تضع قطع الأثاث القديمة الجميلة التي سوف تنقلها من

الشارع الحادي عشر الغربيّ من أجل سيلفيد. كانت سعادتها لا توصَف. لقد عادتْ إلى سن السابعة عشرة. شيء ساحر. فاتن.

في تلك الليلة استجمعت شجاعتها وارتقتْ إلى الطابق العُلويّ حاملة المُخطَّط الذي وَضَعَتْه للشقّة الجديدة، مع لائحة بالقطع من المنزل الذي كان سيصبح من نصيب سيلفيد في كل الأحوال وها قد أصبح الآن مُلكها إلى الأبد. وطبعاً، سجّلتْ سيلفيد اعتراضها في الحال، وفي الحال هرع أيرا يرتقي الدَرَج إلى غرفة سيلفيد، فوجدهما في السرير معاً. ولكن من دون موسيقى موتسارت هذه المرّة. هذه المرة مع الكثير من الضجيج والصخب. رأى إيف على ظهرها تصرخ وتبكي، وسيلفيد بمنامتها جالسة عليها متباعدة الساقين، وتصرخ أيضاً، وتبكي أيضاً، ويداها القويتان عازفتا القيثارة تُثبِّتان كتفيّ إيف على السرير. كانت هناك قطعٌ صغيرة من الورق تنتشرُ في المكان كله – إنه مُخطَّط الأرضيّة للشقة الجديدة – وهناك، فوق زوجته، جلستْ سيلفيد، وهي تصرخ، ألا تستطيعين أنْ تواجهي *أحداً*؟ ألنْ تُدافعي ولو مرَّة واحدة عن ابنتك في مواجهته؟ ألن تكوني أُمّاً، *أبداً*؟ *أبداً*؟

سألتُ ماذا فعل أيرا؟

ماذا في اعتقادك فعل؟ لقد غادر المنزل، وأخذ يجوب الشوارع، ذهبَ إلى هارلم، وعادَ إلى الفيليج، مشى أميالاً، ومن ثم، في منتصف الليل، توجّه إلى منزل باميلا في شارع كارمين. كان قد حاول أنْ لا يذهب إليها هناك ما دام يستطيع ذلك، لكنّه رنَّ جرس باب بيتها وارتقى مطالع الدَرَج الخمسة وأخبرها بأنَّ علاقته بإيف قد انفصمتْ. وأراد منها أنْ تأتي معه إلى زنك تاون. إنّه يريد أنْ يتزوجها. ولطالما رغبَ في الزواج منها، كما أخبرها، وأنْ يُنجِبَ طفلاً منها. وتستطيع أنْ تتخيّل الأثر الذي تركه هذا الكلام عليها.

كانت تُقيم في غرفة واحدة بوهيميّة – مع خزانات من دون أبواب،

وفرشات على الأرض، وصور لوحات لموديلياني، وزجاجة من المشروب مع شمعة، ونوتات الموسيقى منتشرة في كل كان. وبعد قطع مسافة أربعين قدماً مربّعاً تجد ذلك الرجل الطويل كالزرافة يُثير عاصفة حولها، يُقلِّبُ نوتات الموسيقى، ويحطِّم كل تسجيلاتها الموسيقيّة، ويرفس وعاء الاستحمام، الموجود في المطبخ، ويُخبر تلك الطفلة الإنكليزيّة ذات النشأة الممتازة وتتبنّى أيديولوجيا غرينتش فيليج الجديدة والتي اعتقدتْ أنَّ ما كانا يفعلانه ليست له عواقب - بل مغامرة كبرى، حماسيّة بلا عواقب مع رجلٍ مشهور وأكبر سناً منها - بأنّها الأم المستقبليّة لورَثته الذين لم يولدوا بعد والمرأة التي سيقضي معها حياته.

إنّه أيرا المُهيمن، أيرا العملاق، الذي يصدم كل شيء، المجنون، الشبيه بالزرافة، المندفع، الذي لا يقبل إمّا بكل شيء أو لا شيء، يقول لها احزمي أمتعتك، سوف ترافقينني، وهكذا علِمَ، بطريقة أسرع من غيرها، أنَّ باميلا كانت ترغب في إنهاء الأمور منذ أشهر. تنتهي؟ لمَ؟ لم يعُد في استطاعتها تحمُّل التوتّر. توتّر؟ *أيُّ* توتّر؟ وتُخبره: أنّه كلما اجتمعا في جيرزي، لا يكفّ عن معانقتها ومُداعبتها وجعلها تملّ من شدة القلق وهو يُخبرها للمرة الألف كم يُحبّها، ثم يُضاجعها وتعود إلى نيويورك وتذهب لمُلاقاة سيلفيد، وكل ما تتحدث عنه سيلفيد هو الرجل الذي وصَفَته بالوحش؛ وربطت بين أيرا وأمّها وكأنهما الجميلة والوحش. وتُضطر باميلا إلى موافقتها، وإلى أنْ تضحك عليه؛ هي أيضاً كان عليها أنْ تُطلِق نكاتاً حول الوحش. كيف يكون أعمى إلى دَرَجة ألّا يرى الضريبة التي تدفعها على ذلك؟ لم تستطع أنْ تهرب معه ولم تستطع الزواج منه. إنَّ لديها عملاً، ولها مستقبل مهنيّ، وهي موسيقيّة تحبّ أنْ تتعامل مع الموسيقى - ولا تستطيع أنْ تراه بعد الآن. وإذا لم يدعها وشأنها... وهكذا تركها أيرا. ركب السيارة وتوجه إلى الكوخ، وإلى هناك ذهبتُ في اليوم التالي بعد انتهاء الدوام المدرسيّ لأقابله.

وتكلَّمَ، وأصغيتُ. لم يُفضِ لي بأي شيء عن باميلا؛ لم يفعل لأنّه

كان يعلم عِلم اليقين رأيي في الزنا. وكنتُ قد أخبرته مراراً وتكراراً حتى سئم بأنَّ سرّ السعادة في الزواج هو الإخلاص. فإذا لم تُعجبك هذه الفكرة، فإنَّ الزواج لا يُناسبك. كلا، لم يُحدّثني عن باميلا - أخبرني عن سيلفيد وكيف جلست على إيف. طوال الليل، يا نيثان. وعند الفجر قدتُ السيارة عائداً إلى المدرسة، وحلقتُ ذقني في غرفة حمّام الكلّية، وسجلتُ التفقّد في الصف، وبعد الظهيرة، بعد انتهاء حصّتي الأخيرة، ركبتُ السيارة وعدتُ من جديد. لم أرد له أنْ يخرج وحده ليلاً لأنني لم أعرف ماذا يمكن أنْ يفعل بعد ذلك. لم يكن فقط يواجه حياته في المنزل مواجهة مُباشِرة. هذا فقط جزء من الأمر. كان للجانب السياسيّ ضلع - الاتّهامات، وأطلاق النار، ووضع لوائح سوداء طوال الوقت. *هذا* ما كان يُدمّره. لم تكن الأزمة العائليّة قد أصبحتْ هي الأزمة الكبرى. طبعاً، كان مُعرَّضاً للخطر على كِلا الجانبَين، ولكن في الوقت الراهن كان قادراً على إبقائهما مُنفصلين.

كانت رابطة المُحاربين القدماء الأمريكيين قد اعتبرتْ أيرا مؤيّداً للتعاطُف مع الشيوعيين. كان اسمه قد ورد في إحدى الصحف الكاثوليكيّة، مُدرَج ضمن لائحة ما، بوصفه شخصاً له ارتباطات بشخصيات شيوعيّة. كان العرض الذي يُقدِّمه كله مشبوهاً. وكان هناك احتكاك مع الحزب. كان هذا الأمر يحتدم. ستالين واليهود. وكانت مُعاداة الساميّة السوفيتيّة قد بدأتْ تنفذ إلى وعي حتى أشدّ أفراد الحزب غباءً. كانت الشائعات قد بدأتْ تسري بين أعضاء الحزب اليهوديّ، ولم يُعجب أيرا ما كان يسمع. أراد أنْ يعرف المزيد. وعن ادّعاءات نقاء الحزب الشيوعيّ والاتحاد السوفييتي، حتى أيرا رينغولد أراد أنْ يعرف المزيد. كان الإحساس بخيانة الحزب قد بدأ يُحسّ قليلاً، لكنَّ الصدمة الأخلاقيّة الكاملة لم تحدث إلا مع تجليات خروتشيف. عندئذٍ انهار كلّ شيء بالنسبة إلى أيرا وأصدقائه، المُبرِّر لكل جهدهم ومعاناتهم. وبعد ذلك بستة أعوام، اندثر جوهر سير حياتهم كبالغين. ومع ذلك، في

وقت مُبكِّر هو عام 1950، كان أيرا يتسبَّب لنفسه بمشاكل برغبته بمعرفة المزيد. على الرغم من أنَّه لم يتحدث حول تلك المسألة معي. لم يرد لي أنْ أتورّط، ولم يرِدْ أنْ يسمعني أجهر برأيي. كان يعلم أننا إذا تورّطنا في القضيّة الشيوعيّة، فسوف ينتهي بنا الأمر كما ينتهي بالكثير من العائلات الأخرى، ممتنعين عن الكلام حتى آخر حياتنا.

في عام 1946، كان قد جرى بيننا نقاشٌ ممتعٌ حالما خرج إلى مدينة كالومت وأقامَ في غرفة واحدة مع أوداي. ذهبتُ لأقوم بزيارته ولم يكن اللقاء ممتعاً. لأنَّ أيرا، عندما يُناقش في أمورٍ تهمّه أكثر من غيرها، فلن ينتهي من الكلام معك. خاصة في تلك الأيام المُبكِّرة التي تلَتْ الحرب، كان أيرا، في النقاش السياسيّ، غير راغب البتّة في أنْ يخسر. خاصّة معي. الأخ الأصغر غير المتعلِّم يُعلِّم الأخ الأكبر المتعلِّم. كان يُحدِّق بإمعان إليّ، وإصبعه موجَّه مباشرة إليّ، بعناد، فارضاً القضيّة، مُتغلّباً على كل ما أقول بعبارات مثل لا تُهن ذكائي، إنَّ هذا تناقُض لعين في العبارات، لن أقف هنا وأتلقّى ذلك الهراء. كانت طاقته في العراك هائلة. لا يهمّني إنْ لم يعلم ذلك أحدٌ غيريّ! لو أنكَ كنتَ تعلم مغزى ما يجري في هذا العالم...! كان في استطاعته أنْ يكون مُستفزاً جداً وهو يضعني في مكاني كمُدرِّس إنكليزي. إنَّ أشدّ ما أكره هو عبارة من فضلك حدِّد ما تقول! لم يكن هناك أيَّ شيءٍ ضئيل بالنسبة إلى أيرا في تلك الأيام. كان كل ما يُفكِّر فيه أمرٌ *جلل*، لأنّه هو فكَّر فيه.

في الليلة الأولى لزيارتي له حيث كان يُقيم مع أوداي، أخبرني أنَّه على نقابة المُعلّمين أنْ تعمل على تطوير الثقافة الشعبيّة، وأنْ يكون هذا هو سياستها الرسميّة. لماذا؟ أنا أعرف لماذا. لأنها كانت السياسة الرسميّة للحزب. عليك أنْ ترفع من مستوى الفهم الثقافيّ للإنسان المسكين في الشارع، وبدل الثقافة الكلاسيكيّة، القديمة، التقليديّة، يجب أنْ تُشدِّد على تلك الأشياء التي تُساهم في الثقافة الشعبيّة. إنّه خط الحزب، وكنتُ أعتقد أنّه غير واقعيّ من الجوانب كافّة. لكنَّ *قوة إرادة*

ذلك الرجل كانت هائلة. ولم أكنْ خصماً يُستهان به، وأعلم كيف أُقنِع الناس بأنني مُهتم بمجال الأعمال أيضاً. لكنَّ روح التخاصُم عند أيرا كانت لا تنضب. لم يكن أيرا يستسلم. وعندما رجعتُ من شيكاغو، لم أسمع أخباره على مدى حوالي العام.

سوف أخبركَ عمّا كان يُضيِّق الخنّاق عليه. إنها آلام العضلات تلك. المرض الذي كان يُعاني منه. لقد أخبروه بأنّه هذا الشيء ومن ثم شيء آخر ولم يفهموا أبداً ما هو. التهاب العضلات. أو الشدّ العضلي. كل طبيب يُعطي اسماً مختلفاً. هذا كل ما أعطوه، إلى جانب مرهم سلون ومُخفِّف للآلام. وبدأتْ ملابسه تفوح برائحة كريهة من كثرة أنواع مُخفّفات الألم التي باعوها له. وأحد الأطباء الذي أخذته بنفسي إليه، ويقع قِبالة بيت إسرائيل، وهو طبيب صديق لدوريس، استمع إلى مراحل تطوّر حالته، وأخذ عيِّنة من الدم، قام بإجراء فحص كامل له، ووصفَها لنا بأنّها حالة التهاب متطوّر. وكوّن الرجل نظريّة دقيقة وأعطانا صورة عامة – إنه فشل في كبح الانهيار المؤدّي إلى الالتهاب. ووصفَ مفاصل أيرا بأنها سريعة في إبداء ردود فعل الالتهاب وتتفاقم بسرعة. تلتهب بسرعة، وتُبطئ في الزوال.

بعد وفاة أيرا، أوحي أحد الأطباء إليّ – وأقنعني – بأنَّ أيرا كان يُعاني من مرضٍ يعتقدون أنَّ لينكولن كان مُصاباً به. لقد ارتدى ملابسه وأُصيبَ بمرضه. مرض مارفان. أو أعراض مارفان. ويُصاب به طوال القامة. وأصحاب الأيدي والأقدام الكبيرة. الطوال القامة والنحيلون بصورة مُفرطة. مع الكثير من آلام المفاصل والعضلات. ومرضى مارفان غالباً ما يموتون كما مات أيرا. ينفجر الشريان الأورطي ويموتون. على أيّ حال، مهما كان ما لم يُشخَّص عند أيرا، فإنّ ما يتعلّق بإيجاد علاج على الأقلّ، وبحلول عام 1949 أو 50 كانت تلك الآلام قد بدأتْ تُصبح بصورة أو بأخرى غير ملحوظة، وكان يشعر بأنّه يخضع لضغط سياسيّ من كِلا طرفيّ الطيف – من البثّ الإذاعي ومن الحزب – وأثار الرجل قلقي.

في حيّ الجناح الأول، يا نيثان، كنا العائلة اليهوديّة الوحيدة في شارع فاكتوري. والغالب أننا كنا العائلة الوحيدة التي لم تكن إيطاليّة بين مسارات لاكاوانا وخط بلفيل. وساكنو الجناح الأول جاؤوا من الجبال، في الغالب كانوا أشخاصاً ضئيلين بأكتافٍ عريضة ورؤوس ضخمة، من جبال غرب نايولي، وعندما وصلوا إلى نيوارك وضع أحدهم رفوشاً بين أيديهم وبدؤوا يحفرون واستمروا يحفرون حتى آخر حياتهم. حفروا خنادق. وعندما ترك أيرا المدرسة، حفر خنادق معهم. وأحد أولئك الإيطاليين حاول أنْ يقتله برفش. وكان أخي ثرثاراً وكان عليه أنْ يُقاتل لكي يعيش في ذلك الحيّ. لقد اضطرَّ أنْ يُقاتل ليبقى حياً وحده منذ أنْ كان في السابعة من عمره.

ولكن سرعان ما أصبح يُقاتل على الجبهات كلّها، ولم أرغب في أنْ أراه يرتكب شيئاً أحمقَ أو يتعذَّر الرجَوع عنه. لم أخرج لكي أخبره شيئاً بعينه. فهو لم يكن من النوع الذي تستطيع أنْ تبوح له بما تنوي أنْ تفعل. بل إنني لم أكن متوفراً لأبوح له ***بما يجول في ذهني***. وما كان يجول في ذهني هو أنَّ الاستمرار في العيش مع إيف ومع ابنتها أمرٌ جنونيّ. وفي الليلة التي توجهت مع دوريس إلى هناك لتناول طعام العشاء، كان من الصعب تجاهُل غرابة الصِلة التي تربط بين الاثنتين. وأتذكّر وأنا أقود السيارة في طريق العودة ليلاً إلى نيوارك مع دوريس أنني كنتُ أقول وأُكرِّر، ليس لأيرا حيِّز وسط تلك التركيبة.

كان أيرا يُسمّي جنّته الفاضلة بالشيوعيّة، وكانت إيف تُسمّي جنّتها سيلفيد. كانت فكرة الأبوين عن الجنّة الفاضلة هي الطفلة المثاليّة، وجنّة الممثلة الفاضلة هي في الادِّعاء، هي جنة اليهودي الفاضلة في ألّا يكون يهودياً، ويكفي أنْ نذكُر أعظم مشاريعها لتُزيل عن الحياة رائحتها الكريهة وجعلها مُستساغة.

لقد جعلتْ سيلفيد أيرا يُدرك أنَّه لا شأنَ له في ذلك المنزل ودفعته إلى الإسراع في مغادرته. وكانت سيلفيد على صواب: حقاً *ليس* له أيَّ شأنْ

هناك، إنّه **لا** ينتمي إليه. وقد بيَّنتْ سيلفيد له بكل وضوح أنَّ نزع الفكرة المثاليّة من رأس أمّها - إعطاء أمّها جرعة من قذارة الحياة لا تنساها - هو أعمق رغباتها كابنة. وبصراحة، أعتقد أنّه لم يكن له أي عمل في الإذاعة أيضاً. إنّه ليس ممثّلاً. كان يتمتَّع بالعزيمة الكافية للنهوض وإطلاق النار على نفسه - لم يكن يفتقر إلى هذا - أمّا أنْ يكون ممثلاً؟ لقد أدّى الأدوار كلها بالطريقة نفسها. ذلك الأداء السهل الرديء، وكأنه يجلس أمامك على الطرف المقابل وأنتما تلعبان البينوكل. إنّه المدخل الإنسانيّ البسيط، لكنّه لم يكن مدخلاً. كان لا شيء. كان غياب المدخل. ماذا كان أيرا يعرف عن التمثيل؟ لقد صمَّمَ وهو طفل على تحقيق النجاح وحده، وكل ما حثّه على التقدُّم جاءه مُصادفة. لم تكن هناك أيّة خُطّة. هل أراد بيتاً يعيش فيه مع إيف فريم؟ أم بيتاً يضمّه مع الفتاة الإنكليزيّة؟ أعتقد أنّ هذا حافز أوّلي عند البشر؛ وعند أيرا على وجه الخصوص، كان الحافز إلى الحصول على منزل هو نتيجة خيبة أمل قديمة جداً، جداً. لكنّه انتقى بعض الجميلات حقاً ليضمّه وإياهن منزل واحد. لقد فرضَ أيرا نفسه على مدينة نيويورك بكل قِوّته، بكل ذلك التوق إلى حياةٍ ذات وزن ومعنى. ومن الحزب حصل على فكرة أنّه كان أداة للتاريخ، وأنَّ التاريخ دعاه إلى الحضور إلى عاصمة العالم لكي يُصحِّح أخطاء المجتمع - أمّا لي فبدا الأمر كله مُضحكاً. إنَّ أيرا لم يكن مُرحّلاً عن مكانه بقدر ما كان في المكان الخطأ، كان دائماً في الموقع الذي لا يُناسبه، روحاً وجسداً. لكنَّ هذا ليس المنظور الذي كنتُ أنوي أنْ أتقاسمه معه. هل نداء أخي الباطني هو أنْ يكون شخصاً مُذهلاً؟ يُناسبني هذا. أنا فقط لم أرِد أنْ ينتهي به الأمر إلى أنْ يُصبح مغموراً كأي شيء آخر.

كنتُ قد أحضرتُ بعض الشطائر لكي نأكلها في تلك الليلة الثانية، وأكلنا وتحدّث وأصغيتُ، وعند حوالي الساعة الثالثة فجراً جاءت سيارة أجرة وتوقفتْ عند باب الكوخ. إنّها إيف. كان أيرا قد نزع سلك الهاتف منذ يومين، ولما لم تستطع أنْ تتحمّل المزيد من الاتّصال بالهاتف

وسماع إشارة مشغول، استدعتْ سيارة أجرة وقطعت بها ستين ميلاً بين الغابات في منتصف الليل. قرعتْ الباب، نهضتُ وفتحتُ الباب، فاندفعتْ وتجاوزتني إلى داخل الغرفة، ورأته. وما تبع ذلك كان يمكن أنْ تكون قد خطَّطتْ له حتى لحظة خروجها إلى سيارة الأجرة أو يمكن بالسهولة نفسها أنْ تكون قد ارتجلت. بأسلوب الأفلام الصامتة التي كانت تمثّلها. بأداء فاشل تماماً، محض ابتكار مُبالغ فيه، لكنّه مناسب جداً لها بحيث يمكن أنْ تُكرّر أداءه بالضبط بعد مرورٍ بضعة أسابيع. إنّه دورها المُفضَّل. المُتضرّعة.

انهارت راكعة في وسط الغرفة، ناسية وجودي - أو ربما لم تكن ناسية كثيراً - وصرخت أتوسل إليك! أناشدك! لا تتركني! كانت الذراعان فوق معطف الفرو، واليدان ترتعشان في الهواء. ثم الدموع، وكأنّ الأمر لا يتعلّق بزواج مُعرّض للخطر بل بخلاص البشريّة. مُشدِّدة - عند الضرورة - على أنّها تُنكِر كل الإنكار كونها كائناً بشريّاً عاقلاً. وأتذكَّر أنني فكّرتُ، حسنٌ، لقد أفسدتْ خطّتها هذه المرة.

لكنني لم أكنْ أعرف أخي، لم أكن أعلم ما الذي لا يقوى على تحمّله. كان طوال حياته يحتجّ على الذين يخرّون راكعين. لكنني أعتقد أنّه في ذلك الوقت كان قادراً على التمييز بين شخصٍ يركع بسبب ظروفه الاجتماعيّة وآخر يُقدِّم أداءً تمثيلياً لا أكثر. لقد انتابه انفعالٌ لم يتمكَّن من تهدئته عندما شاهدها تفعل ذلك. أو هكذا اعتقدتُ. المُحبّ للمعاناة يندفعُ إلى الأمام - أو هكذا اعتقدتُ - فانتقلتُ إلى الخارج لكي ألج سيارة الأجرة وأدخّن سيجارة مع السائق إلى أنْ يُستعاد الصفاء.

إنَّ كل شيءٍ يتَّسِم بسياسة غبيّة. هذا ما كنتُ أفكِّر فيه وأنا في سيارة الأجرة، وفي الأيديولوجيات التي تمتلئ بها رؤوس الناس وتُدمِّر رصدهم للحياة. ولكن لم أفهم إلّا في أثناء عودتي بالسيارة إلى نيوارك في تلك الليلة كم تنطبق تلك الكلمات على الورطة التي وقع فيها أخي مع زوجته. إنَّ أيرا لم يكن *فقط* يتوق إلى مُعاناتها. لا شك في أنّه كان

يمكن أنْ ينجرف مع تلك الدوافع التي تنتاب الجميع عندما يبدأ شخص تربطهم به علاقة حميمة بالاستسلام: ولا شك في أنّه كان في استطاعته أنْ يتوصّل إلى فكرة خاطئة عمّا ينبغي عليه أنْ يفعل بهذا الشأن. ولكن ليس هذا ما حدث. فقط وأنا أقود السيارة عائداً إلى المنزل أدركتُ أنّه ليس ذلك ما حدث *على الإطلاق*.

تذكَّرْ أنَّ أيرا كان ينتمي إلى الحزب الشيوعيّ بالقلب وبالروح. ورضخ أيرا لتحوُّل السياسة بدرجاتها المائة والثمانون. وتقبَّلَ أيرا التبرير الجدلي لكل جريمة اقترفها ستالين. ودعمَ أيرا براودر عندما كان براودر نسختهم الأمريكية من المسيح، وعندما تخلّتْ موسكو عن براودر ونفته، وأصبح براودر بين ليلة وضحاها مؤيداً للطبقيّة وإمبريالياً اجتماعيّاً، تقبّل ذلك كلّه – دعم فوستر وخط فكر فوستر حول أنَّ أميركا في طريقها إلى الفاشيّة. ونجح في القضاء على شكوكه وأقنع نفسه بأنَّ رضوخه لكل تحوُّل وانعطاف في الحزب يُساعدُ في بناء مجتمع عادل ومُنصِف في أميركا. وهو مُقتنع بأنّه فاضل. وفي العموم أعتقد أنّه كان كذلك – كان رجلاً بريئاً آخر قَبِلَ في النظام الذي لم يكن يفهمه. ومن الصعب أنْ أفهم أنَّ رجلاً وضعَ أهمّيّة كبرى على حريّته يمكن أنْ يدع عمليّة التحول العقائديّ تتحكَّم في تفكيره. لكنَّ أخي أذلَّ نفسه فكرياً كما فعلوا كلّهم. كانوا سُذجاً سياسياً. سُذجاً أخلاقيّاً. ورفضوا أنْ يعترفوا بذلك. لقد أغلق أشباه أيرا أولئك عقولهم أمام منابع ما كانوا يُروّجون له ويحتفون به. ها هنا شخص أعظم مواطن قوّته كان مقدرته على الرفض. لم يكن يخشى أنْ يقول كلا في وجهك. ومع ذلك كل ما استطاع أنْ يقول للحزب كان نعم.

لقد تصالحَ معها لأنَّ لا راعٍ تجاريّ أو شبكة بثّ أو وكالة دعاية كانت ستنال من سُمعة أيرا ما دام متزوجاً من سارة برنار الإذاعة. وهذا ما كان يُراهن عليه، على أنّهم لا يستطيعون أنْ يفضحوه، أو يتخلّصوا منه، ما دام إلى جانبه نجمة إذاعيّة. كانت ستحمي زوجها بالإضافة إلى حماية جماعة الحزب الشيوعيّ الذين كانوا يُديرون برنامج أيرا الإذاعي. لقد

ارتمتْ على الأرض، وناشدته أنْ يعود إلى المنزل، وما أدركه أيرا هو أنَّ من الأفضل أنْ يُنفّذ ما تطلبه منه، لأنه ســوف يغرق من دونها. لقد كانت إيف واجهته، كانت حصنه الحصين.

حينئذٍ ظهرتْ الشخصيّة التي ستقدِّم الحل بسنّها الذهبيّ. إيف هي التي اكتشفتْها. كانت قد سمعتْ عنها من ممثّل كان قد سمع عنها من إحدى الراقصات. مُدلِّكة. كانت أكبر من أيرا بحوالي عشرة أعوام أو اثني عشر عاماً وحينئذٍ كانت تقترب من الخمسين. كان مظهرها رثّاً، باهتاً - تمثّل الأنثى الحسّية تتعثّر وهي تهبط التل، لكنَّ عملها جعلها تحتفظ بشكلها العامّ، وحافظَ على تماسُك ذلك الجسم الضخم، والدافئ. اسمها هلجي بارن. من إستونيا ومتزوجة من إستونيّ يعمل في مصنع. تنتمي إلى الطبقة العاملة الصلبة وتحب شرب الفودكا وتجمع بين سِمة العاهرة وهيئة اللصّة. كانت امرأة ضخمة، صحيحة الجسم، عندما ظهرتْ للمرة الأولى كان أحد أسنانها مفقوداً. ثم عادتْ فإذا بالسن قد استُبدِلَ – بسن ذهبيّ، هديّة من طبيب أسنان كانت تُدلّكه. ثم عادتْ مرتدية ثوباً، هديّة من صاحب مصنع للملابس كانت تُدلّكه. وعلى امتداد العام كانت تعود مع حجر كريم لأحد أثوابها، وكان لديها معطفٌ من الفرو، وساعة يد، وسرعان ما بدأتْ تشتري سندات، إلى آخره، إلى آخره. كانت هلجي تتطوّر باستمرار. وكانت تُلقي نكاتاً حول ما يطرأ عليها من تحسينات. وقالتْ لأيرا: إنَّ ذلك مجرد مديح. وفي المرة الأولى التي منحها لأيرا نقوداً قالتْ: أنا لا أقبل نقوداً، بلْ أتلقّى هدايا، فقال أيرا: لا أستطيع أنْ أخرج لأتسوق. تفضّلي. اشتري لنفسك ما تشائين.

ودار بينها وبين أيرا نقاشٌ حول الوعي الطبقيّ الإلزاميّ، وأخبرها كيف حثَّ ماركس العمّال من أمثال آل بارن على نزع رأس المال من الطبقة البورجوازيّة وعلى الانتظام ليُصبحوا الطبقة الحاكمة، ويُسيطروا على وسائل الإنتاج، ولم تكن لدى هلجي أيُّ شيءٍ من هذا. إنها من

إستونيا، والروس احتلّوا إستونيا وحوّلوها إلى جمهوريّة سوفيتيّة، وهي مُناهضة للشيوعيّة ***بكل وضوح***. وبالنسبة إليها ليس هناك إلا بلد واحد، هو الولايات المتحدة الأمريكية. في أي مكان آخر يمكن لمُزارعة مُهاجرة لم تُحصِّل أيَّ قدرٍ من التعليم، إلى آخره إلى آخره إلى آخره. التحسينات التي طرأتْ عليها كانت هزليّة بالنسبة إلى أيرا. في المُعتاد هو لا يمزح، ولكن ليس فيما يخصّ هلجي. ربما كان عليه أنْ يتزوجها هي. ربما هذه القذرة الضخمة، الودود التي لا تبتعد عن الواقع هي توأم روحه: بسبب ما لم يُروَّض فيها، وبسبب ما تتّصف به من تمرُّد.

لا شك في أنّه اصطدم بالجانب المُكتَسَب منها. ماذا لديك هذا الأسبوع، يا هلجي؟ إنّه ليس ممارسه العهر، ولا هو شيء شرير - بل هو تحسين الذات. تحقيق حلم هلجي الأمريكي. إنَّ أميركا هي أرض الفُرَص، وزبائنها يستحسنون منها ذلك، وعلى المرأة أنْ تكسب عيشها، وهكذا هي تأتي ثلاث مرات في كل أسبوع بعد العشاء، تظهر كأنّها ممرّضة - بثوب أبيض مُنشّى، وجورب أبيض، وتنتعل حذاءً أبيض - وتحملُ معها طاولة قابلة للطيّ في المنتصف، طاولة التدليك. تضع الطاولة في غرفة مكتبه، أمام طاولة الكتابة، وعلى الرغم من أنَّ طول قامته أطول منها بمقدار قَدَم، إلا أنّه كان يتمدَّد عليها، وعلى مدى ساعة كاملة كانت تُدلّكه بحِرفيّة عالية، وتمنحه، بذلك التدليك، الراحة الوحيدة الحقيقيّة التي حصل عليها أيرا من ذلك الألم.

ثم، وهي ما تزال بزيّها الأبيض، وبحِرفيّة كاملة، تختم بشيءٍ يوفِّر المزيد من الراحة. بقذفَ قضيبه دفقاً قوياً رائعاً، وفي الحال تلاشى السجن. وفي ذلك الدفق تمثّلتْ الحريّة كلّها التي تخلّى عنها أيرا. لقد ارتقت معركة حياته كلها من أجل الممارسة الكاملة للحقوق الإنسانيّة، والمدنيّة والسياسيّة وتجسّدت بعمليّة القذف، من أجل النقود، إلى السن الذهبيَ لتلك المرأة الإستونيّة ذات الخمسين عاماً بينما إيف، تحتهما مباشرة في غرفة الجلوس، تُصغي إلى عزف سيلفيد على آلة القيثارة.

قد تكون هلجي امرأة وسيمة، لكنَّ الرخص يتغلغلُ فيها. لم تكن لغتها الإنكليزيّة حيوية كثيراً، وكما سبقَ أنْ قلت، كان هناك دائماً دفقٌ رفيع من الفودكا يقرقر خلال عروقها، وهذا كله أضفى عليها هالة لشيء شديد الغباء. وخلعتْ عليها إيف لَقَباً. الفلّاحة. وبهذا لقّبوها في الشارع الحادي عشر الغربي. لكنَّ هلجي بارن لم تكن فلّاحة. ربما كانت بطيئة الفهم، ولكنها ليست غبيّة. كانت هلجي تعلم أنَّ إيف تعتبرها مُعادلة للدابّة حاملة الأثقال. ولم تهتم إيف بإخفاء ذلك، ولم تفكِّر في أنَّ عليها أنْ تفعل ذلك مع مُدلِّكةٍ رخيصة، والمُدلِّكة الرخيصة كانت تحتقرها لهذا السبب. وعندما كانت هيلجي تجعل أيرا يقذف، وإيف في الطابق السُفلي في غرفة الجلوس تُصغي إلى العزف على القيثارة، كانت هلجي تستمتع وهي تُحاكي بسُخرية الطريقة التي تخيّلتْ أنَّ السيدة المحترمة، النيِّقة، إيف، تتنازل بها وتمصّه له. لقد كان خلف القِناع البُلطيّ[53] الخالي من التعبير شخصٌ متهوِّر يعرف متى يضرب وكيف يُسدِّد الضربة القويّة. وعندما سدّدت ضربتها إلى إيف، فعلتْ ذلك بكل ثقلها. وعندما تتوفّر الفودكا، لا تتحكَّم هيلجي في نفسها.

يُعلن مري ليس هناك ما هو أكبر من الانتقام في الناس وأصغر منه، ولا شيء يُجاري أعمال الانتقام في الإبداع المتطِرف حتى في أشدّهم تواضعاً. ولا شيء يُضاهي أعمال الخيانة في الإبداع القاسي عند أشدّ المُرهفين رهافة بينهم.

عاد بي رنين هذا الكلام في الذاكرة إلى درس مري رينغولد في اللغة الإنكليزيّة: الأستاذ وهو يلخِّص الدرس للطلاب، السيد رينغولد يلخص، مُصمِّماً، قبل انتهاء الساعة، على إنجاز موضوعه باختصار، والسيد رينغولد يُلمِّح، بنبرة صوته الجازمة وصياغة عباراته الدقيقة، إلى أنّه يمكن للانتقام والخيانة أنْ يكونا الإجابة عن أحد أسئلته العشرين الأسبوعيّة.

53- البُلطيّ: نسبة إلى منطقة بحر البلطيك في شمال أوروبا – المترجم.

في الجيش أتذكَّر أنّه كانت في حوزتي نسخة من كتاب برتون ***تشريح الكآبة*** وكنتُ أقرأ فيه في كل ليلة، وقد قرأته للمرة الأولى عندما كنا نتدرَّب في إنكلترا على اجتياح فرنسا. وأحببتُ الكتاب، يا نيثان، لكنّه حيَّرني. أتذكُر ما يقوله برتون عن الكآبة؟ يقول، إنَّ لدى كل منا نزوعاً إلى الكآبة، ولكن فقط بعضنا يتعوّد على الكآبة. فكيف تتعوّد عليها؟ هذا هو السؤال الذي لا يُجيب برتون عنه. إنَّ كتابه ذاك لا يُعطي جواباً، ولذلك عليَّ أنْ أُقلِّب التفكير فيه طوال فترة الاجتياح، وأتساءل إلى أنْ أعثر على الجواب من تجربتي الشخصيّة.

إنك تتعوّد على أنْ تتعرَّض للخيانة. الخيانة هي التي تجعلك كذلك. تذكّر الأعمال الدراميّة المأساويّة. ما الذي يستجلب الكآبة، والهذيان، وسفك الدماء؟ عُطيل - تعرَّضَ للخيانة. وهاملتْ - تعرَّضَ للخيانة. ولير - تعرَّضَ للخيانة. بل وفي استطاعتكَ أنْ تدّعي أنَّ ماكبث تعرَّضَ للخيانة - من نفسه - على الرغم من أنَّ الأمر ليس متشابهاً. إنَّ المُحترفين الذين يُبدِّدون طاقاتهم في تدريس أمهات الكتب، والقِلَّة منا التي ما زالتْ تُرهِقُ نفسها بتفحُّص الأدب للأشياء، ليس لديهم عُذر في أنْ يعثروا على الخيانة في كل مكان ما عدا قلب التاريخ. التاريخ برمّته. تاريخ العالم، وتاريخ العائلة، والتاريخ الشخصيّ. إنَّ الخيانة موضوع شاسع. ولكن تذكّر الكتاب المُقدَّس. عمَّ يدور الكتاب المُقدَّس؟ إنَّ الموضوع الرئيس في الكتاب المُقدَّس هو الخيانة. فآدم - يتعرَّضُ للخيانة. وعيساو - تعرَّضَ للخيانة. الشكميّون - تعرَّضوا للخيانة. يهودا - تعرَّضَ للخيانة. يوسف - تعرَّضَ للخيانة. موسى - تعرَّضَ للخيانة. شمشون - تعرَّضَ للخيانة. صموئيل - تعرَّضَ للخيانة. داوود - تعرَّضَ للخيانة. يورياه - تعرَّضَ للخيانة. أيّوب - تعرَّضَ للخيانة. ممَّن تعرَضَ أيوب للخيانة؟ من الله نفسه ولا أقلّ. ولا تنس خيانة الله. لقد تعرَّضَ الله للخيانة. خانه أسلافنا مرات عديدة.

مكتبة
t.me/t_pdf

– 6 –

في منتصف شهر آب من عام 1950، وقبل مغادرتي المنزل ببضعة أيام إلى جامعة شيكاغو(غادرته إلى الأبد، كما حدث) لكي أنتسب إلى سنتي الأولى في الجامعة، ركبتُ القطار لأقضي أسبوعاً في ريف مقاطعة سسكس مع أيرا، كما كنتُ قد فعلتُ في العام السابق في أثناء تواجُد إيف وسيلفيد في فرنسا في زيارة لوالد سيلفيد – عندما كان على والدي أنْ يستنطق أيرا قبل أنْ يمنحني موافقته للذهاب. في ذلك الصيف الثاني، وصلتُ في وقتٍ متأخرٍ من النهار إلى المحطة الريفيّة التي تبعد مسافة خمسة أميال على طريق ملتوية عن كوخ أيرا تمرّ خلال أزقّة خلفيّة ضيّقة وبقطعان الألبان. كان أيرا هناك ينتظر داخل سيارة الشيفروليه كوبيه.

إلى جواره على المقعد الأماميّ جلست امرأة بزيّ أبيض قدّمها إليّ باسم السيدة بارن. كانت قد جاءتْ من نيويورك في ذلك اليوم لكي تساعده فيما يُعاني من آلام العنق والكتفَين وكانت توشك أنْ تستقلّ أول قطار يتوجّه شرقاً. كانت تحمل معها طاولة قابلة للطيّ، وأتذكَّر أنها كانت تنوي أنْ ترفعها من صندوق السيارة وحدها. هذا ما أتذكَّر – قوّتها في رفع الطاولة، وأنّها كانت ترتدي زيّها الأبيض وجورباً أبيض وأنّها خاطبته بـ السيد رنْ وهو خاطبها بـ السيدة بارن. لم ألاحظ أيّ شيء مُميَّز فيها خِلاف قوّتها الجسديّة. ولم أكد أُلاحظها هي. وبعد أنْ ترجّلتْ من السيارة وعبرتْ، مُحتَضنةً طاولتها، إلى المسار الذي سيقلّها منه السكّان

المحلّيون إلى نيوارك، لم أرَ تلك المرأة بعد ذلك. كنتُ في السابعة عشرة. وبدتْ لي عجوزاً وسلوكها صحّياً ولا أهمّية لها.

في شهر حزيران، ظهرت أسماء لائحة من 151 شخصاً يعملون في الإذاعة والتلفزيون بدا أنَّ لهم صِلة بالقضايا الشيوعيّة في منشور عنوانه *قنوات حمراء* وأثارتْ بلبلة نشرت الذعر في كامل صناعة البثّ الإذاعيّ. لكنَّ اللائحة لم تكن تضم اسم أيرا، ولا اسم أي شخص آخر له صِلة ببرنامج *الأحرار والشجعان*. ولم تكن لديّ أدنى فكرة عن أنّه من المُرجَّح أنْ يكون اسم أيرا قد استُثنيَ بسبب المهانة التي سبَّبها له كونه زوج إيف فريم، ولأنَّ إيف فريم كانت هي نفسها محميّة (من جانب برايدن غرانت، وهو واشٍ لصالح المسؤولين عن تقرير *القنوات الحمراء*) من الاشتباه الذي يمكن أنْ يكون قد رمى بظلّه عليها بوصفها زوجة شخصٍ بسُمعة أيرا. وقبل أي شيء، كانت إيف قد حضرت أكثر من نشاط سياسيّ كان يمكن، في تلك الأيام، أنْ يُثير الشك في ولائها للولايات المُتّحدة. لم يكن الأمر يتطلّب الكثير من الأدلّة المُجرِّمة - في حالات ارتكاب الخطأ في تمييز الهويّة، لم يكن يتطلَّب أياً منها - حتى بالنسبة إلى شخص غير مُسيَّس كما كانت إيف فرين، لتصنيفها كـ واجهة وينتهي بها الأمر عاطلة عن العمل.

لكنّني لم أعرف دور إيف في تشكيل ورطة أيرا إلا بعد ذلك بخمسين عاماً، عندما أخبرني مري عن الأمر في منزلي. وكانت نظريتي في ذلك الوقت حول سبب عدم ملاحقتهم أيرا هي أنّهم كانوا يخشونه، يخشون الشجار الذي أثاره، يخشون ما بدا لي حينئذٍ استحالة تدميره. لقد ظننتُ أنَّ ناشري تقرير *القنوات الحمراء* يخشون، إذا استُفِزَّ أيرا، أنْ يقضي عليهم وحده. بل لقد مررتُ بلحظة رومانسيّة، بينما كان أيرا يُخبرني عن *القنوات الحمراء* ونحن نتناول أول وجبة عشاء معاً، بتفكيري في الكوخ الكائن في شارع بيكساس هيل الشبيه بأحد مخيمات التدريب القاسي في غابة جيرزي حيث كان يذهب ملاكمو الوزن الثقيل على مدى أشهر قبل خوض المباراة الكبرى، وملاكم الوزن الثقيل هنا كان أيرا.

إنَّ معايير النزعة الوطنيّة اللازمة لحرفتي يوشك أنْ يضعها ثلاثة من رجال الاستخبارات الأمريكية. ثلاثة رجال سابقين من الاستخبارات، يا نيثان، هم الذين يُديرون عمليّة ***الأقنية الحمراء*** [54]. هم يُقرّرون مَنْ يُستخدَم في الإذاعة ومَنْ لا يُستخدَم ويستقون معلوماتهم من مقر لجنة الأنشطة المُناهضة لأميركا. سوف ترى مدى شجاعة الرؤساء في مواجهة هذا الهراء. انظر كيف يصمد نظام الربح أمام الضغط. اللعنة على حريّة التفكير، وحريّة التعبير، والمسيرة اللازمة. سوف يُقضَى على الناس، يا صديقي. ليست الحيويّة ما سيضيع، بل *حياة الناس*. سوف يموت الناس. سوف يمرضون ويموتون، سوف يقفزون من أعالي المباني ويموتون. وحالما ينتهي هذا الوضع، سوف ينتهي أمر الذين وردَتْ أسماؤهم في تلك اللائحة في معسكرات الاعتقال، برعاية الأثيرة على قلب السيد مكاران[55] لجنة نشاط الأمن الداخلي. وإذا ذهبنا إلى الحرب مع الاتحاد السوفييتي – ولا شيء أحبّ على قلب الجناح اليميني في هذا البلد من الحرب – فسوف يمدّ مكاران يده شخصياً للمساعدة في وضعنا جميعاً خلف الأسلاك الشائكة.

لم تعمل اللائحة على إسكات أيرا ولا دفعته، كما فعلتْ مع العديد من زملائه، إلى الهرب والاختباء. وبعد نشر اللائحة بأسبوعٍ واحد، نشبت فجأة الحرب الكوريّة، وفي رسالة بعثَ بها أيرا إلى صحيفة ***هيرالد تريبيون*** أعلن (موقِّعاً بتحدٍ باسم صاحب برنامج ***الأحرار والشجعان*** أيرون رن) معارضته لِما وَصَفَه بأنّه تصميم ترومان على تحويل ذلك النزاع النائي إلى حل النزاع الذي نشأ بعد انتهاء الحرب وطال انتظاره بين الرأسماليين والشيوعيين، وبفعله ذلك، يُعدّ خشبة المسرح لعرض الرعب النووي للحرب العالميّة الثالثة وإبادة الجنس

54- القنوات الحمراء: تقرير عن تأثير الشيوعيين على البث الإذاعي والتلفزيوني والحملة التي شُنّت ضده في أوائل الخمسينيات – المترجم.

55- بات مكاران (1867 – 1954): سيناتور أمريكي ديمقراطيّ. كان مُعادياً شرساً للشيوعيّة إلى درجة تعاونه مع الفاشيين لكي يمنع انتشارها – المترجم.

البشريّ. كانت تلك رسالة أيرا الأولى إلى مُحرِّر منذ أنْ كان قد كتبَ من إيران إلى صحيفة ***ستارز أند سترايبس*** عن الظلم في ممارسة الفصل العنصري داخل قوات الجيش، وكان أكثر من مجرد إعلان حماسيّ ضد الذهاب لمُحاربة كوريا الشماليّة الشيوعيّة. وضمنياً كان عمل مُقاومة محسوباً، وصخّاباً، ضد عمليّة ***القنوات الحمراء*** ولم يكن الهدف منه ببساطة تطهير الشيوعيين بل التهديد بإسكات الليبراليين واليساريين اللا شيوعيّين في الإذاعة والتلفزيون.

خلال ذلك الأسبوع الذي قضيناه في الكوخ في شهر آب من عام 1950 لم يكن أيرا يتحدّث فعلياً إلا عن كوريا. وفي كل ليلة تقريباً في أثناء زيارتي الأخيرة، تمدّدتُ مع أيرا على كرسيّي الشاطئ المتهالكين تحيطُ بنا شموع مُعطَّرة من أجل طرد الناموس والبعوض – وسوف يبقى عطر زيت الشموع الليموني يُذكّرني إلى الأبد بزنك تاون – وبينما كنتُ أنظر عالياً إلى النجوم، كان أيرا قد أخبرني قصصاً متنوعة، بعضها جديد، وبعضها قديم، تدور حول عمله في المناجم في سنوات المراهقة، وحول أيام الكساد الاقتصادي وهو أفّاق متشرِّد، وحول مغامراته في أثناء الحرب وهو يعمل حمّالاً في قاعدة الجيش الأمريكي في عبدان على شاطئ شطّ الغرب، النهر الي يفصل بصورة أو بأخرى، بالقرب من الخليج العربي، إيران عن العراق. لم أكنْ قبل ذلك قد عرفت قط أي شخص تتمحور حياته بصِلة حميميّة بالكثير من التاريخ الأمريكي، ومتآلف شخصياً مع الكثير من الجغرافيا الأمريكية، وواجه، مباشرة، الكثير من حياة الفقر في أميركا. لم أكنْ قد عرفتُ شخصاً منهمكاً مثله في لحظته أو شديد التأثُّر بها. أو تُسيطر عليه، وتنتقم منه ويُصبح ضحيّتَها وأداتها. كان مستحيلاً تخيُّل أيرا ***خارج*** لحظته.

في تلك الليالي هناك في الكوخ، تبدَّتْ صورة أميركا التي ورثتُها على هيئة أيرا رينغولد. إنَّ ما كان أيرا يقوله، ذلك الفيض غير الصافي تماماً (أو غير المُكرَّر) من الكره والحب، الذي أثار أشواقاً وطنيّة

منتشية لكي أعرف بصورة مباشرة أميركا التي تقع ما بعد نيوارك، ومضَت أشواق الطفلِ المحلّيّ نفسها التي كانت قد أضاءتْها الحرب داخلي وأنا صبيّ، ومن ثم تعزّزتْ في أوائل عهد المراهقة على أيدي هوارد فاست ونورمن كوروين، وهذا سوف يدوم على امتداد عاماً أو عامَين بفعل روايات توماس وولف وجون دون باسوس. في زيارتي للعام الثاني لأيرا، كان الجو في الليل قد أصبح بارداً ممتعاً فوق تلال سسكس في أواخر الصيف، وكنتُ أغذّي لهب الموقد المتأجِّج بالخشب الذي كنتُ قد قطعته تحت الشمس الحارقة في صباح ذلك اليوم، بينما أيرا جالس، يرشف قهوته من كوبه القديم المُشقَّق ومُرتدياً بنطلونه القصير، وحذائه الرياضي المتهرِّئ الخاص بكرة السلّة، وقميصه الرياضيّ زيتونيّ باهت اللون المتبقّي من أيامه في الجيش – لا يبدو أنّه يُشبه في أي شيء رئيس الكشّافة الأمريكي العظيم، أو فتى الطبيعة الشهير الذي يعبده الفِتية، الذي يستطيع أنْ يعيش بعيداً عن المناطق المأهولة ويُخيف الدِببة ويُبعدها ويحرص على ألا يدع طفلك يغرق في البحيرة – وينتقل إلى الكلام عن كوريا بنبرة احتجاج واشمئزاز من النوع الذي لا تتوقَّع أنْ تسمعه وأنتَ تجلس حول الموقد في أي موقع تخييم آخر في البلد.

لا أُصدِّق أنَّ أي مواطن أمريكي عاديّ الذكاء يمكن أنْ يُصدِّق أنَّ القوات الشيوعيّة الكوريّة الشماليّة سوف تستقل السفن وتقطع ستة آلاف ميل وتحتل الولايات المتحدة. ولكن هذا ما يقوله الناس، يجب أنْ تنتبه من التهديد الشيوعيّ. سوف يحتلون هذا البلد. إنَّ ترومان يستعرض عضلاته أمام الجمهوريين – *هذا* ما يسعى إليه. هذا هو فحوى الأمر كلّه. استعراض عضلاته على حساب الشعب الكوري البريء. سوف نذهب ونقصِف أولاد الحرام أولئك بالقنابل، أتفهم؟ وكل ذلك من أجل دعم

رجُلنا الفاشي المدعو سينغمان ري[56]. الرئيس الرائع ترومان. الجنرال الرائع ماكارثر. الشيوعيون، الشيوعيون. ليس الفاشيّة في هذا البلد، ولا الممارسات الجائرة في هذا البلد. كلا، بل الشيوعيون هم المشكلة! لقد أُعدِمَ خمسة آلاف زنجي في هذا البلد من دون مُحاكمة وحتى الآن لم يُدَن أيٌّ من أولئك المعدومين. فهل هذا ذنب الشيوعيين؟ لقد أُعدِمَ تسعون زنجياً منذ تولّي ترومان منصبه في البيت الأبيض وفي جُعبته الكثير من الحديث عن الحقوق المدنيّة. فهل هذا ذنب الشيوعيين، أم ذنب النائب العام لترومان، السيد الرائع كلارك، الذي لجأ إلى الاضطهاد الشنيع في قاعة محكمة أمريكية لاثني عشرة قياديّ في الحزب الشيوعيّ، وتدمير حياتهم بلا رحمة بسبب مُعتقداتهم، ولكنْ عندما يتعلّق الأمر بالذين أُعدِموا من دون مُحاكمة يرفض أنْ يرفع إصبعاً! فلنشن حرباً على الشيوعيين، فلنُرسِل جنودنا لكي يُقاتلوا الشيوعيين – وأينما تذهب، حول العالم، فإنَّ أول الذين يموتون في الصراع ضد الفاشيّة هم الشيوعيون! وأول الذين يُكافحون لصالح الزنوج، ولصالح العمال...

كنتُ قد سمعتُ ذلك كلّه من قبل، تلك الكلمات حرفياً مراتٍ عديدة، ومع نهاية أسبوع عطلتي لم أطق صبراً على الابتعاد عن مرمى سماعي له والذهاب إلى المنزل. وهذه المرة، لم يكن تأثير نزولي في الكوخ مُشابهاً لنزولي فيه في الصيف الأول. ومن دون أنْ تكون لديه أدنى فكرة عن القتال كان يرى نفسه يُقاتل في الجبهات كلّها، أو من دون شعورٍ بأنَّ استقلاله المتحدّي أصبح مشبوهاً – ومع ذلك تخيّلتُ أنَّ بطلي كان في طريقه إلى أنْ يُثير قتالاً ويفوز فيه في الإذاعة مع رجعيّي نشرة *القنوات الحمراء* – لم أفهم الخوف واليأس، والإحساس المتزايد بالفشل وبالعزلة الذي كان يُغذّي استقامة أيرا الساخطة. لماذا أقوم بما

56- سينغمان ري (1875 – 1965): رجل دولة كوري، وقائد حملة الاستقلال عن اليابان، وأول رئيس لكوريا الجنوبيّة (من 1948 إلى 1960) اضطرته الاضطرابات الشعبية إلى الاستقالة – المترجم.

أقوم به بطريقة سياسيّة؟ إنني أقوم بها لأنني أعتقد أنّه *الصواب*. يجب أنْ أفعل شيئاً، لأنَّه يجب *فعل* شيء ما. ولا يهمّني إنْ لم يعلم بالأمر أحدٌ غيري. إنني أنزعج، يا نيثان، من جبن زملائنا السابقين...

في الصيف السابق، على الرغم من أنني لم أكن قد بلغت السن التي تؤهّلني نيل رُخصة قيادة، علَّمني أيرا كيف أقود سيّارته. وعندما بلغتُ سن السابعة عشرة وتجنّبَ والدي تعليمي، كنتُ متيقّنا من أنني إذا أخبرته أنَّ أيرا رينغولد قد سبقه في ذلك في شهر آب السابق، فسوف تتأذّى مشاعره، لذلك تظاهرتُ مع والدي بأنني لا أعرف ما أفعل وأنَّ تعلُّم القيادة أمرٌ جديدٌ عليّ. كانت سيارة أيرا الشيفروليه 39 سوداء اللون، كوبيه ببابين، وجميلة حقاً. وقد كان أيرا ضخماً إلى درجة أنّه بدا أشبه بمخلوق يعمل في سيرك جالس وراء مقود السيارة، وخلال ذلك الصيف الثاني، عندما جلس بجواري وتركني أقود، شعرتُ كأنني أقود نُصُباً تذكارياً، يكاد يُجنّ من الغضب بسبب الحرب الكوريّة، نُصباً يمثّل معركة *ضد* المعارك.

كانت السيارة تخصُّ جدَّة أحدهم ولم تَسُر أكثر من ألفٍ ومئتيّ ميل عندما أحضرها أيرا في عام 48. مُغيِّر سرعات أرضيّ، وثلاث سرعات إلى الأمام والخلف في أعلى الجهة اليُسرى من الـ H. وفي الأمام مقعدان منفصلان، مع مسافة خلفهما كافية لجلوس طفل صغير بشكل غير مُريح. بلا جهاز راديو، ولا مُسخّن. ومن أجل فتح منافذ التهوية يجب دفع مقبض صغير نحو الأسفل فتصعد الصفائح المرفرفة أمام حاجب الريح عليها ستارة لإبعاد البقّ. وهي فعّالة حقاً. ولا نوافذ لصد الهواء مع مقبض خاص. والمقاعد مُنجدَّة بذلك الزغب الرمادي الشبيه بجلد الفئران الذي كانت تُزوَّد به كل السيارات في تلك الأيام. وعتبات للارتقاء، وصندوق كبير. والدولاب الإضافي مع العتلة توضع تحت اللوح الأرضي في الصندوق. وثمة ما يُشبه المِصبعة المُدبَّبة، وزخرفة

الغطاء العلوي تحتوي رقعة من الزجاج. مع حاجز اصطدام حقيقيّ، كبير مُستدير، والأضواء العليا منفصلة، أشبه بطوربيدين، ويقعان مباشرة خلف مِصبعة الديناميكا الهوائيّة. وماسحتا حاجب الريح تعملان بالهواء المضغوط، بحيث عندما تضغط على الوقود تُبطئ حركة الماسحتين.

أتذكَّرُ منفضة السجائر. في منتصف جهاز القياس، بين الراكبَين: وهي قطعة طويلة وجميلة من البلاستيك، في قعرها مفصل، تبرز باتجاهك. ولكي تصل إلى المُحرِّك، تلوي مقبضاً من الخارج. لا يوجد قفل - ويمكن تخريب المحرك في ثانيتين. وكل جانب من السقف ينفتح بشكلٍ منفصل. ونسيج المقود لم يكن زلقاً ولمّاعاً بل من القماش، والبوق كانَ في المركز فقط. وكان قادح الانطلاق عبارة عن قطعة صغيرة من مداس من المطاط المُستدير مع قطعة من المطاط المموَّج تُحيط بعنقه. والشرّاقة اللازمة من أجل الانطلاق في يوم بارد موجودة إلى اليمين، وثمة شيء يُدعى المِخنق يقع إلى اليسار. وليس لذلك المِخنق أي استخدام مفهوم أستطيع أنْ أفهمه. وعلى حجيرة القفاز توجد ساعة متوقفة تُملأ يدوياً. وغطاء خزّان الوقود يُفتَح إلى الجانب، نحو مؤخّر باب جانب الراكب، يُنزَع كما الغطاء. ومن أجل إقفال السيارة، تضغط الزر الذي على جانب نافذة السائق، ومن ثم تخرج من السيارة، وتشد المقبض الذي يدور نحو الأسفل وتُغلِق الباب. وبتلك الطريقة، إذا كنتَ تفكّر في أمرٍ آخر، فإنكَ تنجح في إدارة المفتاح في قفل السيارة.

في وسعي أنْ أستمر في وصف تلك السيارة لأنها كانت المكان الأول الذي ضاجعتُ فيه. فعندما كنا أنا وأيرا في ذلك الصيف الثاني في الخارج قابلنا ابنة رئيس مركز شرطة زنك تاون، وذات ليلة استعرتُ السيارة من أيرا وأخذتُها لنكون معاً في سينما للسيارات المتوقفة. كان اسمها سالي سبرين. كانت ذات شعر أحمر وتكبرني بسنتين وتعمل في المتجر العمومي ومعروفة محليّاً بلقب السهلة. أخذتُ سالي سبرين إلى خارج نيو جرزي لمشاهدة سينما السيارات المتوقّفة على الطرف

المقابل لديلاوير في بنسلفانيا. وكانت مُكبرات صوت السينما تتدلّى من نافذة السيارة، وكان يُعرَض فيلمٌ لأبوت وكاستيللو. صاخب. وبدأنا نتعانق نتبادل القُبل. لقد كانت **فعلاً** سهلة. والجزء المُضحك مما حصل (إنْ كان في الإمكان البوح فقط بجزء مما هو مُضحك) هو أنَّ سِروالي الداخلي علقَ بقدمي اليُسرى. وقدمي اليُمنى على دواسة البنزين، وهكذا بينما كنتُ أعتليها كنتُ أُغرِقُ مُحرِّك سيارة أيرا. وعندما قذفتُ، كان سروالي الداخلي قد التفَّ بصورة ما حول دوّاسة المكبح وحول كاحلي. كان كاستيللو يزعق، هيه، أبوت! هيه، أبوت! والنوافذ مكسوة بالبخار، والمُحرِّك غارق، ووالدها كان رئيس مركز الشرطة في زنك تاون، وأنا مُثبّتٌ إلى أرضيّة السيارة.

في طريق إيصالها إلى المنزل بالسيارة، لم أدر ماذا أقول أو بماذا أشعر أو أيّة عقوبة أتوقَّع بسبب أخذي لها إلى خارج الولاية لأمارس الجنس معها، ولذلك وجدتني أشرح لها كيف أنَّ لا مصلحة للجنود الأمريكيين في محاربة الكوريين. وحكيتُ لها عن الجنرال ماك آرثر، وكأنّه **هو** والدها.

عندما رجعتُ إلى الكوخ، رفع أيرا بصره عن الكتاب الذي كان يقرأه. أكانت ممتعة؟

لم أدرِ ماذا أقول. لم تكن الفكرة حتى قد تبدَّتْ لي. قلتُ له ***أيّة*** واحدة أخرى كانت ستكون ممتعة، وانفجرنا معاً بالضحك.

في الصباح، اكتشفنا أنني في غمرة نشوتي بالليلة السابقة، أقفلتُ باب السيارة والمفتاح داخلها قبل أنْ ألج الكوخ بعد أنْ فقدتُ عُذريّتي. ضحك أيرا بصخب - ولكن فيما عدا ذلك، في خلال أسبوعي في الكوخ، كان من المستحيل تسليته.

أحياناً كان أيرا يدعو أقرب جيرانه إليه، المُسمّى ريموند سفيتشز، لتناول العشاء معنا. وكان راي أعزب يُقيم على مسافة نحو مائتيّ ميل

على الطريق، على حافّة مقلع مهجور للحجارة، وهو فجوة تبدو شديدة البدائيّة، وضخمة الحجم، مُرعبة، من صُنع الإنسان، كان فراغها الغائر الشبيه بفراغ قعر العالم يُثير الرعب في أوصالي عندما تسقط عليه أشعّة الشمس. وكان راي يعيش هناك وحده في مكان يتألّف من غرفة واحدة كانت قبل ذلك بعقود سقيفة مخزن توضع فيها أدوات التنقيب، وهو مسكنٌ موحِش كأي شيء موحِش رأيته في حياتي. وكان هو سجين حرب في ألمانيا خلال الحرب وعاد إلى الوطن مع ما سمّاه أيرا مشاكل عقليّة. وبعد ذلك بعام، في موقع عمله كحفّار في منجم الزنك – في منجم الزنك الذي كان أيرا نفسه يعمل فيه بالرفش وهو صبيّ – جرح جمجمته في حادث. فعلى عمق أربعمائة قدم تحت سطح الأرض انفصلتْ صخرةٌ بحجم تابوت، زنتها أكثر من ألف رطل، بالقرب من الجدار الذي كان يحفر فيه، وعلى الرغم من أنّها لم تسحقه إلّا أنّها أطاحت به إلى الأرض، بدءاً بوجهه. ونجا راي، لكنّه لم يعُد إلى جوف الأرض من جديد، ومنذ ذلك الحين والأطباء يُرمّمون جمجمته. كان راى بارعاً في استخدام يديه، فأسند إليه أيرا أعمالاً متفرقة يؤديها، كنزع الحشائش الضارة من حديقة الخضروات وريّها في أثناء غيابه، وكان يدفع له نقوداً ليُصلِح بعض الأشياء ويدهنها في الكوخ. وغالباً ما كان ينفحه نقوداً من دون أنْ يقوم بأي عمل، وعندما كان أيرا في المسكن واكتشفَ أنَّ راي لا يأكل بشكلٍ صحيّ، أحضره إليه وأطعمه. وكان راي قليل الكلام، من النوع المُغفّل المقبول؛ ودائماً يومئ برأسه (وقيل إنّه لم يعُد يُشبه الرأس الذي كان له قبل وقوع الحادث)، وفائق التهذيب... وحتى عندما كان يأكل معنا، لم يكن أيرا يتوقف عن التهجُّم على أعدائنا.

كان ينبغي أنْ أتوقّعه. وقد توقّعته **فعلاً**. وتطلّعتُ إلى وقوعه. كان يمكن أنْ أعتقد أنني لن أكتفي منه. لكنني فعلت. كنتُ سأباشر الدراسة في الجامعة في الأسبوع التالي، وكان تثقيفي على يديّ أيرا قد انتهى، انتهى بسرعة لا تُصدّق. وعصر البراءة انتهى أيضاً. لقد دخلتُ الكوخ

الكائن في طريق بيكاس هيل وأنا شخص، وخرجتُ منه شخصاً آخر. وكائناً ما كان اسم القوّة الدافعة الجديدة التي ظهرتْ على السطح، فإنها ظهرتْ من دون استدعاء، وحدها، ولم يكن في الإمكان عكس اتّجاهها. كان الانفصال عن والدي، وتوتُّر عاطفة الابن الذي حثّه افتتاني بأيرا، قد تضاعفَ الآن بخيبة أملي فيه.

حتى عندما أخذني أيرا لمقابلة صديقه المحلّي المُفضّل، هوراس بيكستون - الذي كان يُدير، مع ابنه مارك، محلاً لتحنيط الحيوانات في حظيرة أبقار شبه مُحسَّنة تتألّف من غرفتين مُجاورة لمنزل عائلة بيكستون الريفيّ على درب قذر قريب - وكل ما استطاع أيرا أنْ يتحدّثَ عنه مع هوراس هو كان يُحدّثني عنه من دون توقّف. وفي العام السابق لذبك، ذهبنا إلى هناك وأمضيتُ وقتاً ممتعاً وأنا أُصغي، ليس إلى أيرا في كلامه المتواصل عن كوريا والشيوعيّة، بل إلى هوراس في حديثه عن التحنيط. ولهذا السبب رافقني أيرا، لكي أستمع إلى هوراس في كلامه المتواصل عن التحنيط. يمكنك أنْ تكتب مسرحيّة إذاعيّة، يا نيثان، من بطولة هذا الرجل ويقوم موضوعها على موضوع تحنيط فقط. كان اهتمام أيرا بالتحنيط هو جزء ممّا كان لا يزال يتّصِفُ به من افتتان رجل من الطبقة العاملة، ليس بجمال الطبيعة، بل بتدخُّل الإنسان بالطبيعة، بالطبيعة المُصنّعة وبالطبيعة المُستغلَّة، بطبيعةٍ تَرَكَ الإنسان لمسته عليها، وأرهقها، وشوَّهها، ودمّرها، كما بدأ يبدو في قلب بلد الزنك.

عندما دخلتُ من باب آل بيكستون في تلك المرَّة الأولى، أذهلني تراكم الأغراض بصورة غريبة في الغرفة الأماميّة الصغيرة: جلود مدبوغة مُكوّمة في كل ركن؛ قرون وعول تتدلّى من السقف، مُثبّتة ومُعلّقة من قطع صغيرة من الأسلاك على طول الغرفة جيئة وذهاباً بأعداد كبيرة؛ أسماك مطليّة باللّك ضخمة ممتدّة تتدلّى أيضا من السقف، وأسماك لامعة بأشرعة منشورة، وأسماك لامعة بسيوف طويلة، وسمكة واحدة تحمل وجه قرد؛ ورؤوس حيوانات - صغيرة، متوسطة، وكبيرة،

وكبيرة جداً – وتحتلّ كل شبر وبوصة من الجدار؛ وحشد غفير من البط والإوز والنسور والبوم ينتشر على الأرضيّة، كثير منها بأجنحة ممدودة وكأنها تطير. كانت هناك طيور تدرُج وديوك روميّ بريّة، وطائر بجع، وأيضاً اندسّ بشكلٍ مُختلس بين الطيور، ظربان، ووشق، وذئب قيّوط، وحيوانا قندس. وفي صناديق مُغبرَّة من الزجاج على طول الجدار كانت هناك طيورٌ أصغر حجماً، ويمام وحمام، وتمساح أمريكي صغير وأفاعٍ ملتوية حول نفسها، وسحالٍ، وسلاحف، وأرانب، وسناجب، وقوارض من كل نوع، فئران، وابن عرس، ومخلوقات أخرى صغيرة وقبيحة لا أعرف أسماءها الحقيقيّة ترتاح في لوحات قديمة باهتة للطبيعة. وكان الغبار يكسو كل شيء، الفرو الفضاض، والريش، وجلود الحيوانات، في كل مكان.

هوراس نفسه، الرجل الأكبر سناً بقليل، لم يكن أطول قامة بكثير من طول جناحيّ صقره، والمرتدي رداء العمل وبنطلون ويعتمر قبعة تراكتور من قماش الكاكي، خرج من الخلف لكي يُصافحني، وعندما شاهد تعبير المفاجئة على وجهي، ابتسم مُعتذراً، وقال: نعم، إننا لا نرمي الكثير من الأشياء.

قال أيرا: هوراس، وهو ينظر عميقاً، عميقاً في هذا الشخص الجنّي الذي، كما قال لي أيرا: يصنع بنفسه عصير التفاح واللحم المُدخّن ويعرف كل طائر من تغريده. هذا نيثان، كاتب شاب يدرس في المرحلة الثانويّة. لقد أخبرته بما أخبرتني عن التحنيط الجيد: إنَّ اختبار المُحنِّط البارع هو نْ يخلق وهم الحياة. ويقول إنّه اختبار كاتب بارع، وهكذا أحضرتُه لكي تتبادلوا الحديث.

أبلغني هوراس حسن، إننا نتعامل مع عملنا بجديّة. ونحنّط كل شيء. السمك، الطيور، الثديات. ألعاب الفيديو وبكل الأوضاع، وكل الأنواع.

قال أيرا: وهو يضحك، ويُشير إلى طائر طويل يقفُ على ساقين نحيلتين بدا لي شبيهاً بديك مُخيف، أخبره عن هذا الوحش.

قال هوراس: هذا شبنَمْ[57]. وهو طائر كبير من غينيا الجديدة. لا يطير. وهذا هنا كان في السيرك. كان يُقدِّم استعراضاً جانبياً في سيرك متنقِّل، ثم مات، وفي عام 1938 جلبوه إليّ وحنّطتُه، ولم يحضر أحدٌ من السيرك لأخذه. وهذا ماريه[58]، قال هذا وبدأ يُقدِّم لي عرضاً مختلفاً لعمله اليدويّ. هذا صقر كوبر يطير. وهذه جمجمة جاموس كيب – وهذا يُسمّى الجبل الأوروبي، وهو الجزء الأعلى من الجمجمة مع الفرو هناك...

كنا قد أمضينا نصف ساعة ونحن نتجول في أرجاء غرفة العرض الأماميّة، وعندما انتقلنا إلى غرفة العمل الخلفيّة – الورشة كما سمّاها هوراس – كان هناك فرانك، رجل أصلع في حوالي الأربعين من العمر، نسخة طبق الأصل من والده، جالس على طاولة مُلوّثة بالدم ويسلخ جلد ثعلب بسكين كان فرانك نفسه، كما علِمنا لاحقاً، قد صنعها من شفرة منشار معادن.

شرح هوراس لي قائلاً كما تعلم، الحيوانات المختلفة لها روائح مختلفة. أتشمّ رائحة الثعلب؟

أومأتُ برأسي إيجاباً.

قال هوراس: نعم، هناك رائحة خاصة ترتبط بالثعلب. ليست ممتعة كما يمكن أنْ تكون.

كان فرانك قد أنجز سلخ تقريباً كامل قائم الثعلب الخلفيّ الأيمن وحتى العضل والعظم. قال هوراس: ذلك الحيوان سوف يُعرَض بأكمله. سوف يبدو كأنّه ثعلبٌ حيّ، كان الثعلب، الذي اصطيد حديثاً، ممدَّداً يبدو كأنّه حيّ، وليس نائماً. وجلسنا كلنا حول الطاولة بينما فرانك يُواصل عمله برشاقة. قال هوراس بنبرة الوالد الفخور: إنَّ أصابع فرانك رشيقة جداً. يمكن لكثير من الأشخاص أنْ يُحنّطوا الثعلب والدب والغزال والطيور الكبيرة، لكنَّ ابني يمكنه أنْ يُحنّط الطيور المُغرِّدة، أيضاً. وقال

57- الشبْنَمْ: طائر يُشبه النعامة لكنّه أصغر حجماً منها – المترجم.

58- المارية: البقر الوحشي الإفريقيّ – المترجم.

هوراس: إنَّ أداة فرانك الممتازة المصنوعة يدوياً كانت ملعقة صغيرة للمخ، من أجل الطيور الصغيرة، من النوع الذي لا يمكن أنْ يشترى. وعندما حان وقت مغادرتنا أنا وأيرا، كان فرانك، الأصمّ والأخرس، قد سلخ جلد الثعلب كله حتى بدا أشبه بجثّة حمراء هزيلة بحجم طفل إنسانيّ حديث الولادة.

سأل أيرا هل يأكُل البشرُ لحمَ الثعلب؟

قال هوراس: ليس في المعتاد. ولكن في أثناء فترة الكساد الاقتصاديّ كنا نجرب أشياء كثيرة. كنا جميعاً في بوتقة واحدة، كما تعلم – وفُقِدَ اللحم. كنا نأكل حيوان الأبوسوم، والمرموط، والأرانب.

سأل أيرا أيُّها الأطْيَبْ مذاقاً؟ كلّها كانت طيّبة. كنا دائماً جائعين. وخلال فترة الكساد كنا نأكل كل شيء نستطيع الحصول عليه. أكلنا الغربان.

كيف كان مذاق الغراب؟

في الحقيقة، مشكلة الغرابان هي أنّكَ لا تعرف ما هو عمرها. أحد الغربان كان طعمه كأنه جلد حذاء. وبعضها لا يصلح إلا لصنع الحساء. وكنا مكتبة نأكل السناجب.

كيف يُطبَخ السنجاب؟

في قِدرٍ من حديد الصبّ الأسـود. كانت زوجتي تضعُ فخاخاً للسناجب، وتسلخها، وعندما يُصبح لديها ثلاثة منها تطبخها في القِدر. كان طعمها يُشبه طعم أفخاذ الدجاج.

قال أيرا: يجب أنْ أُحضِر زوجتي إلى هنا، لكي تُعطيها الوصفة.

ضحك هوراس ذات مرة حاولتْ زوجتي أنْ تُطعمني راكوناً. لكنني عرفتُ بالأمر. هي قالت: إنّه دبٌ أسود. كانت طبّاخة ماهرة. توفيتْ في يوم المرموط[59]. قبل سبع سنين.

59- يوم المرموط: في كندا والولايات المتحدة، ويقع في الثاني من شهر شباط (فبراير) – المترجم.

من أين حصلتَ على هذه، هوراس؟ كان أيرا يُشير عبر قبعة هوراس إلى رأس بارز لخنزير برّيّ مُثبّتْ على الجدار، بين رفّين مُثقلَين بأُطُر من الأسلاك وأُطُر من الخيش مُشبَّع بالجص مُدَّت عليه جلود حيوانات رُتِّبَتْ وخيطَتْ معاً لتُشكّل حياة وهميّة. الخنزير البرّي كان في كل شيء وحشاً، بل وحشاً ضخماً، يميل لونه إلى السواد ونحره بُنّي وكتلة من الشعر بين العينين تميل إلى البياض وتغطي فكَّيه، وخطم كبير وأسود وقاسٍ يُشبه حجراً رطباً. فكّاه كانا مفتوحين بشكل مُهدِّد لكي ترى قسوة فجوةِ الفم والأسنان البيضاء المهيبة الشبيهة بالأنياب. وكان للخنزير البرّي سِمة وهم الحياة، بشكلٍ واضح؛ وكذلك كان، حتى ذلك الحين، ثعلب فرانك، الذي لم أُطِقْ رائحته الكريهة.

قال أيرا: الخنزير البري يبدو حقيقيّاً.

أوه، إنّه حقيقيّ. لكنَّ اللسان ليس حقيقيّاً. اللسان زائف. الصيّاد أراد أنْ يُبقي الأسنان الحقيقيّة. في المعتاد نستخدم أسناناً اصطناعيّة، لأنَّ الأصليّة تتشقَّق مع مرور الزمن. تتفتَّتْ وتسقط. لكنّه أراد أسنانه الأصليّة أنْ تبقى في مكانها فأبقينا الحقيقيّة هناك.

كم استغرقَ منك من الوقت، من اليوم الأول؟

حوالي ثلاثة أيام، عشرين ساعة في اليوم.

كم تتوقَّع أنْ تحصل مقابل ذلك الخنزير البرّي؟

سبعين دولاراً.

قال: يبدو لي رخيصاً.

قال له هوراس: أنتَ متعوِّد على أسعار مدينة نيويورك.

أتحصل على كامل الخنزير أم على الرأس فقط؟

في المعتاد تكون الجمجمة موجودة فيه ثم تُقطَع من خلف العُنُق. أحياناً نحصل على دبٍ كامل، دب أسود – وحنّطتُ نمراً.

نمراً؟ أحقاً؟ أنتَ لم تُخبرني بهذا قط. لقد فهمتُ أنَّه على الرغم من أنَّ أيرا كان يستحثُّ هوراس على الكلام لأستزيد من عِلمه ككاتب،

إلا أنّه أيضاً كان يُحبّ أنْ يستجوبه لكي يسمع جوابه عبر صوته الرفيع الشبيه بالتغريد، صوت كأنّه صادر عن مزمار. سأله أيرا أين أطلقتم النار على النمر؟

إنّهُ الرجل الذي يملكها، كأنّها حيوانات داجنة. وقد مات أحدها. وهي قيِّمة، أقصد جلودها، وأراد أنْ يصنع من جلد هذا بساطاً. فاتصل بي، ومدَّه على الطاولة، ثم نقله فرانك بالسيارة وجلبه، كلّه. لأنهم لم يعرفوا كيف يسلخون جلده أو يفعلون أي شيء.

وهل كنت تعرف كيف تحنِّط نمراً، أم كنتَ تستشير كتاباً بهذا الصدد؟

أتقول كتاباً، يا أيرا؟ كلا، أيرا، لا كتاب. بعد أنْ تمارس ذلك لبعض الوقت تستطيع بعدها أنْ تنفّذ الخطوات على أي حيوان.

قال أيرا لي: ألديك أيّ سؤال تريد من هوراس أنْ يُجيب عنه؟ أي شيء تريد أنْ تعرفه ويفيدك في المدرسة؟

لمّا كان يكفيني أنْ أُصغي، وكنتُ في قمّة السعادة، قلت كلا.

سأل أيرا هل كان سلخ جلد ذلك النمر أمراً ممتعاً، يا هوراس؟

نعم. لقد استمتعتُ به. واستأجرتُ شخصاً لكي يُصوِّر فيلماً، فيلماً للعمليّة كلها، وعرضتُه في عيد الشُكر في ذلك العام.

سأل أيرا قبل تناول العشاء أم بعده؟

ابتسم هوراس. على الرغم من أنّني لم أر في مهنة التحنيط أيّة مُفارقة ساخرة، فإنَّ المُحنِّط نفسه كان يتّصف بحسٍّ فكاهيّ أمريكي جيد. حسن، أنت تأكل طوال النهار، أليس كذلك؟ الجميع يتذكّرون يوم الشكر ذاك. إنَّ أفراد عائلةٍ من المُحنطين معتادون على مثل هذه الأشياء، لكنَّ المفاجآت يمكن أنْ تحدث، كما تعلم.

وتواصل الحديث على هذا المنوال، ممتعاً، وهادئاً، يتخَلّله بعض الضحك، وانتهى بإهداء هوراس لي حافر أيل. كان سلوك أيرا رقيقاً طوال الوقت وغير مُضطرب كما لم أره يتصرّف مع أي شخص آخر.

وفيما خلا شعوري بالاشمئزاز من رائحة الثعلب، لم أتذكّر أنني شعرت بأنني لستُ متوتراً وأنا في صحبة أيرا. ولم أره قط بتلك الجديّة بشأنٍ بعيدٍ عن القضايا العالميّة أو عن السياسة الأمريكية أو عن محاولات الجنس البشري الفاشلة. لقد حرّره الحديث عن طبخ الغربان وتحويل نمر إلى بساط وتكاليف تحنيط خنزيرٍ برّي خارج مدينة نيويورك وجعله غير قابل للاستفزاز، وهادئاً، ويكاد لا يُشبه نفسه.

لقد كان في الانهماك الودود لكل من الرجلين في شؤون الآخر شيءٌ ساحر (خاصة مع وجود حيوان جميل تخلَّصَ من نظراته الظريفة تحت أنفيهما) بحيث كان لا بدّ لي من أنْ أتساءل لاحقاً إنْ كان ذلك الشخص الذي لم يُضطر إلى أنْ يُستفَزّ ويمر بكل ذلك الانفعال الخاص بأيرا من أجل إجراء حديث ربما ليس أيرا الحقيقيّ، الخفيّ، والهامد، والآخر، الراديكاليّ الحانق، هو تجسيد، تقليدٌ لشيءٍ ما، كتجسيده لشخصيّة لينكولن أو كلسان الخنزير البرّي. لقد أوحى احترام أيرا وولعه بهوراس بيكستون، حتى لي، الفتى، بأنَّ هناك عالماً بسيطاً من الناس البسطاء والأشياء المُشبِعة البسيطة التي ربما انجرفَ أيرا إليها، حيث كل اشواقه المرتعشة، وحيث كل ما يتسلّح به (وأساء تسليحه) لمواجهة انقضاض المجتمع ربما أُعيد صُنعه وحتى تهدئته. وربما مع ابنٍ كفرانك يملك أصابع رشيقة يفخر بها وزوجة تعرفُ كيف تصطاد سنجاباً وتطبخه، وربما حُسن استخدام هذه الأشياء المتوفّرة، وصُنع عصير التفّاح بنفسه وتدخين اللحم بتنفسه وارتداء زيّ العمل واعتمار قبعة تراكتور من الكاكي والإصغاء إلى تغريد الطيور المُغرِّدة... ولكنّ أيضاً، ربما لا. ربما أنْ تكون، مثل هوراس، بلا عدوّ كبير كان يمكن للحياة أنْ تكون بالنسبة إلى أيرا حتى معقولة أكثر مما كانت حتى ذلك الحين.

في العام التالي خرجنا لزيارة هوراس، لم يتخلّل الحديث أيّ ضحك وكان الكلام كلّه من نصيب أيرا.

كان فرانك يسلخ رأس أيل – قال هوراس: إنَّ فرانك يستطيع أنْ يعمل

على رأس الأيل وعيناه مُغمضتان - بينما هوراس جالس محنيّ الظهر على الطرف المقابل من طاولة العمل - ويُعدّ الجماجم. كانت أمامه جُملة من الجماجم الصغيرة يُرمّمها بالأسلاك والغراء. لقد أراد بعض أساتذة العلوم في إحدى مدارس إيستون مجموعة من جماجم ثديات صغيرة، وكانوا يعلمون أنَّه ربما لدى هوراس ما أرادوا لأنه، كما أخبرني، وهو يُكشِّر في العِظام الصغيرة، الهشّة، أمامه، أنا لا أرمي أيَّ شيء.

كان أيرا يقول هوراس، أيُعقل أنَّ يُصدِّق أي مواطن أمريكي أخرق أنَّ القوات الشيوعيّة الكوريّة الشماليّة سوف تستقلّ السفن وتقطع ستة آلاف ميل وتحتلّ الولايات المتّحدة؟ أتصدِّق هذا؟

ومن دون أنْ يرفع بصره عن جمجمةٍ لفأر المسك الذي كان يُثبِّت أسنانه الرخوة على الفك بالغراء. هزَّ هوراس رأسه نفياً ببطء.

أخبره أيرا ولكن هذا بالضبط ما يقوله الناس: عليك أنْ تأخذ حذرك من التهديد الشيوعيّ - سوف يحتلون البلد. إنَّ ذلك الرجل ترومان يستعرض عضلاته أمام الجمهوريين - هذا ما يسعى إليه. هذا هو فحوى الأمر كلّه. استعراض عضلاته على حِساب الكوريين البريئين. سوف نذهب إلى هناك وكل شيء من أجل دعم ذلك الفاشيّ ابن الحرام سينغمان ري. سوف نقصِف أولاد الحرام أولئك بالقنابل، أتفهم؟ رئيس الجمهورية الرائع ترومان. والجنرال ماك آرثر الرائع...

ولما طفح كيلي ولم يعُد في وسعي تحمّل ملل سماع تلك الخطبة الطنّانة التي لا تنتهي وكانت نص أيرا الأول، فكّرتُ، باشمئزاز، في نفسي إنَّ فرانك لا يعلم كم هو محظوظ لأنّه أصمّ. وإنَّ فأر المسك ذاك لا يعلم كم هو محظوظ لأنّه ميّت. وإنَّ الأيل... إلى آخره إلى آخره.

الأمر نفسه حصل - سينغمان ري، ورئيس الجمهورية الرائع، والجنرال الرائع ماك آرثر - عندما مررنا بركام الحجارة على الطريق العامة ذات صباح لنُسلِّم على تومي ميناريك، وهو عامل منجم متقاعد،

سلوفاكي ضخم الجثّة، ودود، كان يعمل في المنجم عندما وصل أيرا للمرة الأولى إلى زنك تاون في عام 1929 وشعر باهتمامٍ أبويّ بأيرا في ذلك الوقت. الآن يعمل تومي لصالح البلدة، ويعتني بركام الحجارة - الشيء الوحيد الذي يجذب السيّاح - حيث تخرج العائلات أحياناً مع الأطفال، بمرافقة بعض جامعي معادن جدّيين، ليتصيّدوا خلال الركام الشاسع بحثاً عن قطع من الصخور ليأخذوها معهم إلى المنزل ويُعرّضونها للأشعة فوق البنفسجيّة. وتحت الأشعة، كما يشرح تومي لي، تشعّ المعادن - أي، تتوهّج، بالحُمرة المُشعّة، بألوان البرتقاليّ، والأرجوانيّ، والخردل، والأزرق، والقشدة، والأخضر: بعضها تبدو كأنها مصنوعة من المخمل الأسود.

جلس تومي على صخرة كبيرة مُسطّحة عند مدخل الركام، مكشوف الرأس في أحوال الطقس كلها، وهو العجوز الوسيم صاحب الوجه لعريض، المربّع، والشعر الأبيض، والعينين بلون البندق، وأسنانه الكاملة. كان يتلقّى من البالغين ربع دولار للدخول، وعلى الرغم من أنَّ بلدية المدينة طلبتْ منه أنْ أُحصِّل رسماً مقداره قرش من كل طفل، إلا أنّه كان يسمح للأطفال بالدخول مجّاناً. قال لي تومي: إنَّ الناس يأتون من أصقاع العالم ليدخلوا إلى هناك. بعضهم يأتون طوال العام في أيام السبت والأحد، وحتى في الشتاء. إنني أضرمُ ناراً من أجل بعض الناس وينفحونني بعض الدولارات في المقابل. إنهم يأتون في أيام السبت أو الأحد، مهما كانت حالة الطقس.

على قمّة سيارة تومي المتهالكة، المتوقفة مباشرة بجوار الصخرة الكبيرة المُسطّحة حيث جلس تومي، وضع عيّنات من المعادن مُنتقاة من المجموعة التي في قبوه الخاص مفروشة على منشفة من أجل البيع، عيّنات رقيقة تُباع بأسعار تصل حتى خمسة دولارات أو ستة، مرطمانات مخلّل مملوءة بعيّنات أصغر حجماً بسعر دولار ونصف، وأكياس صغيرة من الورق البُنّي مملوءة بقطع صغيرة من الصخور، تُباع بخمسين

سنتاً. وكان يحتفظ بالمواد التي تساوي خمسة عشر، وعشرين، وخمسة وعشرين دولاراً في صندوق السيارة.

قال لي: في الخلف، لديّ أشياء قيِّمة أكثر. ولا أستطيع أنْ أعرضها هنا. أحياناً أعبر الشارع إلى ورشة غاري الميكانيكيّة لكي أستعمل المرحاض أو أي شيء، وأترك الأشياء هنا... في الخريف الفائت كان لديّ عيّنتان، في الخلف، وضع شخصٌ شيئاً داكناً عليها، وأخذ ينظر مُستخدماً مصباحاً، وكانت لديّ عينتان بسعر خمسين دولاراً ونصف في السيارة واشتراهما معاً.

في العام السابق، جلستُ وحدى مع تومي خارج ركام الصخور، أراقبه وهو يتعامل مع سيّاح وجامعي أشياء وأُصغي إلى حديثه (ولاحقاً كتبتُ مسرحيّة للإذاعة تدور حول ما حدث في صباح ذلك اليوم وعنوانها *عامل المنجم العجوز*). كان ذلك في صباح اليوم الذي تلا مجيئه لكي يُشاركنا تناول عشاءٍ من السجق في الكوخ. وعندما أزور أيرا في الكوخ كان ينفرد بي، يُثقِّفني، طوال الوقت، ويحضر تومي بوصفِهِ مُحاضِراً زائراً، لكي يُلقي عليّ الحقائق المُجرَّدة حول مُصيبة عامل المنجم قبل تشكيل النقابة.

أخبرْ نيثان عن والدك، توم. أخبره عمّا حدث لوالدك.

توفيَ والدي جرّاء عمله في المنجم. كان هو ورجل آخر قد ولجا مكاناً يعمل فيه رجلان آخران يومياً، في حفرة عالية، لولبيّة. في ذلك اليوم لم يظهرا كليهما. كان الموقع عالياً، يعلو حوالي المائة قدم. وكان الرِّيس قد أرسل أبي وشخصاً آخر إلى هناك، وهو شاب قوي البُنية – بالغ الوسامة! وذهبتُ إلى المستشفى ووجدتُ أنّه ليس في سريره، وكان والدي مُمدَّداً، ولا يأتِ بأيّة حركة. لم أره يتحرك. وفي اليوم التالي دخلتُ، كان الرجل الآخر يتحدث مع شخص آخر، ويمزح، ولم يكن حتى في السرير. وكان والدي في السرير.

وُلِدَ تومي في عام 1880 وبدأ العمل في المناجم في عام 1902، قال

لي: في الرابع والعشرين من شهر أيار عام 1902. أي في الوقت الذي كان توماس إديسون هنا، المُخترِع الشهير، يقوم بتجاربه. وعلى الرغم من أنَّ تومي، بعد قضاء سنوات عمره في المناجم، كان ضخم الجثّة، ونموذج الإنسان القويم ولا يبدو عليه أنَّه في السبعين، اعترفَ بأنّه لم يعُد حذراً كما كان ذات يوم، وكلما ارتبك قليلاً أو توقَّف عن سرد قصّته، حثّه أيرا من جديد. أخبرنا تومي لم أعُد سريع البديهة. يجب أنْ أعود بذاكرتي إلى بداية دراستي، في الواقع، حتى أتذكّر ما نسيت. وأقع عليه في موقع ما. إنني ما أزال يقظاً، لكنني لم أعُد بارعاً كما كنتُ.

سأل أيرا تومي ماذا كانت الحادثة؟ ماذا حدث لوالدك؟ أخبر نيثان بما حدث له.

لقد تعطّلتْ المحطة. في الواقع كنا ندعم تلك الحفرة التي مساحتها أربعة بأربعة بكتل من الخشب بدرجة معيَّنة - كنا نضع كتلة في الخلف، ونُضطر إلى نزعها بمعول لكي نجعلها مائلة، ثم أُقحِم هذه وأقطعها بشكل زاوية. واحدة في الواجهة وواحدة هنا. ومن ثم وضعنا لوحاً بسُمك بوصتين هناك.

قاطعه أيرا في محاولة لحثّهِ على المتابعة، إلى الكلام المُفيد. فماذا حدث؟ أخبره كيف مات والدك.

وانهار كل شيء. الاهتزاز دمّره. انهارت الآلة وكل شيء، عن علو مائة قدم. ولم يبرأ أبداً. لقد كُسِرَت عِظامه كلها. ومات بعد ذلك بعام. كان لدينا مِدفأة من الطراز القديم، وكان يضع قدميه فيها، محاولاً أنْ يُبقيهما دافئتين. لم يكن يشعر بأي دفءٍ فيهما.

هل كان العمّال يحصلون على أيّ تعويض؟ أنت اسأله، يا نيثان، اطرح الأسئلة. هذا ما يفعله المرء عندما يُريد أنْ يكون كاتباً. لا تخجل. اسأل تومي إنْ كان قد حصل على تعويض العامل.

لكنني كنتُ حيّاً **فعلاً**. ها هنا، عامل منجم حقيقيّ، استمرَّ في العمل في مناجم الزنك طوال ثلاثين عاماً، يُشاركني أكل السجق. وما كنتُ

لأكون أقلّ حياءً لو أنَّ تومي ميناريك كان ألبرت أينشتاين. سألتُ هل أعطوك؟

قال تومي بمرارة: يُعطون أيَّ شيء؟ الشركة؟ لم يُعطوه بنساً واحداً. كانت الشركة هي سبب المشكلة والرؤساء كانوا سبب المشكلة. الرؤساء هناك لم يأبهوا لِما يحدث في شركتهم. أتفهم ما أعني؟ أعني منطقتهم التي يعملون فيها طوال النهار. كما أفعل أنا، لو أنني ريِّس هناك، لأجريتُ فحصاً على تلك الألواح الخشبيّة التي تدعم الحفر التي يعمل فيها أولئك الرجال. لا أعلم كم عُمق تلك الحفر، لكنَّ بعض الأشخاص يُقتَلون هناك، في أثناء مسيرهم على تلك الألواح، واللوح انكسر. تعفّنَ. إنهم لم يأبهوا بهم بحيث يُجرون فحصاً على الألواح. لم يفعلوا أبداً.

سألتُه ألمْ يكن لديكم نقابة حينئذٍ؟

لم تكن لدينا نقابة. ولم يحصل والدي على بنس واحد.

حاولتُ أنْ أفكّر في أي شيء آخر أريد أنْ أعرفه بوصفي كاتباً. سألتُه ألم يكن لديكم اتّحاد لعمّال المناجم هنا؟

أصبح لدينا لاحقاً. كنا في حقبة الأربعينيات. وكان الأوان قد فات حينئذٍ. قال هذا مع نبرة حنق في صوته. كان قد توفي، وكنتُ قد تقاعدتُ - وعلى أيّة حال ما كانت النقابة لتفيدنا في أي شيء. كيف يمكنها ذلك؟ كان لدينا زعيم واحد، رئيسنا المحلّي - كان طيباً، ولكن ماذا في وسعه أنْ يفعل؟ ليس في الإمكان فعل أيّ شيء مع سُلطة كتلك. اسمع، قبل سنوات كان لدينا رجل حاولَ أنْ يُنظِّمنا. ذلك الشخص ذهب إلى النبع القريب لإحضار ماء إلى منزله. ولم يعُد. لم يسمع أحدٌ عنه أي شيء بعد ذلك. لقد حاول أنْ يُنظِّم النقابة.

اسأل عن الشركة، يا نيثان.

قال تومي: في مخزن الشركة، رأيتُ أناساً يحصلون على انزلاق أبيض.

أخبره، يا توم، ما هو الانزلاق الأبيض.

أي أنهم لم يحصلوا على أي شيء. استولى مخزن الشركة على نقوده كلّها. إنّه انزلاق أبيض. لقد رأيته.

سأله أيرا هل يحصل المُلّاك على الكثير من النقود؟

رئيس شركة الزنك، الرجل الأول، كان لديه قصر منيف هنا، قائم فوق تلٍ وحده. منزل ضخم هناك. وسمعتُ أحد أصدقائه يقول، بعد أنْ توفي، إنه كان لديه تسعة ملايين ونصف المليون من الدولارات. هذه كانت حصيلة ما يمتك.

سألتُه وماذا كنتَ تحصل مقابل عملك؟

على اثنين وثلاثين سنتاً في الساعة. كان أوّل عملٍ لي في غرفة المرجل. وكنتُ قد تجاوزت العشرين من العمر. ثمّ هبطتُ أسفل المناجم. وأعلى أجر حصلتُ عليه كان تسعين سنتاً لأنني كنتُ أشبه بريِّس. كرئيس عمّال. بعد الرئيس مباشرة في المرتبة. كنتُ أقوم بعمل كل شيء.

والمعاشات التقاعديّة؟

لا شيء. صهري حصل على معاشٍ تقاعديّ. حصل على ثمانية دولارات. بعد فترة عمل امتدت إلى أكثر من ثلاثين عاماً. ثمانية دولارات في الشهر، هذا كل ما حصل عليه. أنا لم أحصل على أيّ معاش تقاعديّ.

أخبرْ نيثان كيف كنتم تأكلون هناك.

كان علينا أنْ نأكل تحت الأرض.

سأل أيرا كلّكم؟

الرؤساء وحدهم كانوا يرتقون إلى أعلى عند الساعة الثانية عشرة ويأكلون في غرفهم الخاصّة. أمّا بقيّتنا فتحت الأرض.

في صباح اليوم التالي، أوصلني أيرا بالسيارة إلى ركام الصخور لكي أُجالس تومي هناك وأتعلَّمَ منه وحدي قدر ما أستطيع عن العواقب الشريرة لدافع الربح كما يجري في زنك تاون. ها هو صاحبي، يا توم. إنَّ توم رجلٌ صالح ومُدرِّس جيد، يا نيثان.

قال تومي: أحاول أنْ أكون الأفضل.

لقد كان أستاذي في المناجم. أليس كذلك، يا توم؟

هذا ما كنتُ، يا جيل.

خاطبَ تومي أيرا بجيل. وعندما سألتُ عن ذلك على مائدة الإفطار في صباح ذلك اليوم، ضحك أيرا وقال: بهذا كانوا يُخاطبونني هناك. جيل. ولا أعلم حقاً السبب. لقد خاطبني أحدهم بهذا الاسم ذات يوم، والتصقَ بي. المكسيكيون، والروس، والسلوفاك، كلّهم خاطبوني بجيل.

في عام 1977، علِمتُ من مري أنَّ أيرا لم يكن يُخبرني الحقيقة. لقد أطلقوا عليه اسم جيل لأنه في زنك تاون كان يُسمّي نفسه جيل. جيل ستيفنس.

لقد علَّمتُ جيل كيف يضع المتفجّرات عندما كان صغيراً. لكنني كنتُ أُدير العمليّة، كنتُ الذي أقوم بالحفر وكل شيء. وعلَّمتُ جيل هذا كيف يحفر الثقوب، وفي كلٍ منها يوضع إصبع ديناميت، ويوضع معه سلك الدارة.

أنا ذاهب، يا توم. سوف أُحضِره إلى هنا لاحقاً. أخبره عن المتفجّرات. ثقّف ابن المدينة هذا، يا سيد ميناريك، أخبرْ نيثان عن رائحة المتفجرات وماذا تفعل في أحشاء المرء.

انطلقَ أيرا بالسيارة، وقال تومي: الرائحة؟ يجب أنْ تتعوّد عليها. لقد تعوّدتُ عليها، وهي كريهة. كنتُ أنظّفُ عموداً قذراً، ليس عموداً، بل مدخلاً، مساحته أربعة بأربعة. ثم نثقبه ونفجّره، ونسكبُ ماءً عليه طوال الليل، على تلك القذارة، كنا نسمّيه قذارة، وفي اليوم التالي تنبعثُ منه رائحة فظيعة. لقد نلت نصيبي من تلك الرائحة الكريهة. وانزعجتُ منه فترة من الزمن. ومرضتُ. ليس بالسوء الذي حدث لبعض الرجال، لكنني مرضتُ.

كان الوقت صيفاً، وعند الساعة التاسعة صباحاً يكون الحرّ قد بدأ، ولكن في الخارج عند ركام الحجارة القبيح، ووجود ورشة المنشآت

الميكانيكيّة على الطرف المقابل من الشارع العام حيث لديهم المرحاض غير النظيف الذي يستخدمه تومي، كانت السماء زرقاء وجميلة، وسرعان ما بدأتْ العائلات تتوافد وتركن سياراتها لتقوم بالزيارة. وأخرجَ أحد الأشخاص رأسه من نافذة السيارة وسألني أهذا هو المكان الذي يدخله الأطفال وينتقون منه حجارة وأشياء أخرى؟

قلت نعم، نعم.

سأله تومي أحضرتَ أطفالاً إلى هنا؟

أشار بيده إلى طفلين في المقعد الخلفيّ.

قال تومي: من هنا، يا سيّدي. ادخلوا وتفرّجوا. ولدى خروجكم، تجدون هنا حقيبة بنصف دولار من أجل عامل المنجم الذي حفرها طوال ثلاثين عاماً، فيها صخور خاصّة من أجل الأطفال.

وصلت سيدة متقدّمة في السن بسيارة ممتلئة بالأطفال، أحفادها في الغالب، وعندما ترجّلتْ، حيّاها تومي بأدب. سيدتي، عندما تخرجين، وتريدين ملء حقيبة جميلة من الصخور من أجل الصِغار من عامل منجم حفرها على مدى ثلاثين عاماً، توقفي هنا. الحقيبة بخمسين سِنتاً. صخور خاصّة من أجل الأطفال. إنّها تشع بصورة جميلة.

قلت لها، منخرطاً في بهجة الأشياء – منخرطاً في *مُتع* الدافع الربحيّ كما تحدث في زنك تاون – إنَّ لديه أشياء جيدة، أيّتها السيدة.

قال لها: أنا الوحيد الذي يصنع هذه الحقائب. هذه الحقائب أُخِذَتْ من المنجم الجيد. والأخرى مختلفة تماماً. أنا لا أضع أيّة خردة فيها. هنا يوجد النوع ***الأصليّ***. إذا نظرتِ إليها تحت الضوء، فسوف تستمتعين بما ستشاهدين. هناك قِطعٌ لا تجدينها إلا في هذا المنجم، دون أي مكان آخر في العالم.

قالتْ لتومي: أنت تقفُ تحت أشعة الشمس من دون قبعة. ألا تشعر بالحرّ وأنت جالس هكذا؟

قال لها: إنني أقوم بهذا العمل منذ سنين. أترين تلك التي على سيارتي؟ تلك الألوان المختلفة المُشعّة. إنها تبدو قبيحة لكنّها جميلة عند تسليط الضوء عليها، إنَّها تحتوي أشياء مختلفة. إنَّ فيها الكثير من الأشياء المختلطة.

قلت إنَّ هذا الزلمة - قلتُ زلمة وليس الشخص - على معرفة عميقة بالصخور. لقد عمل طوال ثلاثين عاماً في المناجم.

ثم اقترب زوج بسيارتهما، بدا أنّهما من سكان المدينة وليسا كباقي السيّاح. وحالما ترجلا من السيارة، بدأا يتفحّصان عيّنات تومي الأغلى سِعراً على قمّة السيارة ويتشاوران بهدوء. همس تومي لي، إنهما يُريدان صخوري في أسوأ الأحوال. لدي مجموعة منها، لن يلمسها أحد. وهذه التي هنا هي الترسبات المعدنيّة الأشدّ روعة على الكوكب - ولديّ الأفضل منها.

هنا قلت هذا الرجل لديه الأفضل. لقد أمضى ثلاثين عاماً في المناجِم. ولديه هنا حجارة جميلة. حجارة جميلة. واشتريا أربع قطع، بسعر إجماليّ مقداره خمسة وخمسون دولاراً، وقلتُ في نفسي، إنني أمدّ يد المُساعدة. إنني أُساعدُ عامل منجم حقيقيّ.

قلت في أثناء عودتهما مع بضاعتهما إلى سيارتهما إذا رغبتما من جديد في المزيد من المعادن تعالا إلى هنا. هذه التي هنا توجد فيه أشد ترسّبات المعادن روعة على الكوكب.

كنتُ أقضي وقتاً ممتعاً بذلك إلى أنْ وصل براوني، عند قُرابة الظهيرة، وانفضحتْ السِمة المجّانيّة السخيفة للدور الذي كنتُ أؤدّيه بحماسة شديدة حتى في نظري.

براوني - لويد براون - كان قبل عامين أكبر سناً مني، وهو فتى نحيل، حليق شعر الرأس بشكل قصير جداً، وذو أنف حادّ، وشاحب لون الوجه ويبدو مُسالماً في المُطلق، خاصة وهو يضعُ مئزرَ صاحب الدكّان الأبيض الذي كان يرتديه فوق قميص أبيض نظيف مع ربطة

عنق سوداء وبنطلون جديد من الخيش. ولأنَّ صِلته بنفسه كانت بسيطة بشفافية، كان حُزنه لمرآي مع تومي بادٍ عليه كلّه ويُثير الرثاء. وبالمقارنة مع براوني، شعرتُ كأنني فتى يعيش حياة فائقة الثراء والهياج، حتى بالاكتفاء بالجلوس بهدوء بجوار تومي ميناريك؛ هكذا كنتُ ***حقاً*** بالمقارنة مع براوني.

ولكن إنْ كان في طبيعتي المُعقَّدة شيءٌ سخر منه، فإنَّ شيئاً في بساطته سخر مني. لقد حوّلتُ كلَّ شيءٍ إلى مغامرة، متطلّعاً دائماً إلى أنْ أتغيَّر، بينما براوني لم يعِش إلا مع إحساس بالضرورة الشاقّة، وتشكّل وتروَّض بقسوة لكي لا يتمكّن إلا من أداء دور نفسه. كان مُجرَّداً من أيّ توق لم يتولَّد في زنك تاون. كانت الأفكار الوحيدة التي أراد أنْ يحتفظ بها هي الأفكار التي تجول في رأس كل شخص آخر في زنك تاون. أراد حياةً تتكرّر، وتتكرّر، وتتكرّر، وأردتُ أنا أنْ أنطلق. شعرتُ كأنني مخلوق غريب يريد أنْ يكون شيئاً آخر لا يُشبه براوني – ربما للمرة الأولى ولكن ليس الأخيرة. ما هو شعورك عندما يختفي شغف الانطلاق من حياتك؟ كيف تشعر عندما تكون نسخة من براوني؟ أليس هذا هو الافتتان بالناس حقاً؟ ***كيف تشعر وأنتَ مثلهم؟***

أنت منشغل، يا توم؟ يمكنني أنْ أعود في الغد؟

قال تومي للصبي: ابقَ هنا. اجلس، يا براوني.

قال براوني لي: بتبرير مُراعٍ لي إنني آتي إلى هنا في كل يوم خلال ساعة تناول الغداء وأتحدث معه عن الصخور.

اجلس، براوني، يا بنيّ. أرني ماذا في جعبتك؟

وضع براوني حقيبة كتب مدرسيّة قديمة متهرّئة عند قدميّ تومي، وبدأ يُخرِجُ منها عيّنات الحجارة بالحجم الذي كان تومي يعرضه على قمّة سيّارته.

سألَ براوني إنها معدن الولميت، أليس كذلك؟

سألَ رأيتُ أنّه معدن ولميت غريب الشكل. وهذه؟ أليست معدن الهندريكسايت؟

نعم. هناك القليل من الولمايت. ويحتوي أيضاً كالسايد.

سأله براوني أتعطني خمسة دولارات؟ أهو كثير؟

قال تومي: قد يرغب فيها أحدهم.

سألتُ براوني وأنت أيضاً تعمل في هذا المجال؟

هذه كانت مجموعة والدي. كان في المصنع. وقُتِلَ. وأنا أبيعها لكي أتزوج.

قال لي تومي: فتاة جميلة. وظريفة. كالدمية. سلوفاكيّة. من آل مسكو. لطيفة، وصادقة، ونقيّة وذكيّة. لم يعُد هناك فتيات مثلها. سوف يُقيم مع ميري مسكو طوال حياته. قلتُ لبراوني، عاملها معاملة طيبة، وسوف تُعاملك بالمثل. كان لديّ زوجة مثلها. سلوفاكيّة. أفضل امرأة في العالم. لا يمكن لأيّة امرأة ي العالم أنْ تحلَّ محلّها.

حمل براوني عيِّنة أخرى. أتحتوي هذه على البوستامايت؟

هذه بوستامايت.

تحتوي على قليل من بلورات الولمايت.

نعم. هناك القليل من بلورات الولمايت.

استمر هذا العرض إلى نحو الساعة، إلى أنْ بدأ براوني يجمع عيّناته إلى الحقيبة المدرسيّة استعداداً للعودة إلى مخزن البقالة الذي يعمل فيه.

قال لي تومي: سوف يحلّ محلّي في زنك تاون.

قال براوني: أوه، لا أعلم. ليست لديّ المعرفة التي لديك.

ومع ذلك يجب أنْ تفعل. فجأة أصبح صوت تومي مُتّقداً، كاد يكون متوجِّعاً، عندما تكلَّم. أريد من شابٍ من زنك تاون أنْ يحلّ محلّي هنا. أريد شاباً من زنك تاون! لهذا السبب أُعلِّمكَ هنا قدر استطاعتي. لكي تُنجِزَ شيئاً. وأنتَ المُرشَّح لهذا. شخص من زنك تاون. لا أريد أنْ أُعلِّم أيَّ شخصٍ آخر، من خارج البلدة.

قبل ثلاث سنوات بدأتُ أترَدَّدُ إلى هنا في موعد الغداء. لم أكنْ أعرفُ أيَّ شيء. وهو علَّمني الكثير. صح، يا تومي؟ لقد أبليت بلاءً حسناً هذا اليوم، ثم قال براوني لي: يستطيع تومي أنْ يُخبرك بموقع المنجم. المنجم الذي استُخرِجَتْ منه. ما مستواه، ما عمقه. يقول يجب أنْ تحمل الحجر بيدك. صحّ؟

صحّ. يجب أنْ تحمل الحجر بيدك. يجب أنْ تُحسن التعامُل مع هذا المعدن. يجب أنْ تعرف المنشأ المُختلف لكلٍ منها. فإذا لم تتعلَّم هذا، فلن تعرِف معادن زنك تاون. يل إنّه يعرف الآن، يعرف إنْ كان هذا من المنجم الآخر أم من هذا.

قال براوني: لقد علَّمني هذا. في البدء لم يكن في استطاعتي أنْ أعلم من أي منجم استُخرِجتْ. الآن أستطيع.

قلت إذن سوف تجلس هنا ذات يوم.

آمل ذلك. هذه التي هنا، هذه من هذا المنجم، صحّ، توم؟ وهذه من هذا أيضاً؟

لأنني كنتُ في غضون عام سوف أذهب في منحة دراسية إلى جامعة شيكاغو، وبعد شيكاغو، سوف أُصبحُ نظير نورمان كوزْوين في جيلي، ولأنني سوف أذهب إلى كل مكان وبراوني لن يذهب إلى أي مكان - ولكن فوق كل شيء لأنَّ والد براوني قُتِلَ في المصنع ووالدي كان حيّاً وبتمام العافية ويقلق بشأني في نيوارك - تكلَّمتُ بحماسة أشدّ مما فعل تومي مع مُساعد محل البقالة ذي المئزر هذا الذي كان مطمحه في الحياة أنْ يتزوج من ميري مسكو ويشغل مكان تومي. قلت هيه، أنت بارع! هذا جيد!

قال توم: ولماذا؟ لأنّه تعلَّمَ في هذا المكان.

قال لي براوني متفاخراً: لقد تعلَّمتُ على يد هذا الرجل.

أريد له أنْ يكون التالي الذي يحلّ محلّي.

قال براوني: ها قد جاء بعض الزبائن – يا توم. يجب أنْ أُسرِعْ، ثم قال لي: أسعدني التعرُّف *عليك*.

أجبتُ، وكأنني كنتُ الأكبر سناً وهو الطفل. قلت عندما أعود بعد عشر سنين، سوف أراك جالساً هنا.

قال توم: أوه، سوف يكون هنا، حتماً.

ردّ براوني هاتفاً، وهو يضحك للمرة الأولى من قلبه وينهض واقفاً مندفعاً إلى الشارع، كلا، كلا. سوف يكون تومي ما زال هنا. أليس كذلك، يا توم؟

سوف نرى.

في الحقيقة، إنَّ أيرا هو الذي كان موجوداً هناك بعد ذلك بعشر سنين. لقد علَّم تومي أيرا أيضاً، بعد أنْ وُضِعَ اسم أيرا على اللائحة السوداء ومُنِعَ من العمل في الإذاعة وعاش وحده في كوخ وبات في حاجة إلى مصدر عيش. حينئذٍ مات أيرا. عندها انفجر شريانه الأورطيّ بينما كان جالساً على ركام تومي الحجري يبيع عيّنات معدنيّة للسيّاح ولأولادهم، ويقول لهم سيدتي، نصف دولار مقابل كيس كبير مملوء بها عندما يخرج أولادك من السيارة، إنها صخور خاصّة استُخرِجَتْ تواً من المنجم الذي عملتُ فيه طوال ثلاثين عاماً.

هكذا ختمَ أيرا أيامه – كمُشرِف على ركام الحجارة الذي يُطلِق عليه كل أقرانه من العجائز المحليين اسم جيل، حتى وهو هناك في الشتاء، يُشعل النار من أجل أشخاص معيَّنين مقابل بضعة دولارات. لكنني لم أعلم بهذا إلا في الليلة التي أخبرني مري قصة أيرا هناك على طاولة مكتبي.

***

في اليوم السابق لمغادرتي في ذلك الصيف الثاني، جاء آرتي سوكولو مع عائلته بالسيارة إلى زنك تاون قادمين من نيويورك لكي يُمضوا فترة ما بعد الظهيرة مع أيرا. وكانت إيلّا سوكولو، زوجة آرتي، حاملاً في حوالي شهرها السابع، امرأةً مرحة، حالكة الشَعر، يكسو النمش وجهها، كان

والدها المُهاجِر الايرلنديّ، كما أخبرني أيرا، يُصلِح الأنابيب البخاريّة في ألباني، وكان أحد أولئك النقابيين الكِبار، المثاليين، الوطنيين قلباً وقالباً. ضحكت إيلّا وهي تشرح بعد ظهيرة ذلك اليوم كلما سمع العجوز النشيد الوطني الفرنسيّ وراية النجم المعقوف والنشيد الوطني الروسيّ، كان ينهضُ واقفاً احتراماً لها.

كان لسوكولو صبيّان توأم في السادسة من العمر، وعلى الرغم من أنَّ النزهة بدأتْ سعيدة بما يكفي للعب مباراة في كرة القدم اللمسيّة – أدارها بأناقة جار أيرا، راي سفيتش – وتبع ذلك نزهة مع غداء جلبته إيلّا معها من المدينة واشتركنا جميعاً، حتى راي، في تناوله على المنحدر المُشرِف على البركة، إلا أنها انتهتْ بآرتي سوكولو وأيرا في البركة، معاً يتقاتلان ويتبادلان النباح بطريقة أرعبتني.

كنتُ جالساً على ملاءة النزهة أتحدثُ مع إيلّا حول *إخوتي الرائعون*، وهو كتاب من تأليف هاوارد فاست كانت قد انتهت تواً من قراءته. كان رواية تاريخيّة تقع أحداثها في اليهوديّة الغابرة، وتتحدّث عن كِفاح المكّابيين[60] ضد أنتيوكوس الرابع[61] في القرن الثاني قبل الميلاد، وأنا أيضاً كنتُ قد قرأته بل وكتبتُ تقريراً حوله لشقيق أيرا في المرة الثانية التي أصبح فيها أستاذي للّغة الإنكليزيّة.

كانت إيلّا تُصغي إليّ كما تُصغي لكل شخص: تستوعب حديثك كلّه وكأنّ كلماتك تُدفئها. ويبدو أنني استمررتُ في الكلام لِما يُقارب الربع ساعة، مُكرّراً كلمة فكلمة النقد الدوليّ-التقدّميّ: الذي كنتُ قد كتبته من أجل السيد رينغولد، وكانت إيلّا طوال الوقت تعلّق على كل إشارة بقولها إنَّ ما أقول مُثير إلى أقصى ما يمكن. وعرفتُ أنَّ أيرا يكنُّ إعجاباً كبيراً لها بوصفها راديكاليّة طوال حياتها، وأردتُ منها أنْ تُعجَب بي أيضاً

60- المكابيون: عائلة من الوطنيين في فلسطين القديمة حرّرت اليهوديّة من البطش والظلم في القرن الثاني قبل الميلاد – المترجم.

61- أنتيوكوس الرابع: ملك سوريا في القرن الثاني قبل الميلاد. هاجم اليهود وأثار المكابيين ضدّه – المترجم.

كراديكاليّ. وقد أضفَتْ خلفيّتها التاريخيّة، وسِمة العَظَمَة في حملها، وإيماءات خاصّة صدرتْ عنها - إيماءات جارفة بيديها جعلتها تبدو لي عصيّة على الكبح بصورة فاتنة - أضفتْ على إيلّا سوكولو سُلطة بطوليّة حتى أنّني أردتُ أنْ أُثير إعجابها.

كنتُ أقول إنني أقرأ لفاست وأحترمُ فاست، ولكنني أعتقد أنّه يُفرِط في التشديد على قِتال سكان اليهوديّة من أجل العودة إلى وضعهم السابق، وإلى عبادتهم للتراث ولأيام ما قبل العبوديّة المصريّة. إنّ الكتاب يزخر بشكلٍ مُفرِط بالنزعة الوطنيّة...

هنا هتفَ أيرا قائلاً أنت تستسلم! تسرع في الهرب وتستسلم!

ردَّ سوكولو هاتفاً إذا لم تكن موجودة، فلن يعرف أحدٌ أنها ليست موجودة!

أنا أعرف أنها ليست موجودة!

منعني الحنق في نبرة صوت أيرا من الاستمرار. كل ما استطعتُ التفكير فيه، فجأة، كان القصة - التي لم أُصدّقها - التي أخبرني بها الرقيب السابق إروين غولدستاين في مطبخ ميبلوود، عن بتس، عن الرجل الذي حاول أيرا في إيران أنْ يُغرِقه في شطّ العرب.

فقلتُ لإيلّا ما الأمر؟

قالت: فقط اتركهما يتكلّمان، ولنأمل أنْ يهدئا. اهدأ *أنت*.

أريد فقط أنْ أعرف عمّا يتجادلان.

إنّهما يتبادلان اللوم على أمور جرت بصورة خاطئة. إنهما يتجادلان حول أشياء يجب أنْ يفعلاها في العرض. اهدأ، يا نيثان. أنت لم تُقابل ما يكفي من الأشخاص الغاضبين. سوف يهدئان.

لكنّهما لم يهدئا. خاصة أيرا. كان يفور ويمور على حافة البركة، وذراعاه الطويلتان تسوطان في كل اتّجاه، وفي كل مرة يعود إلى آرتي سوكولو، حتى ظننتُ أنّه سوف يُسدِّد له اللّكمات. هتف أيرا لِمَ تُجري هذه التغييرات اللعينة!

أجاب سوكولو إذا أبقيناها فسوف نخسر أكثر مما كسبنا.

هذا هُراء! دع أولاد الحرام يعلمون أننا جادان في عملنا! فقط أعِدْ ذلك الشيء اللعين إلى مكانه!

قلت لإيلّا ألا ينبغي أنْ نفعل شيئاً؟

قالت لي: طوال حياتي وأنا أستمع إلى رجال يتجادلون. رجال يتقاتلون بسبب ارتكاب آثام حذف وأخطاء بدا أنّه ليس في استطاعتهم أنْ يتفادوها. ولو أنّهم كانوا يتبادلون الضربات لكانت النتيجة مختلفة. فيما عدا ذلك، مسؤوليتك تقع في أنْ تتنحّى جانباً. إذا تدخّلتَ بين أناس غاضبين، فإنَّ أيّ شيء تفعله سوف يُضرم النار أكثر.

كما تشائين.

أرى أنّكَ عشتَ حياة آمنة جداً، أليس كذلك؟

قلتُ حقاً؟ أحاول ألّا تكون كذلك.

قالت لي: الأفضل أنْ تنأى بنفسك عن الأمر. من جهة للحِفاظ على كرامتك، لتترك الرجل يهدأ بعيداً عن تدخّلك، ومن جهة أخرى دفاعاً عن نفسك، وأيضاً لأنَّ تدخّلك لن يعمل إلا على تفاقُم الأمر.

في تلك الأثناء، لم يكفّ أيرا عن الهدير، ضربة واحدة لعينة في الأسبوع – ولن تستطيع أنْ نُضيف *تلك*؟ إذن ما الذي نفعله في الإذاعة، يا آرثر؟ نُعزِّز مسيرتنا المهنيّة؟ لقد فُرِضَ علينا القتال، وأنت تهرب! إنّه وقت الحسم، يا آرتي، وأنت تفرّ هارباً بجُبن؟

على الرغم من عِلمي أنني سوف أكون عاجزاً إذا ما بدأ هذان البرميلان الصغيران من البارود بتبادل اللّكمات، إلا أنني قفزتُ هرعتُ، وراي سفيتش يتبعني بخطوته البلهاء، نحو البركة. كانت آخر مرّة أتبوّل فيها في بنطلوني. ولم أسمح لذلك بالحدوث بعد ذلك. ولمّا لم تكن لديّ أدنى فكرة مثل راي عمّا يمكن فعله لتفادي الكارثة، اندفعتُ ركضاً نحو الشجار.

في الوقت الذي وصلنا إليهما، كان أيرا قد بدأ يمشي مُبتعداً عن سوكولو بشكل واضح. كان جليّاً أنّه كان لا يزال حانقاً من الرجل، ولكن كان أيضاً جليّاً كم يبذل من جهد لضبط نفسه. لحقتُ به أنا وراى ومن ثم مشينا بجواره واستمرَّ أيرا، على فترات، بصوت منخفض، في حديث سريع مع نفسه.

لقد سبَّبَ هذا المزيج من غيابه وحضوره لي الكثير من الاضطراب بحيث إنّني قلتُ أخيراً ما الخطب؟ وعندما بدا أنّه لا يسمعني، حاولتُ أنْ أفكّر فيما يمكن أنْ أقول لكي أُلفِتْ انتباهه. الأمر يتعلّق بالنصّ. وفي الحال اهتاج وقال: سوف أقتله إذا فعلها من جديد! ولم يكن ما قال مجرد عبارة استخدمها فقط لإضفاء سِمة دراميّة. كان صعباً عليّ، على الرغم من مقاومتي، ألّا أُصدِّق كل الصدق معنى كلماته.

قلتُ في نفسي، بتس، بنس. غارويتش. سولاك. بيكر.

ارتسمَ على وجهه تعبير الغضب العارم. غضب صِرف. غضب، إذا أُضيف إليه الرعب يُصبح قوة بدائيّة. وكل ما كان عليه نشأ من تلك النظرة – وأيضاً كل ما لم يكن عليه. قلتُ في نفسي، إنّه محظوظ لأنه لم يُسجَنْ، وهيَ نتيجة غير متوقَّعة بصورة مُرعبة تبدَّتْ عفوياً لفتى يعبد الأبطال تضافرتْ على مدى عامين مع فضيلة بطله، بطل رفَضْتُه حالما تلاشى غضبي – بطل تحقَّقَ منه مري رينغولد بالنيابة عنّي بعد ذلك بثمانية وأربعين عاماً.

كانت إيف قد خرجتْ من ماضيها بتمثيل شخصيّة بيننغتون؛ وكان أيرا قد تخلَّصَ من ماضيه بالقوة.

***

كان ولدا إيلّا التوأم، اللذان هربا بعيداً عن حافّة البركة عندما اشتعل الشجار – قد لجأا إلى ذراعيها على ملاءة النزهة لدى عودتي مع راي. قال إيلّا لي: أعتقد أنَّ الحياة اليوميّة يمكن أنْ تكون أقسى مما تعتقد.

سألتُ هل هذه حياة يوميّة؟

قالت: في كل مكان *أنا* عشتُ فيه. تابع. تابع كلامك عن هاوارد فاست.

بذلتُ أقصى جهدي، لكنَّ اضطرابي استمر، إذا لم يكن بسبب زوجة سولوكو التي تنتمي إلى الطبقة العاملة، فمن تفكيري في شجار زوجها وأيرا.

ضحكتْ إيلّا بصوت مرتفع بعد أنْ أنهيتُ كلامي. كان يمكن تمييز طبيعتها التلقائيّة في ضحكها بالإضافة إلى كل الهراء التي تعلَّمتْ أنْ تتعامل معه. ضحكتْ كما يحمرّ وجه بعض الناس: بشكل فوري وكامل. قالت: يا للروعة، لم أعُد أعرف الآن ماذا أقرأ. إنَّ تقويمي لرواية *إخوتي الرائعون* بسيط. لعلّي لا أُكثِرُ من التفكير العميق، بل أكتفي بالتفكير. ها هنا حفنة من الرجال الصلبين، الأقوياء، المُهذّبين، الذين يؤمنون بكرامة الناس جميعاً ويرغبون في الموت من أجلها.

عندئذٍ كان آرتي وأيرا قد هدئا بقدر معقول ليشقا طريقهما من البركة إلى ملاءة النزهة، حيث قال أيرا (مُحاولاً، فيما بدا، أنْ يقول شيئاً يمكن أنْ يُريح الجميع، بمَنْ فيهم نفسه، ويُعيدهم إلى الروح الأصليّة لذلك النهار): يجب أنْ أقرأها. رواية *إخوتي الرائعون* يجب أنْ أحصل على ذلك الكتاب.

قالت إيلّا له سوف أدعمك، يا أيرا، ثم أضافتْ، وهي تضحك ضحكتها وكأنّها تفتح مصراعيّ نافذة كبيرة واسعاً، وهذا لا يعني أنكَ في حاجة إلى أي دعم.

على الأثر مال سوكولو فوقها وجأر نعم؟ أي دعم؟ *أي دعم؟*

هنا، انفجر توأم سوكولو بالبكاء، وهذا بدوره دفع المسكين راي إلى فعل الشيء نفسه. وتمكّنَ الغضب منها الآن للمرة الأولى، بشكل يُشبه الحنق المجنون، وقالت إيلّا: يا لله العظيم، يا آرثر! تمالك نفسك!

***

ما كمِنَ تحت تلك المُشاحنات بعد ظهيرة ذلك اليوم فهمت كنهه فهماً أفضل في المساء عندما باشر أيرا، ونحن وحدنا في الكوخ، الكلام عن اللوائح:

لوائح. لوائح بأسماء واتّهامات وإدانات. كل شخص موجود ضمن لائحة. ***الأقنية الحمراء***. جو مكارثي. منظّمة مُقاتلي الحروب الأجنبيّة. مقرّ لجنة النشاطات المُناهِضة لأميركا. رابطة المُحاربين الأمريكيين القدماء. الفيلق الأمريكي. المجلات الكاثوليكيّة. صُحُف هيرست. اللوائح ذات الأرقام المُقدّسة – 141، 205، 62، 111. لوائح لكل شخص في أميركا سبقَ له أنْ أبدى سخطه حول أيّ شيء أو انتقدَ أيّ شيء أو احتجَّ على أي شيء – أو ارتبط اسمه مع أيّ شخص سبق أنْ انتقد أو احتجَّ على أي شيء – أصبحوا الآن كلهم شيوعيين أو يمثّلون واجهة للشيوعيين أو يُساعدون الشيوعيين أو يتبرّعون لـ صناديق شيوعيّة، أو يُسرِّبون معلومات عمّاليّة وحكوميّة أو تعليميّة أو هوليوديّة أو مسرحيّة أو إذاعيّة أو تلفزيونيّة. لوائح لأفراد الطابور الخامس تُجمَع في كل مكتب أو وكالة في واشنطن. وكل قِوى رد الفعل تتبادل الأسماء وتُخطئ في أسماء وتربط أسماء معاً لكي تُبرهن على وجود مؤامرة ضخمة ***لا وجود لها***.

سألتُه وماذا عنك أنت؟ ماذا عن برنامج ***الأحرار والشجعان***؟

لدينا الكثير من ذوي التفكير التقدّميّ في عرضنا، حتماً. والطريقة التي سوف يتم وصفهم بها أمام الجمهور الآن هي أنّهم ممثّلون يُروّجون لخط دفاع موسكو بمكر. سوف تسمع الكثير عن هذا – أسوأ بكثير منه. بُلهَاء موسكو.

فقط الممثلون؟

والمُخرِج. ومؤلِّف الموسيقى. والكاتب. وكل شخص.

أأنت قلق؟

يمكنني أنْ أعود إلى مصنع التسجيل، يا صاحبي. فإذا وقع الأسوأ

فليكن، يمكنني دائماً أنْ آتي إلى هنا لأشحّم السيارات في مرأب سفيتش. لقد سبق أنْ قمت بذلك. ثم يمكنني أنْ أتقاتَل معهم، كما تعلم. يمكنك مقاتلة أولاد الحرام. إنَّ آخر ما تناهى إلى سمعي هو أنَّه كان هناك دستور في هذا البلد، أو إعلان حقوق *في مكان ما*. وإذا نظرتَ بعينيك الواسعتين إلى واجهة محلّ الرأسماليّ، إذا أردتَ وألححتَ في الإرادة، إذا تمسّكتَ وتمسّكتَ بقوة، إذا أخذتَ وأخذتَ، وإذا تملّكتَ وحزت وراكمتَ، فذلك يعني نهاية معتقداتك وبداية خوفك. ولكنْ لا شيء لديّ لا أستطيع أنْ أتخلّى عنه. أتفهم؟ لا شيء! فكيف خرجتُ من المنزل النخِر لوالدي البائس الكائن في شارع المصنع وأصبحت هذه الشخصيّة البارزة أيرون رن، وكيف أُتيحَ لأيرا رينغولد، الذي لم يلتحق بالمدرسة الثانوية لأكثر من عام ونصف، أنْ يُقابل الأشخاص الذين قابلتُهم ويتعرَّف إلى الناس الذين عرفتهم ويحظى بوسائل الراحة التي حصلتُ عليها كأي فرد مُعترَف به في الطبقة البورجوازيّة – إنَّ هذا كلّه لا يُصدَّق إلى درجة أنَّ فقدان كل شيء بين ليلة وضُحاها لا يبدو لي شديد الغرابة. أتفهم؟ أتفهمني؟ أستطيع أنْ أعود إلى شيكاغو. أستطيع أنْ أعمل في المصانع. سوف أفعل، إنْ اضطُررتُ. ولكن ليس من دون أنْ أطالب بحقوقي كأمريكي! ليس من دون أنْ أتقاتل مع أولاد الحرام!

عندما كنتُ وحدي على متن القطار متوجهاً إلى نيوارك – كان أيرا ينتظر في المحطة في سيارة الشيفروليه لكي يقلّ السيدة بارن، التي كانت، في يوم مغادرتي، ستنتقل من نيويورك من جديد لكي تُدلّك رُكبتيه اللتين كانتا تُسبّبان له آلاماً مُبرّحة بعد مباراة كرة القدم التي خُضناها في اليوم السابق – بل إنني بدأتُ أتساءل كيف استطاعتْ إيف فريم أنْ تتحمّله، على مدى الأيام. إنَّ التعايُش مع كونها متزوجة من أيرا بالإضافة إلى غضبه لم يكن بالأمر الممتع. وأتذكّر أنني سمعته يُلقي الخطاب نفسه فعلياً عن واجهة المحل الرأسماليّ، وعن منزل والده البائس، وعن العام ونصف التي أمضاها في المدرسة الثانوية،

بعد ظهيرة ذلك اليوم في العام السابق في مطبخ إروين غولدستاين. وأتذكّر مقاطع من ذلك الخطاب الذي ألقاه أيرا عشر مرات وإحدى عشرة مرة. كيف استطاعت إيف أنْ تتحمّل مجرد التكرار، والإطناب في ذلك الخطاب وموقف المُهاجِم، والضرب الذي لا يرحم من تلك الأداة الكليلة المتمثّلة في خطاب أيرا السياسيّ؟

على متن قطار العودة ذاك إلى نيوارك، بينما كنتُ أفكّر في أيرا وهو يُدوّي بنبوءتيه الرؤيويّتين التوأم - إنَّ الولايات المتحدة الأمريكية على وشك أنْ تشمّ حرباً نوويّة على الاتحاد السوفييتي! علِّمْ على كلامي! إنَّ الولايات المتحدة الأمريكية في طريقها إلى أنْ تُصبح فاشيّة! - لم تكن لديّ من المعلومات لأفهم لماذا فجأة، وبغدر، عندما تعرّضَ هو وأُناسٍ من أمثال آرتي سوكولو للخوف الشديد وللتهديد، شعرتُ بملل عنيف، ولماذا شعرتُ بأنني أشدّ ذكاءً منه، وباستعداد وتوق إلى الابتعاد عنه وعن الجانب المُستفزّ، الثقيل الوطأة منه وإلى العثور على طموحي بعيداً عن بيكاس هيل رود.

لو أنّكَ أصبحتَ يتيماً في وقتٍ مُبكّر كما حدثَ مع أيرا، لوُضِعتَ في الموقف الذي يجب على كل الرجال أنْ يجدوا أنفسهم فيه ولكن بسرعة، بسرعة كبيرة، وهذا أمر مُريك، لأنكَ إمّا أنك لا تحظى بأي قدر من الثقافة أو تكون مُعرَّضاً بحساسيّة مُفرطة لفورات حماس ومعتقدات ومُهيّأ لتشرُّب المذاهب. كانت سنوات شباب أيرا سلسلة من الصِلات المتقطّعة: عائلة قاسية، وإحباط في المدرسة، وغوصٌ كامل في فترة الكساد الاقتصاديّ - تيتُّمٌ مُبكِّر استولى على مُخيّلة صبيٍ مثلي، وكان مُثبَّتا إلى عائلة وإلى مكان مع مؤسساته، كان صبياً خرج تواً من الحاضنة الشعوريّة؛ والتيتُّم المبكّر حرَّرَ أيرا لكي يتواصل مع ما يشاء لكنّه تركه أيضاً حراً بما يكفي ليُكرِّس نفسه لشيءٍ ما بكامل إرادته، ليوهب نفسه بالكامل وإلى الأبد. لقد كان أيرا، لكل الأسباب التي يمكن أنْ تخطر في بالك، هدفاً سهلاً للرؤى المثاليّة. ولكن بالنسبة إليّ، الموثّق، كان

الوضع مختلفاً. إذا لم تتيتَّم باكراً، إذا ارتبطتَ بدل ذلك ارتباطاً وثيقاً بأبوين على امتداد أربعة عشر، أو خمسة عشر عاماً، تُصبح أحمق، وتفقد براءتك، وتسعى إلى استقلالك، وإذا لم تكن العائلة فاشلة، تنطلق، وتستعد لتُصبح رجلاً، أي، تستعد لاختيار ولاءات وانتماءات جديدة، وآبائك في عهد بلوغ، ولأنّه لم يُطلَب منك أنْ تعترف بهم بحبّ، فإنكَ إمّا أنْ تحبّهم أو لا تُحبّهم، كما يُناسبك.

كيف تمَّ اختيارهم؟ عبر سلسلة من الأحداث وعبر الكثير من الإرادة. كيف وصلوا إليك وكيف وصلتَ إليهم؟ ومَنْ هم؟ وما هي سلسلة النسب التي ليست أصليّة؟ على أيّة حال كانوا رجالاً تدرّبتُ على أيديهم، بدءاً ببين وفاست وكرونين وحتى مري وأيرا وما بعدهما - رجال علّموني، رجال انحدرتُ منهم. كلهم كانوا رائعين بالنسبة إليّ على طريقتهم، شخصيات تتجادل معها، أساتذة جسّدوا أو اعتنقوا أفكاراً قوية، آباءً مُتبنّين كان على كلٍ منهم، أيضاً، أنْ يختفي بدوره وأنْ يُقصَوا مع إرثهم، أنْ يختفوا، وبذلكً يُفسحوا الطريق لليُتم الكامل، أي الرجولة. عندما تكون في العراء في هذا الأمر وحدك.

***

ليو غلوكسمان أيضاً كان جندياً سابقاً، لكنّ خدمَ بعد انتهاء الحرب ولم يتجاوز منتصف العشرينيات من العمر، متورّد الخدّين وممتلئ قليلاً ويبدو أنّه لم يتجاوز عمر أقرانه من طلاب العام الأول والثاني في الجامعة. وعلى الرغم من أنَّ ليو كان لا يزال يُكمل أطروحته لنيل درجة الدكتوراه في الأدب، إلا أنّه كان يظهر في كل محاضرة ببذلته السوداء المؤلَّفة من ثلاث قطع مع ربطة العنق القرمزيّة، وبدا أشدّ رسميّة في ملبسه من أي عضو من أعضاء هيئة التدريس الأكبر سناً. وعندما يُصبح الجو بارداً كان يُشاهَد وهو يجتاز الساحة الرباعيّة مرتدياً رداء أسود للكتفين بحيث إنّ ليو، حتى في حرم لا يتسامح في المعتاد مع ذلك الشذوذ وغرابة الأطوار - ويتفهَّم الأصالة وغرابتها - بقدر ما كانت جامعة شيكاغو في تلك

الأيام، كان يُقابل هتاف الطلاب المازحين المُشرق (والمُسلّي) مرحبا، بروفسور! بضرب عصاه الخيزران ذات الطرف المعدني بقوة على الرصيف. وبعد ظهيرة أحد الأيام بعد أنْ رمى نظرة سريعة إلى مخطوط *أحمق توركويمادا* – الذي جلبتُه لكي أُثير إعجاب السيد غلوكسمان، بالإضافة إلى المقالة المُقرَّرة حول أطروحة أرسطو *في الشِعر* – فاجأني ليو برميها بحركة اشمئزاز داخل درج طاوله.

كان خطابه سريعاً، ونبرة صوته شرسة وغير متسامحة – لم يكن هناك أي أثر في ذلك الخطاب للصبي العبقري المُثقل بالملابس الأنيقة الجاثم بامتلائه خلف ربطة عنقه على المقعد المُدجج بالوسائد. وبدانته وشخصيته يمثّلان نوعين مختلفين جداً من الناس. والملابس تُشير إلى شخصٍ ثالث. وشخصيته الرابعة المُجادلة – ليست متأنّقة بل هي لناقد راشد حقيقيّ يكشفُ لي أخطار الوصاية التي كنتُ خاضعاً لها مع أيرا، ويُعلّمني اتّخاذ موقف أقل جموداً في مواجهة الأدب. وهو بالضبط ما كنتُ مستعداً له خلال فترة تجنيدي الجديدة. وبدأتُ تحت قيادة ليو أتحوّل إلى سليل ليس فقط عائلتي بل الماضي، ووريث ثقافة أعظم من ثقافة بيئتي.

قال لي: أتقول الفن كسلاح؟ ونطق كلمة سلاح مشحونة بالاشمئزاز وكانت بحد ذاتها سلاح. الفن عندما يتّخذ *الموقف* الصحيح من كل شيء؟ الفن كمُدافِع عن الأشياء الخيِّرة؟ مَنْ علّمكَ هذا كلّه؟ مَنْ علّمكَ أنَّ الفنَّ شِعارات؟ مَنْ علّمكَ أنَّ الفن في خِدمة *الشعب*؟ إنَّ الفنّ يخدم الفن – وإلّا لا وجود لفنٍ يستحقّ انتباه أي إنسان. ما هو الدافع وراء كتابة أدب جادّ، يا سيد زوكرمان؟ تجريد أعداء ضبط الأسعار من الأسلحة؟ إنَّ الدافع وراء تأليف أدبٍ جادّ هو *تأليف أدب جادّ*. أتريد أنْ تتمرَّد على المجتمع؟ سأخبرك كيف تفعل ذلك – *أحسِنٌ* الكتابة. وتريد أنْ تتبنّى قضيّة خاسرة؟ إذن لا تقاتِل لصالح الطبقة الكادحة. سوف تُحسِن الاعتناء بنفسها. سوف تمتلئ من بليموث حتى تشبع. سوف يتغلّبُ الإنسان العامل علينا كلنا – سوف تدفّق من غفلته القذارة التي

هي المصير الثقافي لهذا البلد الماديّ. وقريباً سوف يكون لدينا في هذا البلد شيءٌ أسوأ بمراحل من حكومة الفلاحين والعمّال - سوف تُصبح لدينا ثقافة الفلاحين والعمّال. أتريد قضيّة خاسرة لتقاتلَ من أجلها؟ إذن قاتل من أجل *الكلمة*. ليس الكلمة المُحلِّقة، ليس الكلمة المُلهِمة، ليس الكلمة المُناصِرة لهذا والمُعادية لذاك، ليس الكلمة التي تدعمك أمام المُحترمين بوصفكَ شخصاً رحيماً، مُثيراً للإعجاب ورائعاً من جانب المسحوقين والمُضطهَدين. كلا، بل الكلمة التي تُخبر النُخبة المُثقّفة المحكوم عليها بالعيش في أميركا بأنَّك *تدعم* الكلمة! إنَّ مسرحيتك هذه هراء. إنها رديئة. إنها تُثير الحنق. إنها فجّة، بدائيّة، بلهاء، وقذارة دعائيّة. إنها تُلطّخ العالم بالكلمات. وتفوح حتى عَنان السماء بعبق فضيلتك. لا شيء له تأثير أخبث على الفن من رغبة الفنان في أنْ يُثبت أنّه جيد. إنها الغواية الفظيعة للمثاليّة! يجب أنْ تتحكَّم في مِثاليتك، وعلى فضيلتك كما على رذيلتك، تحكُّماً جماليّاً على كل ما يدفعك إلى الكتابة في المقام الأول - غضبك، سياستك، حزنك، وحبّك! ابدأ بالوعظ وباتّخاذ مواقف، ابدأ باعتبار منظورك هو الأكثر تفوّقاً، وسوف تُصبح تافهاً، تافهاً ومُثيراً للسُخرية كفنّان. لماذا تكتب تلك التصريحات؟ ألأنكَ تتلفت حولك وتُصدَم؟ ألأنكَ تتلفّتْ حولك وتتأثّر؟ إنَّ الناس يستسلمون بسهولة شديدة ويُزيّفون مشاعرهم. إنهم يريدون أنْ يحصلوا على المشاعر فوراً، ولذلك فإنَّ الصدمة والتأثُّر هما الأسهل. الأشدّ غباءً. ما عدا في الحالة النادرة، يا سيد زوكرمان، *إنَّ الصدمة دائماً زائفة*. التصريحات. التصريحات لا حاجة لها إلى الفن! أخرِج قذارتك المُحبَّبة من هذا المكتب، من فضلك.

كان رأي ليو في مقالتي عن أرسطو أفضل (أو، في العموم، رأيه فيَّ)، لأنه في اجتماعنا التالي فاجأني - كما كان قد فعل بحماسه بشأن مسرحيّتي - بطلبه حضوري في قاعة الأوركسترا لسماع رافائيل كيوبيليك وهو يقود فرقة شيكاغو السيمفونيّة في عملٍ لبيتهوفن في

ليلة يوم الجمعة. هل سبقَ لكَ أنْ سمعتَ عن رافائيل كيوبيليك؟ كلا، وبيتهوفن؟ قلت لقد سمعتُ عنه، نعم، وهل سمعتَ *موسيقاه*؟ كلا.

قابلتُ ليو في جادة ميتشيغان، خارج قاعة الأوركسترا، قبل بدء العرض بنصف ساعة، أستاذي ذو رداء الكتفين الذي كان قد طلبَ صنعه في روما قبل أنْ يُفصَل من الخدمة في الجيش في عام 48 وانا بسترتي الصوفيّة ذات القلنسوة التي اشتريتُها من محل لاركي في نيوارك لكي آخذها معي إلى الجامعة اتّقاءً لجو الغرب الأوسط المُثلِج. وحالما جلسنا، أخرج ليو من حقيبته سجلاً بمراحل القطع السيمفونيات كلها التي كنا سنستمع إليها، وخلال الحفل الموسيقيّ، لم يكن ينظر إلى الفرقة الموسيقيّة التي على خشبة المسرح - التي من المفترَض أنْ تنظر إليها، كما قلتُ في نفسي، مع إغماض عينيك بين فينة وأخرى عندما تستغرق في الانسجام - بل إلى حجره، لكي يقرأ، بتركيز فائق، مراحل المقطوعة الموسيقيّة بينما الموسيقيون يعزفون أولاً افتتاحيّة **كوريولان** ثم السيمفونيّة، وبعد انتهاء فاصل الاستراحة، عُزِفَتْ السيمفونيّة الخامسة. وفيما خلا النغمات الأولى من السيمفونيّة الخامسة، لم أعُد أُميِّز مقطوعة من الأخريات.

بعد انتهاء الحفل الموسيقيّ، استقللنا القطار العائد إلى الحيّ الجنوبيّ وذهبنا إلى غرفته في المنزل العالميّ، وهو قاعة للسكن مبنيّة على النمط القوطيّ في الميدواي وكانت مقرّ معظم طلاب الجامعة الأجانب. كان غلوكسمان، الذي كان هو نفسه بقّالاً من الحيّ الغربيّ، أفضل استعداداً قليلاً لتحمُّل قُربهم في رواقه - بروائح الطبخ الأجنبي وما إلى ذلك - أكثر من تحمُّل روائح أقرانه من الأمريكيين. كانت الغرفة اتي يُقيم فيها أشدّ ترتيباً حتى من غرفة مكتبه الصغيرة في الكليّة، وصنع لنا الشاي بغلي الماء في إبريق موضوع على رقعة معدنيّة حامية موضوعة على الأرض ومحشورة بين ركام من المادة المطبوعة على طول الجدران. جلس ليو على طاولة المكتب المُثقلة بالكتب، وأشرقت وجنتاه المكتنزتان بتأثير

مصباحه المعقوف الطرف، وجلستُ في الظلام، وسط أكوام كتبه، على حافّة السرير الضيِّق المُشوَّش الذي لا يبعد أكثر من قدمَين.

شعرتُ كأنني فتاة، أو ما تخيّلتُ أنّ فتاةً تشعر به عندما تجد نفسها وحدها مع فتى خائف من الواضح أنّه مُعجب بثدييها. أبدى ليو دهشته ممّا ظهر عليّ من خوف، وبنبرة السخرية نفسها التي تولّى بها تدمير مسيرتي المهنيّة في الإذاعة قال: لا تقلق، لن ألمسك. أنا فقط لا أتحمّل أنْ تكون تقليدياً. وفي الحال استهلّ بمقدّمة عن سورين كييركغارد. أراد مني أنْ أُصغي إليه وهو يقرأ كان كييركغارد، الذي لم أكنْ قد سمعتُ باسمه كما اسم رافائيل كيوبيليك، يرى الناس في كوبنهاغن الراكدة قبل مائة عام – الذين اطلقَ كييركغارد عليهم اسم العامّة، الاسم الصحيح، كما أنبأني ليو، على ذلك التجريد، ذلك التجريد الشنيع، ذلك الشيء الذي يحتوي كل شيء وهو لا شيء، ذلك الشيء الشنيع، كما كتب كييركغارد يقول، ذلك الفراغ المُجرّد والخالي الذي هو كل شيء ولا شيء والذي أظهرتُه بصورة رومانسيّة عاطفيّة رخوة في سيناريو مسرحيتي. لقد كره كييركغارد العامّة، وليو كره العامّة، وكان هدف ليو وهو في غرفة البيت العالميّ المُظلِمة بعد الحفل الموسيقي ليلة يوم الجمعة تلك والحفلات الموسيقيّة التي أخذني إليها في أيام الجمعة التي تلت هو إنقاذ نثري من الفناء بدفعي أيضاً إلى كراهيّة العامّة.

يقول ليو إنَّ كل مَنْ قرأ مؤلفات الكُتّاب الكلاسيكيين يعلم الأشياء الكثيرة التي كان في استطاعة قيصر أنْ يقوم بها ليقتل الوقت. بالطريقة نفسها يحتفظ العامّة بكلب ليُسليهم. وذلك الكلب يمثّل حُثالة عالم الأدب. وإنْ كان هناك شخص متفوِّق على الآخرين، وحتى رجل عظيم، فإنَّ الكلب يجلس عليه ويبدأ المرح. إنَّ الكلب يولَع به، وينتف أذيال معطفه ويُمزّقه، ويسمح لنفسه بكل تصرُّف مألوف ممكن يدل على سوء سلوك – إلى أنْ يضجر العامّة، ويطلبون أنْ يتوقّف. هذه هي أمثولتي عن مستويات العامّة. إنَّ أفضلهم والمتفوقين بينهم في القوة تُساءُ مُعاملتهم

- ويبقى الكلب كلباً يحتقره حتى العامّة... إنَّ العامّة لا يندمون - وهذا لا يُقلِّل من شأنْ أحد؛ إنّهم فقط يريدون بعض التسلية.

هذه الفقرة، التي عَنَتْ لليو أكثر بكثير مما كان يمكن أنْ تبدأ تعنيه لي بمراحل، كانت مع ذلك دعوة من ليو غلوكسمان للانضمام إليه في أنْ أكون متفوّقاً على الباقين وأنْ أكون أيضاً، على غرار الفيلسوف الدانماركي كييركغارد - وعلى غراره هو، كما يمكنه ذات يومٍ قريب أنْ يتخيَّل نفسه - رجلاً عظيماً. وأصبحتُ الطالب الذي يرغبه ليوً، وأصبحتُ أيضاً عبر وساطته، الطالب الذي يرغبه أرسطو، ويرغبه كييركغارد، ويرغبه بينيديتو كروتشه، ويرغبه توماس مان، وأندريه جيد، وجوزيف كونراد، وفيودور دوستويفسكي... ولكنْ سرعان انقطتْ صِلتي بأيرا - وبأمي، وبأبي، وبأخي وحتى بالمكان الذي نشأتُ فيه - انقطاعاً تاماً. عندما يتثقَّف شخصٌ ما أولاً ويتحول رأسه إلى مستودع مُدجَّج بالكتب، ويكون شاباً صغيراً ووقحاً ويطفر من فرط السعادة لاكتشافه كل الذكاء المدسوس في هذا الكوكب، فإنّه يميل إلى المُبالغة في أهميّة دعم الواقع الجديد والانتقاص من أي شيء آخر بوصفه غير ذي أهميّة. وهذا ما فعلتُه بكل قوّتي، بدعمٍ وتحريضٍ من ليو غلوكسمان الذي لا يتنازل - بطبعه السيء وهوسه وبعقله الذي لا يني يتغيَّر باستمرار.

في ليلة كل يوم جمعة، وفي غرفة ليو، كان السِحر يحل. كان ليو يُحمِّل كل ما لديه من شغف ليس جنسياً (والكثير من الشغف الجنسيّ المكبوت) على كل فِكرة شكّلتْ شخصيّتي في السابق، وخاصة على تصوُّري للرسالة الفنيّة. كان ليو يهرع إليّ في ليالي أيام الجمعة وكأنني آخر طالبٍ تبقّى على وجه الأرض. وبدأ يبدو لي كأنَّ كل شخص يعطيني جرعة. ثقِّف نيثان. كانت عقيدة كل مَنْ جرؤت على تحيّته.

***

الآن، بين حين وآخر، أعود بذاكرتي وأُفكِّر في حياتي كأنّها خطاب طويل كنتُ أستمعُ إليه. أحياناً يكون الخطاب أصليّا، ممتعاً، وأحياناً

قذارة زائفة (خطاب شخص مجهول)، وأحياناً مسعوراً، أحياناً واقعياً، وأحياناً أشبه بشوكة أو إبرة حادّة، واستمعتُ إليه فترة طويلة بقدر ما أتذكّر: كيف أُفكّر، كيف لا أُفكِّر؛ كيف أتصرّف، كيف لا أتصرّف؛ مَنْ أحتقر ومَنْ يُثير إعجابي، ماذا أعانق ومتى أهرب؛ ما هو الجذل، وما هو الجدير بالثناء، وما هو الحل، وما هو الشرير، وما هو التافه، وكيفَ أبقى نقيّاً في الروح. يبدو إنَّ الحديث معي لا يُشكّل عائقاً لأي شخص. ربما هذا نتيجة تجوالي على مدى سنين أبدو كأنني أبحث عمَّن يتحدث معي. ولكن كائناً ما كان السبب، فإنَّ كتاب حياتي هو كتابٌ من الأصوات. وعندما أتساءل كيف وصلت إلى حيثُ أنا، والجواب يُفاجئني: إنّه الإصغاء.

أيمكن أنَّ ذلك كان الدراما الخفيّة؟ أكان كل ما تبقّى حفلاً تنكّرياً يُخفي السوء الذي كنتُ مُنهمكاً به بعناد؟ والإصغاء إليهم، الأصغاء إلى أحاديثهم. أي إلى الظاهرة الجامحة الصِرف. إلى كل شخص يفهم التجربة ليس بوصفها شيء يجب اكتسابه بل كشيء يجب اكتسابه من أجل التحدُّث عنه. لماذا؟ لماذا يُريدون مني أنْ أُصغي إليهم وإلى أناشيدهم؟ أين وُضِعَ قرار استخدامي هكذا؟ أم أنني كنتُ كذلك منذ البداية، بالميل كما بالاختيار، كنتُ مجرد أُذُنٍ تبحث عن كلمة؟

قال لي ليو: إنَّ السياسة هي المُعمِّم الأكبر، والأدب هو المُميِّز الأكبر، وليسا فقط على علاقة متعاكسة فيما بينهما - إنَّ الصِلة بينهما *عِدائيّة*. بالنسبة إلى السياسة، الأدب شيء منحطّ، رخو، لا لزوم له، ومُضجِر، وعنيد، وبليد، ولا معنى له ولا ينبغي أنْ يوجَد. لمَ؟ لأنَّ دافع التعميم هو الأدب. كيف يمكنك أنْ تكون فنّاناً وتُنكِر الرهافة؟ ولكن كيف يمكنكَ أنْ تكون رجل سياسة ***وتسمح*** بوجود رهافة؟ إنّ ***مهمّتكَ*** كفنّان هي إبراز الرهافة. مهمّتكَ هي ***ألّا*** تُبسِّط الأمور. وإذا اخترتَ أنْ تكتب بأبسط الأساليب، بأسلوب هيمنغواي، تبقى المهمّة هي إضفاء الرهافة، وتفسير التعقيد، التلميح إلى التعقيد. ليس محو التعقيد، وليس

إنكار التعقيد، بل أنْ ترى أين، داخل التعقيد، يكمن الكائن البشري المُعذَّب. أنْ تسمح بحدوث العماء، للسماح له بالوقوع. **يجب** أنْ تدعه يحدث. وإلّا فإنَّ مَا تُنتجه هو دعاوة سياسيّة، إنْ لم تكن لصالح حزب سياسيّ، لحركةٍ سياسيّة، فهو دعاوة سياسيّة غبيّة للحياة نفسها – للحياة كما ربما تُفضِّل هي أنْ تُعرَف. خلال السنوات الخمس، أو الست الأولى من الثور الروسيّة هتف الثوريون، حبٌ حرّ، سوف يسود الحب الحرّ! ولكنْ حالما استلموا السُلطة، لم يتمكنوا من السماح به. إذ ما هو الحبّ الحرّ؟ إنّه العماء. وهم لم يكونوا يرغبون في انتشار العماء. فليس من أجل هذا صنعوا ثورتهم المجيدة. إنهم يريدون شيئاً مُنضبطاً بعناية، مُنظَّماً، قابلاً للتوقُّع بأسلوبٍ عِلميّ، إذا أمكن. إنَّ الحبّ الحرّ يُشوِّش التنظيم، ويُخرِّب ماكينتهم الثقافيّة، والسياسيّة والاجتماعيّة. والفن أيضاً يُشوّش التنظيم. والأدب يُشوِّش التنظيم. ليس لأنَّ مواقفه ليست مع أو ضد بشكلٍ صارخ، أو حتى مع أو ضد برهافة. إنّه يُشوِّش التنظيم لأنّه ليس تعميميّاً. إنَّ الطبيعة الجوهريّة للتميُّز هي أنْ يكون متميِّزاً، والطبيعة الجوهريّة للتميُّز هي رفض التكيُّف. إنْ تعريف الشيوعيّة هو: تعميم المُعاناة. والأدب هو: تخصيص المُعاناة. بذلك الاستقطاب تكمن العِدائيّة. وفي الحِفاظ على حيويّة التخصيص في عالمٍ يُبسِّط، ويُعمِّم تبدأ المعركة. لستَ مُضطراً إلى الكتابة لكي تُشرِّع الشيوعيّة، ولستَ في حاجة إلى أنْ تكتب لكي تُشرِّع الرأسماليّة. فأنت خارج الإثنين. إذا كنتَ كاتباً فلن تتحالف مع هذه ولا مع تلك. نعم، أنت ترى الفروق، وحتماً ترى أنَّ هذا الهراء أفضل قليلاً من ذاك، أو أنَّ ذلك أفضل قليلاً من هذا. لعلّه أفضل بكثير. *لكنّكَ ترى الهراء*. أنت لستَ موظّفاً حكومياً. ولستَ متعصّباً. ولستَ مؤمناً. أنت شخص يتعامل بأسلوبٍ شديد الاختلاف مع العالم ومع ما يحدث في العالم. إنَّ المُتعصّب يُنتِجُ إيماناً، إيماناً كبيراً سوف يُغيِّر العالم، والفنان يُنتجُ سلعة لا مكان لها في العالم. لا فائدة منها. إنَّ الفنان، الفنّان الجادّ، يُنتجُ إلى العالم شيئاً لم يكن موجوداً من قبل حتى من البداية. وعندما خلق الله كل تلك لأشياء في سبعة أيام،

الطيور، والأنهار، والكائن البشري، لم تتوفر لديه عشر دقائق يُخصّصها للأدب، ثم كان الأدب. بعض الناس سوف يُحبّونه، والبعض الآخر سوف يُمسّون به، ويُريدون إنتاجه... كلا. كلا. هو لم يقُل ذلك. ولو أنّك سألتَ الله حينئذ، هل سيكون هناك سمكريون؟ نعم، سوف يكون. لأنّه سوف يكون لديهم منازل، وسوف يحتاجون إلى سمكريين، وهل سيكون هناك أطبّاء؟ نعم. لأنهم سوف يمرضون، وسوف يحتاجون إلى أطباء ليصفوا لهم بعض الأقراص، والأدب؟ الأدب؟ عمَّ تتكلَّم؟ ما فائدة هذا؟ ما موقعه؟ أرجوك، أنا أخلقُ كوناً، وليس جامعة. ***ليس أدباً***.

عنيد. هذه صِفة توم بين التي لا تُقاوَم، وصِفة أيرا، وليو وأيضاً جوني أوداي. لو أنني ذهبتُ إلى شرق شيكاغو لأقابل أوداي لدى وصوله إلى شيكاغو – وهو ما كان أيرا قد أعدَّه لي لأقوم به – لكانت حياتي كطالب، وربما حياتي كلّها بعد ذلك قد تعرّضتُ لإغراءات مختلفة وضغوط مختلفة، وربما كنتُ باشرت في التخلّي عن القيود الأمنيّة لخلفيّتي تحت تأثير الإرشاد المتحمّس لعملاق مختلف كل الاختلاف عن أسلوب جامعة شيكاغو. لكنَّ عبء تعليم جامعة شيكاغو، إلى جانب مطالب برنامج السيد غلوكسمان التكميليّ لتحرير عقلي التقليديّ، كان يعني أنني لن أتمكن حتى حلول أوائل شهر كانون أول لآخذ إجازة في صباح يوم سبت وأسافر بالقطار لكي أقابل مُعلِّم أيرا رينغولد في الجيش، عامل الفولاذ الذي كان أيرا قد وصفه لي بأنّه ماركسيّ قلباً وقالباً.

كان قطار خط الساحل الجنوبيّ يقع في الشارع الثالث والستين وستوني أيلند، لا يبعُد أكثر من مسير خمس عشرة دقيقة من غرفة نومي. استأجرتُ سيارة مدهونة باللون البرتقاليّ وجلستُ، وكان قاطع التذاكر يهتف بصوت مرتفع على أسماء البلدات القذرة على طول الخط – هيغيويش... هاموند... إيست شيكاغو... غاري... ميتشيغان سيتي... ***ساوث*** بيند – وكنتُ متحمّساً من جديد وكأنني كنتُ أُصغي

إلى نشيد *على مقام النصر*. ولما كنتُ قادماً من منطقة شمال جيرزي الصناعيّة، واجهتُ مشهداً مألوفاً لديّ. عند النظر جنوباً إلى مدن إليزابيث، وليندن، راواي من المطار، نرى أيضاً المصافي الضخمة المُعقّدة عن بُعد وأبخرة المصافي المؤذية وألسنة اللهب، المنبعثة من قمم الأبراج، تُطلِقُ الغازات الملتهبة الناتجة عن تقطير البترول. في نيوارك كان لدينا المصانع الضخمة ودكاكين الأعمال الصغيرة، وكان لدينا السخام، ولدينا الروائح، ولدينا خطوط سكك الحديد المتقاطعة وقطع أرض ممتلئة ببراميل الفولاذ وتلال من خردة المعادن ومواقع شنيعة لتكويم النفايات. كانت لدينا أعمدة دخان تتصاعد من مجموعة مداخن، أدخنة كثيفة تنبعثُ من كل مكان، والروائح الكيميائيّة الكريهة ورائحة الملتْ وروائح مزرعة خنازير بلدة سيكوكوس الكريهة تجتاح حيّنا عندما تهبّ ريح قويّة. وكان لدينا قطارات كهذا تجري على السدود وتخترق المُستنقعات، والنباتات وأعشاب البرك والمياه المفتوحة. كانت لدينا قذارة وكانت لدينا روائح كريهة، ولكن ما كان ينقصنا ولم نستطع الحصول عليه هو بلدة هيغيويش، حيث صنعوا الدبابات من أجل الحرب. ولم تكن لدينا بلدة هاموند، حيث صنعوا عوارض حديديّة من أجل الجسور. ولم تكن لدينا مخازن لحفظ الحنطة على طول قنال الشحن القادمة من شيكاغو. ولم يكن لدينا أفران مكشوفة تُضيء السماء عندما تصبّ المصانع الفولاذ، سماء حمراء كنتُ أشاهدها في الليالي الصافية من مسافة بعيدة من نافذة غرفة نومي، هناك في بلدة غاري. ولم تكن لدينا شركات يو إس ستيل وإنلاند ستيل وجونز لاولن وستاندارد بريدج ويونيون كارباير وستاندارد أويل أوف إنديانا. بل كان لدينا ما يوجد في نيوجرزي؛ هنا كانت قوة ميدْويست تتمركز. ما كان لديهم ها هنا هو عمليّة تصنيع الفولاذ، أميالٌ وأميالٌ منه تمتد على طول البحيرة وخلال أراضي ولايتين على رقعة أوسع من أي مكان في العالم، أفران الفحم وأفران الأوكسجين تحوِّلُ فلز الحديد إلى فولاذ، ومغارف عالية تحمل أطناناً من الفولاذ المُذاب، والمعدن الحارّ يُصَبّ كالحمم داخل

قوالب، ووسط كل ذلك الومض والغبار والخطر والضجيج، كان رجالٌ يكدحون وسط درجات حرارة تبلغ مائة درجة مئويّة، غارقين في الأبخرة التي يمكن أنْ تُدمّرهم، رجالٌ يكدحون على مدار الساعة، رجل يكدحون في عملٍ لا ينتهي أبداً. هذه كانت أميركا التي لم أكنْ مواطناً فيها ولن أكون وامتلكتُها مع ذلك كأي أمريكي. وبينما أحدِّق من نافذة القطار - وأتشرّب ما بدا لي عصرياً، وحديثاً، والرمز الحقيقيّ للقرن العشرين الصناعيّ، ومع ذلك الموقع الأثريّ الهائل - لم تبدُ أيّة حقيقة في حياتيّ أكثر جديّة من تلك.

على يميني رأيتُ أمامي بناء بعد بناء من أكواخ البنغالو المكسوّة بالسخام، ومنازل عمّال مصانع الفولاذ، تطلّ أفنيتها الخلفيّة على مشاهد طبيعيّة، وبعد المنازل تصطف على طول الشوارع دكاكين منخفضة حقيرة المظهر كانت العائلات اتي تسكنها تتبضّع منها، وكان تأثير عالم عمال الفولاذ اليومي، وفجاجته، وقسوته، بالغ التأثير عليّ، العالم الفظّ لأناسٍ كانوا دائماً يُضربون بالسياط، ومَدينين، يُسددون الفواتير - كانت شديدةَ الإلهام فكرةُ أنّه ***مقابل العمل الشاقّ يحصلون على أقلّ القليل، ومقابل كسر ظهورهم يحصلون على أقلّ تعويض*** - لا داعي إلى القول إنَّ لا شيء من مشاعري كانت ستبدو غريبة على أيرا رينغولد، في حين أنها كلها كانت ستُرعِب ليو غلوكسمان.

أول ما قال أوداي لي كان: ماذا عن زوجة أيرون مان؟ قد تحظى بإعجابي إذا تعرّفتُ عليها، ولكن هذا بعيد الاحتمال. إنَّ بعض الأشخاص الذين أحترمهم لديهم أصدقاء مُقرَبون لا يهمّني أمرهم. الطبقة البورجوازيّة المُرتاحة، الحلقة التي يعيش فيها الآن معها... لستُ متأكّداً. ثمة مشكلة تعاني منها الزوجات جميعاً. إنَّ كل المتزوجين مُفرطو الهشاشة - إنّهم رهائن ردّة الفعل المتمثّلة بزوجاتهم وأولادهم. لذلك تُرِكَ الأمر بين أيدي زُمرة من الشخصيات الصلبة وحدها للعناية بما ينبغي الاعتناء به. لا شك في أنَّ هذا كلّه كدّ، لا شك في ذلك، وجميل

أنْ يحصل المرء على منزل، وتكون لديه امرأة ناعمة تنتظره في آخر النهار، وربما يُنجبا ولدين. حتى الأشخاص الذين يعرفون فحوى الأمر يشعرون أحياناً بالسأم. لكنّ مسؤوليتي الآنيّة هي نحو العامل بالساعة، ومن أجله لن أقوم بأيِ عمل عليّ القيام به. ومهما كانت التضحية، فإنَّ ما عليك أنْ تتذكّر هو أنَّ حركاتٍ كهذه دائماً تتّجه نحو الأعلى، بغضّ النظر عمّا آلتْ إليه القضيّة الآنيّة.

القضيّة الآنيّة كانت أنَّ جوني أوداي طُرِدَ من النقابة وخسر عمله. وقابلتُه في النُزُل الذي لم يكن قد دفع قيمة الإيجار فيه منذ شهرَين؛ كانت لديه مُهلة أسبوع آخر يتدبّر خلالها أمر النقود أو يُطرَد. كان لغرفته الصغيرة نافذة تطل على جزء من السماء وكانت مُرتّبة. وكان فراش السرير المُفرد يستقرُّ ليس على رفّاص بل على منظومة من معدن وكان متيناً، بل وجميلاً، والدهان الأخضر الداكن على قوائم السرير لم يكن يتكسّر أو يتقشّر - كما كان حال المشعاع ذي الضجيج المرتفع - ومع ذلك كان النظر إليه يُثبط الهمّة. وفي العموم كان الفرش متقشّفاً كذاك الذي كان ليو يُقيم بينه في المنزل العالمي، ومع ذلك أذهلني وهج العزلة وأيضاً- إلى أنْ بدأ صوت أوداي الهادئ، المتوازن ونُطقه الحادّ بصورة غريبة يُخرِس بقوة شديدة حضورَ كل شيء ما عدا أوداي نفسه - دفعني إلى الاعتقاد أنَّ عليّ أنْ أنهض وأرحل. وكأنَّ ما لم يوجَد في تلك الغرفة تلاشى من العالم. وحالما جاء إلى الباب وأدخلني ودعاني بكل تهذيب إلى الجلوس أمامه، على أحد كرسيّي الجسر في الغرفة، على طاولة لا تتسع إلا لآلته الكاتبة، انتابني إحساس بأنَّ لا شيء اقتُطِعَ من أوداي إلا هذا الوجود ولكن، الأسوأ من ذلك، إحساس بأنَّ أوداي، وبصورة شريرة، اقتَطَعَ *نفسه* من كل شيء إلا هذا الوجود.

هنا فهمتُ ما كان أيرا يفعل في الكوخ. هنا فهمتُ أصل الكوخ والنكوص عن كل شيء - جمال القُبْح الذي ستجد إيف فريم أنّه لا يُطاق أبداً، الذي تركَ رجلاً وحيداً كراهب ولكن أيضاً مُتخففاً، حراً في

أنْ يكون جريئاً ولا يطرف له جفن وذا عزم. كانت غرفة أوداي تمثّل الانضباط، انضباطاً ينمُّ عن أنّه مهما كثُرَتْ رغباتي، أستطيع أنْ أكتفي بهذه الغرفة. إنَّ في وسع المرء أنْ يُخاطر بكل شيء إذا عرف كيف يتحمَّل العِقاب، وهذه الغرفة هي جزء من العقاب. لقد كان للغرفة تأثيرٌ قويّ: إنّه الصِلة بين الحرّية والانضباط، الصِلة بين الحرّية والوحشة، والصِلة بين الحريّة والعِقاب. لقد كانت غرفة أوداي، أو زنزانته، هي الجوهر الروحيّ لكوخ أيرا. وماذا كان الجوهر الروحيّ لغرفة أوداي؟ سوف أكتشفُ هذا بعد ذلك ببضع سنين عندما سأحدِّد، خلال زيارة قمتُ بها إلى زيوريخ، موقع المنزل مع الرقعة التذكاريّة التي تحمل اسم لينين، وبعد رشوة البوّاب بحفنة من الماركات السويسريّة سُمِحَ لنا برؤية صومعة الناسك حيث عاش الثوريّ مؤسِّس الفِكر البلشفيّ في منفاه على مدى عام ونصف العام.

ما كان ينبغي أنْ يكون ظهور أوداي مُفاجئاً. كان أيرا قد وصفَه بدقّة وبقيَ على تلك الصورة، أشبه بطائر مالك الحزين: نحيل، أنيق، واضح تقاطيع الوجه طوله ستّة أقدام وشعره الشائب مقصوص قصيراً جداً، ذو عينين كأنهما أيضاً شائبتان، وأنف كبير وحادّ كسكين، وبشرة – ***كالجلد المدبوغ*** – مُجعّدة كأنّه تجاوز الأربعين من العمر. لكنَّ ما لم يصِفه أيرا كان كيف منحه التعصُّبُ شكلَ جسدِ رجلٍ سُجنَ داخل فترة حُكمٍ قاسٍ هي حياته. كان مظهر كائن لا خيار له. وحياته تقرَّرتْ مُسبقاً. لم يكن لديه أيّ خيار شأنْ أيِّ شيء. كان كل ما في مقدوره أنْ يفعل هو أنْ ينفصل عن الأشياء لصالح قضيّته. وهو سريع التأثُّر بالآخرين. لم يكن الجسد فقط هو سلك من الفولاذ، ضيِّق بصورة يُحسد عليها؛ بل والأيديولوجيا، أيضاً، كانت أداة ومُحدَّدة كالصورة الجانبيّة لقامة طائر مالك الحزين.

تذكرتُ أيرا عندما قال لي: إنَّ أوداي يحمل معه كيساً خفيفاً للملاكمة بين أمتعته وأنه في الجيش كان سريعاً وقوياً إلى درجة أنّه، إذا ما اضطر، يستطيع أنْ يصرع رجلَين أو ثلاثة. كنتُ أتساءل طوال الطريق وأنا على

متن القطار إنْ كنتُ سأعثر على كيس للملاكمة في غرفته. وقد كان موجوداً. لم يكن مُعلَّقا في الركن بعلوّ الرأس، كما تخيّلتُ وكما كان سيكون لو أننا في صالة التمارين الرياضيّة. كان مُلقى على جنبه على الأرض ومُستنداً إلى باب خزانة، كيساً ضخماً من الجلد على شكل دمعة عين عتيق وبالٍ إلى درجة أنّه لم يبدُ مصنوعاً من الجلد بل كأنه جزء شاحب اللون من حيوان مذبوح – كأنَّما لكي يُثابر أوداي على الملاكمة حصل على خصية من فرس بحر نافق. إنها فكرة ليست عقلانيّة ولكنْ من المستحيل – بسبب خوفي الأوّليّ منه – أنْ تصلُح مهرباً.

تذكّرتُ الكلمات التي قالها أوداي في الليلة التي باح بها لأيرا عن شعوره بالإحباط لأنه لا يستطيع أنْ يقضي أيّامه في تشكيل الحزب هنا في المرفأ: إنني لستُ بارعاً في التنظيم، هذا صحيح. يجب أنْ يكون المرء داعماً للبلاشفة الخائفين، وأنا أميل أكثر إلى قطع رؤوسهم. تذكّرتها لأنني ذهبتُ إلى المنزل وأضفتُ تلك الكلمات في مسرحيتي الإذاعيّة التي كنتُ بصدد كتابتها، وتدور حول مُظاهرة تقوم في مصنع للفولاذ، وفيها تظهر كل قطرة من كلام جوني أوداي حَرفيّاً على لسان شخص اسمه جيمي أوشيا. وكان أوداي قد كتب لأيرا، سوف أُصبح الابن الشرعي لعاهرة من إيست شيكاغو وضواحيها، وهذا يعني أنْ ينتهي بي الأمر في حيّ فيست سيتي. وأصبحَ **فيست سيتي** هو عنوان مسرحيّتي التالية. لم تكن لي حيلة في ذلك. أردتُ أنْ أكتب عن أشياء بدتْ مهمّة، والأشياء التي بدتْ مهمّة هي الأشياء التي لم أكنْ أعرفها. وبما توفّر لديّ من كلمات حوّلتُ في الحال كل شيء إلى دعامة لي على أي حال، وهكذا خسرتُ في لحظات ما كان مهمّاً فيما هو مهمّ وما كان فورياً فيما هو فوريّ.

كان أوداي مُفلِساً، وكان الحزب أيضاً مُفلِساً ولا يستطيع استخدامه كمُنظِّم أو ليساعده مالياً بأيّة طريقة، وهكذا أمضى أيامه في كتابة كرّاسات لكي توزَّع عند باب المصنع، وفي استخدام الدولارات القليلة التي كان

يتداولها سراً بعضُ من أقرانه من عمّال الفولاذ القُدامى من أجل شراء الورق ولدفع إيجار آلة ناسخة وآلة صنع الرزّات، ومن ثم، في نهاية كل نهار، كان يحمل الكراسات بنفسه إلى بلدة غاري. والنقود القليلة التي تتبقّى يُنفقها على الطعام.

قال لي: إنَّ قضيّتي ضد شركة إنلاند ستيل لم تنته بعد، داخلاً في صُلب الموضوع، ويتعادل معي وكأنني مُساوٍ له، وحليف، إذا لم أقُل رفيق، يتحدث معي وكأنّ أيرا دفعه بصورة ما إلى الاعتقاد أنني أكبر من سنّي بمقدار الضعف، وأكثر استقلالاً بمائة مرة، وأكثر شجاعة ألف مرة. ولكن يبدو أن الإدارة ومُتصيّدي الحمر في الـ USA-CIO تسببوا في طردي ووضعي على اللائحة السوداء إلى الأبد. وبأساليب الحياة كافة، وفي كل مكان في البلد، يسيرُ الاتّجاه نحو سحق الحزب. إنهم لا يعلمون أنَّ CIO (مكتب المعلومات الرئيس) بإدارة فيل مري ليس هو الذي يُقرِّر القضايا التاريخيّة العظمى. انظر إلى الصين. إنَّ العامل الأمريكي هو الذي سيُقرّر ما هي القضايا التاريخيّة العُظمى. في مهنتي هناك الآن أكثر من مائة عامل في مصنع الصلب عاطلين عن العمل في هذه النقابة المحليّة. وهذه هي المرة الأولى منذ عام 1939 التي لا يتوفر فيها وظائف أكثر من الرجال، وحتى عمال مصانع الصلب، وهم يمثّلون الجزء الأكثر عطالة في كامل الطبقة الأجيرة، بدؤوا أخيراً يشكّون في الوضع. إنّه قادم، إنّه قادم - أؤكّد لك أنّه قادم. ومع ذلك، جعلوني أمثُل أمام الهيئة التنفيذيّة لعمال الصلب المحليين وطُرِدتُ بسبب انتسابي إلى الحزب. إنَّ أولاد الحرام أولئك لم يرغبوا في طردي، بل في أنْ أتبرَّأ من عضويتي. من المطبوعات الرخيصة، التي كنت في مركزها في ذلك الوقت - انظر. قال هذا، وناولني قُصاصة من جانب الآلة الكاتبة، إنها طبعة الأمس من صحيفة *غاري بوست-تريبيون*. كان يمكن للطباعة الرخيصة أنْ تُثير ضجّة كبرى، وعلى الرغم من أنّه كان يمكن أنْ أستعيد بطاقة عملي في تجارة الحديد، كان يمكن للكلمة أنْ تصل

إلى المتعهدين ورؤساء العصابات وتتسبّب في وضعي على اللائحة السوداء. إنها صناعة تقتصر على مجموعة قليلة، ولذلك فإنَّ الطرد من النقابة يعني أنني ممنوع من العمل في تجارتي. حسن، فليذهبوا إلى الجحيم. على أيّة حال، أستطيع أنْ أحارب بصورة أفضل من الخارج. أتعتبرني الطباعة الرخيصة، ومُزيّفو العمل وإدارات المدينة المُزيَّفة في غاري وإيست شيكاغو خطراً؟ عظيم. أيُحاولون أنْ يمنعوني من كسب لقمة عيشي؟ رائع. إنني لا أُعيلُ إلا نفسي. وأنا لا أعتمد على أصدقاء أو نساء أو أعمال أو على أي دعم تقليدي آخر في عيشي. ومع ذلك أعيش. إذا كانت صحيفة ***غاري بوست*** قال هذا، وأخذ القُصاصة التي لم أجرؤ على النظر إليها في أثناء كلامه مني وطواها بترتيب مرتين، وصحيفة ***هاموند تريبيون*** والبقيّة يعتقدون أنّهم سوف يطردوننا نحن الحُمر من ليك كاونتي بتلك الأساليب، إنهم مُخطئون. إذا تركوني وشأني، فقد يأتي يومٌ قريب وأغادر بإمكانياتي. أما الآن فليس معي نقود تؤهلني للذهاب إلى أي مكان ولذلك سوف يُضطرون إلى الاستمرار في التعامُل معي. في العموم عندما أناول نسخ الكراس عند بوابات المصنع للعمال يتقبّلونها بودّ وباهتمام. يرفعون أمامي علامة الانتصار، وفي لحظات كتلك تتوازن الكتب. لقد نلنا نصيبنا من العمّال الفاشيين، طبعاً. وفي ليلة يوم اثنين، قبل وقت قريب، بينما كنتُ أوزّع المنشورات أمام مصنع غاري الكبير، بدأ رجل ضخم وفظ يُناديني بالخائن وبالأبله، ولا أعلم ماذا أيضاً كان يدور في ذهنه ولم أنتظر ريثما أكتشف. آمل أنّه يُحبّ الحساء والبسكويت الخفيف. قُلْ هذا لأيرون مان. قال هذا وابتسم للمرة الأولى، ولكن بحزن، وكأنّ إقحام ابتسامة هو من أصعب الأشياء التي يفعلها. قال: أخبره بأنني ما زلت في أحسن حال. هيا نيثان، وأحزنني أنْ أسمع عامل الفولاذ العاطل ينطق اسمي المُعطى لي (أي، أنَّ هواجسي الجديدة بشأن الجامعة، وتفوّقي الحديث، وابتعادي عن الالتزام السياسيّ أحزنني) بعد أنْ سمعته تواً يصِفُ، بالصوت الهادئ، المتوازن نفسه، وبالنُطق المُتأنّي نفسه - وبألفة حميمة لم تبدُ أنّها مُستمدّة

من الكتب – إنَّ كتابيّ *القضايا التاريخيّة العظمى، الصين، 1939*، يصِفان قبل كل شيء الإيثاريّة الخشنة، المُضحِّية التي فرضتها مهمّته من أجل ***العامل الذي يكسب قوته بالساعة***. نيثان نطقها بالصوت نفسه الذي أثار القشعريرة في ذراعيّ عندما قال: ***إنّه قادم، إنّه قادم – أؤكّد لك أنّه قادم.*** قال أوداي: فلنُحضِر شيئاً نأكله.

منذ البداية، كان الفرق بين خطاب أوداي وخطاب أيرا جليّاً بالنسبة إليّ. ربما لأنَّه لم يكن هناك تناقُض في أهداف أوداي، ولأنَّ أوداي كان يعيش الحياة التي يهدي إليها، ولأنَّ الخطاب لم يكن ذريعة لأي شيء آخر، ولأنّه يبدو كأنه ينشأ من لبّ العقل الذي هو *التجربة*، كانت هناك خاصّيّة التوجّه إلى جوهر الموضوع المتوتِّرة فيما يقول، التفكير الثابت الراسخ، والكلمات نفسها تبدو كأنها تنطلق بقوة الإرادة، لا شيء مُتضخِّماً، لا تبديد للطاقة، بل، بدل ذلك، ومع كل لفظ، دهاءٌ مُراوِغ وأيضاً، مهما كان الهدف طوباوياً، هناك سِمة عمليّة عميقة، إحساس بأنَّ ثمّة مهمّة بين يديه كما في رأسه: إحساسٌ، يختلف عن ذاك الذي نقله إليه أيرا، بأنَّ الفِكر وليس انعدام الفِكر يستفيد من أفكاره – ويستخدمها. إنّه رنين ما اعتقدتُ أنّه الحقيقيّ الذي سرى في حديثه. ولم يكن صعباً إدراك أنَّ خطاب أيرا الطنّان كان تقليداً ضعيفاً لخطاب أوداي. رنين الحقيقيّ... على الرغم من أنّه أيضاً خطاب شخص لم يعرف الضحك. والنتيجة هي أنَّ هناك ما يُشبه الجنون في أُحاديّة هدفه، وهذا أيضاً ميَّزه عن أيرا. وفي جذبه لكل الاحتمالات الإنساني، كما فعل أيرا، التي طرحها أوداي من الحياة، كان هناك عقلانيّة، عقلانيّة حياة مُضطربة، ممتدة.

حين رجعتُ على متن القطار في مساء ذلك اليوم أربكتني قوة تركيزه الصارمة إلى درجة أنَّ كل ما فكّرتُ فيه هو كيف أُخبر أبويّ بأنَّ تلك الأشهر الثلاثة والنصف كانت كافية: كنتُ أغادر الجامعة لأنتقل إلى إيست شيكاغو بلدة الفولاذ، في إنديانا. لم أطلب منهما أنْ يدعماني مالياً. كنتُ سأعثر على عمل لأعيل نفسي، وغالباً سيكون عملاً متواضعاً

- ولكن هذا جيد، وإنْ لم يكن الهدف كله. فلم يعُد في استطاعتي أنْ أُبرِّر مواصلة الموافقة على تطلعات البورجوازيّ، الخاصة بهم أو بي، ليس بعد زيارتي مع دوني أوداي، الذي، على الرغم من كل الكلام الناعم الذي يُخفي الشغف، ظهر بوصفه أشدّ مَنْ قابلت في حياتي حيويّة، وثباتاً، وخطراً.

أقول خطراً لأنَّه لم يكن يهتم بي كما كان أيرا يفعل. كان أيرا يعلم أنني ابن شخصٍ آخر، فهِمَ ذلك بالحدْس - وأخبره والدي زيادة على ذلك- ولم يُحاول أنْ ينتزع حرّيتي مني أو أنْ يُبعدني عن مسقط رأسي. أيرا لم يُحاول أبداً أنْ يُغالي في تلقيني حزبياً، ولا كان شديد الرغبة في التمسُّك بي، على الرغم من أنّه طوال حياته كان ربما جائعاً إلى الحب ونهماً إلى الحب بدرجة تجعله دائماً توّاقاً إلى تلك الروابط الحميمة. هو فقط استعارني لبعض الوقت عندما جاء إلى نيوارك، استعارني بين حين وآخر لكي يتوفّر له شخص يُحدّثه عندما يشعرْ بالوحشة في أثناء زيارته لنيوارك أو يكون وحده في الكوخ، لكنّه أبداً لم يصحبني إلى أي مكان قريب من اجتماع شيوعيّ. كنتُ أكاد أجهل تماماً حياته الأخرى بأكملها تقريباً. كل ما كنتُ أحصل عليه هو الحديث الصاخب، والهذيان والبلاغة الخطابيّة وزخرفة الواجهة. لم يكن *فقط* عفوياً - كان أيرا لبقاً معي. وعلى الرغم من تعصّبه الشديد، إلا أنّه كان يُعاملني بكياسة ضافية، برقّة، وبوعيّ بوجود نوع من الخطر كان راغباً في مواجهته لكنه لم يرغب في تعريض فتى صغير له. معي كان هناك ودّ متمثّل في جسم ضخم هو الجهة المقابلة من الحنق والغضب. أيرا رأى أنَّ من المناسب أنْ يُثقّفني بدرجة معيَّنة. أنا لم أر المتعصّب بأكمله.

ولكن بالنسبة إلى أوداي لم أكن ابن أي شخص آخر عليه أنْ يحميه. بالنسبة إليه كنتُ الصديق الذي يجب تجنيده.

كان أوداي قد قال لي على مائدة الغداء: لا تُمازح التروتسكيين في تلك الجامعة، وكأنَّ التروتسكيين مشكلة جئتُ إلى إيست شيكاغو

لأتحدث معه عنها. أكلنا ونحن متقاربان الشطائر في حُجيرة في حانة مُعتمة حيث كانت سُمعته هناك لا تزال طيِّبة مع صاحب المكان البولونيّ وحيث فتى صغير مثلي، تواق إلى التواصل بحميميّة رجوليّة ووجدَ الوضع مناسباً جداً له. كان الشارع القصير، القريب من المصنع، يعجّ بالحانات ما عدا محل بقاليّة واحد في إحدى الزوايا وكنيسة في زاوية أخرى، وعلى الجانب المقابل من الشارع، هناك رقعة أرض خالية نصفها عليه ركام من خردة الحديد، ونصفها مقلب نفايات. كانت الريح تهبّ قوية من الشرق وتفوح بعبق أوكسيد الكبريت. وفي الداخل، كانت رائحة دخان وبيرة.

إنني غير تقليديّ بقدر كافٍ لأؤكّد على أنّه لا بأس من اللعب مع التروتسكيين، ما دمتَ تغسل يديك بعد ذلك. هناك أناسٌ يتعاملون مع زواحف سامّة طوال النهار، ويتمادون إلى درجة حلب سُمّها من أجل استخلاص ترياق لذلك السُمّ، وتعرَّضَ بعضٌ منهم للعض القاتل. خاصة لأنهم يعلمون أنَّ الزواحف سامّة **فعلاً**.

سألتُه ما معنى تروتسكيّ؟

أليس لديك عِلم بالاختلاف العميق بين الشيوعيين والتروتسكيين؟

كلا.

أخبرني عنه على مدى بضع ساعات. كانت القصة مُفعمة بتعبيرات مثل الاشتراكيّة العِلميّة والفاشيّة الجديدة والديمقراطية البورجوازيّة مُرفقة بأسماء لا أعرفها مثل (أولاً) ليون تروتسكي، وأسماء مثل إيستمان، ولوفستون، وزينوفييف، وبوخارين، وأحداث أجهلها مثل ثورة أكتوبر ومُحاكمات عام 1937 مع صيغ بدءاً بـ الإدراك الماركسي الحسّي بأنَّ التناقضات المتأصّلة في مجتمع رأسماليّ... وتآمر التروتسكيّون المُذعنون لتفكيرهم المُضلَّل لمنع الأهداف من التحقُّق على أيدي... ولكنْ مهما كانت تفاصيل القصّة عويصة ومُعقّدة، إلا أنَّ نطق أوداي لكل كلمة فاجأني بوضوحه وبُعده عن الإبهام، ليست

موضوعاً يتحدث عنه لمجرّد التحدُّث، ليست موضوعاً يتحدث فيه معي لكي أكتب أُطروحة فصليّة عنه، بل كفاح عانى في خوضه.

كانت الساعة قد قاربت الثالثة عندما أرخى قبضته على انتباهي. كانت طريقته في جعلك تُصغي إليه خارقة ووثيقة الصِلة بوعدٍ قطعه بصمت بألّا يُعرّضك للخطر ما دمتَ تركّز انتباهك على كل كلمة ينطقها. كنتُ مُرهقاً، وكانت الحالة قد خلتْ من روّادها، ومع ذلك انتابني إحساسٌ بأنَّ كلّ شيء ممكن يحدث من حولي. وتذكّرتُ تلك الليلة، وأنا فتى في المرحلة الثانوية، عندما تحدّيتُ والدي وذهبتُ لأنزل ضيفاً على أيرا في تظاهرة والاس في نيوارك، ومرّة أخرة شعرتُ برغبة في المُشاركة في شجار حول الحياة التي *تستحق العيش*، المعركة المجيدة التي كنتُ أطمحُ إليها منذ أنْ بلغتُ الرابعة عشرة.

قال أوداي، بعد أنْ ألقى نظرة سريعة إلى ساعة يده: هيا بنا، سوف أُريكَ وجه المستقبل.

وذهبنا إلى هناك. وذهبتُ *أنا* إلى هناك. وكان **هو** هناك، العالم الذي لطالما حلُمتُ بأنْ أكون رجلاً فيه. وانطلقت الصافرة، وفُتِحَتْ البوابات، ودخلوا - العمّال! رجال كورْوين العاديون المنتشرون، غير الرائعين لكنهم أحرار. الرجل الصغير! الرجل العاديّ! البولنديون! السويديون! الايرلنديون! الكرواتيون! الإيطاليون! السلوفينيون! الرجال الذين خاطروا بحياتهم في صناعة الفولاذ، وجازفوا بتعرّضهم للحرق أو السحق أو بالانفجار، وكل ذلك لصالح الطبقة الحاكمة.

كنتُ من فرط الحماس حتى أنني لم أستطع تمييز الوجوه، لم أستطع أنْ أرى أجساداً حقاً. رأيتُ فقط كتلتهم البدائيّة تتدفّق من خلال البوابات إلى المنزل. جمهرة الجماهير الأمريكية! تحتكُّ بي، ترتطمُ بي - وجه المستقبل، *وطاقته*! كانت الحافز إلى الصراخ - حزناً، وغضباً، واحتجاجاً، وانتصاراً - غامراً، كما كان الدافع إلى الانضمام إلى الرعاع لا يشكّل أي تهديد وهم ليسوا رعاعاً، للانضمام إلى السلسلة، إلى دفق

الرجال بأحذيتهم الضخمة بنعالِها السميكة وأتبعهم جميعاً إلى المنزل. كان ضجيجهم أشبه بضجيج حشدٍ في حلبة ملاكمة قبل بدء المباراة. والمباراة؟ إنّها مباراة المُساواة الأمريكية.

أخرج أوداي من حقيبةٍ تتدلّى من خصره مجموعة من الكراريس ودفعها إليّ. وهناك، أمام منظر المصنع، ذلك الصرح المُدخِّن التي ربما طوله ميل، وقفنا معاً جنباً إلى جنب نمنح كرّاساً لأي رجل مُغادر نوبة الساعة السابعة إلى الثالثة يمدّ يده ليأخذ واحداً. كانت أصابعهم تلمس أصابعي فتنقلب حياتي كلّها رأساً على عقِب. ويُصبح كل شيء في أميركا يقفُ ضد أولئك الرجال يقفُ ضدّي أنا أيضاً! هنا قطعتُ عهد موزِّع الكرّاسات: بألّا أكون أكثر من أداة ترضخ لإرادتهم. ولن أكون إلّا مُستقيماً.

آه، نعم، مع رجلٍ كأوداي تشعر بقوة الجذب. إنَّ جوني أوداي لا يُرافقك في خمسين بالمائة من الطريق ثم يتركك وحدك، بل يُرافقك على طوال الطريق كلّه. سوف تمحو الثورةُ هذا وتستبدله بذاك - بالصفاء غير الساخر لكازانوفا السياسيّ. وعندما تكون في السابعة عشرة وتُقابل شخصاً يتبنّى موقفاً عِدائياً وينظر إلى كل شيء مثالياً وينظر إلى كل شيء أيديولوجيّاً وليستْ لديه عائلة أو أقرباء أو منزل - ليس لديه ذلك الشيء الذي يجذب أيرا في عشرين اتّجاه مختلف، بلا كل هذه ***الانفعالات*** التي تجذب أيرا في عشرين اتّجاه مختلف، ومن دون كل ما يتبنّى رجلٌ مُضطرب كأيرا بسبب طبيعته، ومن دون ضجيج إرادة صنع ثورة سوف تُغيِّر العالم ووفي الوقت نفسه عاشر ممثّلة جميلة وتحصل على عشيقة شابة وتعبث مع عاهرة طاعنة في السن وتتوق إلى تكوين عائلة وتتشاجر مع ابنة زوجة وتُقيم في منزل فاخر في مدينة العروض المسرحيّة وفي كوخ بروليتاريّ في منطقة نائية، ومُصمِّم على أنْ يُدافع بقوّة عن شخص سراً وعن آخر علانيّة وعن ثالث في موقع بينهما، أنْ تكون أبراهام لينكولن وأيرون رن وأيرا رينغولد يجتمعون كلّهم معاً في

نفس مهتاجة وتضجّ بالحماس - لكنّه بدل ذلك مُكرَّسٌ لفكرته، وليس مسئولاً عن أي شيء غير فكرته، ويفهم فهماً دقيقاً ما يحتاج إليه ليعيش حياة مُشرِّفة، ثم تقول لنفسك كما قلتُ *إنني أنتمي إلى هذا المكان!*

وهذا ربما ما قاله أيرا لنفسه لدى لقائه بأوداي في إيران. وبالطريقة نفسها ترك أوداي أثراً عميقاً عليه. إنّه يأخذك ويربطك إلى الثورة العالميّة. وحده أيرا انتهى به الأمر مع كل ذلك الشيء الآخر غير المُتعمَّد، وغير المُصمَّم، وغير المقصود، وأقذف كل تلك الكرات الأخرى بالجهد الهائل نفسه للهيمنة - في حين أنَّ كل ما حظيَ أوداي به، ورغب في الحصول عليه، لم يكن إلا *الشيء الحقيقيّ*. ألأنه لم يكن يهودياً؟ ألأنه كان مسيحياً؟ ألأنّ أوداي كان، كما أخبرني أيرا، قد نشأ في ميتم كاثوليكيّ؟ أهذا هو السبب في أنّه ما كان يمكن أنْ يكون إلا عِظاماً حيّةً مُجرّدة، بشكل كامل، وبلا رحمة، وبكل وضوح؟

لم أكن أتّصِف بأي قدر من النعومة التي في داخله. فهل شعرَ هو بنعومتي؟ ما كنتُ لأدعه يفعل. لقد استُنزِفَتْ حياتي بما فيها من نعومة، هنا في إيست شيكاغو مع جوني أوداي! هنا عند بوابة المصنع عند الساعة السابعة صباحاً والساعة الثالثة بعد الظهيرة والحادية عشرة ليلاً وأنا أوزِّع المنشورات بعد كل نوبة عمل. سوف يُعلّمني كيف أكتبها، وماذا أقول وأفضل ما يمكن قوله من أجل دفع العامل إلى التحرُّك وجعل أميركا مجتمعاً عادلاً. سوف يُعلّمني كل شيء. إنني شخصٌ يتخلّى عن سجن انفصاله الإنسانيّ المُريح ويدخل، وأنا هنا إلى جانب جوني أوداي، الوسطَ المشحونَ المُسمّى التاريخ. عمل وضيع، وحياة فقيرة، نعم، ولكن هنا إلى جانب جوني أوداي، *الحياة* ليست بلا معنى. على العكس، فكل شيء له مغزى، وكل شيء عميق وهامّ!

من مثل تلك الانفعالات قد تتخيَّل أنني لن أعثر على طريق العودة أبداً. ولكن بحلول منتصف الليل أكون ما أزال لم أتصل بعائلتي لأخبرها بقراري. كان أوداي قد أعطاني كُراستين صغيرتين لكي أقرأهما وأنا على

متن القطار في طريقي إلى شيكاغو. أحدهما عنوانه *النظرية والتطبيق في الحزب الشيوعيّ*، وهو جزء من سلسلة دراسة ماركسيّة أعدَّها مكتب الثقافة الوطنيّة في الحزب الشيوعيّ، وفيه فُضِحَت طبيعة الرأسماليّة، والاستغلال الرأسماليّ، والصراع الطبقيّ بصورة مُدمِّرة ضمن لا أكثر من خمسين صفحة. ووعدني أوداي بأننا عندما نجتمع في المرة التالية سوف نناقش ما قرأتُ وبأنّه سوف يُعطيني الجزء الثاني، الذي، كما قال لي: تطوّر على مستوى نظريّ أرقى مواضيع الجزء الأول.

الكراس الآخر أخذته معي في طريق عودتي على متن القطار في ذلك اليوم. كرّاس *مَنْ يمتلك أميركا؟* من تأليف جيمس س. ألن، كان يُناقش – ويتكهّن – بأنَّ الرأسماليّة، حتى وهي في أقوى تجسيد لها في أميركا، تُهدِّد بإعادة إنتاج الكارثة على مقياس يتّسع باطراد. كان الغلاف رسم كرتونيّ، باللونين الأزرق والأبيض، يمثّل رجلاً بديناً على شكل خنزير يعتمر قبعة عالية ويرتدي بذلة رسميّة بذيل، وجالس بهيئة متعجرفة على قمة حقيبة منتفخة بالنقود ومكتوب عليها أرباح وبطنه المنتفخة مُزخرفة برمز الدولار. وفي الخلفيّة تظهر مصانع أميركا يتصاعد منها الدخان وتمثّل الأملاك التي صادرتها بشكل جائر الطبقة الثريّة من ضحايا الرأسماليّة الأساسيين، العمال المُكافحين.

قرأتُ الكراسين وأنا على متن القطار؛ وفي غرفة نومي أعدتُ قراءتهما من جديد، آملاً في أنْ أعثر بين صفحاتهما على القوة لأتّصل هاتفياً بالمنزل وأنقل إليهم أخباري. كان عنوان الصفحات الأخيرة من كرّاس *مَنْ يمتلك أميركا؟* هو أصبِحْ شيوعياً! قرأتُها بصوت مرتفع وكأنَّ جوني أوداي بنفسه يُخاطبني: نعم، معاً سوف ننتصر بإضراباتنا. سوف نُشكِّل نقاباتنا، سوف ننضمّ معاً لنقاتل في كل خطوة ونُخرِج على المسرح قِوى الرجعيّة، والفاشيّة، وصناعة الحرب. معاً سوف نسعى إلى بناء حركةٍ سياسيّة مُستقلّة عُظمى تتنافس في الانتخابات الوطنيّة مع أطراف الاتحاد الاحتكاريّ. ولن نسمح بلحظة راحة للمُغتصبين، ولحكومة

الأقلّيّة التي تُدمّر الأمّة. لا تدعوا أحداً يُشكِّك في وطنيتكم، في ولائكم للأمّة. انضمّوا إلى الحزب الشيوعيّ. عندما ستُصبحون شيوعيين سوف تتمكنون، بالمعنى الأعمق للكلمة، من القيام بمسؤوليتكم كأمريكيين.

قلتُ في نفسي، لماذا لا يمكن بلوغ هذا الهدف؟ افعل هذا كما تستقلّ متن الحافلة وتذهب إلى البلدة وتحضر تظاهرة والاس. هل حياتك ملكُك أم هي مُلكهم؟ هل تستمد الشجاعة من مُعتقداتك أم لا تستمد؟ هل أميركا هذه هي النوع الذي تريد أنْ تعيش فيه أم تنوي أنْ تخرج وتجعلها ثوريّة؟ أم أنكَ، كأي طالب جامعي مثاليّ آخر تعرفه، مجرد مُنافق أنانيّ، صاحب امتياز؟ ممَّ أنت خائف - من المشقّة، من الازدراء، من الخطر، أم من أوداي نفسه؟ ممَّ أنت خائف إذا لم يكن من رقّتك؟ لا تعتمد على والديك ليُخرجاك من هذا الوضع. لا تتّصل بالمنزل وتطلب السماح لك بالانضمام إلى الحزب الشيوعيّ. احزم أمتعتك وكتبك وعُدْ إلى هناك ونفّذ الأمر! فإذا لم تفعل، فهل هناك فرق حقاً بين مقدرتك على أنْ تجرؤ على التغيُّر ومقدرة لويد براون، وبين جراءتك وجراءة براوني، مُساعد بائع البقالة الذي يُريد أنْ يرِثَ مقعد تومي يناريك هناك على ركام الصخور في زنك تاون؟ كم يختلف فشل نيثان في إنكار آمال عائلته المعقودة عليه وكفاحه لكي يشقّ طريقه إلى الحريّة الأصيلة عن فشل براوني في معارضة آمال عائلته هو وكفاحه شاقاً طريقه هو نحو الحريّة؟ إنّه يمكث في زنك تاون ويبيع فلزات المعادن. إنني أمكث في الجامعة لأدرس أرسطو - وانتهى بي الأمر لكي أُصبح نسخة من براوني تحمل شهادة.

عند الساعة الواحدة صباحاً اجتزت ميدواي من موقع غرفة نومي خلال عاصفة ثلجيّة - أول عاصفة ثلجيّة لي في شيكاغو - متوجهاً إلى مقرّ المنزل العالمي. تعرَّفَ الطالب البورميّ الجالس على طاولة أداء واجبه عليّ، وفتح باب الأمن وقلتُ سيد غلوكسمان، فأومأ برأسه، وعلى الرغم من الساعة المتأخّرة، سمح لي بالدخول. ارتقيتُ إلى الطابق الذي

يعيش فيه ليو وقرعت الباب. كان في وسعك أنْ تشمّ رائحة الكَري في ساعات الصباح الباكر بعد أنْ طبخ أحد أولئك الطلاب الأجانب العشاء لنفسه على لوح التسخين في غرفته. كنتُ أفكّر، ربما هو فتى هندي قادم من بومباي لكي يدرس في شيكاغو، وأنت تخافُ أنْ تعيش في إنديانا. انهضْ وحارب الجور! استدِرْ وارْحل - ما زالت الفرصة مُتاحة لك! تذكّر بوابة المصنع!

ولكنْ لأنني أمضيت ساعات طوال أتكلَّم بصوت مرتفع جداً - لأنَّ العديد من *سنوات* المُراهقة كانت تسودها كل هذه المُثُل العليا والرؤى الجديدة عن الحقيقة - عندما فتح ليو، وهو ببيجامته، باب غرفته، انفجرتُ بالبكاء، وبفعلي ذلك، ضلّلته بصورة سيئة. وأفضيتُ بكل ما لم أجرؤ على الإفضاء به لجوني أوداي. الرقّة، الفتوّة، وكل ما أتّصف به ولا يليق بأوداي. كل ما أُمثّله من تفاهة. لِمَ لا يمكن إنجاز هذا؟ لقد افتقدتُ ما أفترِض أنَّ أيرا أيضاً افتقده: قلباً بلا انقسامات، قلباً أشبه بقلب أوداي الضيِّق الذي يُحسَد عليه، واضحاً، مُستعداً لإنكار كل إنسان وكل شيء ما عدا الثورة.

قال ليو برقّة: أوه، نيثان، يا صديقي العزيز. كانت تلك المرّة الأولى التي يُخاطبني بها بغير سيد زوكرمان. أجلسني على طاولة مكتبه، ووقف فوقي لا تفصله عني أكثر من بضعة إنشات، وراح يُتابعني، وما أزال أبكي، وأنا أحلُّ أزرار السترة المُبلَّلة والمُثقلة بالثلج. ربما اعتقد أنني أنوي أنْ أنزع عني ملابسي كلها. ولكن بدل ذلك، بدأتُ أحكي له عن الرجل الذي قابلته. قلتُ له إنّي أردتُ الانتقال إلى إيست شيكاغو لكي أعمل مع أوداي. كان عليّ أنْ أفعل ذلك، إرضاءً لضميري. ولكن هل كان في وسعي أنْ أفعل ذلك من دون أنْ أُخبر أهلي؟ وسألتُ ليو إنْ كان ذلك تصرُّفاً مُشرِّفاً.

قال: أيّها التافه! أيها العاهر! اخرج! اخرج من هنا! أيها العاهر القذر الحقير يا ذا الوجهين! ورمى بي خارج الغرفة وصفق الباب بقوة.

لم أفهم. إنني حقاً لم أفهم بيتهوفن، وكنتُ ما أزال أواجه صعوبة في فهم كييركغارد، وما صرخَ ليو بشأنه ودفعَه إلى التعبير عنه بالصراخ كان أيضاً شيئاً مُبهماً بالنسبة إلي. إنَّ كل ما فعلتُ أنني أخبرته بأنني أفكِّرُ في العيش مع عامل فولاذ شيوعيّ يبلغ الثامنة والأربعين من العمر بدا، كما وصفتُه له، أنّه يُشبه قليلاً الممثّل مونتغومري كليفت عجوزاً - وإذا بليو، بدوره، يرميني إلى الخارج.

ليس فقط الطالب الهندي في الطرف المقابل من الممرّ بل تقريباً كل الطلاب الهنود والطلاب الشرقيين والطلاب الأفريقيون في الرواق خرجوا من غرفهم ليروا سبب الهرج. معظمهم، في مثل تلك الساعة، كانوا بقمصان النوم التحتيّة، وما شاهدوا كان فتى اكتشف تواً أنَّ البطولة ليست من السهل مُصادفتها في سن السابعة عشرة كما هي سهلة بالنسبة إلى فتى موهوب في السابعة عشرة لاقترابه من البطولة ومن وجهة النظر الأخلاقيّة من كل شيء. ما اعتقدوا أنّهم شاهدوه كان شيئاً آخر تماماً. ما اعتقدوا أنّهم شاهدوا أنا نفسي لم أعرفه إلى أنْ أدركتُ، وأنا في درس العلوم الإنسانيّة، أنَّ ليو غلوكسمان منذ ذلك الوقت فصاعداً سوف يحطّ من قدري ليس فقط كنكِرة متفوق، ناهيك عن كوني نكرة مُقدَّر له أنْ يُصبح رجلاً عظيماً، بل الأقلّ خِبرة، والرجعيّ ثقافياً وأشد المُحافظين هزليّة، بشكل فاضح، لأنني اعترفتُ بقبولي في جامعة شيكاغو. ولم ينجح كل ما قلت وما كتبتُ في الصف ولأجل الصف حتى آخر ذلك العام، ولا شيء من رسائلي المُطوَّلة التي أشرح فيها ما قلت واعتذر مُشيراً إلى أنّني *لم* أُغادر الجامعة لكي أنضمَّ إلى أوداي، في تحريره من وهمه.

بعتُ الصحف من باب إلى باب في جرزي في صيف ذلك العام - والأمر لا يُشبه توزيع الكراسات اليدويّة أمام مصنع الفولاذ في إنديانا عند الفجر، والغسق، وفي ظلام الليل. وعلى الرغم من أنني تبادلت الحديث عبر الهاتف مع أيرا ووضعنا خططاً لأجلي لكي آتي إليه في الكوخ في شهر أب، لحُسن حظي اضطرّ إلى إلغاء الموعد في الدقيقة الأخيرة ومن

ثم رجعتُ إلى المدرسة. وبعد ذلك ببضعة أسابيع، خلال الأيام الأخيرة من شهر تشرين أول عامَ 1951، سمعتُ أنّه وآرتي سوكولو، بالإضافة إلى المُخرج، والمؤلِّف الموسيقي، واثنين آخرين من ممثلي البرنامج الأوائل، والمُعلِن الإذاعي الشهير مايكل ج. مايكلز، طُرِدوا من برنامج ***الأحرار والشجعان***. نقل والدي إليّ الخبر عبر الهاتف. ولم أكن من قُرّاء الصحف المواظبين، وأخبرني أنَّ الخبر ظهر في اليوم السابق في صحيفتيّ نيوارك الاثنتين، بالإضافة إلى كل صحف نيويورك اليوميّة. كانوا قد أطلقوا عليه في العنوان الرئيس لصحيفة ***نيويورك جورنال-أميركان*** لقب الحديد الحامي، حيث كان برايدن غرانت الذي يكتب فيها عموده شيوعياً. وانتشر الخبر عبر عموده كرمة غرانت.

كان في استطاعتي أنْ أعرف من نبرة صوت والدي أنَّ أشدَّ ما يُقلقه هو أنا - خلفيات صداقتي مع أيرا - قلت له بسُخط شديد، لأنهم ينعتونه بالشيوعيّ، لأنهم يكذبون ويُسمّون ***كل شخص*** شيوعياً - قال: يمكنهم أنْ يكذبوا ويُسمّونك شيوعياً أيضاً، **نعم**، فليكُنْ! **فقط دعهم!** ولكن مهما صرخت في وجه والدي اخصاصي الأقدام الليبرالي وكأنّه المدير التنفيذي في الإذاعة الذي أقال أيرا وجماعته من مناصبهم، ومهما أعلنتُ بصوتٍ مرتفع أنَّ الاتّهامات لا تنطبق على أيرا كما لا تنطبق عليّ، إلّا أنّي علِمتُ من قضائي فترة ما بعد الظهيرة تلك مع جوني أوداي كم يمكن أنْ أكون مُخطِئاً. كان أيرا قد خدم مدة تتجاوز السنتين مع أوداي في إيران. كان أوداي أقرب أصدقائه. وعندما تعرَّفتُ عليه، كان لا يزال يتلقّى رسائل طويلة من أوداي ويردّ عليها. ثم كان هناك غولدستين وكل ما قال في مطبخه. لا تدعه يملؤك بأفكاره الشيوعيّة، يا ولد. إنَّ الشيوعيين ينالون من غبيّ مثل أيرا ويستغلّونه. اخرج من بيتي، أيّها الأحمق الشيوعيّ الأبله...

كنتُ قد رفضتُ بإرادتي أنْ أجمع كل هذا معاً. هذا وألبوم الأغاني وأكثر.

أتتذكّر بعد ظهيرة ذلك اليوم في غرفة مكتبي، يا نيثان، عندما جاء من نيويورك؟ أنا طرحتُ عليه أسئلة وأنتَ طرحتَ عليه أسئلة، فماذا قال لنا؟

الحقيقة؟ أخبرنا الحقيقة؟

أنا سألته هل أنت شيوعيّ، يا سيد رينغولد؟ وسألتَه أنت هل أنت شيوعيّ، يا سيد رينغولد. قال والدي بشيء صاعق في صوته لم أعرفه من قبل: إذا كذب، إذا كذبَ ذلك الرجل على ابني...!

ما تبيّنتُ في صوته كان رغبة في القتل.

قال والدي: كيف يمكن أنْ تتعامل مع شخص يكذب عليك حول شيء جوهريّ؟ كيف؟ إنها لم تكن كذبة طفل، بل كانت كذبة صدرتْ عن شخص راشد. كانت كذبة مُحرّضة. كانت كذبة ***بكل معنى الكلمة***.

وتابعنا، وأنا أتساءل، لِمَ أيرا منزعج، لِمَ لم يُخبرني بالحقيقة؟ كنتُ سأذهب إلى زنك تاون في كل الأحوال، أو سأحاول أنْ أذهب. ولكن، هو لم يكذب فقط عليَّ. لم تكن تلك هي النقطة المُهمَّة. لقد كذبَ على الجميع. إذا كذبتَ في هذا الأمر على الجميع، تلقائياً وطوال الوقت، فأنت تفعل ذلك عن عمد، لكي تغيِّر علاقتك بالحقيقة. لأنَّ لا أحد يستطيع أنْ يرتجل ذلك. أما أنْ تقول الحقيقة لهذا الشخص، وتكذب على ذاك – هذا لا يُجدي. إذن الكذب هو جزء مما يحدث عندما يرتدي ذلك الزيّ. إنّه يمثّل جزءاً من التزامه به. لم يخطر في باله أنْ يقول الحقيقة، خاصة لي؛ كان ذلك ليس فقط سيُعرِّض صداقتنا للخطر بل وسيُعرّضني أنا للخطر. كانت هناك أسبابٌ كثيرة لكذبه، ولكنْ لم أستطع أنْ أشرح أياً منها لوالدي، حتى وإنْ تفهّمتها كلها في حينه.

بعد التحدُّث مع والدي (ومع أمي، التي قالت: لقد توسّلتُ إلى والدك كي لا يتّصل بك، كي لا يُزعجك)، حاولتُ أنْ أتّصل هاتفياً بأيرا في الشارع الحادي عشر الغربي. كان الخط مشغولاً طوال الأمسية، وعندما اتّصلتُ مرة أخرى في صباح اليوم التالي وكان الخط مفتوحاً، قالت لي

وندروس - المرأة السوداء التي كانت إيف تستدعيها لكي تخدم على مائدة العشاء باستخدام الجرس الصغيرة الذي كان أيرا يكرهه - لم يعُد يُقيم هنا، وأنهتْ المُكالمة. ولأنَّ أخا أيرا كان لا يزال أستاذي، أحجمتُ عن الاتّصال بمري رينغولد، لكنني كتبتُ لأيرا، في نيوارك، إلى عنوان جادّة ليهاي، عبر السيد رينغولد، ومن جديد إلى عنوان صندوق البريد في زنك تاون. ولم أتلقَّ جواباً. كنتُ أقرأ القُصاصات التي يُرسلها والدي إليّ عنه مأخوذة من صُحُف، وأصرخُ عالياً أكاذيب! أكاذيب! أكاذيب قذرة! ولكنني أتذكّر بعد ذلك جوني أوداي وإروين غولدستين ولا أعرف ماذا أعتقد.

بعد ذلك بأقل من ستة أشهر ظهر في محلات ببيع الكتب في أميركا كتاب إيف فريم *تزوّجتُ شيوعياً* - مطبوعاً على عجل -، كما لُقِّنَ لبرايدن غرانت. كان الغلاف، الأمامي والخلفي، نسخة من العلم الأمريكي. على الغلاف الأمامي يظهر العلم منشوراً يرفرفُ ممزّقاً، وداخل شكل دمعة بيضاوي تظهر صورة فوتوغرافيّة حديثة العهد بالأبيض والأسود لأيرا وإيف: إيف تبدو بقبعتها الصغيرة جميلة برقّة، وتضع خِماراً مُنقّطاً جعلته مشهوراً، وترتدي سترة من الفرو، وتحمل كيس نقود مُستديراً- إيف ترسمُ ابتسامة مُشرقة لآلة التصوير وهي تسير في الشارع الحادي عشر الغربيّ وذراعها في ذاع زوجها. لكنَّ أيرا لا تبدو عليه السعادة على الإطلاق؛ ومن تحت قبعة المخمل يُحدِّق من خلال نظّارته الثقيلة إلى آلة التصوير وعلى وجهه تعبير جدّيّ ومُضطرب. وفي مركز غلاف ذلك الكتاب بالضبط كُتِبَ *تزوّجتُ شيوعياً* بقلم إيف فريم، كما ورد على لسان برايدن غرانت، وكان رأس أيرا مُحاطاً بلون أحمر فاقع.

في الكتاب، ادّعتْ إيف أنَّ أيرون رن، المعروف باسم أيرا رينغولد، هو مجنون شيوعيّ اعتدى عليها وبثَّ فيها الرعب بأفكاره الشيوعيّة، وفي كل ليلة على مائدة العشاء يُلقي عليها وعلى سيلفيد محاضرات، ويصرخ فيهما ويبذل قُصارى جهده لكي يُمارس عليهما غسيل مخ ويدفعهما

إلى العمل لصالح القضيّة الشيوعيّة. لا أعتقد أنني شهدتُ أيَّ سلوك بطوليّ كالذي أبدته ابنتي الشابة، التي لم تحبّ شيئاً قدر حبّها للجلوس بهدوء طوال النهار والعزف على القيثارة، وهي تُجادلُ بحِدّة دِفاعاً عن الديمقراطيّة الأمريكية في وجه المجنون الشيوعيّ وأكاذيبه الستالينيّة، الديكتاتوريّة. ولا أعتقد أنني شهدتُ شيئاً في حياتي يُجاري تلك القسوة التي مارسها ذلك المجنون الشيوعيّ مُستخدماً أساليب مُعسكر الاعتقال السوفييتيّ لكي يُرضِخ تلك الفتاة الشجاعة.

على وجه الغلاف الأمامي كانت هناك صورة فوتوغرافيّة لسيلفيد، لكنها ليست سيلفيد التي عرفتُها، ليست بنت الثالثة والعشرين الضخمة والمتهكّمة بملابس الغجريّة والتي ساعدتني بصورة مُضحكة جداً خلال تناولي طعام العشاء في تلك الليلة في الحفلة والتي بعد ذلك أدخلتْ البهجة إلى قلبي تُشرِّح أصدقاء أمّها واحداً بعد آخر، بل سيلفيد ضئيلة الحجم، مُستديرة الوجه ذات عينين سوداوين كبيرتين، والضفيرة المجدولة وثوب الحفلات، تبتسم لأمها الجميلة عبر كعكة بيفرلي هيلز الخاصة بعيد الميلاد. سيلفيد بثوب قطني أبيض اللون مُطرّز بثمار الفريز الصغيرة، وتنورنها منفوخة بتنورة تحتيّة مُثبّتة بحزام كامل مربوط عند الظهر بعقدة أنشوطيّة. سيلفيد ذات وزن الإثنين وأربعين رطلاً وفي سن السادسة، بجورب كاحل أبيض وتنتعل حذاءً منخفض الكعب أسود اللون. سيلفيد ليس بوصفها ابنة بيننغتون أو حتى ابنة إيف بل ابنة الله. والصورة تُنجز ما كانت إيف تنوي أنْ تفعل من البداية وهو اسم ذو طابع رومانسي غامض: تطهير سيلفيد، تصعيدها من الحالة الصلبة إلى هواء. إنَّ سيلفيد قديسة، طاهرة تماماً من كل الآثام ولا تحتلّ أي حيِّز مهما صَغُرَ في هذا العالم. سيلفيد تمثّل كل ما لا يمثّله العداء.

في أحد مشاهد الذروة تهتف الطفلة الشجاعة بيأس لأمها، ماما، ماما، أولئك الرجال في غرفة المكتب يتحدثون الروسيّة!

عملاء روس، جواسيس روس، وثائق روسيّة. رسائل سرّيّة، مكالمات

هاتفيّة، رسائل تُسلَّم يداً بيد تتوافد على المنزل نهاراً وليلاً من شيوعيين من أرجاء البلد كلّه. اجتماعات خاصة في المنزل وفي المخبأ الشيوعي السرّي في أنأى موقع في براري نيو جرزي في شقّة سفليّة استؤجرت لفترة وجيزة عن طريقه في غرينيتش فيليج، في واشنطن سكوير نورث، على الجانب المقابل من التمثال الشهير للجنرال جورج واشنطن - شقّة امتلكها أيرون رن حصراً بهدف توفير ملاذ آمن للشيوعيين الفارّين من الإف بي آي.

صرخت أكاذيب! كلّها أكاذيب جنونيّة! ولكن كيف كان لي أنْ أتيقَّن من ذلك؟ كيف يمكن لأي إنسان أنْ يتيقَّن؟ ماذا لو كان ما ورد في المُقدّمة المُذهلة لكتابها صحيح؟ أيمكن أنْ تكون صحيحة؟ رفضتُ على مدى سنين عديدة أنْ أقرأ كتاب إيف فريم، لكي أحمي قدر استطاعتي علاقتي الأصيلة بأيرا حتى بعد أنْ أصبحت أتخلّى عنه باطراد وعن خُطبه الطنّانة إلى أنْ أنهيتُ تقريباً تلك العلاقة تماماً. ولكن لأنني لم أُرِد لذلك الكتاب أنْ يكون النهاية الفظيعة لقصتنا، تهرَّبتُ منه ولم أقرأ بالكامل أكثر من المقدّمة. ولم أكنْ شديد الاهتمام بما ورد في الصفحات عن النِفاق الخائن للممثّل الأول في عرض *الأحرار والشجعان*، الذي كان يُجسِّد كل تلك الشخصيات الأمريكية العظيمة على الرغم من أنّه قبِلَ أنْ يؤدي دوراً أكثر شراً بالكامل. ووِفقاً لشهادة إيف، كان المسؤول شخصياً عن تسليم كل سيناريوهات سوكولو إلى وكيل أعمال روسيّ لكي يُبدي اقتراحاته ويوافق عليها. ما الذي يدفعني إلى المشاركة في الحطّ علناً من قيمة شخص أحببته؟ لم يكن ذلك أمراً ممتعاً، وأيضاً لم يكن في وسعي أنْ أفعل أيَّ شيء بشأنه.

حتى إذا استثنينا تُهمة التجسُّس، فإنَّ قبول فكرة أنَّ الرجل الذي أدخلني إلى عالم لرجال يمكن أنْ يكون قد كذبَ على عائلتنا بشأن كونه شيوعياً لا تقلُّ إيلاماً بالنسبة إليّ عن قبول أنَّ ألغر هسّه أو آل روزنبرغ يمكن أنْ يكونوا قد كذبوا على الأمّة بنكران أنهم كانوا شيوعيين. ورفضتُ أنْ أقرأ أيَّ شيء منه، كما كنتُ قد رفضتُ قبل ذلك أنْ أُصدِّق أيّ شيء منه.

هكذا بدأ كتاب إيف، المقدّمة، والمفاجأة المُدوّية في الصفحة الأولى:

هل من مصلحتي أنْ أفعل هذا؟ هل من السهل عليَّ أنْ أفعل هذا؟ صدِّقني، إنّه ليس سهلاً أبداً. إنّها المهمّة الأشدّ بشاعة وصعوبة التي قمتُ بها في حياتي كلها. سوف يسأل الناس، ما هو دافعي؟ كيف يمكنني أنْ أعتبر أنَّ من واجبي الوطنيّ والأخلاقيّ أنْ أُبلِّغ عن رجلٍ أحببتُه بقدر حبّي لأيرون رن؟

لأنني كممثّلة أمريكية أخذتُ عهداً على نفسي بأنْ أكافح تسريب الشيوعيين لصناعة الترفيه بكل ذرّة من كياني. وبوصفي ممثّلة أمريكية فإنَّ أمامي مسؤوليّة رصينة اتّجاه جمهور المشاهدين الأمريكيين الذي منحني الكثير من الحب والشهرة والسعادة، مسؤوليّة راسخة ورصينة لكشف وفضح مدى شدّة القبضة الشيوعيّة على صناعة البثّ الإذاعيّ التي تعرّفتُ عليها من الرجل الذي كنتُ متزوجة منه، رجل أحببتُه أكثر مما أحببتُ أيَّ رجلٍ عرفته، لكنه رجل عزمَ على استخدام سلاح ثقافة الجماهير لكي يُدمِّر أسلوب الحياة الأمريكية.

ذلك الرجل كان الممثل الإذاعيّ أيرون رن، المعروف باسم أيرا رينغولد، حامل بطاقة عضوية في الحزب الشيوعيّ في الولايات المتّحدة الأمريكية وزعيم وحدة تجسُّس شيوعيّة سرّية مُلتزمة بالهيمنة على البثّ الإذاعيّ الأمريكي. إنَّ أيرون رن، المعروف بأيرا رينغولد، هو أمريكي يتلقّى أوامره من موسكو.

أنا أعرف السبب الذي دفعني إلى الزواج من هذا الرجل: إنّه حب المرأة. ولماذا تزوّج مني؟ لأنّه تلقّى أمراً من الحزب الشيوعي بذلك! إنَّ أيرون رن لم يُحبّني أبداً. أيرون رن استغلّني. أيرون رن تزوّجني لأنها الطريقة الأفضلّ للتسلُّل إلى عالم الترفيه الأمريكي. نعم، لقد تزوّجتُ شيوعياً ميكيافيليّاً، رجلاً شريراً ذا دهاء هائل كاد يُدمِّر حياتي، ومسيرتي المِهنيّة، وحياة طفلتي الحبيبة. وذلك كلّه من أجل دعم خطّة ستالين للهيمنة على العالم.

- 7 -

لقد كرهتْ إيف الكوخ. وخلال فترة حبّهما الأولى، حاولتْ أنْ تُجري عليه إصلاحات؛ علّقتْ ستائر، واشترت أطباقاً، وكؤوساً من الزجاج، وأدوات للمائدة، لكنَّ المكان كان يعجّ بالفئران، وبالدبابير، وبالعناكب، وكانت ترتعب منها، والمسافة إلى أقرب متجر بقالية تمتد أميالاً، ولما كانت لا تُحسِنُ قيادة السيارة، اضطرَّ مزارع محلّيّ يفوح برائحة الروث إلى إيصالها بالسيارة لتتسوَّق. في العموم، لم يكن أمامها ما تفعل في زنك تاون خلاف أنْ تزيل كل مصادر الإزعاج، وهكذا بدأتْ تشن حملة ضدها لكي تشتري مكاناً في جنوب فرنسا، حيث لوالد سيلفيد دارة، بحيث تستطيع أنْ تكون قريبة منه في فصول الصيف. قالت لأيرا: كيف تتحمل هذه الحياة البسيطة؟ كيف ستتعلَّم أي شيء ليس صارخاً عن هاري ترومان إذا لم تسافر، إذا لم تذهب إلى فرنسا لتشاهد الريف الفرنسيّ، إذا لم تذهب إلى إيطاليا لتشاهد اللوحات العظيمة، وإذا لم تذهب إلى أي مكان غير نيو جرزي؟ أنتَ لا تستمع إلى الموسيقى. ولا ترتاد المتاحف. وإذا لم يتحدث كتاب عن الطبقة العاملة، لا تَقرَأْه. كيف يمكن لممثّل - فيقول، اسمعي، أنا لستُ ممثلاً. أنا رجل عامل يكسب قوته في الإذاعة. *كان* لديك زوجٌ غندور. وتريدين أنْ تعودي إليه وتختبريه من جديد؟ هل تريدين زوجاً يشبه زوجَ صديقتك كاترينا، خريج جامعة هارفارد كالسيد لوني، وكصديق كاترينا السيد غرانت الثرثار؟

كانت كلما أثارتْ موضوع فرنسا وشراء منزل لقضاء الإجازات هناك، يتحمّس أيرا – لم يكن الأمر يبدو بالغ الأهميّة. لم يكن من طبعه في المعتاد أنْ يكره شخصاً مثل بيننغتون أو غرانت. لم يكن من طبعه في المعتاد أنْ يكره أيّ شيء. ولم يكن هناك شك في أنَّه لا فائدة من غضبه. كان يقول لها لقد سافرتُ، وعملتُ على متون السُفن في إيران. وشاهدتُ ما يكفي من الانحطاط الإنسانيّ في إيران... إلى آخره إلى آخره...

زبدة القول هي أنَّ أيرا لم يتخلَّ عن الكوخ، وكان ذلك مصدراً آخر من مصادر الخلاف بينهما. في البدء كان الكوخ هو ما تبقّى من حياته القديمة وكان بالنسبة إليها يمثّل جزءاً من سِحره الريفي الفجّ. وبعد فترة وجيزة من الوقت صارت تنظر إلى الكوخ كموطئ قدم بعيداً عنها، وهذا أيضاً ملأها بالرعب.

ربما أحبّته وهذا ما أشاع فيها الخوف من فقدانه. بالنسبة إليّ لم أر في حركاتها المتكلِّفة أي أثر للحب. لقد تدثّرتْ إيف برداء من الحب، من وهم الحب، لكنّها كانت من فرط الضعف والهشاشة بحيث لا تمتلئ بالاشمئزاز. كانت شديدة الخوف من كل شيء بحيث عجزت عن منح الحب الحسّاس والصحيح – وعن منح أي شيء ما عدا صورة هزليّة للحب. وهذا ما حصلتْ عليه سيلفيد. تخيّل معنى أنْ يكون المرء ابنةً لإيف فريم- ***وأيضاً*** ابنة كارلتون بيننغتون – وسوف تبدأ بفهم كيف تطوّرت شخصيّة سيلفيد. إنّ شخصيّة مثلها لا تُصنَع بين ليلة وضُحاها.

إنَّ كامل الجزء المكروه في أيرا، كل ما لم يُروَّض فيه بصورة مُثيرة للاشمئزاز، كان أيضاً بالنسبة إليها مُستتراً في ذلك الكوخ، لكنَّ أيرا رفضَ أنْ يتخلَّص منه. وما دام الكوخ بقيَ كما هو، فإنّه لم يستقبل سيلفيد. لم يكن هناك حيِّز لها لتنام ما عدا ذلك السرير الصغير الذي يتحول إلى أريكة في النهار في الغرفة الأماميّة، وفي المرات القليلة التي قامت بزيارة للمكان في كل صيف لقضاء عطلة نهاية الأسبوع شعرت بالضجر وبالبؤس. فالبِركة كانت موحلة ولم تستطع السباحة فيها، والغابة كانت

تعجّ بالناموس ولا يمكن السير فيها، وعلى الرغم من محاولات إيف الدائمة لتسليتها، إلا أنها لزمتْ المنزل مكتئبة مدة يوم ونصف ومن ثم هرعتْ عائدة إلى القطار وإلى قيثارتها.

ولكن في ذلك الربيع الأخير كانا معاً، وبدأتْ الخُطط توضَع من أجل إجراء إصلاحات على المكان. كان التحسين سيبدأ بعد عيد العمّال. كتحديث المطبخ، وتحديث الحمّام، ووضع نوافذ جديدة أكبر، وأرضيّات جديدة، وأبواب جديدة مناسِبة، ونظام إضاءة جديد، ونظام عزل بالنفخ وتركيب نظام تدفئة جديد من إحماء الزيت استعداداً لحلول الشتاء. والقيام بدهن كل شيء في الداخل والخارج. وإضافة كبيرة في الخلف، غرفة جديدة كاملة مُزوّدة بمدفئة كبيرة من الحجر وبنافذة واسعة تطلّ على مشهد طبيعيّ للبركة والغابة. استأجرَ نجّاراً، ودهّاناً، وعامل تمديدات كهربائيّة، وعامل تمديدات صحيّة، ووضعتْ إيف لوائح ورسمات، وكان كل شيء يجب أنْ ينتهي قبل حلول عيد الميلاد. قال أيرا لي: فلتحصلْ على كل ما تريد.

حينئذٍ بدأ انهياره، لكنّني لم أُدرك ذلك. ولا أدركه. لقد ظنَّ أنّها تضغط عليه، ظنَّ أنّ في استطاعته أنْ يُقابل ذلك بدهاء. لكنَّ آلامه وأوجاعه كانت تُتعِبه، وانهارت معنوياته، والجانب القويّ منه لم يكن ذاك الذي يُصدِر القرارات بل الذي كان يتحطَم فيه. لقد ظنَّ أنّه بتلبية رغباتها يستطيع أنْ يُقلِّل من الاحتكاك بينهما ويضمن حمايتها له ضد اللائحة السوداء. كان حينئذٍ يخشى أنْ يفقدها بفقدانه السيطرة على نفسه، ولذلك بدأ يُحاول أنْ يُنقِذ وضعه السياسيّ بترك تصرفاتها غير الواقعيّة تسري عليه بحريّة.

كان هناك الخوف. الخوف الشديد الذي شاع في تلك الأيام، وعدم التصديق، والقلق من الاكتشاف، والترقّب الناتج عن تعرُّض حياة المرء وحيويّته للتهديد. هل كان أيرا مُقتنعاً بأنَّ إيف تستطيع أنْ تحميه؟ ربما لا. ولكن أي شيء آخر كان في استطاعته أنْ يفعل؟

ماذا حدث لاستراتيجيّته البارعة؟ لقد سمعها تُسمّي الإضافة الجديدة بـ غرفة سيلفيد وهذا ما قضى على استراتيجيّته البارعة. لقد سمعها في الخارج وهي تعمل بالحفّارة الميكانيكيّة تقول هذا لغرفة سيلفيد وذاك لغرفة سيلفيد، وعندما ولجَتْ المنزل، متوهّجة وسعيدة، كان التحوُّل قد طرأ على أيرا. سألها لماذا تقولين هذا؟ لماذا تقولين إنَّ تلك الغرفة هي غرفة سيلفيد؟ قالت: أنا لم أقُلْ هذا. بل قلتِ. أنا سمعتك. هذه ليست غرفة سيلفيد، حسن، هي ستُقيم هنا *فعلاً*، حسبتُ أنّها ستكون مجرد غرفة خلفيّة كبيرة، غرفة الجلوس الجديدة، لكنها ستنام هناك على السرير الخفيف الجديد، أحقاً؟ متى؟ عندما ستنتقل إلى هنا طبعاً، لكنّها لا تحب هذا المكان، لكنّها سوف تُحبّه عدما سيُصبح المنزل غاية في الجمال، قال: إذن توقّفي. لن يكون المنزل جميلاً. سوف يكون المنزل رديئاً. اللعنة على المشروع كلّه، لماذا تعاملني هكذا؟ لماذا تعامل ابنتي هكذا؟ *ما خطبك*، أيرا؟ انتهينا. أُلغيَتْ عمليات التجديد، ولكن *لماذا*؟ لأنني لا أُطيقُ ابنتك وابنتك لا تُطيقني - هذا هو السبب، كيف *تجرؤ* على قول أيّ شيء ضد ابنتي! أنا خارجة من هنا! لن أبقى هنا! أنت تضطهد ابنتي! أنا لا أقبل هذا! ورفعَتْ سماعة لهاتف وطلبت سيارة أجرة محليّة، وفي غضون خمس دقائق رحلتْ.

بعد ذلك بأربع ساعات عرفَ إلى أينْ ذهبتْ. وتلقّى مكالمة هاتفيّة من سمسارة عقارات من نيوتن. وطلبتْ أنْ تتكلّم مع الآنسة فريم، فأخبرها بأنَّ الآنسة فريم ليستْ موجودة، فطلبت منه أنْ يوصِل رسالة إلى الآنسة فريم - إنَّ المنزلين الريفيين الجميلَين اللذين شاهدتهما معروضان للبيع، وكلاهما مناسب تماماً لابنتها، وتستطيع أنْ تُريهما لها في عطلة الأسبوع التالية.

إنَّ ما فعلته إيف، بعد أنْ غادرتْ، هو أنّها أمضت بعض الظهيرة في البحث عن منزل صيفيّ في مقاطعة سسكس لتشتريه لسيلفيد.

هنا اتصل أيرا بي. قال لي: لا أُصدِّق هذا. إنها تبحث عن منزل

لأجلها هنا – إنني **لا أستوعب**، فقلت أنا أستوعب. إنَّ الأمومة الرديئة لا نهاية لها. حان الوقت، يا أيرا، للانتقال إلى الشيء بعيد الاحتمال التالي.

ركبتُ السيار وتوجهتُ إلى الكوخ، وأمضيتُ الليل هناك، وفي صباح اليوم التالي جلبتُه إلى نيوارك. كانت إيف تتصل هاتفياً بمنزلنا، تتوسّل إليه أنْ يعود، لكنّه أخبرها بأنَّ ما بينهما قد انتهى، أنَّ زواجهما قد بلغ نهايته، وعندما عاد بث برنامج ***الأحرار والشجعان*** في الإذاعة، بقيَ معنا وكان يذهب إلى نيويورك لممارسة عمله.

قلتُ له أنتَ في هذا الأمر كأي شخص آخر. وسوف تسقط أو لا تسقط كأي شخص آخر. والمرأة التي تزوجتها لن تحميك ممّا يكمن لك أو للبرنامج أو لأي شخصٍ آخر وينوي أنْ يُدمّرك. إنَّ المُحرّضين الحُمر يتقدمون، ولا أحد سوف يخدعهم طويلاً حتى بعيش حياة مُضاعفة ***أربع مرات***. سوف ينالون منك وأنت معها أو من دونها، على الأقل من دونها لن يُعيقك شخص لا فائدة منه في الأزمة.

ولكن، مع مرور الأسابيع، أصبحَ أيرا أقلّ اقتناعاً فأقلّ بأنني على صواب، وكذلك فعلت دوريس، وربما، يا نيثان، لم أكن على صواب. ربما، وِفق أسبابه الخاصّة، إذا عاد إلى إيف، إلى وهجها، إلى صيتها، إلى علاقاتها العامة، فسوف يعملان معاً على إنقاذه وإنقاذ عمله. هذا ممكن. ولكن ما الذي كان سيُنقذه من الزواج؟ في مساء كل يوم، بعد أنْ تأوي لورين إلى غرفتها، كنا نجلس في المطبخ، دوريس وأنا نلف وندور حول الموضوع نفسه بينما أيرا يُصغي. كنا نجتمع حول طاولة المطبخ مع أكواب الشاي، وتقول دوريس، لقد تحمّلَ سُخفها ثلاث سنوات حتى الآن، حين لم يكن هناك أي سبب معقول لتحمّله. لِمَ لم يستطع أنْ يتحمّل سُخفها لثلاث سنوات أُخَر، عندما كان هناك على الأقلّ سبب معقول لتحمّله؟ إذْ مهما كان الدافع، خيِّراً أم شريراً، فإنه لم يتحمّس بشدّة أبداً لإنهاء الزواج طوال ذلك الوقت. فلِمَ يفعل ذلك الآن، في وقت قد يُساعده كونه زوجها؟ إذا كان في وسعه أنْ يُنقِذ بعض الفائدة، على الأقل

لن يكون اتّحاده بتينك المخلوقتين السخيفتين بلا فائدة. وأقول إذا عاد إلى ذلك الاتّحاد السخيف، فسوف يُدمّره ذلك الاتحاد السخيف. إنّه أسوأ من سخيف. إنّه في معظم الوقت في حالة بؤس، ويُضطر إلى المجيء إلى هنا لكي ينام، وتقول دوريس، سوف يشتد بؤسه عندما يبقى اسمه على اللائحة السوداء، في كلا الحالتين سوف يظهر اسمه على اللائحة السوداء. بسبب ثرثرة أيرا وخلفيته الاجتماعيّة، لن ينجو، فتقول دوريس كيف يمكنك التيقُّن من أنَّ الجميع سوف يفهمون؟ إنَّ الأمر كلّه قبل أي شيء لا عقلاني، ومُشوّش وليس له مُبرِّر – وأقول، دوريس، إنَّ اسمه ظهر حتى الآن في خمسة عشر أو عشرين مكاناً. يجب أنْ يحدث ذلك. لا مناص منه. وعندما يحدث، سوف نعلم أيّ جانب ستدعم. ليس جانبه، بل جانب سيلفيد – كي تحمي سيلفيد مما يحدثُ *له*. أنا أقول فلينته الزواج وبؤس الزواج وليقبل كون اسمه سوف يرِدُ في نهاية المطاف في اللائحة السوداء أينما ذهب. فإذا عاد إليها، فسوف يتشاجران، وسوف يتشاجر من الابنة، وسرعان ما سيُدرك سبب وجوده هناك، وهذا سيزيد لطين بِلَّه، وتقول دوريس إيف؟ تُدرك أيَّ شيء؟ يبدو أنَّ الواقع ليس له أقلّ أثر على الآنسة فريم. لِمَ سيطل الواقع برأسه الآن؟ قلتُ كلا، الاستغلال الساخر، التكسُّب الطُفيليّ – هذا شيء مُهين جداً. أنا لا أحبّ هذا بحدّ ذاته، ولا أحبّه لأنَّ أيرا عاجز عن اللجوء إليه. إنّه مُنفتح، ومتهوِّر، وصريح. إنّه حادّ الطِباع ولن يتمكّن من القيام به. وعندما ستكتشف سبب وجوده هناك، حسن، فسوف تجعل الأمور *أشدّ* بؤساً واضطراباً. إنها ليست مُضطرة إلى فهم فحوى الأمر بنفسها – شخصٌ آخر قد يفعل ذلك؟ أصدقاؤها من آل غرانت سوف يُدركون الفحوى. وربما فعلوا أصلاً. ماذا تنوي أنْ تفعل يا أيرا، إذا ذهبتَ إلى هناك يا أيرا، لتُغيِّر أسلوب حياتك معها؟ سوف تُضطر إلى أنْ تُصبح كلباً مُطيعاً، يا أيرا. أتستطيع أنْ تُصبح هكذا؟ أنت؟ قالت دوريس: سوف يتصرَّف بدهاء ويُتابع طريقه. قلت **لا يستطيع** أنْ يتصرَّف بدهاء ويُتابع طريقه. لن يكون داهية لأنَّ كل ما يحدث هناك يجرفه نحو الجنون. قالت دوريس:

حسن، إنَّ فقدانه كل ما عمل من أجله، وتلقّيه العقاب في أميركا بسبب مُعتقداته، وعندما تُصبح أيدي أعداءه هي العليا، سوف يجعل أيرا أشدّ جنوناً. لا يُعجبني هذا. وقالت دوريس: لكنّ هذا لم يُعجبك منذ البداية، يا مري. أنتَ الآن تستخدم هذا لدفعه إلى عمل ما أردتَ منه أنْ يفعله طوال الوقت. فليذهب استغلالها إلى الجحيم. إنّها موجودة لكي يتمّ استغلالها. ما معنى الزواج إذا لم يتضمَّن الاستغلال؟ إنَّ الناس في الزواج يتعرّضون للاستغلال مليون مرة. أحدهما يستغل موقع الآخر، وأحدهما يستغل مال الآخر، وأحدهما يستغل مظهر الآخر. أعتقد أنّه ينبغي أنْ يعود. أعتقد أنّه في حاجة إلى كل الحماية التي في استطاعته الحصول عليها. لمجرّد *أنّه* مندفع، ***لأنّه*** حادّ الطِباع. إنّه في حالة حرب، يا مري. إنّه مُعرَّض لإطلاق النار، ويحتاج إلى غطاء. وهي بمثابة الغطاء له. ألم تكن هي غطاء بيننغتون لأنه مثليّ جنسياً؟ والآن فلتكُنْ غِطاءً لأيرا لأنّه شيوعيّ. فلتكُن مفيدة *لشيءٍ ما*. كلا، أنا لا أرى الاعتراض. وجرَّ القيثارة بصعوبة، أليس هو كذلك؟ لقد أنقذَها من تلك الطفلة التي توسِعُها ضرباً، ألم يفعل؟ لقد قام بما استطاع القيام به من أجلها. فلتقُم هي الآن بما في استطاعتها القيام به من أجله. الآن، بفعل الحظ، وبمحض المُصادفة، تستطيع هاتان الاثنتان أنْ تفعلا أخيراً شيئاً آخر غير الشكوى والتأوُّه حول أيرا والحرب الناشبة بينهما. بل هما ليستا في حاجة إلى أنْ تعيا ذلك. ومن دون أنْ تبذلا أيّ مجهود، تستطيعان أنْ تكونا مُفيدتين لأيرا. فما هو الخطبُ في ذلك؟ قلتُ إنَّ شرفَ الرجل مُعرَّضٌ للخطر، هذا هو الخطر. ونزاهته مُعرَّضة للخطر. الوضع كلّه يُخزي. أيرا، لقد تناقشتُ معك حول الانضمام إلى الحزب الشيوعيّ. وتناقشتُ معك حول ستالين وتناقشتُ معك حول الاتحاد السوفيتي. تناقشتُ معك ولم يُشكّل ذلك أيّ فرق: كنتَ مُلتزماً بالحزب الشيوعيّ. حسن، إنَّ هذه المحنة هي جزءٌ من هذا الالتزام. لا أحبّ أنْ أتخيّلك تتذلّل. لعل الوقت قد حان للتخلّي عن كل الأكاذيب المُخزية. عن الزواج الكذبة وعن الحزب السياسيّ الكذبة. إنّ كلتاهما تحطّان من قدرك.

استمرّت المُناظرة طوال خمس ليالٍ متواصلة. وعلى مدى خمس ليال لزم الصمت. لم أعهده صامتاً إلى تلك الدرجة. هادئ إلى تلك الدرجة. وأخيراً، التفتَتْ دوريس نحوه وقالت أيرا: هذا كل ما لدينا نقوله. لقد ناقشنا كل المواضيع. إنّها حياتك، ومسيرتك المهنيّة، وزوجتك، وزواجك. إنّه برنامجك الإذاعيّ. والآن حان الوقت لاتخاذ قرارك. الأمر منوطٌ بك، وقال: لو أنَّ في استطاعتي أنْ أتمسّك بموقفي، لو أنجح في ألّا أُزاح جانباً ويُرمى بي إلى حاوية القمامة، فإنني بذلك أخدمُ الحزب أكثر من الجلوس والقلق بشأنْ نزاهتي. إنني لا أقلق بشأنْ جرح مشاعري، بل أقلق بشأن كوني فعّالاً. أنا أريد أنْ أكون فعّالاً. وسوف أعود إليها، قلت لن ينجح الأمر، قال لي: بل سينجح. إذا أدركتُ بجلاء سبب وجودي هناك، فسوف *أحرص* على أنْ ينجح.

في تلك الليلة بالذات، وبعد ذلك بنصف ساعة، وخمسٍ وأربعين دقيقة، رنّ جرس باب الطابق السفلي. كانت قد استأجرتْ سيارة لتوصِلها إلى نيوارك. كان وجهها ممتقعاً، كأنها شبح. لقد ارتقت الدرج مُسرعة، وعندما رأتْ إيف دوريس في مسطبة الدرج العليا، أشرقت تلك الابتسامة على وجهها الجدير بممثّلة أنْ ترسمها في الحال – ابتسمتْ كما لو أنَّ دوريس كانت مُعجَبة تنتظر خارج باب الاستديو لكي تلتقط صورة معها بآلة التصوير الصغيرة. ثم انضمّتْ إلينا، كان هناك أيرا، وخرّتْ على رُكبتيها. كانت قد قامت بمثل هذا العمل الجريء في تلك الليلة في الكوخ. التوسُّل من جديد. التوسُّل مُكرّراً ومُشوّشاً. الادّعاء الأرستقراطي بالفخامة وهذا النوع من السلوك المنحرف، والجريء. أتوسّل إليك – لا تتركني! سوف أفعل كل ما تريد!

كانت صاحبتنا لوريس الصغيرة، المُشرقة، البرعم، في غرفتها تؤدي واجبها المنزلي. كانت قد خرجتْ إلى غرفة الجلوس مرتدية بيجامتها لتتمنّى لنا ليلة هانئة وإذا بها تجد في بيتها الخاص، النجمة الشهيرة التي كانت تستمتع إليها في كل أسبوع في برنامج *المسرح الإذاعي الأمريكي*،

هذه الشخصية المُثيرة تترك الحياة تفيضُ من حولها. وكل عماء وفجاجة الكيان الداخلي لشخص معروض على أرضيّة غرف جلوسنا. طلب أيرا من إيف أنْ تنهض، ولكنْ عندما حاولَ أنْ يرفعها أحاطت ساقيه بذراعيها والعواء الذي أطلقته جعل فم لورين يفغر واسعاً. كنا قد أخذنا لورين لمشاهدة العرض المسرحي في روكسي، وأخذناها إلى نموذج هيدن للنظام الشمسيّ، وارتقينا أعلى السيّارة لمشاهدة شلالات نياغارا، ولكن بالنسبة إلى مقدرة نظارتها، كان ذلك هو أوج طفولتها.

تقدّمتُ وركعتُ بجوار إيف. قلتُ في نفسي، حسنٌ، إذا كان ما يريد أنْ يفعل هو أنْ يعود، إذا كان يريد المزيد من هذا، فهو يوشك أنْ يحصل عليه، وبوفرة. قلتُ لها انتهينا. تعالي، فلننهض الآن. لنذهب إلى المطبخ ونحضِّر لك بعض القهوة. هنا نظرتْ إيف ورأتْ دوريس واقفة إلى جوارها، وما زالت تحمل المجلّة التي كانت تقرأها. دوريس، شديدة البساطة، بخفّ غرفة النوم وبالثوب المنزليّ. كان وجهها خالياً من التعبير، كما أتذكّر – مصدوماً، واثقاً، لكنّه حتماً ليس ساخراً. مهما يكن، مجرد وجودها هناك يُشكّل تحدّياً كافياً للدراما الراقية التي هي حياة إيف فريم بالنسبة إلى إيف لتُحدِّد الهدف وتُطلق النار. أنتِ! علام تُحدّقين، أيتها اليهوديّة الصغيرة الشنيعة المشوّهة!

يجب أنْ أخبرك بأنني عرفت أنَّ هذا سيحدث؛ بل إنني عرفتُ أنَّ أمراً سيحدث ليس في مصلحة قضيّة إيف، ولذلك لم أُذهَل كما حدث مع فتاتي الصغيرة. انفجرتْ لورين بالبكاء، وقالت دوريس: اخرجي من المنزل، وقمت مع أيرا برفع إيف عن الأرض وأخذناها إلى الرواق ومنه هبطنا الدرج، ونقلناها بالسيارة إلى محطة بن. جلس أيرا إلى جواري في الأمام، وجلستْ هي في الخلف وكأنّها نسيتْ ما حدث. كانت طوال الطريق إلى المحطة تحتفظ بتلك الابتسامة على وجهها. الابتسامة التي تُخصّصها لآلات التصوير. وتحت الابتسامة لم يكن هناك أيّ شيء، لا شخصيتها، ولا تاريخها، ولا حتى بؤسها. لم تكن إلا ما يرتسمُ على

وجهها. بل إنها لم تكن وحيدة. لم يكن هناك أحد *يُبرِّر شعورها* بأنّها وحيدة. وكائناً ما كانت منابع الشعور بالعار التي أمضَتْ حياتها وهي تهرب منها فقد نتج عنها: شخص هربتْ منه الحياةُ نفسها.

أوقفتُ السيارة أمام محطة بن، وترجّلنا جميعاً من السيارة، قال أيرا لها بتجهُّم، تجهّم شديد: عودي إلى نيويورك. قالت: ولكن ألن تأتي معي؟ طبعاً لا، لماذا أتيتَ بالسيارة إذن؟ لماذا تأتي إلى القطار معي؟ هل هذا هو السبب في ابتسامها؟ ألأنها اعتقدتْ أنّها أحرزتْ انتصاراً ولأنَّ أيرا قادمٌ معها إلى مانهاتن؟

هذه المرة، لم يُمثِّل المشهد أمام عائلتي الصغيرة. هذه المرة كان جمهور المُشاهدين يتألّف من نحو خمسين شخصاً يتوافدون إلى محطة بن استوقفهم ما شاهدوا. فمن دون أي تردُّد، قامت هذه الشخصيّة الفخمة التي عَرَضَتْ فكرة اللباقة بدلالة رائعة برفع يديها نحو السماء، في قلب مدينة نيوارك، وفرضتْ ضخامة بؤسها. امرأة متمالكة لنفسها بشكل كامل ومُندثّرة – إلى أنْ أطلقتْ لنفسها العنان. إمّا تكون منضبطة ومُسربلة بالخزيّ، أو منفلتة ولا تعرف الخزيّ. ولا شيء في الوسط. لقد خدعتماني! إنني أكرهكما! إنني أشمئزّ منكما! كليكما! أنتما أسوأ شخصين عرفتهما!

أتذكّر أنني سمعتُ شخصاً بين الحشد حينئذٍ، رجلاً اندفع يسأل ماذا يفعلون، أيصوّرون فيلماً؟ أليست هذه ما اسمها؟ ميري أستور؟ أتذكّر أنني قلتُ في نفسي إنها لن تنتهي من ذلك العرض. هناك الأفلام، ثم خشبة المسرح، ثم الإذاعة، والآن هذا. الممثلة المتقدّمة في السن تُقدِّم آخر إنتاجها الفني – تصرخُ مُعبِّرة عن حقدها في وسط الشارع.

ولكن بعد ذلك، لم يحدث أيّ شيء. عاد أيرا إلى العَرض في أثناء مكوثه معنا، ولم يُذكَر أي شيء بعد ذلك عن العودة إلى الشارع الحادي عشر الغربي. وواظبتْ هلجي على المجيء لكي تُدلّكه ثلاث مرات في الأسبوع، وفيما عدا ذلك لم يحدث أيَّ شيء. وفي وقت مُبكِّر جداً،

حاولتْ إيف أنْ تتصل هاتفياً، لكنني تلقّيتُ المكالمة وأخبرتها بأنَّ أيرا لا يستطيع أنْ يتحدث معها. فهل لي *أنا* أنْ أتحدث معها؟ هل لي على الأقلّ أنْ *أُصغي* إليها؟ قلتُ نعم. وماذا كان في استطاعتي أنْ أفعل غير ذلك؟

إنها تعلم أنَّ ما فعله خطأ، كما تقول، وتعلم لماذا يختبئ أيرا في نيوارك: لأنها أخبرته عن حفل سيلفيد الموسيقي. لقد كان أيرا في الأصل غيوراً من سيلفيد بالقدر الكافي، ولم يستطع أنْ يتقبّل الحفل الموسيقيّ القادم. ولكن عندما قرّرت إيف أنْ تُخبره عن الأمر، اعتقدتْ أنَّ من واجبها أنْ تُعلِمه مُسبقاً بكل يستلزم إقامة حفل موسيقيّ. لأنَّ الأمر ليس فقط مسألة استئجار قاعة، كما أخبرته، وليس فقط الظهور على خشبة المسرح وعزف الموسيقى - إنّه عمليّة إنتاجيّة كاملة. أشبه بحفل زفاف. إنه حدثٌ ضخم يستنزف عائلة الموسيقيّ على مدى أشهر قبل وقوع الحدث. وسيلفيد نفسها سوف تستعد على امتداد العام المُقبل كله. فلكي يكون الأداء مؤهّلاً ليصبح حفلاً موسيقياً، عليك أنْ تعزف على الأقلّ ستين دقيقة من الموسيقى، وهذه مَهمّة جبّارة. إنَّ مجرد انتقاء الموسيقى بحد ذاته مهمّة جبّارة، وليس فقط على سيلفيد وحدها. كانت ستدور نقاشات مُطوّلة حول ما ينبغي على سيلفيد أنْ تبدأ به وما ينبغي أنْ تُنهي به وما هي مقطوعة موسيقى الحجرة، وأرادتْ إيف من أيرا أنْ يستعدّ لكي لا يثور كلما تركته وحده ليجلس مع سيلفيد ويُناقش أمر البرنامج. أرادت إيف منه أنْ يعلم مُسبقاً ماذا عليه، كفردٍ من العائلة، أنْ يواجه: سوف تكون هناك دعاية، وخيبة أمل، وأزمات - وكما يحدث مع كل الموسيقيين الصغار، سوف تفقد سيلفيد شجاعتها وترغب في الخروج. لكنَّ إيف أرادتْ أيضاً لأيرا أنْ يعلم أنَّ الأمر في نهاية المطاف يستحقّ العناء، وأرادتْ مني أنْ أُبلغه ذلك. لأنَّ الحفل الموسيقيّ هو ما كانت سيلفيد تحتاج إليه لكي تنطلق. إنَّ الناس أغبياء، كما قالت إيف، إنّهم يُريدون أنْ يُشاهدوا عازفات قيثارة ممشوقات القامة، شقراوات، رشيقات. لكنّها كانت عازفة ممتازة والحفل الموسيقيّ سوف يُثبت

ذلك مرّة وإلى الأبد. كان سيُقام في قاعة البلدة، وكانت إيف ستضمنه، وكان أستاذ سيلفيد في معهد جوليارد للموسيقى، الذي وافق على تقديم المساعدة لها في استعدادها، سينقلها بالعربة، وكانت إيف ستدعو كل أصدقاءها إلى الحضور، ووعد آل غرانت انْ يحرصوا على حضور النقّاد من الصحف كلها، ولم يُخامر إيف أيّ شك في أنَّ سيلفيد سوف تقوم بأداء رائع وتحصل على نقد ممتاز، ومن ثم تستطيع إيف أنْ تروِّج لها تجارياً عند سول هوروك[62].

ماذا كان في وسعي أنْ أقول؟ ما الفرق لو أنّي ذكّرتها بهذا الشيء، أو ذاك، أو الآخر؟ لقد كانت فاقدة للذاكرة انتقائيّة موطن قوّتها أنْ تجعل الحقائق غير المناسِبة غير مهمّة. كان العيش من دون ذاكرة هو وسيلتها للبقاء على قيد الحياة. لقد فهمت الأمر كلّه: أنَّ سبب مكوث أيرا معنا هو اعتقادها أنَّ من واجبها أنْ تكون صادقة معه وتُخبره بأمر الحفل الموسيقيّ في قاعة المدينة وما يستلزمه ذلك.

حسن، إنَّ الحقيقة هي أنّه عندما كان معنا لم يأتِ على ذِكر حفل سيلفيد الموسيقيّ. كان رأسه مُنهمكاً بأمر اللائحة السوداء فلم يقلق بشأن حفل سيلفيد الموسيقيّ. وأشكُّ في أنّه عندما كانت إيف تُخبره عن ذلك قد سمعَ ما قالت، وبعد تلك المكالمة الهاتفيّة، تساءلتُ إنْ كانت قد أخبرته عنها أصلاً.

الرسالة التي أرسلَتْها بعد ذلك علَّمتُها بعبارة لم يُستدَل إلى العنوان، وأعدتُها، بموافقة أيرا، من دون أنْ أفتحها. والرسالة الثانية عاملتُها بالطريقة نفسها. وبعد ذلك، توقفتْ المكالمات الهاتفيّة والرسائل. وبدا لبعض الوقت كأنَّ الكارثة قد انتهتْ. ذهبتْ إيف وسيلفيد إلى ستراسبرغ في عطلة الأسبوع مع آل غرانت. يبدو أنّها كانت تمدّهم بالكثير من الأخبار عن أيرا – وعني أنا، ربما – وتمدّهم بأخبار عن المؤامرة

62- سول هوروك (1888 – 1974): متعهد حفلات ومُنتج برامج تلفزيونيّة وإذاعيّة شهير. أمريكي من أصل روسيّ – المترجم.

الشيوعيّة. ولكن مع ذلك لا شيء حدث، وبدأتُ أُصدِّق أنَّ لا شيء سوف يحدث طالما بقيَ رسمياً متزوجاً وفهم آل غرانت أنَّ هناك بعض الخطر في ذلك بالنسبة إلى الزوجة إذا كشف الزوج الأمر في برنامج ***القنوات الحمراء*** وأطلقَ النار.

في صباح ذات يوم سبت، ظهرت سيلفيد بيننغتون في برنامج ***فان تاسل وغرانت*** مع قيثارتها. وأعتقدُ أنَّ مكافأة الرقابة لسيلفيد بجعلها ضيفة ذلك البرنامج في ذلك اليوم كان معروفاً قدَّمته لإيف القصد منه عزل بنت الزوجة عن أي أثر من صِلة مع زوج الأم. وأجرى برايدن غرانت لقاءً مع سيلفيد، وأخبرته حكاياتها المُضحكة عندما كانت جزءاً من فرقة موسيقيّة في قاعة المدينة، ثم عزفَتْ سيلفيد بضعة منتخبات من أجل جمهور الإذاعة، وبعد ذلك باشرت كاترينا حديثها المنفرد الأسبوعيّ عن حالة الفنون – في يوم السبت ذاك كان الحديث خيالاً شاسعاً عن توقّعات عالم الموسيقى بالنسبة إلى مستقبل سيلفيد بيننغتون الصغيرة، وتوقُّعاً متفائلاً باستمرار لصالح حفلها الموسيقيّ الأول في قاعة المدينة. وشرحتْ كاترينا كيف أنّها بعد أنْ أعدَّت العدّة لسيلفيد لكي تعزف أمام توسكانيني[63] قال كذا وكذا عن عازفة القيثارة الصغيرة، وبعد أنْ أعدَّت العدّة لسيلفيد لكي تعزف أمام فيل سبيتالني[64] قال كذا وكذا، وليس هناك أي اسم شهير في عالم الموسيقى، كبير أو صغير، لم تستغلّه، ولم تكن سيلفيد قد عزفَتْ أمام أي منهم.

كان حفلاً يتّسم بالجرأة وبالفخامة ومُلائماً إلى أقصى مدى. وعندما كانت إيف تشعر بالحرج تقول أيَّ شيء؛ أما كاترينا فتستطيع أنْ تقول أيَّ شيء في أي وقت. إنَ المُبالغة، والتحريف، والتلفيق المكشوف–

63- أرتورو توسكانيني (1867 – 1957): قائد أركسترا ومدير مسرح سكالا الموسيقيّ. إيطالي – المترجم.

64- فيل سبيتالني (1890 – 1970): مؤلّف موسيقيّ، وناقد موسيقيّ وصاحب فرقة موسيقيّة. اشتُهِرَ خاصة خلال ثلاثينيات وأربعينيات القرن الماضي. ووصل إلى الشهرة بعد أنْ أَلَّفَ فرقة كاملة من السيدات، وكان ذلك شيئاً رائداً في زمنه – المترجم.

هي مواطن الموهبة والبراعة فيها. بقدر ما كانت مواطن موهبة الزوج وبراعته. وكذلك جو مكارثي[65]. وكان آل غرنت نسخة من جو مكارثي مع نسَبْ كريم. مع *إيمان راسخ*. كان صعباً قليلاً تصديق أنَّ مكارثي قُبِضَ عليه متلبساً بالكذب كما حصل مع هذين الإثنين. لم يكن في استطاعة جو مِدفعي المؤخّرة أنْ يكظم سخريته بصورة كاملة. لطالما بدا مكارثي لي كأنّه مُغطّى بشكل سيء بأسماله الإنسانيّة، في حين أنَّ آل غرانت وأسمالهما كانا شيئاً واحداً.

إذن - لم يحدث شيء، وبدأ أيرا يبحث عن شقّة خاصّة له في نيويورك... *وهنا* حدث شيء - ولكن مع هلجي.

للقد حصلتْ لورين على ضربة موجِعة من تلك الضخمة والكبيرة ومن سنّها الذهبيّة وشعرها المصبوغ المرفوع ككتلة شقراء مُشوَّش فوق قمّة رأسها وهي تندفع كالعاصفة إلى شقّتنا مع طاولتها وتتكلَّم بذلك الصوت الحادّ ذي اللكنة الإستونيّة. وفي غرفة نوم لورين، حيث قامت بتدليك أيرا. كانت هلجي دائماً تضحك. وأتذكّر أنني قلتُ له ذات مرة أنت تُحسِن التعامل مع هؤلاء الناس، أليس كذلك؟ قال: ولِمَ لا أستطيع؟ لا عيب فيهم. هنا تساءلتُ إنْ كان أكبر خطأ ارتكبه أيٌّ منا هو عدم تركه يتزوج من دونا جونز، وعدم تركه يكسب لقمة عيشه في قلب الأرض الأمريكية، ليُنتج حلوى الفدج بسلام وإعالة عائلة مع عشيقته المتعرّية السابقة.

حسن، وفي صباح ذات يوم في شهر تشرين ثاني، كانت إيف وحدها يائسة وخائفة وقرّرتْ أنْ تبعث هلجي برسالة تُسلِّمها باليد إلى أيرا. فاتّصلتْ بها هاتفياً في حي برونكس وطلبتْ منها تعالي إليّ بسيارة أجرة. وسوف أدفع أجرتها. ثم تستطيعين أنْ تأخذي الرسالة معك عندما تذهبين إلى نيوارك.

65- جو مكارثي (1908 - 1957): سياسي وعضو في مجلس الشيوخ. وهو الذي أطلقَ الحملة ضد النفوذ الشيوعيّ في الولايات المتحدة الأمريكية في أوائل الخمسينيات، وسُمّيتْ تلك الفترة باسمه - المترجم.

وصلتْ هلجي بأفضل ملابسها، ترتدي معطفها الفرو وتعتمر أفضل قبعاتها وترتدي أفضل أثوابها، وتحمل طاولة التدليك. كانت إيف في الطابق العِلويّ تكتب الرسالة وطُلِبَ من هلجي أنْ تنتظر في غرفة الجلوس. وضعتْ هلجي الطاولة التي تُرافقها في أي مكان، وانتظرتْ. انتظرتْ وانتظرتْ، وكان هناك بار وخزانة مشروبات وكؤوس أنيقة، وهكذا عثرتْ على مفتاح الخزانة، وحصلتْ على كأس وعرفت موقع الفودكا وصبّتْ لنفسها جرعة. كل ذلك وإيف لا تزال في الطابق العِلوي في غرفة النوم، وبقميص النوم، تكتب رسالة إثر رسالة وتمزّق كلاً منها وتبدأ من جديد. وكل رسالة تكتبها له ترتكب خطأً، ومع كل رسالة تكتبها، تصبّ هلجي كأساً أخرى من لشراب وتدخّن سيجارة أخرى، وسرعان ما بدأتْ هلجي تتجول في أرجاء غرفة الجلوس وفي المكتبة وخلال الرواق تتفرَّج على صور إيف عندما كانت ممثّلة شابة متالِّقة وصور أيرا وإيف مع بيل أودواير، المُحافِظ السابق لمدينة نيويورك، ومع إمبليتيري، المُحافِظ الحالي، وصبّت لنفسها كأساً آخر، وأشعلت سيجارة أخرى، وهي تفكّر في هذه المرأة بكل ما تحظى من شهرة وامتياز وما تملك من مال. وفكّرتْ في نفسها وفي حياتها الشاقة، وكلما ازداد إحساسها بالرثاء لنفسها شربت أكثر فأكثر. ومع ضخامة جسمها وقوّتها، إلا أنّها بدأتْ تبكي.

عندما حان وقت هبوط إيف لكي تُسلِّمها الرسالة، كانت هلجي قد تمدّدتْ على الأريكة، بمعطفها الفرو وقبعتها، ولا تزال تدخّن ولا تزال تشرب لكنها حينئذٍ لم تكن تبكي. كانت قد وصلت إلى حالة لا تُصدَّق وكانت حانقة. إنَّ انعدام تحكُّم الثَمِل في نفسه لا يبدأ وينتهي بالمشروب.

قالتْ هلجي: لِمَ جعلتني أنتظر ساعة ونصف؟ فألقَتْ إيف نظرة حولها وقالتْ: اخرجي من هذا المنزل. لم تزعج هلجي نفسها حتى بالنهوض عن الأريكة. ولمحتْ المظروف في يد إيف فقالتْ: ماذا تقولين في هذه

الرسالة حتى استغرقت منك ساعة ونصف؟ ماذا قلتِ له؟ هل تعتذرين عن كونك أمّاً سيئة؟ هل تعتذرين لأنّك لم تشبعيه جسدياً؟ هل تعتذرين لأنكِ لم تُعطه الأشياء التي يحتاجها الرجل؟ اخرسي، أيتها الحمقاء، واخرجي من هنا في الحال! هل تعتذرين لأنكِ لم تداعبي قضيبه؟ هل تعتذرين لأنك لا تعرفين كيف تفعلين *ذلك*؟ هل تعرفين مَنْ يُداعبه؟ هلجي تُداعبه! سوف أستدعي الشرطة! عظيم. الشرطة سوف تُلقي القبض عليكِ. سوف أُري الشرطة – هكذا، هكذا تمصّه له، كما يجدر بسيدة محترمة، وسوف يزوجنك في السجن على مدى خمسين عاماً!

عندما وصل رجال الشرطة، كانت هلجي لا تزال على حالها، ولا تزال قويّة – في الشارع الحادي عشر الغربيّ، تُخبر العالم. هل الزوجة تُداعب قضيبه؟ كلا. الفلاحة لا تُداعبه.

أخذوها إلى مركز الشرطة المحليّ، واحتجزوها – بتُهمة السُكر والسلوك المُشوَّش والتعدّي على الأملاك – وتعود إيف إلى غرفة الجلوس التي تعبق بالدخان وهي مُضطربة ولا تعرف ماذا تفعل بعد ذلك، ثم تكتشف أنَّ الصندوقَين المطليين بالمينا مفقودان. كانت لديها مجموعة جميلة من الصناديق الصغيرة المطليّة بالمينا على الطاولة الجانبيّة. اثنان منها فُقِدا وفاتّصلتْ بمركز الشرطة؟ قالتْ: فتشوها. هناك بعض الأشياء مفقودة. فتّشوا حقيبة يد هلجي. وعثروا عليها، على صندوقيّ إيف فريم وأيضاً قدّاحة فضيّة عليها نقوش. لقد تبيَّنَ أنّها سرقت واحداً من منزلنا أيضاً. لم نعرف كيف اختفى ورحت أفتش وأنا أقول أين ذهبتْ تلك القدّاحة؟ ثم عندما ظهرتْ هلجي في مركز الشرطة، فهمت.

وأنا الذي دفع كفالتها. والمكالمة التي أجرتْها وهي في مركز الشرطة كانت بمنزلنا، وطلبتْ التحدّث مع أيرا، ولكن أنا الذي ذهبت إلى هناك وأخرجتُها. نقلتها بالسيارة إلى حي البرونكس، وعلى ممر السيارة ألقيتُ على مسمع الثملة خطبة مُطوّلة عن العاهرة الثريّة التي لن تزعجها بعد الآن. وفي المنزل، أخبرتُ أيرا القصّة كلها. أخبرتُه بأنّه طوال حياته

وهو ينتظر اندلاع حرب الطبقات، وخمِّنْ أين بدأتْ؟ في غرفة جلوسه. كان قد شرح لهلجي كيف حثَّ ماركس البروليتاريا على انتزاع الثروة من الطبقة البورجوازيّة، وهذا ما بادرت هلجي إلى فعله.

أول ما فعلتْ إيف، بعد الاتّصال برجال الشرطة بشأن السرقة، أنّها استدعتْ كاترينا. وجاءت كاترينا على جناح السرعة من منزلهم الريفيّ، وقبل انصرام النهار، كانت كاترينا قد أخرجت كل محتوى طاولة مكتب أيرا ومن يديها انتقل إلى يديّ برايدن ومن هناك إلى عموده الصحفيّ ومن هناك إلى الصفحة الرئيسة في كل صحيفة في نيويورك. وفي كتابها ادّعتْ إيف أنّها هي التي اقتحمت طاولة مكتب أيرا الماهوغاني وعثرتْ على رسائله التي تلقّاها من أوداي ودفاتر مُذكراته التي سجّلَ فيها الأسماء والأرقام المتسلسلة، وأسماء وعناوين منازل كل الماركسيين الذين قابلهم في أثناء الخدمة. وقد احتُفيَ بها لفعلها هذا في الصحافة الوطنيّة. ولكن أعتقد أنَّ عمليّة الاقتحام تلك كانت مفخرة إيف، وعادتْ بها إلى التمثيل من جديد، متظاهرة بأنّها بطلة وطنيّة - إيف تفتخر وربما في الوقت نفسه تحمي نزاهة كاترينا فان تاسل غرانت، التي ما كان يمكن أنْ تتردَّد في اقتحام أي شيء من أجل الحِفاظ على الديمقراطيّة الأمريكية لكنَّ زوجها كان حينئذٍ يُخطِّط لخوض حملة انتخاب لشغل منصب في مجلس النواب.

هناك في كرمة غرانت، سُجِّلَتْ أفكار أيرا المُخرِّبة، وبخط يد أيرا، في مُذكرات سرّية عندما كان ظاهرياً يؤدّي خدمته فيما وراء البحار كرقيب مُخلِص في جيش الولايات المتحدة. إنَّ الصُحف والرقابة وما شابه شوّهت أخبار بولندا، مُحدِثة بذلك إسفيناً بيننا وبين روسيا. وروسيا كانت وما زالت راغبة في المُصالحة لكنَّ صحافتنا لم تعرض الأمر على هذه لصورة. وتشرشل يدعم صراحة بولندا الرجعيّة بالكامل. إنَّ روسيا تطلب الاستقلال لكل الشعوب المُستَعمَرَة. أما الباقون فيكتفون بالتوكيد على الحكم الذاتيّ بالإضافة إلى الوصايات. الحكومة

البريطانيّة تنحلّ. عظيم، والآن ربما لن تتحقَّق سياسة تشرشل المُعادية لروسيا والوضع الراهن.

هذا هو. هذا مربط الفرس. إنّها المتفجرات التي ستُرعب الراعي وشبكة البثّ بحيث إنّه في نهاية الأسبوع ينتهي أمر برنامج ***القنوات الحمر*** وكذلك ***الأحرار والشجعان***. وكذلك الحال مع ثلاثين شخصاً آخرين مذكورة أسماؤهم في مذكرات أيرا. في الوقت المناسب، وكذلك أنا.

والآن، قبل أنْ تبدأ مشاكل أيرا بوقتٍ طويل جعلت نشاطاتي النقابيّة مني عدو الشعب رقم واحد بالنسبة إلى مدراء المدارس، وربما كانت هيئة إدارة المدرسة ستجد سبيلاً لكي تُصنّفني شيوعياً وتطردني بعيداً عن مُساعدة نزعة إيف البطوليّة. الأمر كلّه كان مسألة وقت، بمساعدتها أو من دونها، إلى أنْ ينتهي أمر أيرا وبرنامجه الإذاعيّ، وهكذا ربما لا شيء حدث لأيٍ منّا تطلَّبَ أنْ تُعطي هي أولاً ذلك الشيء لكاترينا. ومع ذلك، من المفيد التفكير في ما فعلته إيف حقاً بوقوعها فريسة لآل غرانت وتسليم أيرا بصورة كاملة إلى أسوأ أعدائه.

مرة أخرى، كنا معاً في الدورة الثامنة لتعلُّم اللغة الإنكليزيّة، والسيد رينغولد يجثمُ على حافة طاولة مكتبه، مرتدياً بذلة رسميّة صيفيّة خفيفة اشتراها من شارع برود بالمبلغ الذي حصل عليه عند فصله من الخدمة – من التخفيضات في المتجر الأمريكي من أجل الجنود العائدين – وكان طوال سنوات دراستي في المرحلة الثانويّة يرتديها بالتناوب مع بذلة أخرى اشتراها من المتجر الأمريكي، رماديّة من جلد القرش وذات صدر مزدوج. سوف يقوم بإحدى يديه برفع ممحاة السبّورة السوداء ولن يتردَّد في بالإطاحة بها لضرب رأس أحد الطلاب الذين لم تبلغ إجابته حتى أدنى ما يطلبه يومياً لليقظة الذهنيّة، بينما يقوم باليد الأخرى بقطع الهواء بحركات مُنتظمة، مُعدِّداً بحركات مسرحيّة كلاً من النقاط التي ينبغي تذكّرها لأداء الاختبار.

قال لي: إنَّ هذا يُبيِّن أنّه عندما تُقرِّر أنْ تُساهِم بمشكلتك الشخصيّة في

برنامج أيديولوجيا ما، فإنَّ كل ما هو شخصيّ يُختزَل ويُنبَذ ولا يتبقّى إلا المفيد للأيديولوجيا. وفي حالتنا هذه، تُساهمُ امرأةٌ بزوجها وبمشاكلهما الزيجيّة في قضيّة مُناهضة الشيوعيّة بحماس. وفي الأساس إنَّ ما تساهمُ به إيف هو تنافرٌ لم تتمكّن هي نفسها من حلِّه منذ اليوم الأول نشأ بين سيلفيد وأيرا. إنّها صعوبة نموذجيّة تنشأ بين ابنة الزوجة وزوج الأم، وإنْ كانت قد تفاقمت قليلاً داخل منزل إيف فريم. وخلاف ذلك فإنَّ كل ما كان أيرا يُمثّله بالنسبة إلى إيف – زوجاً طيباً، زوجاً سيئاً، رجلاً رقيقاً، رجلاً خشناً، رجلاً مُتفهِّماً، رجلاً أحمقَ، رجلاً مُخلِصاً، رجلاً خائناً – كل ما يُشكِّلُ جهداً زيجيّاً وخطأً زيجياً، كل ما هو نتيجة زواج أبعد ما يكون عن الحُلم – اختُزِلَ، وما تبقّى هو ما تستطيع الأيديولوجيا أنْ تنتفع به.

بعد ذلك تستطيع الزوجة، إذا رغبتْ بشدّة (وربما كان إيف كذلك وربما لم تكن)، تستطيع أنْ تحتجّ. كلا، كلا، لم يكن الأمر كذاك. أنت لا تفهم. لم يكن فقط كما قلتَ. لم يكن على الإطلاق، معي، كما تقول. معي كان يمكن أنْ يكون هذا، أو ذاك. بعد ذلك ربما تُدركُ واشية كإيف أنّه ليس فقط ما قالتْ مسؤول عمّا حصل له من التشويه الغريب الذي قرأتْ عنه في الصحافة؛ بل هو أيضاً كل ما تركت – ما تركت عن عمد. ولكن حينئذٍ كان الأوان قد فات. بحلول ذلك الوقت لم يعُد للأيديولوجيا وقت تُخصّصه لها لأنه لم يعُد للأيديولوجيا فائدة لإيف. تُجيبُ الأيديولوجيا هذا؟ ذاك؟ ما حاجتنا إلى هذا وذاك؟ لماذا نهتمّ بالابنة؟ إنها مجرد جزء من ذلك الحشد الرخو المُسمّى الحياة. أبعدوها عن الطريق. إنَّ كل ما نحتاج إليه منكِ هو ما يدفع إلى الأمام القضيّة المُستحقّة، إلى تنّين شيوعيّ آخر لنذبحه! إلى مِثال آخر على خيانتهم!

أما بالنسبة إلى شعور باميلا بالرعب –

لكنَّ الساعة كانت قد تجاوزت الحادية عشرة، وذكّرتُ مري، الذي كان درسه في المدرسة قد انتهى باكراً في ذلك اليوم – والذي بدا لي أنَّ سرده المسائيّ قد بلغ ذروته التعليميّة – وأنّه يجب أنْ يستقلّ الحافلة إلى

نيويورك في صباح اليوم التالي وربما حان الوقت بالنسبة إليّ لكي أقود السيارة عائداً إلى غرفة نومي في أثينا.

قلت له في وسعي أنْ أستمر في الإصغاء، ولكن لعلَّ عليك أنْ تنال قسطاً من النوم. وفي تاريخ قوة السرد القصص، لقد حصلتَ على إعجاب شهرزاد. إنك تواظب على الجلوس هنا منذ ثلاث ليال.

فقال: أنا في أحسن حال.

ألا تتعب؟ ألا تشعر بالبرد؟

المكان جميلٌ هنا. كلا، لا أشعر بالبرد. الجو دافئ، وممتع. وصرّار الليل يعدُّ، والضفادع تنقّ، والحباحب مُنتشية، ولم تُتَح لي الفرصة أنْ أستمر هكذا منذ أنْ كنتُ أُدير اتّحاد الخونة. انظر. القمر. إنّه برتقاليّ اللون. إنّه الجو المثاليّ لإزالة جلد السنين.

قلت هو كما قلت. أمامك خياران وأنت فوق هذا الجبل: إمّا أنْ تقطع صِلتك بالتاريخ، كما أفعل أنا أحياناً، أو أنْ تفعل ما تفعله ذهنياً – تحت ضوء القمر، طوال ساعات لا تنتهي، وتعمل على استعادته وامتلاكه.

قال مري: كل تلك العداوات، ومن ثم سيل الخيانة. إنَّ كل روح هي مصنع الخيانة الخاص بها. مهما كان السبب: البقاء على قيد الحياة، الإثارة، التقدُّم، المثاليّة. من أجل الأذى الذي يمكن إحداثه، والألم الذي يمكن تسبيبه. من أجل قسوته. من أجل **متعته**. متعة إظهار قوة المرء الكامنة. ومتعة السيطرة على الآخرين، وتدمير أعدائك. أنتَ تُفاجئهم. أليست هذه متعة الخيانة؟ متعة خداع شخص ما. إنّها جزاء الذين أثاروا فيك إحساساً بالدونيّة، وقمعوك، وبالإحباط بسبب صلتك بهم. قد يكون مجرد وجودهم مُهيناً لك، إمّا لأنكَ لستَ على شاكلتهم أو لأنهم ليسوا على شاكلتك. ولذلك تُنزِل بهم القصاص الذي يستحقون.

وطبعاً هناك الذين يخونون لأنه ليس أمامهم خيار. لقد قرأتُ كتاباً ألّفه عالِم روسيّ قام، خلال حكم ستالين، بالوشاية بأمر أقرب أصدقائه

إلى البوليس السرّي. كان قد خضعَ لاستجواب شديد، ولتعذيب جسديّ رهيب طوال ستة أشهر – عندئذٍ قال: اسمع، لم يعُد في استطاعتي أنْ أتحمّل أكثر من هذا، لذلك من فضلك أخبرني ماذا تريد. سوف أوقِّع على أي شيء تريد.

ووقَّع على كل ما أرادوا منه التوقيع عليه. وحُكِمَ عليه هو نفسه بالسجن مدى الحياة. من دون إطلاق سراح مشروط. وبعد مرور أربعة عشر عاماً، في حقبة الستينيات، بعد تغيُّر الأوضاع، أُطلِقَ سراحه وألَّفَ هذا الكتاب. ويقول فيه إنّه وشى بأعزّ أصدقائه لسببين: لأنه لم يكن يستطيع أنْ يتحمّل التعذيب ولأنه كان يعلم أنّ هذا لا يهمّ، ولأنَّ نتيجةَ المحاكمةِ كانت موضوعة مُسبقاً. ولم يكن لِما قال أو لم يقُل ليُشكّل أيّ فرق. فإذا لم يتكلَّم، فإنَّ شخصاً آخر كان سيتكلَّم. كان يعرف أنَّ صديقه، الذي أحبّه حتى النهاية، سوف يحتقره، ولكنْ تحت التعذيب الوحشيّ لا يمكن لأي كائن بشري عادي أنْ يُقاوِم. إنَّ البطولة هي استثناءٌ إنسانيّ. والشخص الذي عاش حياةً عاديّة، والتي تتألَّف من عشرين ألف تنازل صغير في كل يوم، هو غير مُدرَّب على أنْ يتوقّف عن التنازُل فجأة، ناهيك على أنْ يتحمّل التعذيب.

بالنسبة إلى بعض الأشخاص يستغرق إضعافهم التعرُّض للتعذيب ستة أشهر. والبعض يبدؤون بامتياز: بأنهم ضعفاء أصلاً. إنهم لا يعرفون إلا كيف يستسلمون. ومع شخص كهذا، تكتفي بالقول، افعلوا فيفعلون. ويحدث الأمر بسرعة كبيرة، وهم لا يعلمون حتى أنّها خيانة. لأنهم يُنفّذون ما يؤمرون به، ويبدو ذلك حسناً. وما أنْ يتم استيعاب الأمر، حتى يكون الأوان قد فات: تكون الخيانة قد تمّتْ.

هناك مقالة ظهرت في إحدى الصُحف في وقت ليس بالبعيد عن رجلٍ في ألمانيا الشرقيّة وشى بزوجته وسجنها عشرين عاماً. فقد عثروا على وثائق عنه في ملفات البوليس السري لألمانيا الشرقيّة بعد انهيار جدار برلين. كانت الزوجة تشغل منصباً مِهنيّاً وأراد البوليس أنْ

يُلاحقها وكان الزوج هو الواشي. ولم تكن تعرف أيَّ شيء على الأمر. ولم تكتشفه إلا عندما بدؤوا بفتح الملفّات. استمر الأمر عشرين عاماً. وأنجبا أطفالاً، وأصبح لديهم أصهار، وأقاما حفلات، وسددا فواتير، وأجريا عمليات جراحيّة، ومارسا الجنس، ولم يُمارسا الجنس، وذهبا إلى الشاطئ في الصيف وسبحا في البحر، وطوال الوقت كان يشي بها. كان مُحامياً. ذكياً، واسع الاطلاع، بل وكتب الشِعر. وخلعوا عليه اسماً مُشفّراً، ووقَّعَ على اتّفاق، وكان يحضر اجتماعات أسبوعيّة مع الضابط، ليس في مركز إدارة الشرطة بل في شقّة خاصّة، شقّة سريّة. وأخبروه، أنت مُحامٍ، ونحن في حاجة إلى مُساعدة وكان ضعيفاً ووقَّعَ. كان لديه والد يجبُ أنْ يُعيله، وكان والده يُعاني من مرضٍ مُهلك فظيع. قالوا له إنّه إذا ساعدهم فسوف يعتنون بوالده، الذي كان يُحبّه. وكان هذه الطريقة تنجح في الغالب. الوالد مريض، أو الوالدة، أو الأخت، ويطلبون منك أنْ تساعدهم وبذلك، بوضعهم والدك المريض على قائمة الأولويات، تُبرِّر الخيانة وتوقِّع الاتّفاقيّة.

يبدو لي أنَّ المزيد من أعمال الخيانة الشخصيّة ارتُكِبَتْ صراحة في أميركا خلال العقد الذي تلا الحرب – فلنقُل، بين عاميّ 46 و56 – أكثر مما ارتُكِبَ في أيّة فترة أخرى من تاريخنا. إنَّ ذلك الشيء البشع الذي ارتكبته إيف فريم كان نموذجياً من بين أشياء كثيرة بشعة ارتكبها الناس خلال تلك السنوات، إمّا اضطراراً أو لأنهم شعروا بأنهم مُجبرون على ذلك. وكان سلوك إيف في تلك الفترة يندرج تحت تصنيف ممارسات الوشاية التقليديّة. متى قبل ذلك كانت الخيانة غير موصومة ويُكافأ عليها في هذا البلد؟ كانت منتشرة في كل مكان خلال تلك السنوات، كانت الخطيئة سهلة المنال، الخطيئة *المُباحة* التي يمكن لأيّ أمريكي أنْ يرتكبها. ولم تكتف متعة الخيانة بأنّها حلّتْ محل تحريم الخمر، بل كان في وسعك أنْ ترتكب الخطيئة من دون أنْ تتخلّى عن مرجعك الأخلاقيّ. كنتَ تحتفظ بنقائك وفي الوقت نفسه تمارس الخيانة بكل

روح وطنيّة - وفي الوقت نفسه تبلغ إشباعاً يصِلُ إلى مرتبة الإشباع الجنسيّ بمكوّناته الطَموح من المتعة والضعف، ومن العدوان والخزي: إشباع التدمير. تدمير الأحبّة. تدمير المُنافسين. تدمير الأصدقاء. إنَّ الخيانة تقع في خانة واحدة مع المتعة المنجرفة والمُحرَّمة والمُجزّأة. هي نمطٌ مُثير للاهتمام، متلاعب، سرّي من المتعة يجد الكائن البشري فيه الكثير من الفتنة.

بل إنَّ هناك أولئك الأذكياء الذين يُمارسون لعبة الخيانة لذاتها، من دون أيّ اهتمامٍ بها. للتسلية الصِرف. إنّها ما كان كولريدج يسعى إليه بوصفِهِ خيانة إياغو لعطيل بأنها حقدٌ لا دافع وراءه. ولكن، في العموم، أقول هناك دافع يُحرِّض الطاقات الشريرة ***ويُخرِج*** الحقد.

العقدة الوحيدة هي أنّه في الأيام الهادئة خلال الحرب الباردة، كانت الوشاية بشخص للسُلطات بوصفه جاسوساً سوفيتيّاً تؤدي مباشرة إلى الإعدام. وإيف، قبل أي شيء، لم تكن توشي بأيرا للإف بي أي بوصفه زوجاً سيئاً ينيك مُدلِّكته. إنَّ الخيانة هي عنصرٌ لا مفرّ منه من العيش - مَنْ لا يخون؟ - لكنَّ الخلطَ بين أشدّ فعلٍ للوشاية والخيانة العلنيّة شناعةً، وكل شكل آخر من الخيانة لم يكن فكرة جيدة في عام 1951. إنَّ الخيانة، خلاف الزنا، إهانة كُبرى، مُبالغة شديدة التهوُّر وتفتقر إلى الدقّة الطائشة واتّهامٌ زائف، حتى مجرّد لعبة ذِكر الأسماء التي يُمارسها غير اليهود ظاهرياً - حسن، كان يمكن للنتائج الوقحة في تلك الأيام المُظلِمة أنْ تكون جريئة عندما خاننا حُلفاؤنا السوفييت ببقائهم في شرق أوروبا وتفجيرهم القنبلة النوويّة وخاننا حلفاؤنا الصينيون بقيامهم بثورة شيوعيّة وبطردهم تشيانغ-كيه-شيك. وجوزيف ستالين وماو تسه-تونغ: كان هناك عذر أخلاقيّ لذلك كلّه.

الكذب. سيل من الأكاذيب. ترجمة الحقيقة إلى كذبة. ترجمة كذبة إلى كذبة أخرى. ***المقدرة*** التي يُبديها الناس في كذبهم. ***المهارة***. السيطرة بقوة على الوضع ومن ثم، بصوت هادئ ووجه عادي، يُدلون

بأشدّ الأكاذيب خصباً. وإذا قالوا ولو *جزءاً* من الحقيقة فسوف يكون ذلك *لصالح* كذبة بنسبة تسعة إلى عشرة. نيثان، أنا لم تُتَح لي الفرصة من قبل لسرد هذه القصّة لأي شخص بهذه الطريقة، وبهذا الإسهاب. ولم أحكها من قبل ولن أفعل ذلك من جديد. وأريد أنْ أحكيها بشكل صحيح. وحتى نهايتها.

لمَ؟

إنني الشخص الوحيد الحيّ الذي يعرف قصّة أيرا، وأنت الشخص الوحيد الذي يُبدي اهتماماً بها. والسبب هو ما يلي: لأنَّ كل الأشخاص الآخرين ماتوا قال هذا، ضاحكاً، إنها مهمّتي الأخيرة. لكي أحفظ حكاية أيرا عند نيثان زوكرمان.

قلت لا أعرف ماذا أفعل بها.

هذه ليست مسؤوليتي. مسؤوليتي هي أنْ أسردها عليك. إنَّ كلاً منكما يعني الكثير عند الآخر.

إذن تابع. كيف انتهتْ؟

قال باميلا. باميلا سولومون. باميلا ارتعبتْ. عندما علِمَتْ من سيلفيد أنَّ إيف اقتحمت غرفة مكتب أيرا. وفكّرتْ في ما يُفكِّر فيه الناس عموماً عندما يعلمون للمرة الأولى بأمر كارثة شخص آخر: كيف أثَّرَ هذا بي؟ فلان الفلاني في مكتبي لديه ورم في الدماغ؟ وهذا يعني أنَّ عليَّ أنْ أقوم بعمليّة الجرد وحدي. وجاري فلان الفلاني تحطّمتْ الطائرة التي كان على متنها؟ هل مات جرّاء ذلك التحطُّم؟ كلا. لا يمكن. كان قادماً في يوم السبت لكي يتخلَّص من نفايتنا.

كانت هناك صورة فوتوغرافيّة التقطها أيرا لباميلا في الكوخ. صورتها وهي بثوب السباحة، بجوار البركة. كانت باميلا تخشى (وكانت مُخطئة) أنَّ الصورة موجودة في طاولة المكتب، مع كل ما يتعلّق بالشيوعيّة، وأنَّ إيف شاهدتها، أو أنَّ، إذا لم تكن موجودة هناك، أيرا كان سيذهب

إلى إيف ويعرضها عليها، ويُقرِّبها من وجهها ويقول، انظري! ثم ماذا سيحصل؟ سوف تستشيط إيف بالغضب وتصِفها بالفاجرة وتطردها من المنزل. وماذا ستظن ***سيلفيد*** في باميلا؟ ماذا ***ستفعل*** سيلفيد؟ وماذا لو أنَّ باميلا رُحِّلَتْ؟ كان ذلك هو الاحتمال الأسوأ. لقد كانت باميلا تُعتبَر أجنبيّة في أميركا - ماذا لو أُقحِمَ اسمُها في ورطة أيرا الشيوعيّة، وانتهى الأمر بوصوله إلى الصحف ورُحِّلَتْ؟ ماذا لو أنَّ إيف ***أصَرَّتْ*** على ترحيلها، لمحاولتها سرقة زوجها؟ وداعاً، يا بوهيميا. عودي إلى كل تلك اللياقة الإنكليزيّة الخانقة.

لم تكن باميلا مخطئة بالضرورة في تقديرها لحجم الخطر الكامن لها بسبب ورطة أيرا الشيوعيّة والمزاج السائد في البلد. كان جو الاتّهام، والتهديد، والعِقاب، منتشراً في كل مكان. وخاصّة بالنسبة إلى الأجانب، بدا ذلك أشبه بمذبحة ديمقراطيّة مُرعبة. كان هناك ما يكفي من جو الرعب ليُبرِّر خوف باميلا. وفي ظل ذلك المناخ السياسيّ، كانت تلك المخاوف معقولة. وهكذا، استجابة لمخاوفها، حشدتْ باميلا لمواجهة الورطة كل ذكائها وواقعيتها الصائبة. لقد كان أيرا مُصيباً في اكتشافه أنّها شابّة سريعة البديهة وصافية التفكير تعرف ما يدور في ذهنها وتفعل ما تريد.

ذهبت باميلا إلى إيف وأخبرتها أنّه في أحد أيام الصيف قبل عامين التقت بأيرا مُصادفة في الفيليج. كان في سيارة ستيشن واغن في طريقه إلى الريف، وأخبرها بأنَّ إيف موجودة هناك وطلبَ منها أنْ تركب معه ويقضيا اليوم معاً. كان الجو حاراً وخانقاً ولذلك لم تُحاول أنْ تفكِّر في الأمر. قالت: حسنٌ، سوف أُحضِر ثوب السباحة، وانتظرها ثم انطلقا إلى زنك تاون، ولدى وصولهما اكتشفتْ أنَّ إيف ***ليست*** هناك. حاولت أنْ تكون مُسايرة وأنْ تُصدِّق العذر الذي اختلقَته بل ولبست ثوب السباحة وذهبت لكي تسبح معه. هنا التقطَ الصورة وحاول أنْ يُغويها. فطفقت تبكي، ودفعته عنها، وهي تخبره عن رأيها فيه وعمّا يفعله بحقّ إيف، ثم استقلّتْ القطار التالي عائدة إلى نيويورك. ولأنها لم ترغب في أنْ

تُسبِّب لنفسها المشاكل، أبقت مُحاولته الاعتداء عليها جنسياً سراً. كانت تخشى أنها إذا لم تفعل ذلك، فسوف يضعُ الجميع اللوم عليها ويظن أنّها عاهرة لمجرد أنّها استقلّتْ السيارة معه. يمكن للناس أنْ يصفونها بأنواع الصِفات كافة لأنها تركته يلتقط تلك الصورة. لا أحد سيقبل بسماع القصّة من وجهة نظرها. سوف يسحقها بكل أنواع الأكاذيب الممكنة إذا تجرّأت على فضح خيانته بقول الحقيقة. ولكن الآن بعد أنْ أدركتْ *اتّساع مجال* خيانته، لا تستطيع، بكل تفاؤل، أنْ تبقى صامتة.

إنَّ ما حدث بعد ذلك هو أنّه بعد ظهيرة أحد الأيام، بعد انتهاء آخر درس لي، ذهبتُ إلى مكتبي فوجدتُ أخي في انتظاري. إنه يقف في الرواق، ويمنح توقيعه لأستاذَين شاهداه، وفتحت بابي وولج إلى غرفة مكتبي، ورمى على طاولتي مُغلَّفاً مكتوباً عليه إلى أيرا. عنوان الإعادة هو صحيفة *الدايلي ووركر*. وفي داخله مُغلّف آخر، وهذا موجَّه إلى أيرون رن. مكتوب بخط يد إيف. بقرطاسيّة فاخرة زرقاء اللون. كان مدير المكتب في صحيفة *ووركر* صديقاً لأيرا، وقد قطع المسافة حتى زنك تاون لكي يُسلِّمه له.

يبدو أنّه في اليوم الذي تلا ذهاب باميلا إلى إيف لتحكي ما وقع لها، قامت إيف بفعل أقوى شيء أمكنها التفكير فيه، وهو في الوقت الحالي أقوى ضربة يمكن أنْ تُسدّدها. فارتدت سترتها من فرو الوشق وثوب الأحلام المخمل الأسود ذا التخريم الأبيض بمليون دولار وانتعلت أفضل أحذيتها الأسود المفتوح عند الأصابع، واعتمرت قبعتها اللباد ذات الخِمار الأسود الأنيق، وانطلقتْ، ليس إلى نادي 21 لتناول طعام الغداء مع كاترينا، وإنما إلى مكتب صحيفة *الدايلي ووركر*. كان موقع *الووركر* هو في ساحة يونيفرسيتي، القريبة من الشارع الحادي عشر الغربيّ. وتستقل إيف المصعد إلى الطابق الخامس عشر وتطلب مقابلة المُحرِّر. ويقودونها إلى مكتبه، هناك تُخرِجُ الرسالة من داخل غطاء اليدين وتضعه على طاولة مكتبه. تقول هذا من أجل البطل شهيد الثورة

البلشفيّة، ومن أجل فنان الشعب وأمل الإنسانيّة الأخير ثم استدارت وخرجتْ. كان في استطاعتها أيضاً، وهي مُرهَقَة وخائفة في وجه أيّة مُعارضة، أنْ تكون متغطرسة بشدّة عندما امتلأت بالامتعاض المُستحق ومرّت بأحد أيّامها الوهميّة كسيدة عظيمة. كانت قادرة على تلك التحولات - ولم تكن أيضاً لتتورّط من أجل أنصاف معايير. وفي نهاية أيّ انفعال، يمكن للمبالغات أنْ تكون مُقنعة.

استلم مدير المكتب الرسالة، وركب سيارته حاملاً إياها إلى أيرا. كان أيرا يُقيم وحده في زنك تاون منذ أنْ طُرِدَ. وكان في كل أسبوع يذهب إلى نيويورك لكي يجتمع مع المحامين - كان ينوي أنْ يرفع دعوى قضائية ضد شبكة البثّ، ويُقاضي الراعي، ويُقاضي برنامج *القنوات الحمراء*. وفي المدينة سوف يُعرِّج ويقوم بزيارة آرتي سوكولو، الذي كان قد أُصيبَ بأول نوبة قلبيّة وأُجبِر على البقاء في السرير في منزله في الحيّ الغربي الأعلى. ثم جاء إلى نيوارك ليزورنا. وفي العموم كان أيرا يمكث في الكوخ، حانقاً، مُتفكّراً، مُدمَّراً، ممسوساً، يُعدّ وجبة عشاء لجاره الذي كان أحد ضحايا حادث المنجم، راي سفتش، ويأكل معه ويحكي عن قضيّته لهذا الرجل الذي كان شارداً في معظم الوقت.

في وقتٍ متأخِّر من ذلك اليوم الذي استلمَ رسالة إيف ظهر أيرا في مكتبي، وقرأتُها. إنها في ملفّي مع باقي أوراق أيرا: لن أُنصِفها بإعطاء مُلخّصٍ لها. إنَّ تلك الصفحات طويلة. مكتوبة بأسلوب لاذع. من الواضح أنّها كُتِبَتْ بمسوّدة واحدة وبلا أخطاء. وثيقة صريحة، شرسة، كُتِبَتْها إيف بجدارة. تحت ضغط غضبها، وعلى ورق دفتر أزرق اللون، بأسلوب كلاسيكي حديث. وما كنتُ سأفاجأ لو أنَّ ذلك التقريع الموجَّه إليه انتهى بأشعار بطوليّة صاخبة.

أتتذكّر كيف لعن هاملت كلوديوس؟ في الفقرة الواردة في الفصل الثاني، بُعيد أنْ يُلقي بطل المسرحيّة خطابه عن ابنة برايام؟ إنها في وسط الحوار المنفرد الذي يبدأ ب أوه كم أنا عبد وغد وضيع! فيقول

هاملتْ أيّها الخسيس، الأرعن، اللعين! / آه الانتقام! حسن، إنَّ جوهر رسالة إيف تسير بصورة أو بأخرى على هذا الخط: أنت تعلم كم تعني باميلا إليّ، لقد أفضيتُ لك ذات ليلة، ولك وحدك، بكل ما تعنيه باميلا لي. إنّها عقدة الدونيّة، بهذا وصَفَت إيف مشكلة باميلا. ومع فتاة تعاني عقدة الدونيّة، وبعيدة عن المنزل والوطن والعائلة، فإنَّ واجب إيف، ومسؤوليتها هي أنْ تعتني بها وتحميها، ومع ذلك، وكما أنّه يُشوِّه كل شيء يلمسه، تولّى ببراعة تحويل فتاة بخلفيّة باميلا سولومون إلى فنانة تعرية على غرار الآنسة دونا جونز. من أجل إغواء باميلا للخروج إلى بؤرة الجحيم المنعزلة تلك بذرائع زائفة، ولكي يُسيل لعابه كمنحرف بالنظر إلى صورتها وهي بثوب الاستحمام، لكي يغرز أنيابه تلك الجديرة بغوريلا في جسدها الأعزل – لمجرد الاستمتاع بذلك، ليحيل باميلا إلى عاهرة وضيعة، وإذلال سيلفيد وإذلالها هي بأشدّ ما استطاع ابتكاره من الأساليب الساديّة.

ولكن هذه المرة، قالت له، لقد تماديتَ كثيراً. وقال: أتذكَّر أنكَ قلتَ كيف أنكَ، وأنت جالس عند قدَميّ أوداي العظيم أبديتَ إعجابك بكتاب ميكيافيللي ***الأمير***. والآن بتُّ أعلم ما الذي تعلَّمتَه من كتاب ***الأمير***. أفهم لماذا كان أصدقائي يُحاولون طوال سنين عديدة أنْ يُقنعوني بأنكَ في كل ما تقول وتفعل، أنت، حرفياً، ميكيافيلليّ عديم الرحمة، منحرف، لا يهتم البتّة بالصواب والخطأ ولا يعبد إلا النجاح. إنكَ تحاول أنْ تُكرِه تلك الشابة الموهوبة، والجميلة التي تكافح عقدة الدونيّة، على ممارسة الجنس معك. لِمَ لم تحاول أنْ تمارس الجنس معي كوسيلة، ربما، للتعبير عن الحب؟ عندما تقابلنا، كنتَ تعيش وحدك في الحيّ الشرقي الأسفل بين الذراعين القذرتين لحبيبتك البروليتاريّة السافلة. لقد منحتكَ منزلاً جميلاً ممتلئاً بالكتب وبالموسيقى وبالفن. زوّدُكَ بغرفة مكتب خاصة بك وساعدتُكَ في جمع مكتبتك. عرَّفتكَ بخيرة الأشخاص المُثيرين للاهتمام، والأذكياء، والموهوبين في مانهاتن، وفتحتُ لك باباً إلى

عالم اجتماعيّ لم تحلم بالانتساب إليه. وبذلتُ أقصى جهدي لأمنحك عائلة. نعم، لديّ ابنة كثيرة المطالب. أعلم هذا. حسن، إنَّ الحياة ممتلئة بالمطالب. وبالنسبة إلى شخص بالغ ومسؤول، الحياة هي المطالب... وباستمرار على هذا المسار، ونحو الأعلى، هي فلسفيّة، راشدة، عاقلة، وعقلانيّة بإخلاص - إلى أنْ انتهى أمرها بالتهديد:

بما أنّك قد تتذكّر أنَّ أخاك المثاليّ لم يكن يسمح لي بالتحدّث معك أو بالكتابة إليك وأنت مُختبئ في منزله، لذلك صرتُ ألجأ إلى رفاقك لكي أتّصل بك. وبدا أنَّ الحزب الشيوعيّ كان قادراً على الوصول إليك - وإلى قلبك، كما هو - أكثر من أي شخصٍ آخر. أنت حقاً ماكيافيلليّ، جوهر فنّان التحكُّم. حسن، يا عزيزي ماكيافيللي، بما أنّه لا يبدو أنّك تفهم بعد عواقب أيّ شيء فعلته لكائن بشريّ آخر لكي تحصل على ما تريد، ربما حان الوقت لكي تتعلَّم.

أتتذكّر، يا نيثان، الكرسي الذي في عرفة مكتبي، بجوار طاولتي - الكرسي الحارّ؟ حيث كان أطفالك يجلسون ويتعرّقون بينما أنا أراجع مؤلفاتك؟ هناك جلس أيرا بينما كنتُ أقرأ تلك الرسالة. وسألتُه أصحيح أنّك تودّدتَ إلى تلك الفتاة؟ على مدى ستة أشهر أقمتُ علاقة مع تلك الفتاة، كنتَ تنيكها، مرات عديدة، يا مري. حسبتُ أنّها كانت تحبّني. لقد ذُهِلتُ لاستطاعتها أنْ تفعل ذلك، وهل أنت مذهول الآن؟ كنتُ أحبّها. أردتُ أنْ أتزوّجها وأكوِّن عائلة معها، أوه، الأمر يتحسَّن. ألا تعتقد ذلك يا أيرا؟ إنك تتصرف، وتتصرّف، وهذا كل شيء. وتصرخ، وتنيك، وتتصرَّف. على مدى ستّة أشهر كنتَ تنيك أقرب صديقات ابنتها إليها. ابنتها البديلة. *الوصيّة* عليها. والآن وقع أمرٌ فانتابك الذهول، لقد أحببتُها، تكلَّم بدقّة. أنت أحببتَ أنْ تنيكها، أنت لا تفهم. لقد جاءت إلى الكوخ. وكدتُ أُجنّ من رغبتي فيها. وأنا مذهول ***فعلاً***. إنني مذهول كل الذهول مما فعلتْ، مما فعلت هي، لقد وشَتْ بي إلى زوجتي - ومن ثم كذبتْ في سياق ذلك! نعم؟ والمعنى؟ أين الجزء المُثير للذهول؟ أنت لديك

مشكلة هنا. لديك مشكلة مع زوجتك، أحقاً؟ ماذا ستفعل؟ لقد فعلتْ أصلاً، مع أصدقائها آل غرانت. لقد طُرِدتُ وانتهينا. وأنا خالي الوفاض. إنها تريد أنْ تحوّلها إلى قضيّة جنسيّة، كما ترى، وهي لم تكن كذلك. إنَّ باميلا تعلم أنَّ الأمر ليس كذلك، حسن، هذا ما هو عليه الآن. لقد قُبِضَ عليك مُتلبّساً، وزوجتك تعِدُ بعواقب جديدة. ما هي في اعتقادك؟ لا شيء. لم يتبقَّ شيء، ثم قال وهو يُلوِّح لي بالرسالة، وهذه الحماقة، رسالة سُلِّمَتها إلى صحيفة *ووركر*. هذه هي العاقبة. أصغِ إليّ. أنا لم أفعل أيَّ شيء لم ترغب فيه باميلا. وعندما لم تعد ترغب فيّ، قتلتني. طوال حياتي كنتُ أحلمُ بفتاة مثلها. لقد *قتلتني*. لكنني فعلتُها. هبطتُ ذلك الدَرَج ومنه إلى الشارع وتركتُها وحدها. ولم أزعجها بعد ذلك. قلتُ حسن، مهما كان الأمر، لقد غادرتَ بشرف كما هو جدير برجلٍ مُحترم بعد ستة أشهر من النكاح الرائع مع الابنة البديلة لزوجتك، وأنتَ الآن في ورطة، يا صديقي، كلا، إنَّ ***باميلا*** هي التي في ورطة! أحقاً؟ هل سوف ***تتصرَّف*** من جديد؟ سوف تتصرَّف ***مرة أخرى*** من دون تفكير؟ كلا، لن أدعك تفعل.

ولم أدعه يفعل، ولم يفعل أيّ شيء. والآن، من الصعب معرفة كم من القوة الدافعة منحت كتابة هذه الرسالة إيف لتندفع وتؤلِّف هذا الكتاب. ولكن إنْ كانت إيف تبحث عن حافز لكي تنطلق وتقوم بالشيء اللاعقلانيّ الذي وُلِدَتْ لتقوم به، لما آلمها ما نالها من باميلا. قد تعتقد أنَّه بعد الزواج من نكِرة كمولر، تبعه الزواج من مثليّ جنسياً كبيننغتون، تلاه الزواج من محتال كفريدمان، وتلاه الزواج من شيوعيّ كأيرا، تكون قد نفّذتْ التزامها اتّجاه القوى اللاعقلانيّة. قد تعتقد أنها ربما تخلَّصَتْ من أسوأ ما فعله بها بمجرّد لجوئها إلى صحيفة ***ووركر*** مرتدية سترتها الفرو وتحمي يديها بفرو يتماشى معها. ولكن كلا، إنَّ مصير إيف هو الذي يوصلها دائماً وبصورة لا عقلانيّة إلى ذُرى أعلى فأعلى – وهنا تدخّل آل غرانت من جديد.

إنَّ آل غرانت هم الذين ألّفوا ذلك الكتاب. وقد كُتِبَ بالنيابة *مرّتين*. فقد استخدموا اسم برايدن على الغلاف - كما قال برايدن غرانت - لأنَّ ذلك كان شيئاً جيداً يُعادل وضع اسم وينشل على الغلاف، لكنَّ موهبة الإثنين هي التي شعّت. ما الذي تعرفه إيف فريم عن الشيوعيّة؟ كان هناك شيوعيون في التظاهرات الداعمة لوالاس وكان في وسعها أنْ ترحل مع أيرا. وكان هناك شيوعيون في برنامج *الأحرار والشجعان*، والأشخاص الذين يعودون إلى منازلهم ويتناولون العشاء ويحضرون السهرات كلها. هذه المجموعة الصغيرة من الناس المشتركة في البرنامج كانت مهتمّة كثيراً بالتحكُّم فيه إلى أقصى مدى. وكانت هناك السرّيّة، وحافة التآمُر، واستخدام أصحاب التفكير المتشابه، والتأثير في الانحراف الأيديولوجيّ للنصّ قدر استطاعتهم. ويجلس أيرا في غرفة مكتبه مع آرتي سوكولو ويُحاول أنْ يُقحِم إلى النص كل قول مُبتذَل وسخيف للحزب، وكل ما يُسمّى بالعاطفة التقدّميّة يمكن إقحامه، متلاعبين بالنص بحيث يُقحمون أي كلام فارغ أيديولوجي ظنّوا أنّه محتوى شيوعيّ في أيّ سياق تاريخيّ مهما كان. لقد تخيّلوا أنَّهم سوف يؤثّرون في التفكير العامّ. ***على الكاتب ألّا يكتفي بالملاحظة والوصف بل أنْ يُساهم في الكفاح. والكاتب غير الماركسيّ يخون الواقع الموضوعيّ؛ أما الماركسيّ فيُساهم في تحوّله. إنَّ هِبة الحزب للكاتب هي وِجهة النظر العالميّة الوحيدة الصحيحة والحقّة***. وصدَّقوا ذلك كلّه. هراء. دعاوة سياسيّة. لكنَّ الهراء لا يُحرِّمه الدستور. والإذاعة في تلك الأيام كانت ممتلئة به. مثل برنامج ***رجال الشرطة وإف بي أي من أجلك***... كيت سميث تغنّي بارك الله أميركا حتى بطلك كرونين - المُروِّج لديمقراطيّة أمريكية مثاليّة. وفي النهاية لم تكن مختلفة كثيراً. لم يكن أيرا رينغولد وآرثر سوكولو عميلين من الجواسيس. كانا من رجال الدعاية. هناك فرق. هذان الرجلان كانا من مروّجي الدعاوة السياسيّة الرخيصة، والقوانين الوحيدة التي تقفُ في وجه ذلك هي القوانين الجماليّة، قوانين الذائقة الأدبيّة.

ثم كانت هناك نقابة **أفترا**[66]، ومعركة السيطرة على النقابة. الكثير من الصراخ، وملاكمة متلاحمة وحشيّة، لكنَّ ذلك كان يحدث على مستوى الأمّة كلها. وفي نقابتي، في الواقع في كل نقابة، كان هناك يمينيون ويساريون، ليبراليون وشيوعيون يتصارعون للسيطرة. كان أيرا عضواً في هيئة النقابة التنفيذيّة، كان يتلقّى المكالمات من الناس، وكم كان صراخه عالياً. وطبعاً كانت الأشياء تُقال في حضورها. وما كان أيرا يقوله، كان يعنيه. لم يكن الحزب بالنسبة إلى أيرا جمعيّة للمناظرة. لم يكن نادٍ للنقاش. ولم يكن نقابة للحريات المدنيّة. ما معنى ثورة؟ إنها تعني ثورة. كان يتعامل مع البلاغة بجديّة. لا يمكنك أنْ تُطلق على نفسك لقب ثوريّ ولا تكون جدّيّاً في التزامك. الثورة ليست شيئاً زائفاً. بل شيء حقيقيّ. كان يتعامل مع الاتّحاد السوفييتي بجديّة. ونقابة **أفترا**، بالنسبة إلى أيرا كانت تعني العمل.

في الواقع، أنا لم أشاهد أيرا في معظم هذه النشاطات. أنا متيقّن من أنكَ *أنتَ* لم تشاهد أيرا في مُعظم هذه النشاطات. حتى إيف لم تشهد *شيئاً* من تلك النشاطات. كانت غائبة عنها *كلها*. في الحقيقة لم تكن تهمُّ إيف في شيء. كان ذهنها نادراً ما يُركِّز على ما يقوله الناس من حولها. كانت غريبة تماماً عن شؤون الحياة، كانت فائقة الخشونة بالنسبة إليها. وذهنها لم يكن يُركِّز أبداً على الشيوعيّة ومُناهضة الشيوعيّة. ولا على أيّ شيء حاضر، إلا إذا كانت سيلفيد حاضرة.

عبارة كما قيل لفلان كانت تعني أنَّ كامل القصّة الحاقدة حلُمَ بها آل غرانت. وحلموا بها ليس إكراماً إيف، وليس فقط لكي يُدمّروا أيرا، على الرغم من كراهيّة كاترينا وبرايدن لشجاعته. والعواقب بالنسبة إلى أيرا كانت جزءاً من استمتاعهما لكنَّها خارج الموضوع. لقد حلُمَ آل غرانت بذلك كله لكي يشقّ برايدن طريقه إلى المجلس ويُناقش قضيّة الشيوعيّة في البثّ الإذاعيّ.

66- أفترا: أو نقابة ممثلي الإذاعة والتلفزيون والسينما والصحفيين والشخصيات الإذاعيّة والسينمائية والمغنين – المترجم.

وبسبب ذلك الأسلوب في الكتابة، ذلك النثر الذي يُميِّز صحيفة *الجورنال- أميركان*. بالإضافة إلى بنية الجملة عند كاترينا، بالإضافة إلى حساسيّة كاترينا، وبصمات أصابعها هي المطبوعة على كل أنحاء الرسالة، عرفتُ على الفور أنَّ إيف ليستْ مَنْ كتبتها، لأنَّ أسلوب كتابة إيف ليس بهذه الرداءة. فقد كانت إيف أعلى ثقافة وأغزر قراءة لتكتب هكذا. لماذا سمحتْ لآل غرانت بتولّي تأليف كتابها؟ لأنها كانت تجعل من نفسها بانتظام عبدةً لكل شخص تقريباً. ولأنَّ ما يستطيع الأقوياء القيام به مُرعِبٌ، وما يستطيع الضعفاء القيام به مُرعبٌ. كل شيء مُرعب.

صدر كتاب *تزوجتُ شيوعياً* في شهر آذار من عام 1952، بعد أنْ كان غرانت قد أعلنَ تواً ترشّحه، ومن ثم في شهر تشرين ثاني، عندما سقط أيزنهاور، انضمَّ إلى المجلس بوصفِهِ ممثل منطقة نيويورك التاسعة والعشرين. على أيّة حال كان سيُنتَخَب. كان برنامجهم الإذاعيّ برنامجاً كبيراً مُفضّلاً في صباح يوم الأحد، وبقيَ طوال سنين عديدة يكتب عموده الصحفيّ، وعلَّقَ خلفه صورة هام فيش[67]، وهو، قبل أيِّ شيء، من آل غرانت وسليل رئيس الولايات المتحدة[68]. وأشكُّ في أنَّ جو مكارثي نفسه كان سيسافر إلى مقاطعة دوتشيس ليظهر إلى جواره لولا كل تلك الشخصيات الشيوعيّة الشهيرة التي ساعدها برنامج كرمة غرانت لتستعرض نفسها وتنبت من وسائل الإعلام. الجميع كانوا في مدينة بوكيبسي لإقامة حملة من أجله. كان الصحفيّ ويستبرك بيغلر حاضراً هناك. وكان صحافيو مجلات هيرست كلهم أصدقاءه، كل كارهي فرانكلين ديلانو روزفلت الذين وجدوا في اللطخة الشيوعيّة طريقة للقضاء على الديمقراطيين. فإما أنَّ إيف لم تكن لديها أيّة فكرة عن السبب في استغلال آل غرانت لها أو، وهو الأرجح، أنّها كانت تعلم

67- هاملتون فيش، المعروف بهام فيش، (1808 - 1893): سياسي أمريكي، والحاكم رقم 16 لولاية نيويورك، والسكرتير العام للولايات المتحدة رقم 26. دعم الرئيس الأمريكي يوليسيس س. غرانت (الرئيس رقم 18 للولايات المتحدة) - المترجم.

68- انظر المادة السابقة.

ولكنها لا تهتمّ، لأنَّ تجربة كونها مُهاجِمة جعلتها تشعر بأنها قوية جداً وشجاعة، باللجوء أخيراً إلى تسديد الضرب للوحوش بمثله.

ولكن كيف يمكن أنْ تنشر ذلك الكتاب، وهي تعرف ما تعرف عن أيرا، ولا تتوقَّع منه أنْ يفعل شيئاً؟ إنّه ليس مجرد رسالة من ثلاث صفحات إلى زنك تاون؛ هذا كتاب رائج ضخم أثار ضجّة في البلد. وكان يتّصفُ بكل العناصر التي تجعله عملاً رائجاً: فقد كانت إيف شخصيّة مشهورة، وكان غرانت مشهوراً، والشيوعيّة كانت *تشكّل* الخطر العالميّ. أيرا نفسه كان أقلّ شهرة من أيّ منهما، وعلى الرغم من أنَّ الكتاب كان سيضمن له ألّا يعمل في الإذاعة بعد ذلك وأنَّ مسيرته المهنيّة العابرة قد وصلت إلى نهايتها، وخلال الأشهر الخمسة أو الستة التي تبوّأ بها الكتاب قمة المبيعات، في ذلك الموسم، كان أيرا بارزاً كما لم يكن من قبل. فبضربة واحدة نجحتْ إيف في جعل حياتها الخاصة شأناً عاماً بمنح شبح الشيوعيّة وجهاً إنسانياً – وجه زوجها. تزوجتُ شيوعيّاً، وضاجعتُ شيوعياً، وقام شيوعيٌّ بتعذيب ابنتي، واستمعَتْ أميركا من دون أنْ ينتابها أيّ شك إلى شيوعيّ، مُتنكّرٍ بهيئة وطنيّ، عبر المذياع. وغد خبيث ذو وجهَين، وأسماء حقيقيّة لنجوم حقيقيين، وستارة خلفية كبيرة للحرب الباردة – وطبعاً تحوّل إلى كتاب رائج. وخلال حقبة الخمسينيات كان اتّهامها لأيرا من النوع الذي يمكن أنْ يجد آذانَ جماهير غفيرة تُصغي إليه.

ولم يكن مؤلِماً ذِكر أسماء كل البلاشفة اليهود الآخرين الذين اشتركوا في برنامج أيرا. كان أحد مصادر الارتياب من الحرب الباردة هو مُعاداة الساميّة، وهكذا، وبقيادة آل غرانت الأخلاقيّة – وهم أنفسهم أحبّوا اليهوديّ اليساريّ المُشاغِب الحاضر في كل مكان بقدر حب ريتشارد نيكسون له – كان في استطاعة إيف أنْ تُحوِّل التحامُل الشخصيّ إلى سلاحٍ سياسيّ بتوكيدها لأميركا غير اليهوديّة أنّه، في نيويورك كما في هوليوود، وفي المذياع كما في السينما، يكون الشيوعيّ الكامن تحت كل حجر، في تسع حالات من عشرة، هو يهوديّ حتى أخمص قدمه.

ولكن هل تخيّلتْ أنَّ هذا المتهوِّر حادّ الطِباع العِدائيّ علناً لن يُبدي أيَّة ردّة فعل؟ هذا الرجل الذي كان يُجري تلك النقاشات الشرسة على مائدة عشائها، ويهدر في أرجاء غرفة الجلوس ويصرخ في الناس، وكان *حقاً*، قبل كل شيء، شيوعياً، ويعرف معنى أنْ يتّخذ موقفاً سياسياً، وسيطر بعناد على نقابته، ونجحَ في إعادة كتابة نصوص سوكولو، وفي أنْ يتنمَّر على مُتنمِّر كآرتي سوكولو - هل ظنّتْ أنّه الآن *لن* يقوم بأي إجراء؟ أيُعقل أنّها لم تعرفه أبداً؟ ماذا عن الصورة التي في كتابها؟ إنْ كان ماكيافيلليّاً، فهو ماكيافيلليّ. الجميع يسعون إلى الاستتار.

قالتْ لنفسها إنني غاضبة حقاً. أنا غاضبة بشأنْ باميلا وغاضبة بشأن هلجي وحانقة بشأنْ تجديد أثاث الكوخ وبشأن كل الجرائم الأخرى كلها المُرتكَبة ضد سيلفيد، وسوف أُلفِتْ انتباه ابن الحرام الماكيافيلليّ ذاك قاسي القلب والفاسق. حسن، لقد حظيَتْ بانتباه فعلاً. لكنَّ الأمر الواضح في الفوز بانتباه أيرا بإقحام قضيب حارّ في طيزه علناً هو أنّك سوف تُثيرين غضبه. إنَّ الناس لا يستسلمون لذلك النوع من الهراء وهم سُعداء. الناس لا يريدون أنْ يروا فضائح على لائحة الكتب الرائجة التي يشجبونها بصورة زائفة، ولا ضرورة إلى أنْ يكون المرء أيرا رينغولد لكي يستاء. ولكي يتحرّك. لكنَّ هذا لم يخطر في بالها أبداً. فالامتعاض الصحيح الذي يُغذّى مشروعها، *النقاء* الذي يُغذّي مشروعها لا يستطيع أنْ يتخيَّل أنَّه يمكن لأي شخص أنْ يتسبَّب في أذيّتها. وكل ما فعلت هو أنّها انتقمتْ. لقد قام أيرا بكل الأعمال الشنيعة - وهي فقط تقدِّم نسختها من القصّة. لقد حصلتْ على الضربات الأخيرة، والعواقب التي تتخيَّلها هي العواقب التي تستحقّها. كان لا بدّ أنْ يجري الأمر هكذا - فماذا فعلتْ هي؟

إنَّ ذلك العمى الاختياري نفسه الذي أدّى إلى الكثير من الآلام مع بيننغتون، ومع فريدمان، ومع سيلفيد، ومع باميلا، ومع آل غرانت، وحتى مع هلجي بارن -- في الختام، ذلك العمى الاختياريّ كان بمثابة

الدودة التي نَخَرتْها. إنّه ما أطلق عليه أستاذ أدب شكسبير في المدرسة الثانويّة الخلل المأساويّ.

لقد تملّكتْ إيف قضيّة عُظمى: قضيّتها. قضيّتها، معروضة بقِناعٍ فخم على هيئة معركة إيثاريّة من أجل إنقاذ أميركا من المدّ الشيوعيّ. إنَّ كل شخص مرّ بتجربة زواجٍ فاشل - وهي نفسها مرّتْ بأربعة من هذا النوع. ولكنّها كانت أيضاً في حاجة إلى أنْ تكون متميِّزة. نجمة. تريد أنْ تبيِّن أنها هي أيضاً مهمّة، أنّ لديها عقلاً ولديها القوة للقتال. مَنْ هو ذلك الممثّل المُسمّى أيرون رن؟ *أنا* هو الممثّل! *أنا* صاحب الاسم، وأنا أمتلك *قوّة* الاسم! أنا لستُ هذه المرأة الضعيفة التي يمكنك أنْ تفعل معها ما تشاء. أنا نجمة، اللعنة! إنَّ زواجي ليس زواجاً عاديّاً. إنّه زواج فاشل *لنجمة*! أنا لم أفقد زوجي بسبب فخّ رهيب وقعتُ فيه مع ابنتي. أنا لم أفقد زوجي بسبب كل ذلك التذلُّل والمناشدة. لم أفقد زوجي بسبب عاهرته الثملة ذات السن الذهبيّة. كان ينبغي أنْ يكون السبب أعظم من ذلك - وأنا يجب أنْ أكون نقيّة. ورفضُ الإقرار بما هو بالمقياس الإنسانيّ حوّله إلى شيء مُثير وزائف ورائج. لقد فقدتُ زوجي لصالح الشيوعيّة.

ولم تكن لدى إيف أدنى فكرة عمّا كان ذلك الكتاب يدور حقاً، أو في الواقع يُنجِزه. لماذا قُدِّمَ أيرون رن إلى الجمهور على أنّه جاسوس خطير عميل للسوفييت آخر؟ لكي يُنتَخَب جمهوريٌّ آخر في البرلمان. كي يُدخِل برايدن غرانت إلى البرلمان ويضع جو مارتن على كرسي الناطق بلسان الحزب.

في النهاية انتُخِبَ غرانت إحدى عشرة مرّة. كان شخصيّة مهيبة في المجلس. وأصبحتْ كاترينا المَضيفة الجمهوريّة في واشنطن، وملكة السلطة الاجتماعيّة طوال سنوات حكم أيزنهاور. وبالنسبة إلى شخص مُشوَّه بالحسد وبالغرور، لم يكن هناك موقع في العالم مُجزٍ أكثر من

تقرير مَنْ يجلس قِبالة روي كوهن[69]. في مظاهر القلق الهَرَميّ التي تعمّ حفل عشاء في واشنطن، تجد مقدرة كاترينا على المنافسة، كانت السِمة الحيويّة الصِرف الجديرة بآكلي لحم البشر التي تتصف بها ذائقتها في التفوُّق – في إجزاء أو حرمان الطبقة الحاكمة ذاتها ممّا تستحق من مكافأة – تجد... سُلطتها، أعتقد أنَّ هذه هي الكلمة الدقيقة. إنَّ تلك المرأة وضعتْ لائحة بأسماء المدعوين بساديّة الإمبراطور الروماني كاليغولا الديكتاتوريّة. إنها **تعرف** كيف تستمتع بإذلال القويّ. وتعرف كيف تُثير هزَّة أو اثنتين في أرجاء تلك العاصمة. وفي ظل حكم أيزنهاور ومرة أخرى، لاحقاً، في ظل مُعلِّم برايدن، نيكسون، هيمنتْ كاترينا على مجتمع واشنطن كالخوف نفسه.

في عام 69، عندما سادت فورة من الاعتقاد بأنَّ نيكسون ينوي أنْ يجد لغرانت مكاناً في البيت الأبيض، وتصدّرت صورة الزوج عضو الكونغرس والزوجة الروائيّة المُضيفة غلاف مجلة **لايف**. كلا، لم يبلغ غرانت أبداً مكانة هالدمان[70]، ولكن في نهاية المطاف، هو أيضاً أطاحت به قضية ووترغيت. وراهن على نيكسون، على الرغم من كل الأدلة التي وُجِّهَتْ ضد قائده، ودافع عنه على أرض المجلس حتى فجر يوم الاستقالة. وهذا ما أدّى إلى هزيمة غرانت في عام 74. ولكن حينئذٍ كان منافساً لنيكسون من البداية. كان مع نيكسون ألغر هيس، وكان مع غرانت أيرون رن. ومن أجل البروز السياسيّ كان لكلٍ منهما جاسوس سوفيتيّ.

شاهدتُ كاترينا على شاشة تلفزيون البثّ الفضائيّ في جنازة نيكسون. كان غرانت قد مات قبل ذلك ببضعة أعوام واعتُبِرَتْ ميّتة منذ ذلك الحين. كانت في مثل سني، أو أكبر بعامٍ أو عامين. ولكن هناك في الجنازة في يوربا ليندا، والعلم يُرفرف عند منتصف السارية بين أشجار

69- روي كوهين (1927 – 1986): محام أمريكي، والمستشار الأول لجوزيف مكارثي في لجنة التحقيقات مع المُشتبه باعتناقهم الشيوعيّة – المترجم.

70- ه. ر هالدمان (1926 – 1993): سياسي ورجل أعمال، ومعروف بكونه رئيس مكتب البيت الأبيض في عهد الرئيس نيكسون وبتورطه في قضية ووترغيت – المترجم.

النخيل، وعلى الخلفيّة ظهرت صورة مسقط رأس نيكسون، كانت لا تزال صاحبتنا كاترينا، بشعرها الأبيض وذبولها لكنّها لا تزال تمثّل قوة من أجل الخير، تتحدث في ذلك مع باربرة بوش وبيتي فورد ونانسي ريغان. لقد بدا أنَّ الحياة لا تُجبرها على الاعتراف، ناهيك عن التخلّي، عن مظاهر غرورها. ومع ذلك، كانت مُصمّمة بكل قوة على أنْ تمثّل السلطة الوطنيّة في الاستقامة، والصرامة المُطلقة في تنفيذ ما ينبغي عمله. لقد نظرتُ إليها وهي تتحدث هناك مع السيناتور دول، مُرشدنا الأخلاقيّ العظيم الآخر، ولم تبدُ لي أنّها تخلّت بأي قدر عن فكرة أنَّ كل كلمة تنطقها هي على أعلى قدر من الأهميّة. ولا تزال لا تعرف التأثير العميق للصمت. ولا تزال كلب الحراسة المستقيم الوصيّ على استقامة كل شخص. وهي غير نادمة. غير نادمة بصورة قُدسيّة وتُهدِّدُ بصورتها الذاتيّة المُنافية للعقل. وكما تعلم، لا علاج للحمق. إنَّ تلك المرأة هي التجسيد الحيّ للطموح الأخلاقيّ، وضرره، وبلاهته.

كان كل ما يهم آل غرانت هو جعل أيرا يخدم قضيّتهم. وماذا كانت قضيتهم؟ أهي أميركا؟ أم الديمقراطيّة؟ لو أنَّ البطولة كانت ذريعة للبحث عن الذات، عن بذل الذات، عن عبادة الذات... أتعلم، إننا نتعلَّم من شكسبير أنّه عندما تسردُ حكايةً فإنّكَ لا تستطيع أنْ تُخفِّف من تعاطفك الوهميّ مع أيّة شخصيّة. لكنني لستُ شكسبير، وما زلتُ أحتقر ذلك الجزّار وزوجته لِما فعلاه لأخي – وفعلا ذلك بسهولة، بالاستعانة بإيف كما تستعين بكلب لإحضار الصحيفة من مدخل الباب الأمامي. أتتذكّر ما يقول غلوسيستر عن لير العجوز؟ إنَّ الملك في حالة غضب شديد. أنا نفسي مررتُ بحالة سيئة من الغضب الشديد عندما لمحتُ كاترينا فان تاسل في يوربا ليندا. قلتُ في نفسي، إنها نكرة، لا شيء، ممثلة حقيرة. لقد لعِبَتْ في التاريخ الشاسع للحقد الأيديولوجيّ في القرن العشرين، لعبتْ دوراً صغيراً صامتاً مُضحِكاً لا أكثر. ولكن ما زلتُ لا أتحمّل مشاهدتها.

لكنَّ جنازة رئيسنا السابع والثلاثين برُمتها لم تكن تُحتَمَل. مع فرقة البحريّة الموسيقيّة والجوقة يؤدون كل الأناشيد المُصمَّمة لإيقاف الناس عن التفكير وخلق حالة من النشوة: تحيّة إلى الرئيس، أميركا، أنت علمٌ عظيم وعريق، أنشودة المعركة للجمهوريّة، وحتماً، ذلك المُخدِّر الأقوى مفعولاً الذي يجعل الجميع ينسى للحظة كل شيء، النشيد الوطني المُخدِّر راية النجوم المتلألئة. لا شيء يُضاهي تعليقات بيلي غراهام المُستنهِضة للهمم، والتابوت المُجلّل بالعلم، وفريق من الخدم متعدّدي الأعراق حاملي بساط الرحمة - وفوق ذلك كلّه نشيد راية النجوم المتلألئة تبِعته مباشرة تحيّة الإحدى وعشرين طَلَقَة وقرع الطبول الجنائزيّ - لإحداث حالة من الجمود الجماعيّ.

ثم يتولّى الواقعيون زمام الأمور، خبراء عقد الصفقات وفصمها، سادة الأساليب الأشدّ خزياً في القضاء على خصم، أولئك الذين بالنسبة إليهم يجب أنْ تأتي الاعتبارات الأخلاقيّة في آخر اللائحة، يتلفظون بلغة مشهورة كلها رياء، وزيف، عن كل شيء ما عدا أهواء الرجل الميت الحقيقيّة. كلينتون يُمجِّد نيكسون على رحلته الرائعة مُعبِّراً، تحت تأثير صِدقه الخاص، عن امتنانه الأخرس على كل المشورة الحكيمة التي منحها له نيكسون. والحاكم بيت ويلسون يُطمئن الجميع على أنَّه عندما يُفكّر معظم الناس في ريتشارد نيكسون، فإنهم يفكّرون في ذكائه الخارق. ودُولْ وفيضه من العبارات المبتذلة المُحزِنة. والدكتور كيسنجر، ذو المبادئ السامية، والعميق، يتكلَّم بأسلوبه اللاأنانيّ المتفاخر - وبكل السيطرة الباردة لذلك الصوت الغائص في الوحل- ويقتطف تقديراً لا يقلّ مهابة عن تقدير هاملت لوالده المغدور لوصف صديقنا الشهم. كان رجلاً، في المُجمل، لن أقابل مثيلاً له بعد الآن. والأدب ليس واقعاً أوّلياً بل أشبه بالتنجيد المُكلِف بالنسبة إلى حكيمٍ هو نفسه مُنجَّد بلا تردُّد، ولذلك ليست لديه أدنى فكرة عن السياق المُراوِغ الذي يتكلَّم به هاملتْ عن الملك الفذّ. ولكن مَنْ، بجلوسه هناك مُعرَّضاً لضغطٍ هائل جرّاء المحافظة

على هدوء وجهه يراقب حدوث ردم التراب الختاميّ، سوف يقبض على يهودي البلاط يرتكب غلطة ثقافيّة عندما يستشهد من تحفة فنيّة بمُقتَطَف غير مُناسِب؟ مَنْ يمكن أنْ ينصحه بأنَّه لا ينبغي أنْ يستشهد بما قاله هاملت عن والده بل ما قاله هاملتْ عن عمّه، كلاوديوس، وما قاله هاملتْ عن سلوك الملك الجديد، قاتل والده ومُغتصِب العرش؟ مَنْ في يوربا ليندا يجرؤ على الهتاف هيه، دكتور - اقتطف *هذا القول* الأعمال الفاسدة سوف تحدث / سوف تغمرهم من كل أرجاء العالم / أمام عيون الرجال؟

مَنْ؟ جيرالد فورد؟ جيرالد فورد. لم أر في حياتي جيرالد فورد يبدو مُركّزاً هكذا، ومشحوناً بالذكاء كما كان بكل وضوح في تلك الأرض المُقدَّسة. ورونالد ريغان يؤدي تحيّته المشهورة لحرس الشرف بزيّه الرسميّ، تلك التحيّة التي *لطالما* بدتْ شبه جنونيّة. والممثّل بوب هوب جلس بجوار جيمس بيكر. وتاجر الأسلحة المُعادي لإيران عدنان خاشقجي جالس بجوار دونالد نيكسون. واللص ج. غوردن ليدي كان حاضراً برأسه الحليق المتعجرف. ونائب الرئيس الأشد خزياً، سبايرو آغنيو، هناك بوجه الرعاع المُجرَّد من الضمير. وأشد نواب الرؤساء المحظوظين، المتلألئ دان كويل، يبدو شديد الهدوء. والجهد البطوليّ الذي بذله ذلك المسكين هو أنّه كان دائماً يستعرض الذكاء ودائماً يفشل. كلهم يُقدّمون عزاءهم المُبتذل تحت أشعة شمس كاليفورنيا الساطعة ونسيمها العليل: المُتَّهمين وغير المُتَّهمين، المحكومون وغير المحكومين، وأخيراً ارتاح ذكاؤه الفائق في تابوت مُزيَّن بنجوم برّاقة، ولم يعُد يتمسّك ويسعى إلى سلطة بلا حدود، الرجل الذي قلب معنويات البلد بأكمله رأساً على عقب، ومُسبِّب لكارثة وطنيّة هائلة، أول وآخر رئيس جمهوريّة للولايات المتحدة الأمريكية اكتسب من خليفةٍ مُنتقى بدقّة عذراً كاملاً وغير مشروط لكل عمليّة كسر واقتحام ارتكبها وهو في سُدّة الحُكم.

وفان تاسل غرانت، أرملة برايدن المعبودة، العاملة في الخدمة العامة، الإيثاريّة *تلك*، التي ترتع بما تحظى به من أهمّية ولا تكفّ عن الهذر. طوال

فترة خدمتها، وفمها الخبيث المتهوِّر يُثرثر ويُثرثر وسط حزنها المُصوَّر تلفزيونياً على خسارتنا الوطنيّة العُظمى. من المؤسِف أنّها لم تولَد في الصين بدل من الولايات المتحدة. هنا كان عليها أنْ تستقر لأنها روائيّة رائجة وشخصيّة إذاعيّة مشهورة ومُضيفة الوسط الراقي في واشنطن. هناك كان في استطاعتها أنْ تُدير ثورة ماو الثقافيّة.

لقد شهدتُ وأنا في سن التسعين جنازتين أثارتا ضحكي الأقصى، يا نيثان. حضرتُ الأولى وأنا في سن الثالثة عشرة والثانية شاهدتها على شاشة التلفزيون قبل ثلاث سنوات فقط، وأنا في سن السابعة والثمانين. جنازتان أثّرتا بصورة أو بأخرى على حياتي الواعية. لم تكونا حَدَثَين غامضين. وهما لا تتطلّبان عبقرياً لكي يعرف مغزاهما. إنهما حَدَثَان إنسانيان طبيعيان لا أكثر يكشفان بكل وضوح كما كشفَ دوميه[71] عن العلامات الفريدة للنوع، الألف ثُنائيّة وثُنائيّة التي حوّلتْ طبيعته إلى مشكلة إنسانيّة. الأولى كانت جنازة السيد روسّومانو التي أقامها لطائر الكناري، عندما أوقفَ الاسكافيّ تقدُّم موكب التابوت وحاملي بساط الرحمة وعربة الموتى التي تجرّها الأحصنة وقام بدفن محبوبه جيمي بكل مهابة - وكسر أخي الصغير أنفي. والثانية كانت عندما دفنوا ريتشارد ميلهوس نيكسون مع تحيّة الطلقات الإحدى والعشرين. وكانت أمنيتي الوحيدة هي أنْ أرى الإيطاليين من الحرب العالمية الأولى القديمة يخرجون هناك إلى يوربا ليندا مع الدكتور كيسنجر وبيلي غراهام. هم كانوا سيعرفون كيف يستمتعون بالمشهد العام. وكانوا سينطرحون على الأرض من فرط الضحك عندما يسمعون ماذا كان تينك الشخصين سيفعلان، ويشهدون الدرك الذي انحدرا إليه لكي يُبجّلا تلك الروح القذرة بصورة فاضحة.

ولو كان أيرا حياً وسمعهما لجُنَّ جنونه من جديد من العالم الذي يُصيب فيه الخلل كل شيء.

71- أونوريه دوميه (1808 – 1879): رسّام فرنسي، عُرِفَ خاصة برسومه الساخرة ذات الطابع السياسيّ والاجتماعيّ - المترجم.

مكتبة
t.me/t_pdf

- 8 -

إنَّ كل ما تبجَّح به عن أيرا ارتدَّ إليه الآن. كيف استطاعت تلك المهزلة أنْ تُدمِّر حياته؟ كل ما يدعم الشيء الأساسيّ، كل المادة المُحيطة بالوجود التي حذّره الرفيق أوداي منها. المنزل. الزواج. العائلة. العشيقات. الزنا. كل الهراء البورجوازيّ! لِمَ لم يعِش كأوداي؟ لِمَ لمْ يلجأ إلى العاهرات كما فعل أوداي؟ إلى عاهرات حقيقيّات، مُحترفات جديرات بالثقة يفهمنَ الأصول، وليس هاويات ثرثارات كالمُدلّكة الإستونيّة.

وبدأتْ الاتّهامات المُضادة تطاردة. ما كان ينبغي أنْ يترك أوداي، ويترك محل بيع سماعات الأُذُن في مصنع التسجيلات، ويأتي إلى نيويورك، ويتزوج إيف فريم، ويتصرَّف بفخامة على أنّه السيد أيرون رن الذي يُشار إليه بالبنان. وبتقدير أيرا الخاصّ ما كان ينبغي عليه أنْ يقوم *بأيٍ* من تلك الأعمال من أجل كسب لقمة العيش التي قام بها بعد أنْ غادر الغرب الأوسط. ما كان ينبغي أنْ تكون لديه شهيّة كائن بشريّ إلى التجربة أو عجز الكائن البشريّ عن قراءة المستقبل أو نزوع الكائن البشري إلى ارتكاب الأخطاء. ما كان ينبغي أنْ يسمح لنفسه بالسعي وراء أيّ هدف من الأهداف الدنيويّة لأي رجل طموح مكتمل الرجولة. إنَّ كونه مكافحاً شيوعيّاً يُقيم وحده في غرفة في شرق شيكاغو تحت مصباح باستطاعة ستين واط - تلك كانت الآن ذروة التنسُّك التي سقط منها إلى الجحيم.

كانت ذروة المهانة هي المفتاح. الأمر لم يكن أشبه برمي كتابٍ عليه

– لقد كان الكتاب قنبلة أُلقيَتْ عليه. في الواقع، كان مكارثي سيضع المئتين أو ثلاثمائة أو أربعمائة شيوعيّ على قوائمه التي لا وجود لها، ولكن مجازيّاً كان على شخصٍ واحدٍ أنْ يواجههم كلهم. إنَّ ألغر هيس هو أوضح مِثال. وبعد زوال هيس بثلاث سنوات أصبح أيرا نسخة أخرى منه. وزيادة على ذلك، كان هيس بالنسبة إلى الإنسان العاديّ لا يزال يمثّل وزارة الخارجيّة ويالطا، وبعيد، بعيد كل البُعد عن الإنسان العاديّ، بينما مثَّلَ أيرا شيوعيّة الثقافة الشعبيّة. وبالنسبة إلى المُخيّلة الشعبيّة المُشوَّشة، كان هذا هو الشيوعيّ الديمقراطيّ. كان هذا هو آبيه لينكولن. كان شيئاً يمكن استيعابه بسهولة: آبيه لينكولن بوصفه الممثل الخسيس لقوة أجنبيّة، آبيه لينكولن بوصفه أكبر خائن في القرن العشرين في أميركا. وأصبح أيرا تجسيداً للشيوعيّة، الشيوعي مُجسّداً بالنسبة إلى الأمّة: كان أيرون رن الخائن الشيوعيّ بالنسبة إلى الإنسان العادي بطُرُق لم يكن ألغر هيس[72] ليستطيع أنْ يلجأ إليها.

ها هو هذا العملاق صاحب القوة الهائلة، فائق الحسّاسية بطُرق عديدة، لكنَّ الافتراء المنصبّ عليه لم يعُد في استطاعته تحمّله. العمالقة أيضاً يسقطون. كان يعلم أنّه ليس في استطاعته أنْ يختبئ من تلك الحقيقة وقال في نفسه: مع مرور الوقت، إنّه لا يستطيع أنْ ينتظر إلى أنْ تخرج إلى العلن. بدأ يُفكّر في أنّه الآن بعد رُفِعَ الغطاء سوف يكون هناك دائماً شيء يخرج إليه من مكان ما. لم يستطع العملاق أنْ يعثر على أيّ شيء مؤثّر يتعامل معه، وحينئذٍ استسلم.

وذهبتُ لأُحضِره، وأقام بيننا إلى أنْ لم يعُد في استطاعتنا أنْ نتحمّل الوضع، وأودعته المستشفى في نيويورك. وخلال الشهر الأول كان يأكل وهو جالس على ذلك الكرسيّ، يدعك رُكبتيه ويدعك مِرفقيه ويُمسِك

72- ألغر هسّ (1904 – 1996): موظف حكوميَ أمريكي. اتُّهِمَ بالتجسُّس لصالح السوفييت وصدر الحكم عليه بسبب القَسَم الكاذب عام 1950. وقبل الاتّهام وصدور الحكم كان قد ساهم في إنشاء الأمم المتّحدة وشغل مناصب مهمّة – المترجم.

بوركيه حيث موضع الألم، وفيما عدا ذلك كان بلا حياة، يُحدِّقُ إلى حجره ويتمنّى الموت. كنتُ أذهب لعيادته ولم يكد يتكلَّم. كان يقول مرة بعد كل حين، كل ما أردُت أنْ أفعل... ولا يزيد. ولم يُضِف أكثر من ذلك، ليس بصوتٍ مرتفع. هذا كل ما قال لي على مدى أسابيع. وفي مرات قليلة تمتم، أنْ أكون هكذا... لم أقصد أبداً، ولكن في الغالب كان يقول، كل ما أردتُ أنْ أفعل...

في تلك الأيام لم يكن لديهم في المستشفى ما يكفي لمساعدة المرضى العقليين. لا أقراص غير الأقراص المُهدّئة. وكان أيرا يرفض الأكل. كان يجلس في تلك الوِحدة الأولى - وحدة المُضطربين، كما سمّوها - كانت تضم ثمانية أسرَّة وأيرا بمبذله وبيجامته وخِفّه، وأصبح يبدو أقرب شَبَهاً بلينكولن مع مرور كل يوم. هزيلاً، مُستنزفاً، يتمثّل قناع أبراهام لينكولن الحزين. كنتُ أعوده، أجلسُ بجواره مُمسِكاً بيده وأفكِّر. ولولا ذلك الشَبَه، لَمَا حدث ذلك كلّه له. ليته لم يكن مسؤولاً أمام مظهره.

مرّت أربعة أشهر قبل أنْ ينقلوه إلى وحده أنصاف المُضطربين، حيثُ يُلبسون المرضى ملابسهم الخاصة، ويُخضعونهم لعلاج استجماميّ. بعضهم يذهبون للعب كرة اليد أو كرة السلّة، على الرغم من أنَّ أيرا كان عاجزاً عن اللعب بسبب آلام مفاصله. كان قد أمضى أكثر من عام يُعاني خلالها آلاماً لا خلاص منها، وربما هذا ما حطّم معنوياته أكثر من الافتراء عليه. ربما العدوّ الذي دمّرَ أيرا كان الألم الجسديّ، وما كان يمكن للكتاب أنْ يهزمه لو لم يُدمَّر عبر حالته الصحيّة. كان الانهيار كاملاً. والمستشفى كانت شديدة الرداءة. ولكن لم يكن في استطاعتنا أنْ نحتفظ به في المنزل. كان يتمدَّد في غرفة لورين ويلعن نفسه ويبكي بحُرقة: أوداي أخبره، أوداي حذّره، كان أوداي يعلم عندما كنا على متون السفن في إيران... جلستْ دوريس بجوار سرير لورين وضمّته بين ذراعيها وهو ينوح. وكل القوة الكامنة خلف تلك الدموع. شيء مُريع.

لن تُدرك كم يمكن لوضوح البؤس القديم أنْ يُدعَم داخل شخص مُتحدٍّ بشكل هائل تحدّى العالم وقاتلَ طبيعتَه الخاصة طوال حياته. هذا ما كان يتدفّقَ منه: ذلك الصراع اللعين.

أحياناً كنتُ أشعر بالرعب. شعرتُ كما كنتُ أشعر في الحرب عندما كنا نتعرَّض للقصف في بلج. ولمُجرّد أنّه كان ضخم الجثّة ومتعجرفاً ينتابك إحساسٌ بأنّه لا يمكن لأي شخص أنْ يؤذيه. رأيتُ وجهه الطويل، الهزيل ذاك، مُشوّهاً من فرط اليأس، وانعدام الأمل الكامل، والفشل، وانتقل الرعب إليّ أنا.

عندما أعود إلى المنزل قادماً من المدرسة كنتُ أساعده في ارتداء ملابسه؛ وبعد ظهيرة كل يوم كنتُ أجبره على حلاقة ذقنه وأُصرّ على أنْ يخرج ليتمشّى معي على طول شارع برغين. أكان يمكن لأي شارع آخر في مدينة في أميركا أنْ يكون أشدّ ودّاً منه في تلك الأيام؟ لكنَّ أيرا كان مُحاصَراً بالأعداء. كان المركيز في مسرح بارك يُخيفه، والسجق في واجهة محل كارتزمان يُخيفه – محل شاختمان لبيع السكريات كان يُخيفه، مع كشك بيع الصحف الذي أمامه. كان متيقّناً من أنَّ كل صحيفة تحمل قصّته، ومع مرور الأسابيع تخلّتْ الصُحف عن السُخرية منه. أوردت صحيفة ***الجورنال أميركان*** مقاطع من كتاب إيف. ***والديلي ميرور*** وضعت صورة قمع على كل أرجاء الغلاف. حتى ***التايمز*** الرصينة لم تستطع المقاومة. وأوردتْ قصة تهمّ البشر عن معاناة سارة برنار الإذاعة، وتعاملتْ مع كل ذلك الهراء عن التجسُّس الروسيّ بجديّة قُصوى.

ولكن هذا ما يحدث. حالما تكتمل المأساة الإنسانيّة، تنتقل إلى الصحفيين ليحولوها إلى تسلية مُبتذلة. ربما السبب هو الهياج اللاعقلانيّ يقتحم علينا أبوابنا وأنّني لم أُصادف أي تفصيل يُلمِّح ولو من بعيد في صحيفة ما حسب ما أتذكّر من فترة مكارثي دشّن بداية ثرثرة ما بعد الحرب كما فعلت العقيدة الموحَّدة لأعرق جمهورية ديمقراطيّة في العالم. **نحن نثق بالشائعة**. الشائعة هي الإنجيل، هي الإيمان الوطنيّ. والمكارثيّة

بوصفها بداية ليس فقط السياسة الجادّة بل **وكل شيء** جادّ كتسلية للترفيه عن الجماهير الغفيرة. والمكارثيّة بوصفها أول ازدهار بعد انتهاء الحرب لغياب الفكر الأمريكي الذي بات الآن مُنتشراً في كل مكان.

إنَّ مكارثي لم ينخرط أبداً في المسألة الشيوعيّة؛ وإنْ كان هناك شخص آخر يعلم هذا، فهو ذلك الشخص. وجزء عرضُ المُحاكمات من حملة مكارثي الوطنيّة كان فقط شكلها المسرحيّ. ووجود آلات تصوير لتصويرها لا يُضفي عليها إلا أصالة زائفة للحياة الواقعيّة. لقد فهمَ مكارثي أفضل مما فعل أيّ سياسيّ أمريكي من قبله أنَّ المُشرّعين يمكنهم أنْ يُحسّنوا أداءهم بصورة أفضل مما يفعلون؛ مكارثي يفهم قيمة الخزيّ المُسلّية وكيف تُغذّى متع الدعاوة السياسيّة. لقد أعادنا إلى أُصولنا، إلى القرن السابع عشر وإلى المخزن العام. هكذا بدأ البلد: خزيٌ أخلاقيّ بوصفه ترفيه عام. كان مكارثي هو مدير العرض، وكلما كانت الأخبار مُثيرة، كانت الاتّهامات رهيبة، وكلما تفاقم الارتباك ازداد المرح في كل مكان. إنّه نسخة **جو مكارثي من عرض الأحرار والشجعان** - *ذاك* كان العرض الذي سيلعب فيه أخي لاحقاً الدور الأكبر في حياته.

عندما انضمّتْ إلى ذلك ليس فقط صُحُف نيويورك بل وصُحُف جيرزي أيضاً - حسن، كان في ذلك هلاك أيرا. لقد اقتادوا كل مَنْ كان أيرا يعرفه في مقاطعة سِكس وأجبروهم على الكلام. مُزارعون، عجائز، نكرات من أبناء البلدة كان النجم الإذاعي قد عقد صداقات معهم، وكلهم كان لديهم قصص يحكونها عن أيرا الذي كان يأتي إليهم ويُخبرهم عن شرور الرأسماليّة. وكان لأيرا صديق مُقرَّب في زنك تاون، المُحنِّط، كان يتردَّد إلى هناك ليُستمع إلى الرجل، وذهبتْ الصحف إلى المُحنِّط وأصغى المُحنِّط إليهم. ولم يُصدِّق أيرا. لكنَّ المُحنِّط اعترفَ بأنَّ أيرا أغشى عينيه إلى أنْ ذات يوم جاءه أيرا مع فتى صغير وحاول الاثنان أنْ يقلباه ضد الحرب الكوريّة. وقاما ببخّ سمومهما ضد الجنرال دوغلاس ماك آرثر. ونعتا الولايات المتحدة الأمريكية بأبشع الصِفات.

واجتمعت الإف بي أي في يوم مشهود معه، ومع سُمعة أيرا هناك. من أجل تعذيبك، وتحطيمك داخل مجتمعك، والخروج إلى الجيران ودفعهم إلى قتلك... يجب أنْ أخبرك، لطالما شكَّ أيرا في أنَّ المُحنِّط هو الذي بعصك *أنت*. أنتَ كنتَ مع أيرا، في محل المُحنِّط، أليس كذلك؟

قلتُ فعلاً. هوراس بيكستون. ذلك الشخص الضئيل المرح. وأعطاني حافر أيل كهديّة. وفي صباح أحد الأيام جلستُ أراقبه وهو يسلخ جلد ثعلب.

في الواقع، أنت دفعتَ ثمن حافر الأيل ذاك. لقد كلَّفتكَ مراقبته وهو يسلخ جلد ذلك الثعلب مِنحتكَ الدراسيّة.

بدأتُ أضحك. هل قُلتَ قلبَ *ابنه* ضد الحرب أيضاً؟ لقد كان الابن أصمّاً تماماً. الابن كان أصمّاً وهو كان أبكم. لم يكن في استطاعته أنْ البتّة.

هذه هي فترة مكارثي – لا يهمّ. كان لأيرا جار يسكن قريباً منه، عامل في منجم الزنك كان قد وقع له حادث مريع في المنجم واضطرّ إلى أنْ يحلّ محلّه في العمل. كان أيرا يقضي وقتاً طويلاً في الاستماع إلى أولئك العمّال يتذمّرون حول زنك نيو جرزي ويُحاول أنْ يقلبهم ضد النظام، وهذا الرجل بالذات، جاره، الذي كان يُلقّنه طوال الوقت، هو الذي دفعه المُحنِّط إلى نزع لوحة أرقام ترخيص كل مَنْ يتوقف أمام كوخ أيرا.

قلتُ قابلتُ الرجل الذي تعرَّضَ للحادث. وتناول الطعام معنا، يُدعى راي. لقد سقطتْ صخرة عليه وسحقت جُمجمته. اسمه الكامل ريموند سفيتش. وكان سجين حرب. كان راي يقوم بأعمالٍ شتى لصالح أيرا.

قال مَري: أعتقد أنَّ أيرا كان يقوم بكثير من الأعمال الصغيرة من أجل كل شخص. لقد نزع لوحة أرقام الترخيص زائريه والمُحنِّط نقل تلك اللوحات إلى البي إف أي. وفي الغالب كان يتَّضِح أنَّ تلك اللوحات تخصّني، وذلك الدليل أيضاً استخدموه ضدي – ويدل على أنني قمتُ بزيارة أخي الجاسوس الشيوعي كثيراً، وأحياناً كنتُ أبيتُ عنده. هناك رجل واحد بقيَ مُخلِصاً لأيرا... إنّه تومي میناریك.

أنا قابلتُ تومي.

رجل رائع. ليس مُثقّفاً لكنه ذكيّ. وذو عزيمة. في أحد الأيام أخذ أيرا لورين وذهبا إلى ركام الصخور ومنحها تومي عيِّنة مجّانيّة وعندما رجعا إلى المنزل لم تتكلَّم إلّا عنه. وبعد أنْ قرأ تومي الخبر في الصحف، ذهب إلى الكوخ ودخل مباشرة. قال لأيرا: لو كانت لديّ الشجاعة لأصبحتُ أنا نفسي شيوعياً.

إنَّ تومي هو الذي أعاد تأهيل أيرا. وتومي هو الذي أخرجه من كآبته وأعاده إلى العالم. تومي جعله يجلس بجواره مباشرة هنا على ركام الحجارة حيث كان يُدير الأمور لكي يتمكّن الناس من رؤية أيرا جالساً هناك. كان تومي مُحترَماً في البلدة، ومع مرور الوقت، غفر الناس هناك لأيرا كونه شيوعياً. ليس كلّهم، بل مُعظمهم. كان الاثنان يجلسان على ركام الحجارة ويتحدثان على امتداد ثلاث ساعات، أو أربع ساعات من دون توقُّف. وتومي علَّمَ أيرا كل ما كان يعرفه عن المعادن. ثم أُصيبَ تومي بسكتة دماغيّة ومات وترك قبوه الممتلئ بالصخور لأيرا، وحلَّ أيرا محل تومي في العمل. سمحت له البلدة بذلك. وجلس أيرا هناك، أيرا المُصاب بالتهاب شديد يدعك مفاصله المتوجّعة وعضلاته، وأدار أعمال ركام الحجارة في زنك تاون إلى أنْ مات هو. تحت أشعة الشمس، في يوم من أيام الصيف، وهو يبيع المعادن، انطوى على نفسه ومات.

تساءلتُ إنْ كان أيرا قد أرهقَ نفسه بتصميمه على أنْ يكون مولعاً بالجدل، ومُخالِفاً، ومُتحدّياً، وأنْ يكون غير منطقيّ عند اللزوم، أو إنْ كان ذلك كلّه بقيَ مُلتهباً داخله وهو يبيع عيّنات تومي أمام ركام الحجارة، على الجهة المقابلة من الشارع الرئيس قِبالة ورشة الإنشاءات الميكانيكيّة حيث لديهم مرحاض. والأرجح أنّه استمر في حماسته؛ ففي أيرا كل شيء يستمر في فورانه. لا أحد في العالم أقلّ من أيرا موهبة في الشعور بالإحباط أو أسوأ منه في التحكُّم في تقلّبات مزاجه، في الرغبة الجامحة في اتّخاذ خطوة عمليّة – لكنّه بدل ذلك باع الأطفال

كيساً بخمسين سنتاً من الحجارة. جلس هناك إلى أنْ مات، راغباً في أنْ يُصبح شخصاً مختلفاً تماماً، مؤمناً بأنّه بفضل صفاته الشخصيّة (حجمه، عِدائيّته، والأب الذي عانى منه) كان *مُقدَّراً* له أنْ يكون شيئاً آخر. وحانقاً لأنّه ليس مؤهَّلاً لتغيير العالم. ومرارة تلك العبوديّة. كم شعر بالاختناق وهو هناك، مُستخدماً الآن مقدرته التي لا تنضب ولا تهدأ لتدمير نفسه.

قال مري: كان أيرا يعود من شارع برغين، من التمشّي من أمام كشك شاختمان لبيع الصحف، متهالكاً أكثر مما كان عندما غادر المنزل، ولم تتحمّل لورين ذلك، وهي ترى عمّها الضخم والعظيم، التي غنّتْ معه أغنية عن العامل العاديّ، تهادوا، تهادوا – تراه مُتّضِعاً بصورة لا طاقة لها على تحمّله، وهكذا اضطررنا إلى أنْ نودعه المستشفى في نيويورك.

لقد تخيَّلَ أنّه السبب في دمار أوداي. كان متيقّناً من أنّه دمّرَ كل شخص يوجد اسمه وعنوانه في تينك المفكّرتين الصغيرتين اللتين سلَّمتهما إيف إلى كاترينا، وكان على صواب. لكنَّ أوداي بقيَ معبوده، وتلك الرسائل التي تلقّاها من أوداي والتي استعانت الصحف بمقتطفات دقيقة منها بعد أنْ وردتْ في كتابها – حسن، كان أيرا واثقاً من أنَّ تلك هي نهاية أوداي، والإحساس بالخزي منها كان فظيعاً.

حاولتُ أنْ أتّصل بجوني أوداي. كنتُ قد قابلتُه. كنتُ أعلمُ كم كانا مُتقاربين في الجيش. وتذكّرتُ عندما كان أيرا صديقه الحميم في مدينة كالمت. لم يُعجبني الرجل. ولم تُعجبني أفكاره. لم يُعجبني مزجه بين التفوُّق والدهاء، جواز المرور الأخلاقيّ ذاك الذي ظنَّ أنّه مُنِحَ له كشيوعيّ، لكنّني لم أُصدِّق أنّه كان يعتبر أيرا مسؤولاً عمّا حدث. كنتُ أعتقد أنَّ في استطاعة أوداي أنْ يعتني بنفسه، وأنّه قويّ وقاسٍ في لا مبالاته الشيوعيّة المبدئيّة، بقدر ما اتّضحَ أنّ أيرا ليس كذلك. أنا أيضاً لم أكنْ قوياً. وتخيّلتُ، بدافع اليأس، أنّه إنْ كان في وسع أحدهم أنْ يُعيد أيرا إلى صوابه فهذا الشخص هو أوداي.

لكنني لم أتمكن من الحصول على رقم هاتف. لم يعُد مُدرَجاً في

مدن غاري أو هاموند أو إيست شيكاغو أو مدينة كالمت أو في شيكاغو. وعندما بعثتُ رسالتي إلى آخر عنوان كان أيرا يحتفظ به، عاد المغلَّف إليّ مع عبارة لا وجود لهذا الاسم في هذا العنوان. واتصلتُ هاتفياً بكل مكتب نقابة في شيكاغو، اتّصلتُ بمحلات بيع الكتب اليساريّة، وبكلِ مؤسسة خطرتْ في بالي، مُحاولاً أنْ أعثر عليه. وبعد أنْ استسلمتُ، رنَّ جرس الهاتف في المنزل ذات ليلة وكان هو.

ماذا أردتُ منه؟ أخبرتُه عن مكان وجود أيرا، وعن حالته. قلتُ إنْ كان يرغب في أنْ يأتي إلى الشرق في عطلة نهاية الأسبوع ويذهب إلى المستشفى ويجلس مع أيرا، فقط يجلس معه، فسوف أبعثُ إليه بنقود رحلة القطار ويمكنه أنْ يبيت معنا في نيوارك. لم يُعجبني لجوئي إلى هذه الطريقة، لكنّني كنتُ أحاولُ أنْ أُغويه، فقلت أنتَ تعني الكثير بالنسبة إلى أيرا. لطالما أراد أنْ يكون جديراً بإعجاب أوداي به. وفكّرتُ في أنّك ربما تستطيع أنْ تساعده.

ومن ثم، بطريقته الهادئة، الجليّة، وبصوت ابن حرام صلب، لا يمكن بلوغه، على علاقة واحدة مهمّة مع الحياة، أجابني، اسمع، يا بروفسور، لقد خدعني أخوك خدعة كبرى. ولطالما تفاخرتُ بأنني أعرف مَنْ الزائف ومَنْ ليس كذلك. ولكنّني في هذه المرة خُدِعتُ. الحزب، الاجتماعات - كلها كانت غِطاءً لطموحه الشخصيّ. لقد استخدم أخوك الحزب ليرتقي إلى منصبه المهني، ثم قام بخيانته. ولو كان شيوعياً شجاعاً، لبقيَ في ساحة المعركة، وهي ليست في نيويورك في غرينيتش فيليج. لكنَّ كل ما كان يهتمّ أيرا به هو أنْ يقول الجميع إنّه بطل. كان دائماً يمّل شخصيّة ما ولا يظهر أبداً على حقيقته. فهل يجعل منه لينكولن لمجرّد أنّه طويل القامة؟ وهل يجعل منه ثورياً لأنّه فقط يصيح قائلاً الجماهير، الجماهير، الجماهير؟ إنّه لم يكن ثورياً، ولا كان لينكولناً، ولم يكن أيَّ شيء. لم يكن رجلاً - لقد مثّلَ دور رجل كما مثّلَ أيَّ دورٍ آخر. ومثّلَ دور رجلٍ **عظيم**. مثّلَ الرجل الأدوار

كلّها. كان يخلع قِناعاً لكي يضع قِناعاً آخر. كلا، إنَّ أخاك ليس مستقيماً كما يحبّ الناس أنْ يعتقدوا. أخوك ليس شديد الالتزام، إلّا عندما يتعلَّق الأمر بالتزامه بنفسه. إنّه زائف وغبيّ وخائن. لقد خان رفاقه من الثوريين وخان الطبقة العاملة. خانهم. باعهم. إنّه بورجوازيّ بالكامل. أغوته الشهرة والمال والثروة والسُلطة. إنّه عاهر، عاهر أنيق من هوليوود. إنّه لا يحتفظ بأي قدر من أيديولوجيته الثوريّة – لا شيء. إنّه انتهازيّ أحمق. ربما يكون جاسوساً انتهازيّاً. سوف تقول لي إنّه ترك ذلك الشيء في طاولة مكتبه بالمُصادفة؟ رجل في الحزب يتركُ ذلك الشيء بالمُصادفة؟ أم هو شيء دبّرته الإف بي أي، يا بروفسور؟ من سوء الحظ أنّه ليس في الاتحاد السوفيتي – إنهم يعرفون كيف يتعاملون مع الخونة. لا أريد أنْ أسمع أيَّ شيءٍ عنه ولا أريد أنْ أراه. لأنّني إذا قابلتُه فسوف أخبره بأنْ يأخذ حَذَرَه، وبأنّه مهما حاولَ أنْ يُغلِّف موقفه بالعقلانيّة، فسوف تبقى آثار جريمته.

هذا ما كان موجوداً. آثار الجريمة. إنني حتى لم أحاول أنْ أعطي جواباً. مَنْ يجرؤ على تبرير فشل النقاء لمتعصِّب لم يكن دائماً إلّا بريئاً؟ إنَّ أوداي لم يكن مرةً في حياته متلوِّناً مع تغيُّر الأشخاص. إنّه لا يتقاسم التقلُّب مع الآخرين. والأيديولوجي أشدّ نقاءً منا لأنه أيديولوجيّ مع كل شخص. وأنهيتُ المكالمة.

يعلمُ الله كم كان يمكن لأيرا أنْ يذبُل في وحدة شبه المُضطربين لو لا إيف. لم يتحمّس الزوار على عيادته وعلى أيّة حال هو لم يرغب في أنْ يقابل أحداً، ما عدا أنا ودوريس، ولكن ذات أمسية ظهرتْ إيف. لم يكن الطبيب موجوداً، والممرضة لم تكن تفكّر، وعندما أعلنتْ إيف أنّها زوجة أيرا، أشارت الممرضة إلى آخر الرواق، ووصلت إليه. بدا مهزولاً ولا يزال بلا حياة، ولا يكاد يتكلَّم، وعندما نظرتْ إليه طفقتْ تبكي؟ قالتْ إنها جاءتْ لكي تُعبِّر عن أسفها لكنَّ مجرّد النظر إليه أثار دموعها. إنّها آسفة، ولا ينبغي أنْ يكرهها، لم تستطع أنْ تتابع حياتها وهي تعلم أنّه

يكرهها. لقد تعرّضتْ لضغوط هائلة، وهو لم يعرف مقدارها. هي لم ترغب في المجيء. بذلتْ أقصى جهدها لتتجنّب المجيء...

وضعت وجهها بين يديها، وبكت بحُرقة، إلى أنْ أخبرته أخيراً بما نعرفه كلنا من قراءة جُملة واحدة من ذلك الكتاب. أخبرتْ أيرا أنَّ آل غرانت هما اللذان كتباه، حرفيّاً.

هنا تكلَّم أيرا. قال: لماذا تركتهم يفعلون؟ قالت إيف: لأنهم أجبروني. هي هدَّدتني، يا أيرا. لوني. إنّها امرأة سوقيّة، كريهة. امرأة فظيعة، فظيعة. أنا ما زلتُ أحبّك. هذا ما جئتُ لأقوله. فدعني أقوله، أرجوك. إنها لم تستطع أنْ تمنعني من حبّك، أبداً. يجب أنْ تعلمَ هذا. وكيف هدّدَتكِ؟ كانت تلك المرة الأولى منذ أسابيع طويلة التي تكلَّم فيها بجُملٍ مترابطة. قالت إيف: هذا لا يعني أنّها اكتفَتْ بتهديدي. بل نفّذتْ تهديدَها أيضاً. أخبرتني بأنّه سوف يُقضى عليّ إذا لم أتعاون. قالت لي: إنَّ برايدن سوف يحرص على ألّا أحصل على أي عمل بعد الآن. كان الأمر سينتهي بي إلى الفاقة. وبقيتُ أرفض، وأقول لها، كلا، كلا يا كاترين، كلا، لا أستطيع أنْ أفعل، لا أستطيع، مهما كان قد فعل بي، إنني أحبّه... وهنا قالت لي: إنّه إذا لم أفعل، فسوف يُدمَّر مُستقبل سيلفيد من بدايته.

حسن، وفي الحال استعاد أيرا وعيه. وضرب سقف وحدة شبه المُضطربين. كان هنا هرج ومرج. فوحدة شبه المُضطربين تبقى وحدة شبه المُضطربين، والأشخاص الموجودون في الغرفة ربما كانوا يلعبون كرة السلّة والكرة الطائرة لكنهم ما زالوا ضعفاء جداً وهناك اثنان منهم مُضطربين. كان أيرا يصرخ بأعلى صوته، فعلتِ ذلك من أجل ***سيلفيد***؟ فعلتِ ذلك من أجل مستقبل ابنتك؟ وبدأتْ إيف تصرخ ***أنتَ*** فقط مهمّ! ***أنت*** فقط! وماذا عن ابنتي! وموهبة ابنتي! ويصرخ أحد المُقيمين معه أوسعوها ضرباً أوسعوها ضرباً! وينفجر آخر بالبكاء، ومع وصول المُشرفين إلى الرواق، كانت إيف قد انكفأتْ على وجهها على الأرض، وتضرب بكلتي قبضتيها، وتصرخ وماذا عن ابنتي!

ألبسوها رداء المجانين - هكذا كانوا يفعلون في تلك الأيام. لكنّهم لم يُكمّموها، وهكذا استسلمت إيف، لكل شيء. قلتُ لكاترينا، كلا، لا تستطيعين أنْ تقضي على صاحبة تلك الموهبة. كان يمكن أنْ تُدمّر سيلفيد. ولا يمكن أنْ أدع مستقبلها يُدمَّر. وأعلم أنكَ لا تقبل أنْ تُدمِّر سيلفيد. كنتُ عاجزة. كنتُ عاجزة تماماً! وأعطيتُها أقلّ قدر ممكن من المعلومات. لكي أسترضيها. لأنَّ سيلفيد - تلك الفتاة الموهوبة! ليس أمراً *صائباً*! أيّة أمٍ في *العالم* تدع ابنتها تُعاني؟ أيّة أم كانت ستتصرَّف بطريقة مختلفة عن تصرّفي، يا أيرا؟ أجبني! كيف أدع ابنتي تعاني بسبب حماقة البالغين وأفكارهم ومواقفهم؟ كيف تلومني؟ أيّ خَيار كان لديّ؟ ليستْ لديك أيّة فكرة عمّا كنتُ أمرُّ فيه. ليست لديك فكرة عمّا تمرّ به *أيّة* أم إذا قال أحدهم، سوف أُدمّر مستقبل ابنتك. أنتَ لم تُنجب أطفالاً. ولا تفهم أيّ شيء *عن* الأبوَّة والأطفال. ليس لديك أبوان ولا أطفال، ولا تعرف معنى التضحية!

صرخ أيرا أنا ليس لديّ أطفال؟ كانوا حينئذٍ قد مدّدوها على حمّالة وأخذوها وابتعدوا، فهرع أيرا خلفهم، ركضَ وهو يصرخ على طول الرواق، لماذا لم أُنجِب أطفالاً؟ بسببكِ أنتِ! بسببكِ وبسبب ابنتك الجشعة، الأنانيّة، اللعينة!

حملوها وابتعدوا، ويبدو أنّه أمرٌ لم يكونوا قد فعلوه من قبل مع شخص جاء ليعودَ مريضاً. وخدّروها ووضعوها على في وحدة المُضطربين، وأقفلوا عليها الباب ومنعوها من مغادرة المستشفى حتى صباح اليوم التالي، عندما تمكّنوا من تحديد مكان سيلفيد، وحضرتْ لكي تأخذ أمّها إلى المنزل. إننا لا نعلم ما الذي دفع بإيف للمجيء إلى المستشفى، وما إذا كان فيما قالت أي قدر من الحقيقة - أي أنَّ آل غرانت أجبراها على فعل ذلك الشيء البشع - وإنْ كان هذا مجرد كذبة جديدة، وما إذا كان إحساسها بالخزي حقيقيّ.

ربما كان حقيقيّاً. لا شك في أنّه كان يمكن أنْ يكون كذلك. ففي تلك

الأوقات، كل شيء كان ممكناً. كان الناس يتقاتلون لإنقاذ حياتهم. فإنْ كان ما حدث صحيحاً حقاً، فكاترينا شخصيّة عبقريّة، حقاً، عبقريّة في التلاعُب. لقد عرِفَتْ كاترينا كيف تُرضِخها. منحَتْ كاترينا إيف الخيار في أنْ تخون مَنْ تشاء، وإيف، بادّعائها العجز، اختارت ما لم يكن أمامها خيار إلا أنْ تختار. هناك أُناسٌ قُدِّر لهم أنْ يكونوا أنفسهم، وهذا الكلام أشدّ ما ينطبق على إيف فريم. لقد أضحتْ أداة خاضعة لإرادة آل غرانت. لقد أدارها ذلك الزوج كأي عميل.

حسن، في غضون بضعة أيام حُوِّلَ أيرا إلى وِحدة الهادئين، وفي الأسبوع التالي أُخرِجَ، ومن ثم أصبحَ حقاً...

قال مري بعد لحظة تأمُّل: حسن، ربما حقَّقَ صفاء الناجين القديم بينما كان يحفر الخنادق، قبل أنْ تكتنفه شبكة السياسة والمنزل والنجاح والشهرة، وقبل أنْ يَدفن حفّار الخنادق حيّاً ويتلبَّس شخصيّة آبيه لينكولن. ربما أصبح نفسه من جديد، ممثّلَ أسلوبه الخاصّ. لم يكن أيرا فناناً متفوّقاً سقط. أيرا فقط عاد إلى حيث بدأ.

قال مري: قال لي الانتقام، قالها بكل بساطة وهدوء. وما كان يمكن لألفٌ من المُدانين، والمسجونين مدى الحياة، يضربون على قضبان سجونهم بملاعقهم، أنَّ يُعبّروا عن ذلك بأفضل منه. الانتقام. بين الدفاع المُثير للشفقة وتناسُق الانتقام الساحر، لم يكن هناك من خَيار. أتذكّره وهو يُدلِّك ببطء مفاصله ويُخبرني بأنّه سوف يُدمّرها. أتذكّره يقول تُبدِّد حياتها من أجل ابنتها القذرة. ثم تُبدد حياتي معها. هذا لا يحدث معي. هذا ليس عدلاً، يا مري. إنّه يحطُّ من قدري، يا مري. أأنا عدوّها المُميت؟ إذن، هي كذلك بالنسبة إليّ.

سألتُه وهل دمّرها **فعلاً**؟

أنت تعلم ما الذي حدث لإيف فريم.

أعلمُ أنّها ماتت. متأثرة بمرض السرطان. أليس كذلك؟ خلال حقبة الستينيات؟

لقد ماتت، ولكن ليس من السرطان. أتتذكّر الصورة التي أخبرتُكَ عنها، الصورة الفوتوغرافيّة التي استلمها أيرا عبر البريد من إحدى صديقات فريدمان القُدامى، الصورة التي كان ينوي أنْ يستغلّها من أجل الوصول إلى تسوية مع إيف؟ الصورة التي مزَّقتُها؟ كان ينبغي أنْ أدعه يستخدمها.

لقد قُلتَ هذا من قبل. لماذا؟

لأنَّ ما كان أيرا يفعله بتلك الصورة هو البحث عن وسيلة **يتجنّب** بها قتلها. لقد كانت حياته كلها عمليّة بحث عن وسيلة لتجنُّب قتل أحدهم. وعندما عاد إلى الوطن من إيران، أصبحتْ كلّها مُحاولةً لتهدئة الدافع العنيف. تلك الصورة – لم أُدرك ما كانت تُخفي، وماذا تعني. عندما مزّقتُها، عندما منعتُه من استخدامها كسلاح، قال: حسن، غلبتني، ورجعتُ إلى نيوارك مُعتقداً بغباء أنني أنجزتُ شيئاً مهمّاً، وفي زنك تاون، في الغابة، يبدأ بالرمي على الدريئات. وكانت لديه خناجر هناك. وفي الأسبوع التالي خرجتُ بالسيارة لأقوم بزيارته ولم يقُم بأيّة محاولة لإخفاء أي شيء. لقد كانت مخيّلته جامحة إلى درجة ألّا يُخفي أيَّ شيء. كان لديه الكثير من الكلام عن القتل. يُخبرني إنَّ رائحة إطلاق النار مُثيرة للشهوة الجنسيّة! لقد جُنَّ تماماً. لم أكن أعلم قط أنّه يمتلك مسدساً. ولم أدر ماذا أفعل. وأخيراً أدركتُ الصِلة الحقيقيّة، التشابُك الذي لا ينفصم بين أيرا وإيف كروحين تتقاتلان: كل منهما يميل بصورة كارثيّة إلى ذلك الشيء الذي لا يعرف حدوداً حالما يبدأ بالانتشار. كان لجوؤه إلى العنف هو الجزء الذكوريّ من نزوعها إلى الهستيريا – ظواهر جنسانيّة مُميَّزة للشلال نفسه.

طلبتُ منه أنْ يُسلِّمني كل ما لديه من أسلحة. إمّا أنْ يُسلِّمها إليّ في الحال، أو أتّصل هاتفياً بالشرطة. قلت له لقد عانيتُ بقدر ما عانيتَ أنتَ.

عانيتُ أكثر منك في ذلك المنزل لأنّه كان عليّ أنْ أواجه أولاً. وحدي، على مدى ست سنوات. أنتَ لا أعرف أيَّ شيء. أتظن أنني لا أعلم برغبتكَ في رفع مسدس وإطلاق النار على شخص ما؟ إنَّ ما تريد أنْ تفعله لها أردتُ أنْ أفعله عندما كنتُ في *السادسة من عمري*. ثم أتيتَ أنت. واعتنيتُ بك، يا أيرا. وقفتُ حائلاً بينك وبين أسوأ وضع طوال فترة وجودي في المنزل.

أنتَ لا تتذكّر هذا. كنتَ في الثانية، وكنتُ في الثامنة - وهل أعلم ماذا حدث؟ أنا لم أخبركَ أبداً. كنتَ تعاني من الكثير من المهانة. وكان علينا أنْ ننتقل. ام نكن قد أقمنا في شارع المعمل بعد. كنتَ طفلاً وكنا نُقيمُ تحت خطوط سكك لاكاوانا. في ناسو. شارع ناسو رقم 18، وكنا خلف سكك الحديد. في منزل يتألَّف من أربع غرف، وبلا إضاءة، وهناك الكثير من الضجيج. إيجاره ستة عشر دولاراً ونصف في الشهر، رفعَتْه صاحبة المُلك إلى تسعة عشر، ولم نتمكّن من السداد، فطُرِدنا.

أتعلم ماذا فعل والدنا بعد أنْ أخرجنا أمتعتنا؟ بدأنا أنا وأنت والماما ندفع الأغراض إلى منزل شارع المعمل المؤلَّف من غرفتين، وبقيَ هو في الشقّة القديمة الفارغة، وجلس القرفصاء وتبرَّزَ في منتصف المطبخ. مطبخنا. كومة من خرائه في منتصف الموقع الذي كنا نجلس فيه على المائدة ونتناول الطعام. ولطَّخَ الجدران به. بلا فرشاة. لم يحتج إلى واحدة. لطّخه بيديه. بضربات كبيرة. إلى أعلى، وإلى أسفل، وإلى الجانبين. وبعد أنْ انتهى من الغُرَف كلها، اغتسل عند المغسلة، وغادر حتى من دون أنْ يُغلِق الباب خلفه. أتعرف ماذا ظل الأولاد يُطلقون عليّ على مدى أشهر بعد ذلك؟ جدران الخراء. وفي تلك الأيام كان كل شخص له لقب. كانوا يُطلقون عليك لقب بوو-بوو، وكانوا يُسمونني جدران الخراء. ذاك كان ميراث والدنا لي، ابنه الكبير، ابنه الأكبر سناً.

حينئذٍ قمتُ بحمايتك، يا أيرا، وسوف أحميك الآن. لم أسمح لك بفعل ذلك. لقد عثرتُ على دربي المُثقِّف المؤدّي إلى حياتي، وأنت

عثرت على دربك، ولن تعود عنه الآن. دعني أشرحُ شيئاً يبدو أنكَ لا تفهمه. أولاً لماذا أصبحتَ شيوعياً، هل خطر هذا على بالك؟ دربي المُثقِّف كان الكتب، والجامعة، المدرسة المُعلِّمة، ودربك كان أوداي والحزب. أنا لم أقبل دربك. بل عارضتُه. لكنَّ كلا الدَربَين كانا شرعيين وكلاهما نجح. ولكن ما حدث الآن لا تفهمه أيضاً. لقد أخبروك أنهم قرروا أنَّ الشيوعيّة ليست طريقاً بعيداً عن العنف، وأنّها برنامج ***لصالح*** العنف. لقد جرَّموا سياستك، وأيضاً، جرّموك أنت – وأنت سوف تعمل على البرهان على أنّهم على صواب. يقولون إنك مجرم، فتشحن مسدسك وتشحذ خنجرك وتضعه في جرابك. وتقول إنني كذلك وحقّ الله! إنَّ رائحة إطلاق النار – تُثير جنسياً! يا نيثان، إنني أُعبر عن نفسي بخشونة. ولكن عندما تكون مع مهووس غاضب ونزّاع إلى القتل، فإنَّ الكلام بهذه الطريقة لا تُهدِّئه. بل تزيد من حنقه. عندما تكون مع مهووس غاضب نزّاع إلى القتل، إذا بدأتَ سرد حكاية عن عهد الطفولة، أكملها بمُخطَّط للشقّة.

قال مري: اسمع، أنا لم أُخبرك كل شيء عن أيرا. لقد كان أيرا قد قتل شخصاً فعلاً. ولهذا غادر نيوارك وتوجّه إلى المناطق الريفيّة ليعمل في المناجم عندما كان فتى. كان في حالة هروب. ودفعته للذهاب إلى مقاطعة سسكس، وهي مكان بعيد جداً في تلك الأيام، لكنه ليس بعيداً جداً بحيث لا أتفقّده وأساعده وإخراجه من تلك المشكلة. وقد قمت بنفسي بنقله بالسيارة وخلعتُ عليه اسمه الجديد وخبّأته. جيل ستيفنس. هذا هو أول أسماء أيرا الجديدة.

وعمل في المناجم إلى أنْ علِمَ أنّهم يلاحقونه. ليس الشرطة، بل الرعاع. كنتُ قد أخبرتُكَ عن ريتشي بوياردو، الذي كان يُدير أعمالاً مشبوهة في منطقة الجناح اول. وقاطع الطرق هذا كان يمتلك مطعماً، مطعم قلعة فيتوريو. وعلِمَ أيرا أنَّ رجال عصابة بوياردو يُلاحقونه. ففرَّ هارباً.

ماذا كان قد ارتكب؟

لقد قتل أيرا رجلاً برفش. أيرا قتل رجلاً عندما كان في السادسة عشرة.

أيرا قتل رجلاً برفش. قلتُ أين؟ كيف؟ ماذا حدث؟

كان أيرا يعمل في الحانة كخادم. كان قد استمر في ذلك العمل حوالي ستة أسابيع، وذات ليلة، بعد الانتهاء من مسح الأرضيّة عند الساعة الثانية، خرج إلى الشارع قاصداً الغرفة التي استأجرها. كان يُقيم في شارع صغير قذر في آخر دريملاند بارك، حيث قامت الحكومة بإنشاء مشروع سكنيّ بعد الحرب. وانعطف باتجاه ميكر في جادة إليزابيث وسار في شارع مُظلم قِبالة دريملاند بارك، نحو جادّة فريلينغهايزن، وإذا برجل يظهر من الظلام حيث كان سابقاً كشك ميلمان لبيع السجق. خرج هناك من الظلام، وانقضَّ عليه بالضرب مُسدِّداً على رأسه، لكنّه أصاب أيرا في كتفيه برفش.

كان أحد الإيطاليين من بين حفّاري الخنادق الذين عمل أيرا معهم بعد تركه المدرسة. كان أيرا قد ترك حفر الخنادق ليعمل مساعد نادل في خدمة الموائد في الحانة بسبب كل المشاكل التي بينه وبين ذلك الرجل. فتحت الحانة أبوابها في عام 1929. وقرّرَ أنْ يعمل هناك ماسحاً للأرضيات من ثم ارتقى إلى مُساعد نادل ثم إلى نادل. ذلك كان الهدف. وقد ساعدته في الحصول على ذلك العمل. كان الإيطاليّ ثملاً سدّدَ له ضربة عنيفة، فانتزع أيرا الرفش منه وضرب به أسنانه. ثم جرَّه إلى موقع ميلمان، إلى موقف السيارات الغارق في الظلام. في أيامك، يصطحب الشبّان فتياتهن إلى الموقف ويدخلون إلى موقع ميلمان، وهناك قام أيرا بضرب ذلك الرجل.

اسم الرجل سترووللو. كان سترووللو ضخم الجثّة وكارهاً لليهود من جماعة حفّاري الخنادق. يهتف *Mazzu' crist, guide' maledett* أو يهود أشرار، قتلوا المسيح... أو شيء من هذا القبيل. وكان سترووللو

مُتخصّصاً في ذلك. وكان ستروللو أكبر سناً من أيرا بنحو عشر سنين وليس ضئيل الحجم، بل ضخماً على غرار أيرا. وأخذ أيرا يضربه على رأسه حتى فقد الرجل وعيه وتركه هناك. ورمى رفش ستروللو وعاد إلى الشارع العام ومنه إلى المنزل من جديد، لكنَّ شيئاً داخله لم ينته بعد. شيء داخل أيرا لم ينته *أبداً*. إنّه في السادسة عشرة وقويّ وحانق، ودمه حارّ ويتصبّب عرقاً ويمارس التمارين الرياضيّة وكلّه حماس – لقد *استُفِزَّ* – وهكذا استدار وعاد أدراجه إلى ميلمان وأخذ ينهال بالضرب على رأس ستروللو إلى أنْ مات الرجل.

كان أيرا يصحبني إلى كشك ميلمان لنأكل السجق بعد التمشّي في متنزه اليهود. وكانت الحانة هي المكان الذي أخذ إليه إيف من أجل تناول العشاء مع مري ودوريس في الليلة التي التقوا فيها جميعاً. حدث ذلك في عام 1948. وقبل ذلك بعشرين عاماً كان قد قتل شخصاً هناك. الكوخ الموجود في زنك تاون – ذلك الكوخ كان يعني شيئاً آخر له لم أفهمه أبداً. لقد كان إصلاحيّته الخاصّة. حبْسه الانفراديّ.

أين دور بوياردو هنا؟

كان شقيق ستروللو يعمل في القلعة، مطعم ستروللو. عمل في المطبخ. وذهبَ إلى بوياردو وأخبره بما حدث. في أول الأمر لم يربط أحدٌ أيرا بجريمة القتل لأنه كان قد ترك الحيّ. ولكن بعد ذلك بعامَين، إذا بهم يبحثون عن أيرا. وشككتُ في أنَّ الشرطة هي التي بلّغت بوياردو عن أيرا، لكنني لم أتيقَّن. كل ما عرفت هو أنَّ شخصاً جاء إلى بيتنا وسأل عن أخي. وقام ليتل بوسي بزيارتي. كنتُ قد نشأتُ مع ليتل بوسي. كان ليتل بوسي يُديرُ لعبة نرد في زقاق أكويدكت. وأدار لعبة زينكونت خلف صالة غراند إلى أنْ فضّتْ الشرطة الجمع. وكنتُ ألعبُ البوله مع ليتل بوسي هناك. وقد اكتسب اسمه هذا لأنه كان قد بدأ حياته المهنيّة بسرقة القطط، فيتسلَّلُ عبر أسقف المنازل ومنها خلال النوافذ مع أخيه الأكبر، بيغ بوسي. ومنذ أنْ كانا في المدرسة الابتدائيّة بدأا بالسرقة طوال الليل.

وعندما كانا يزعجان نفسيهما بالمجيء إلى المدرسة، كانا يجلسان وينامان على مقعديهما ولم يجرؤ أحدٌ على إيقاظهما. ومات بيغ بوسي لأسباب طبيعيّة، أما ليتل بوسي فقُتِلَ في عام 1979، بأسلوب العصابات الحقيقيّ: فقد عُثِرَ عليه في شقّته على شاطئ المحيط في لونغ برانش، وهو برداء الاستحمام، وثلاث رصاصات من عيار 32 اخترقت رأسه. وفي اليوم التالي أخبر ريتشي بوياردو أحد أقرانه، ربما هذا أفضل - لأنه ثرثار.

إنَّ ليتل بوسي يريد أنْ يعرف مكان أخي؟ فقلتُ له إنني لم أره منذ سنين عديدة. فقال لي إنّ البوتْ يبحث عنه. كانوا يُطلقون على بوياردو البوت لأنه كان يُجري مُكالماته هاتفيّة مما يُطلق عليه الإيطاليون في حي وارد كشك[73] الهاتف، سألتُ لماذا؟ لأنَّ البوت يحمي أهل الحيّ. لأنَّ البوت يُساعد الناس في وقت الحاجة. وهذا صحيح. وكان بوياردو يتنقّل وهو يُزيّن إبزيم حزامه بحجرٍ كريم وكان الناس يُعاملونه باحترامٍ جمّ يفوق احترامهم للشخص الذي تكتنفه القداسة ويشغل منصب كاهنٍ أبرشيتهم. وبعثتُ برسالة إلى أيرا حول ليتل بوسي، ومرّت سبع سنين، كنا في عام 1938، قبل أنْ نراه مرة أخرى.

إذنْ ليست فترة الكساد الاقتصادي ما دفعه إلى الرحيل، بل كونه كان مُطارَداً.

سألني مري هل فوجِئتَ بسماع هذا؟ عن شخص تكنُّ له إعجاباً كإعجابك به؟

قللتُ كلا. كلا، لستُ متفاجئاً. إنّه أمر منطقيّ.

هذا أحد أسباب انهياره. وهذا ما سيؤدي به إلى البكاء في سرير لورين. لقد أخفقَ الأمر كلّه. الحياة التي خُلِقَتْ لكي تهزمه تهاوتْ. والجهد المبذول كان عقيماً. كان قد عاد إلى العماء الذي بدأ الأمر منه.

وما هو الأمر؟

73- يقصد أنهم يستخدمون كلمة boot بدل كلمة كشك أو booth - المترجم.

بعد خروجه من الجيش، أراد أيرا أنْ يجمع حوله أُناساً لا يستطيع أنْ ينفجر أمامهم. وطفقَ يبحث عنهم. كان العنف داخله يُخيفه. لقد عاش في خوفٍ من أنْ يُخرجه إِلى العلن. وكذلك أنا. كان شخصاً أبدى ميلاً إلى العنف باكراً جداً – ما الذي كان سيوقِفه؟

لهذا السبب أراد أيرا أنْ يتزوج. لهذا السبب أراد أيرا ذلك الطفل. ولهذا السبب دمَّره ذلك الإجهاض. ولهذا السبب جاء ليُقيم معنا في اليوم الذي اكتشفَ فيه الدافع خلف الإجهاض. وفي اليوم التالي مباشرة، قابلكَ. قابل ذلك الفتى الصغير الذي مثَّلَ كلَّ ما ليس فيه ولم يمتلكه أبداً. إنَّ أيرا لم يكن يُجنّدكَ *أنتَ*. ربما هذا ما اعتقد أبوك، ولكن كلا، أنت الذي كنتَ تُجنّده **هو**. عندما جاء إلى نيوارك، كان أثر حدوث الإجهاض لا يزال حياً فيه، ولم يستطع أيرا مقاومتك. كان فتى نيوارك ذا العينين الشريرتين والظروف المنزليّة القاسية وبلا ثقافة. وكنتَ أنتَ فتى نيوارك حسن التنشئة الذي حصل على كل شيء. كنتَ بالنسبة إليه برينس هول[74]. كنتَ جوني أوداي رينغولد – هذا ما كنتَ تمثّله. ذلك كان عملك، سواء أعلِمتَ ذلك أم لا. لكي تساعده يحمي نفسه من طبيعته، من كل القوة التي تسكن ذلك الجسم الضخم، من كل ذللك الحنق القاتل. وهذا ما كان عملي *أنا* طوال حياتي. وهو عمل الكثير من الناس. وأيرا لم يكن فريداً من نوعه. إنَّ الأمر هو محاولة الرجال أنْ يتجنّبوا العنف. إنهم منتشرون. إنهم في كل مكان.

سألتُه إذن قتلَ أيرا الرجلَ بالرفش. ثم ماذا حدث بعد ذلك؟ ماذا حدث في تلك الليلة؟

لم أكن أُدرِّس في نيوارك. كان ذلك في عام 1929. لم تكن مدرسة اليهود الثانويّة قد بُنيت بعد. كنتُ أُدرِّسُ في مدرسة إرفنغتون الثانوية. عملي الأول. واستأجرتُ غرفةً بجوار فناء أخشاب سولوندز، بالقرب من خطوط سكّة الحديد. لم يظهر أيرا إلا في الرابعة صباحاً. كنتُ في

74- برينس هول (1738 – 1807): مُناضل أفريقي أمريكي من أجل حقوق السود – المرجم

الطابق الأول فربَتَ على زجاج النافذة. خرجتُ، وألقيتُ نظرة إلى حذائه المُلطَّخ بالدماء وإلى بنطلونه المُلطَّخ بالدماء وإلى يديه المُلطّختين بالدماء وإلى وجهه المُلطَّخ بالدماء، فوضعته في سيارة الفورد القديمة تلك وانطلقنا. لم أكن أعلم إلى أين أذهب. أردتُ مكاناً بعيداً عن عيون شرطة نيوارك. حينئذٍ كنتُ أفكّرُ في الشرطة وليس في بويادرو.

وأخبركَ بما ارتكب.

نعم. أتعلم مَنْ أخبرَ أيضاً؟ إيف فريم. بعد ذلك بسنين. في أثناء المُضاجعة. خلال ذلك الصيف عندما كانا وحدهما في نيويورك. كان يعشقها بجنون ورغبَ في الزواج منها ولكن كان ينبغي أنْ يُخبرها عن حقيقته وعن أسوأ ما فعل. فإذا خافتْ وابتعدت، فلا حيلة له في ذلك، لكنّه أراد أنْ تعرف ما الذي ستحصل عليه – أنّه كان رجلاً جامحاً لكنَّ ذلك الرجل الجامح قد امَّحى. باح بذلك للسبب نفسه الذي يدفع الذين يُصلحون أنفسهم بأنفسهم إلى الاعتراف: لكي تتمسّك به. ولم يفهم حينئذٍ، ولم يفهم أبداً، أنَّ رجلاً جامحاً هو أشدّ ما كانت إيف في حاجة إليه.

بل في حاجة عمياء، وتلك كانت طريقة إيف، كانت لها نظرة ثاقبة إلى نفسها. كانت تحتاج إلى حيوان. *وطالبتْ* بحيوان. ومَنْ غيره قادر على حمايتها؟ مع حيوان كانت تشعر بالأمان. وهذا يُفسِّر السبب في بقائها مع بيننغتون طوال تلك السنين التي كان خلالها يخرج ليعاشر الصِبية ويقضي الليل معهم ثم يعود إلى المنزل من مدخلٍ جانبيّ خاصٍّ أضَافه إلى غرفةِ مكتبه. أضافهُ بطلبٍ من إيف، لكي لا تسمعه لدى عودته من مواعيده عند الساعة الرابعة صباحا. وهذا يُبرّرِ زواجها من فريدمان. يُبرِّرُ الرجال الذين كانت تنجذب إليهم. كانت حياتها الرومانسيّة تتألَّف من تغيير الوحوش. فإذا اقتربَ حيوان، تكون أول المستقبلين له. إنها في حاجة إلى الحيوان ليحميها، وتحتاج إلى الحيوان لكي ترفع اللوم عن نفسها. وحيواناتها هي الضامن لبراءتها المكنوزة. وركوعها أمامها

وتوسّلها تتّسمان بالنسبة إليها بأهميّة قُصوى. كانت تعيش بجمالها واستسلامها – وهما المفتاح إلى الكارثة.

إنها في حاجة إلى الحيوان لتُخَلِّص نقاءها، في حين ما يحتاج إليه الحيوان هو أنْ يُروَّض. ومَنْ يقدر على ترويضه أفضل من أشدّ النساء رقّة في العالم؟ وأي شيء أفضل لترويضه من إقامة حفلات عشاء لأصدقائه ومن إنشاء رفوف مكتبة خشبيّة لتضم كتبه واتّخاذه ممثّلة رقيقة ذات أداء جميل زوجةً له؟ وهكذا أخبر أيرا إيف عن الإيطاليّ والرفش، فبكتْ بسبب ما فعل وهو في السادسة عشرة، وما عانى وكيف نجا من فِعلته ومن ثم تحوَّلَ بكل شجاعة إلى رجل كامل ورائع، وتزوّجا.

مَنْ يدري – ربما اعتقدتْ أنَّ قاتلاً سابقاً سيكون ممتازاً لسببٍ آخر: إذ يمكنها أنْ تفرِض بكل أمان على رجل جامح وقاتل يعترف على نفسه هذا الشخص الذي لا يمكن فرضُه، سيلفيد. إنَّ رجلاً عادياً جديرٌ بأنْ يفرَّ هارباً وصارخاً من تلك الفتاة. أما حيوان؟ فيمكن أنْ يتقبّله.

عندما قرأتُ للمرة الأولى في الصحف أنّها بصدد تأليف كتاب، فكّرتُ في الأسوأ. في الواقع، كان أيرا حتى قد ذكرَ لإيفا اسم الرجل. ما الذي منع هذه المرأة، عندما اعتقدتْ أنّها حُشِرَت في الركن، التي أخذت عهداً على نفسها بأنْ تبوح بكل شيء لأي إنسان – ما الذي منعها من الصياح من فوق أسطُح المنازل باسم سترولّلو؟ سترولّلو، سترولّلو – أنا أعرف مَنْ قتل حفّار الخنادق سترولّلو! ولكن عندما قرأتُ الكتاب، لم أعثر على أي ذِكر لجريمة القتل فيه. إمّا أنّها لم تُخبر كاترينا وبرايدن عن أيرا وسترولّلو، وأنّ رادعاً كبحها، أو إحساساً بما يُحبّ الناس من آل غرانت (وهما اثنان من حيوانات إيف) أنْ يفعلا له به، أو أنّها نسيتْ الأمر كما تنسى عادة أيّة حقيقة كريهة. لم أتوصّل إلى معرفة أيّهما. ربما كلاهما.

لكنَّ أيرا كان واثقاً من أنَّ الأمر سوف يُعرَف. سوف ينظر العالم كله إليه كما رأيته في تلك الليلة عندما نقلته بالسيارة إلى مقاطعة

سسيكس، وهو مُلطّخ بدماء الرجل المقتول، ودماء المقتول على وجهه. وأنا أُخبره وأضحك - أشبه بقهقهة ولد مجنون - لقد قام سترولّلو بمشواره الأخير[75]

إنَّ ما بدأ كدفاع عن النفس، حوَّله إلى فرصة لقتل أحدهم. لقد تورّط بالمُصادفة. الدفاع عن النفس ضد حدث مُحرِّض يوفّر الفرصة لارتكاب القتل. يُخبرني أخي الصغير لقد قام سترولّلو بمشواره الأخير. لقد استمتع بالأمر، يا نيثان.

سألتُه وبماذا قمتَ *أنتَ*، يا أيرا؟ أتعرف؟ كل ما فعلت هو أنّكَ انتقيت الاتجاه الخطأ من الدرب. كل ما فعلتَ هو أنّك ارتكبتَ أفدح خطأ يمكن ارتكابه. كل ما فعلت هو أنَّك حوّلتَ كل شيء إلى شيء آخر. وما الهدف؟ لأنَّ الرجلَ هاجمكَ؟ حسن، لقد أوسعته ضرباً! ضربته بغباء. ***وحصلتَ*** على انتصارك. أفرغتَ غضبك بضربه على رأسه. ولكن لكي تجعل الانتصارَ ***كاملاً***، رجعتَ ومن ثم ***قتلته*** _ ما ***الهدف***؟ ألأنه قال شيئاً مُعادياً للساميّة؟ أهذا ما جعل قتْله ضرورة؟ لأنَّ كامل عبء التاريخ اليهوديّ جثَمَ على كتفيّ أيرا رينغولد؟ هذا هُراء! أنتَ فقط ارتكبتَ فعلاً لا يُمحى، يا أيرا - شريراً ومسعوراً ومتجذّراً إلى الأبد في حياتك. لقد ارتكبتَ عملاً هذه الليلة لا يمكن تصحيحه. لا يمكنكَ أنْ تعتذر علناً على جريمة قتل وتُصحِّح الأمر كلّه، يا أيرا. **لا شيء** يمكن أنْ يُصحِّح جريمة قتل. أبداً! إنَّ القتل ليس فقط يُنهي حياة واحدة - بل ***حياتين***. إنَّ القتل يُنهي الحياة الإنسانيّة للقاتل أيضاً! ولن تتخلَّص من هذا السرّ أبداً. سوف تذهب إلى القبر مع هذا السرّ. سوف يبقى معك إلى الأبد!

في الواقع، كلما سمعتُ عن شخص ارتكبَ جريمة قتل، أتخيَّل أنَّ واقعاً دوستويفسكياً سوف يدخل علينا. شخصاً يهتمّ بالكتب، أو أستاذ لغة إنكليزيّة، وأتوقَّع منه أنْ يُبيِّن الضرر النفسي الذي كتبَ عنه

75- يبدو أنّ الكاتب يستخدم مازحاً اسم الرجل، سترولّلو، وكأنّه فعل stroll، الذي يعني التمشّي بالإنكليزيّة - المترجم.

دوستويفسكي. كيف يمكنك أنْ ترتكب جريمة قتل ولا تتألّم بسببها؟ إنَّ ذلك يجعل منك وحشاً، أليس كذلك؟ إنَّ راسكولنيكوف لا يقتل السيدة العجوز ولا يشعر بأي ذنب على مدى عشرين عاماً. إنَّ قاتلاً بارد الدم وصاحب عقل كعقل راسكولنيكوف يتأمّل في حياته كلها على أساس برودة دمّه. لكنَّ أيرا لم يكن يستغرق في تأمُّل ذاته، أبداً. أيرا هو آلة عمليّة. لكنَّ تلك الجريمّة أثّرتْ على سلوك راسكولنيكوف... أما أيرا فحدثَ الأمر معه بصورة مختلفة. الكفّارة التي دفعها - أي كيف حاول أنْ يستعيد حياته، وكيف استعاد هيبته - كانت مختلفة تماماً.

أسمع، أنا لم أصدِّق أنَّ في استطاعته أنْ يتعايش معه، ولم أُصدِّق أنَّ في استطاعتي *أنا* أنْ أتعايش معه. أعيش مع أخ خرجَ وارتكبَ جريمة قتل كهذه؟ قد تعتقد أنّه كان ينبغي إمّا أنْ أتبرّأ منه أو أنْ أُجبره على الاعتراف. لا أتصور فكرة أنْ أعيش مع أخٍ قتل أحدهم هكذا ببساطة، وأنَّ في استطاعتي أنْ أعتقد أنني تخلّيتُ عن التزامي اتجاه الإنسانيّة... إنَّ القتل أكبر بكثير من أنْ أفعل هذا. ولكن هذا ما فعلتُ يا نيثان. لم أُحرِّك ساكناً.

ولكن على الرغم من صمتي، على مدى عشرين عاماً ونيِّف، كان لا بدّ لأعمق جذور كل شيء أنْ تبرز إلى العلن. كانت أميركا توشك أنْ ترى القاتل ذا الدم البارد الذي هو حقيقة أيرا من تحت قبعة أبراهام لينكولن كانت أميركا سوف تكتشف أنّه ليس إنساناً صالحاً.

سوف يأخذ بوياردو بثأره الخاص. وكان بوياردو حينئذٍ قد غادر نيوارك إلى معقِل في ضواحي جيرزي، ولكن ذلك لم يعنِ أنَّ الضيم لذي لحق بآل سترولو مما فعله أيرا رينغولد نسيه نواب بوت الذين يحتلونَ حصن حي الجناح الأول. لطالما كنتُ أخشى من أنْ يقبض أجيرٌ من قاعة لعب البوله على أيرا، ومن أنْ يرسل الرعاع شخصاً يُجهِزُ عليه، خاصة بعد أنْ أصبحَ أيرون رن. أتتذكّر الليلة التي أخَذَنا فيها كلنا إلى مطعم الحانة لتناول العشاء، وعرَّفنا إلى إيف، والتقطَ سام تيغر صورة لنا وعلّقها في الردهة هناك؟ كم أحببتُ ذلك! أي شيء أسوأ من هذا؟ كم كان ينتشي

بالتحوُّل، بإعادة الابتكار البطوليّ لنفسه المُسمّاة أيرون رن؟ وبالعودة فعلاً إلى مسرح الجريمة، وبالسماح لوجهه بالاقتراب من الجدار؟ ربما نسيَ مَنْ يكون وماذا ارتكب، لكنَّ بوياردو سوف يتذكّر ويُرديه قتيلاً.

لكنَّ الكتاب قام بالمهمة بالنيابة عنه. في بلدٍ لم يعُد الكتاب يُغيِّر فيه أيَّ شيء منذ نشر رواية *كوخ العم توم*. وهو كتاب مبتذل مُفصَّل بشكل استعراضيّ، كُتِبَ بلغة هجين من جانب انتهازيين يستغلان هدفاً سهلاً اسمه إيف فريم. ويتخلَّص أيرا من ريتشي بوياردو لكنّه لم يتمكّن من التملُّص من آل فان تاسل غرانت. لم يكن الذي قام بتنفيذ المهمة على أيرا هو أجير أرسله البوت - بل عمود الإشاعات الصحفيّ.

طوال سنوات حياتي مع دوريس لم أُخبرها عن أيرا. ولكن في صباح اليوم الذي رجعتُ من زنك تاون حاملاً مسدسه وخناجره رغبتُ في إخبارها. كانت الساعة تقترب من الخامسة صباحاً عندما نقلَ كل شيء إليّ. توجهتُ بالسيارة مباشرة إلى المدرسة في صباح ذلك اليوم وذلك الشيء تحت المقعد الأمامي في سيارتي. في ذلك اليوم لم أتمكن من إعطاء درسي - لم أتمكن من التفكير. ولم أستطع النوم في تلك الليلة. حينئذٍ أوشكتُ أنْ أُخبر دوريس. كنتُ قد استوليتُ على مُسدسه وخناجره، لكنني كنتُ أعلم أنَّ الأمر لم ينته بعد. وبصورة أو بأخرى، كان سيقتلها.

وهكذا يجلب دوران الزمن معه انتقامه. سطرٌ من النثر. هل تعرَّفتَ عليه؟ إنّه من الفصل الأخير من مسرحية *الليلة الثانية عشرة*. قاله فيست المُهرِّج لمالفوليو، قُبيل أنْ يُغنّي فيست تلك الأغنية الجميلة، قبل أنْ يُغنّي قائلاً قبل زمن سحيق بدأ العالم / بهدير وصخب، وبالريح وبالمطر وتنتهي المسرحيّة. ولم أستطع إخراج ذلك السطر من ذهني. وهكذا يجلب دوران[76] الزمن معه انتقامه. وذلك الاستخدام الغامض لحرف *g* في كلمة *whirligig* يتبعه حرف *g* أنفيّ في كلمة *brings*، ويتبعه لفظ *g* ناعم في كلمة *revenges*. وأحرف s الختاميّة... في يجلب معه

76- استخدم كلمة whirligig لمعنى دوران - المترجم.

انتقامه. الهسيس المُفاجئ لصيغة الجمع في *revenges*. الـ غاه، والـ جاه والـ زاه. أحرفٌ ساكنة تنغرز بي كالإبر. والأحرف الصوتيّة النابضة، والمدّ المرتفع لحِدّتها - مُغلّفة به. والأحرف الصوتيّة المنخفضة تفسح المجال للأحرف الصوتيّة المنخفضة. والأحرف الصوتيّة الجهيرة والصادحة تفسح المجال للأحرف الصوتيّة الألتو. والحرف الصوتي i الممدود والمُشدَّد عليه قبل أنْ ينتقل الإيقاع من التقطيع اللفظي الإيامبي إلى التروكي، وينعطف النثر نحو التمدُّد. i قصير، i قصير، i طويل، i قصير، i قصير، i قصير، وبوووم! انتقام. يجلب انتقامه. انتقامه هو. كالصفير. هوووووا! وشعرتُ وأنا أقود السيارة إلى نيوارك وأسلحة أيرا في سيارتي، وتلك الكلمات العشر، بتداخُل مخارجها، والعِلم الشاسع بكل شيء... شعرتُ بأنني أختنق داخل شكسبير.

بعد ظهيرة اليوم التالي خرجتُ من جديد، قدتُ السيارة من جديد بعد انتهاء الدوام المدرسي. قلت أيرا، لم أستطع النوم ليلة أمس، ولم أستطع تدريس الأولاد طوال النهار، لأنني أعلم أنكَ لن تتخلّى عن الأمر حتى تجلب على نفسك رعباً يتجاوز بكثير وضع اسمك على اللوائح السوداء. وذات يوم سوف ينتهي عصر اللوائح السوداء. بل إنَّ هذا البلد قد يُعوِّض على الأشخاص الذين عوملوا مثلك، ولكن إذا أُودِعتَ السجن لارتكابك جريمة قتل... يا أيرا، فماذا ستفعل حينئذٍ؟

ومن جديد استغرقَ مني نصف سحابة الليل لأعرف، وعندما أخبرني أخيراً قلتُ إنني أتّصل بالأطباء في المستشفى، يا أيرا. وأحصل على أمر من المحكمة. وهذه المرّة سوف أحرص على أنْ تُسجَن إلى الأبد. سوف أحرص على أنْ تُسجَن في مستشفى بسبب خلل عقلي وحتى آخر حياتك.

كان ينوي أنْ يخنقها. ويخنق الابنة ***أيضاً***. كان ينوي أنْ يخنقهما معاً بوتر آلة القيثارة. كان يحمل قطّاعة الأسلاك. كان جادّاً. كان ينوي أنْ يُقطِّع الأوتار ويربطها حول عنقيهما ويخنقهما حتى الموت.

في صباح اليوم التالي رجعتُ إلى نيوارك مع ***قطّاعة الأسلاك***. ولكن

لا فائدة، كنتُ أعلم ذلك. توجهتُ إلى المنزل بعد المدرسة وأخبرت دوريس بما حدث، وعن جريمة القتل. قلتُ لها كان ينبغي أنْ أدعهم يسجنونه. كان ينبغي أنْ أُسلّمه إلى الشرطة وأترك القانون يأخذ مجراه، أخبرتها أنني عندما تركته في الصباح، قلت أيرا، يجب أنْ تعيش مع ابنتها. وهنا تكمن العقوبة، العقوبة الرهيبة، وهي التي جَلَبَتْ العقوبة على نفسها. فضحك أيرا. قال: هي حتماً عقوبة رهيبة، ولكن ليس بالقدر الكافي.

على امتداد السنين التي تعاملتُ خلالها مع أخي، كانت تلك المرة الأولى التي أنهار فيها. أخبرتُ دوريس كل شيء وانهرتُ. كنتُ صادقاً فيما قلته لها. وبدافعٍ من إحساسٍ منحرف بالولاء، فعلتُ الأمر الخطأ. ورأيتُ أخي الأصغرَ المُلطَّخ بالدماء، فأدخلته السيارة وكنتُ حينئذٍ في الثانية والعشرين من العمر وقمتُ بالعمل الخطأ. والآن، لأنَّ دوران الزمن يجلب انتقامه، سوف يقوم أيرا بقتل إيف فريم. ولم يتبقَّ إلا أنْ أذهب إلى إيف وأطلب منها أنْ تخرج من المدينة وتأخذ معها سيلفيد. لكنني لم أستطع. لم أستطع أنْ أذهب إليها وإلى ابنتها تلك وأقول، إنَّ أخي يفور بالغضب، والأفضل لكما أنْ تختبئا.

لقد هُزِمتُ؛ أمضيتُ حياةً بأكملها أُعلِّمُ نفسي أنْ أكون عاقلاً في وجه غياب العقل، أُعلِّمها ما أحبُّ أنْ أُسمّيه الواقعيّة الحذرة، أُعلِّمُ نفسي وأُعلِّمُ طلابي وأُعلِّمُ ابنتي وأحاولُ أنْ أُعلِّم أخي. وفشلتُ. كان من المستحيل أنْ أدُلَّ أيرا إلى نفسه. كنتُ قد أثبتُّ ذلك في عام 1929. هنا كنا في عام 1952، وكنتُ في الخامسة والأربعين من العمر وبدا كأنَّ السنين الممتدة ما بين التاريخَين قد ذهبتْ هباءً. وها هو أخي الأصغر بكل قوته وكلِ غضبه يميلُ من جديد إلى ارتكاب جريمة قتل، ومرّة أخرى كنتُ سأُصبح شريكاً في الجريمة. وبعد كل شيء – بعد كل ما فعلَ، بعد *كل* ما فعلناه جميعاً – ها هو يعمل على إعادة الكرَّة.

***

عندما أخبرتُ هذا لدوريس، ركبتْ سيارتها وتوجهت إلى زنك تاون. تولّتْ دوريس الأمر. كانت تتمتع بذلك النوع من السلطة. وعندما عادت قالت: لن يقتل أحداً. لا تظن أنني لم *أرغب* في أنْ يقتلها. لكنّه لن يفعلها، وماذا سيفعل بدل ذلك؟ لقد تناقشنا وتوصلنا إلى تسوية. سوف يستدعي أصحابه، وما معنى هذا؟ سوف يتصل ببعض أصدقائه، عمَّ تتحدثين؟ لا أظنكِ تقصدين أفراد العصابة، بل أقصد الصحفيين. أصدقاءه من الصحفيين. هم الذين سيدمّرونها. دع أيرا وشأنه. أنا المسؤولة عن أيرا.

لماذا أصغى إلى دوريس وليس إليّ؟ كيف استطاعتْ أنْ تُقنعه؟ مَنْ الذي يعرف السبب؟ إنَّ دوريس تعرف كيف تتعامل معه. كانت دوريس تتحلّى بذكاء خاص، وتركتُ أمره لها.

سألتُ مَنْ كان الصحفيون؟

قال مري: صحفيون من رفاق سفر. وهم كُثُر. أشخاصٌ يحترمونه، وهو من عامّة الناس الأصيل ثقافياً. كان أيرا يحمل عبئاً ثقيلاً مع أولئك الناس بسبب انتسابه إلى الطبقة العاملة. وبسبب معاركه في النقابة. كانوا غالباً ما يتواجدون فيها، لقضاء تلك الأمسيات.

وهل فعلوا؟

لقد مزّقوا إيف إرباً. فعلوا، أؤكّد لك. بيّنوا كيف أنَّ كتابها كلّه مُلفَّق. وأنَّ أيرا لم يكن شيوعياً. وأنّه لا صِلة له بالشيوعيين. وأنَّ المؤامرة الشيوعيّة لتسريب البثّ الإذاعي هي مجموعة أكاذيب غريبة مُلفّقة. وهذا لم يهزّ ثقة جو مكارثي أو ريتشارد نيكسون أو برايدن غرانت، لكنّه سوف يُدمّر إيف في عالم الترفيه في نيويورك. وكان عالماً شديد الليبراليّة. فكِّر في الوضع. يأتي كل صحافي إليها، ويُدوِّن كل كلمة تتفوه بها في دفتره ثم ينشره في كل الصحف. هناك شبكة من كبار الجواسيس في إذاعة نيويورك. ورئيس تلك الشبكة هو زوجها. ويقبض الجيش الأمريكي عليها، ويطلب منها عناوينهم. ثم تعتقلها منظّمة تُدعى الحملة الصليبيّة،

وهي جماعة دينيّة مُناهِضة للشيوعيّة. وأعادوا نشر فصول من الكتاب في مجلتهم الشهريّة. وهناك مقالة احتفتْ بها في صحيفة ***ساترداي إيفنينغ بوست***. ولخّصت مجلة ***ريدرز دايجست*** مقطعاً من الكتاب، وهو النوع الذي يُحبّونه، وهذه، بالإضافة إلى صحيفة ***البوست***، أدخلتا أيرا إلى غرفة انتظار كل طبيب واختصاصي في أمراض أسنان في أميركا. الجميع يريدون منها أنْ تُجري حديثاً معهم. والجميع يريدون إجراء حديث معها، لكنَّ الزمن يمر ولم يتبقَّ هناك صحفيون ولم يعُد أحد يرغب في شراء الكتاب وشيئاً فشيئاً لم يعُد أحد يرغب في الحديث معها.

في البدء لم يستجوبها أحد. إنهم لا يستجوبون شخصية ممثلة ذائعة الصيت تبدو فائقة الرقّة وظهرت على مسرح هذه القضيّة القذرة لكي تروِّج له. القضيّة التي لم تنجح فريم في إثارة اهتمام الناس بها. هل أمَرَهُ الحزب بالزواج منها؟ أكانت تلك هي تضحيته الشيوعيّة؟ لقد تقبّلوا حتى هذا من دون استجواب. تقبّلوا أي شيء يُفرِغ الحياة من تناقُضاتها، من لا معناها، من احتمالاتها المُشوَّشة، ويفرِض عليها بدل ذلك التبسيط الذي يوحِّد – ويُسيء فهم كل شيء. هذا ما أمرَه الحزب بفعله. إنَّ كل شيء هو مؤامرة من تدبير الحزب. وكأنَّ أيرا يفتقر إلى الموهبة لارتكاب ذللك الخطأ وحده. وكأنَّ أيرا كان في حاجَة منظمة شيوعيّة عالميّة تساعده في التخطيط لزواج فاشل.

شيوعيّ، شيوعيّ، شيوعيّ، ولا أحد في أميركا لديه أدنى فكرة عمَّن يكون الشيوعيّون. ماذا يفعلون، ماذا يقولون، ما هو شكلهم؟ وعندما يجتمعون، هل يتحدثون بالروسيّة، أم بالصينيّة، أو باليديّة، أم بلغة الإسبيرانتو؟ هل يصنعون قنابل؟ لا أحد يعلم، وهذا هو السبب في أنّه كان سهلاً استغلال التهديد كما فعل كتاب إيف. ومن ثم باشر أصدقاء أيرا من الصحافيين العمل وبدأتْ المقاطع تظهر، في صحيفة ***نيشن***، والـ***ريبورتر***، والـ***نيو ريبابليك***، وتُقطِّعها إرباً. والآلة الشعبيّة التي حرّكتْها لا تذهب دائماً في الاتّجاه الذي يُريده المرء؛ إنها تتّخذ اتّجاهها

الخاص. الآلة الشعبيّة التي أرادتْ أنْ تُدمِّر بها أيرا بدأتْ تنقلب ضدها. كان يجب أنْ تفعل هذا. هذه هي أميركا. حالما تبدأ تشغيل تلك الآلة، فليست هناك من نهاية ممكنة غير الكارثة فوق رؤوس الجميع.

ربما أشدَّ ما دمّرها، ما أضعفها، ظهر مع بداية هجوم أيرا المُضادّ، قبل حتى أنْ تُتاح لها الفرصة لفهم ما يحدث أو يُتاح لأي شخصٍ آخر أنْ يُمسك بيدها ويُخبرها عمّا لا ينبغي أنْ تفعل في معركة كهذه. ووضع برايدن غرانت يده على هجوم صحيفة *نيشن*، الهجوم الأول، عندما كان لا يزال في المطبعة. ما الذي يدعو غرانت إلى الاهتمام بما كُتِبَ في الـ *نيشن* أكثر من اهتمامه بما يُكتَب بصحيفة الـ *برافدا*؟ ماذا يُتوقَّع أنْ يكتبوا في الـ *نيشن* غير هذا؟ لكنَّ سكرتيرته أرسلت نسخة البروفة مما كُتِبَ إلى إيف، وإيف اتصلتْ طبعاً هاتفياً بمُحاميها وقالت له إنّها تريد قاضٍ يُصدر إنذاراً قضائياً ضد صحيفة الـ *نيشن* لمنعها من نشر المقالة: لأنَّ كل ما وردَ فيها خبيث وزائف، وأكاذيب فُبرِكتْ لتدمير اسمها ومستقبلها الفنيّ وسُمعتها. لكنَّ الإنذار القضائي كان منعاً مُسبقاً ولا يمكن للقاضي قانونياً أنْ يُصدِره. ولكن **بعد** أنْ تُنشَر المقالة تستطيع أنْ تُقيم دعوى بتهمة القذف، لكنّها ليست تهمة كافية، لأنَّ الأوان سيكون قد فات، سوف تكون قد دُمِّرَتْ، ولذلك توجّهتْ مباشرة إلى مكتب صحيفة الـ *نيشن* وطالبتْ بمقابلة الكاتب. وكان ل. ج. بودل، رجل التشهير والفضائح القاتل في صحيفة الـ*نيشن*، جيك بودل، الذي يخشاه الناس، وكان لديهم سبب لذلك. لقد كان بودل لا يزال مُفضّلاً عند أيرا وهو يحمل الرفش، ولكن ليس عند الكثيرين.

دخلتْ مكتب بودل وبعد ذلك كان الشجار الكبير، الشجار الفائز بجائزة الأوسكار. قالت إيف لبودل إنَّ المقالة مملوءة بالأكاذيب، وكلها أكاذيب شرّيرة، وهل تعلم ما هي أفظع تلك الأكاذيب؟ في هذه المقالة كلها؟ وعلِمَ بودل أنّها يهوديّة مُتخفّية. وكتبَ يقول إنّه ذهبَ إلى بروكلين وكشفَ عن القصّة كلها. قال إنها تشافا فرومكين، من مواليد بروكلين،

عام 1907، نشأتْ على ناصية شارعيّ هوبكنسون وسَتَر، وإنَّ والدها كان دهّان منازل مُهاجر فقير، يهودي بولوني أُمّيّ يدهن المنازل. قال إنّه لا أحد في عائلتها كان يتكلَّم الإنكليزيّة، لا والدها، ولا حتى الابن الأكبر والأخت. كلاهما كانا قد وُلِدا قبل إيف بسنين عديدة، في البلد العتيق. وفيما عدا تشيفا، كلهم كانوا يتكلّمون اليديّة.

بل إنَّ بودل اكتشف أمر الزوج الأول، مولر، ابن النادل من جيرزي، البحّار السابق الذي هربتْ معه وهي في السادسة عشرة. إنّه ما زال في كاليفورنيا، يعيش على معاش الإعاقة، شرطيّ متقاعد عليل القلب، مع زوجة، وطفلين، شاب طيّب يقول أحسن الكلام عن تشيفا. الفتاة الجميلة. المفعمة بالحيويّة. ومؤذية قليلاً، صدّق أو لا تُصدِّق. قال مولر، إنها هربتْ معه، ليس لأنها استطاعتْ أنْ تحب ذلك الأبله الضخم، الذي كان قد عاد حينئذٍ. ولعِلمه بهذا ولتعاطفه معها، لم يُحاول مولر أنْ يقف في طريقها، كما قال لبودل، ولم يُلاحقها سعياً للحصول على النقود منها، حتى بعد أنْ أصبحت مشهورة. بل إنَّ بودل حصل على بعض اللقطات الفوتوغرافيّة القديمة، لقطات تلطَّفَ مولر ومنحَهُ إياها (مقابل مبلغ غير معروف). وعرضها عليها: كانت تبيِّن تشيفا ومولر على شاطئ بحر برّي في ماليبو، ومياه المحيط هائجة وتهدر من خلفهما – وهما شابان صغيران وسيمان، صحيحان، مُبتهجان، قويّان في عشرينيات عمريهما وبرداء السباحة، مُستعدان وتوّاقان للغوص في المياه. لقطات ظهرتْ من جديد في مجلّة ***كونفدنشال***.

في الواقع، لم يكن بودل من النوع الذي يفضح اليهود؛ هو نفسه كان يهودياً لا مبالياً، ويعلمُ الله أنّه لم يكن أبداً من داعمي إسرائيل. لكنّه كان يكذب بشأنْ حياتها كلها وها هي الآن تكذب بشأنْ أيرا. كان بودل يؤكّد صحّة ما وردَ على ألسنة عجائز بروكلين، والجيران المزعومين، والأقارب المزعومين، وقالت إيف: إنَّ ذلك كلّه ثرثرة غبيّة وإنّه إذا اعتبر الأشياء الغبيّة التي يختلقها الناس عن شخصٍ ما مشهور هي الحقيقة،

فسوف تُقيم دعوى قضائيّة ضد المجلّة وتمحوها من الوجود وتُقيم دعوى ضده شخصياً مقابل كل بنس حصل عليه.

كان هناك شخص معه آلة تصوير وجاء إلى مكتب بودل والتقطَ صورةً للّتي كانت ذات يوم نجمة سينمائيّة في اللحظة التي ذكّرتْ بودل بما في وسعها أنْ تفعله لتؤذيه. وهكذا، تلاشت آخر قطرة تبقّتْ لديها من ضبط النفس، وتبخّرتْ وجهة النظر العقلانيّة، كما كانت، وهرعت تقطع أرض الرواق مهرولة وهي تجهش بالبكاء، حيث كان المُحرِّر التنفيذيّ فقادها إلى غرفة مكتبه وأجلسها وقال: ألستِ إيف فريم؟ أنا من أكبر مُعجبيك. ما المشكلة؟ بمَ أستطيع أنْ أخدمكِ؟ وأخبرته بالقصة. فقال: أوه، يا إلهي، يا إلهي، هذا لن ينفع، وأخذَ يُهدِّئ من روعها وسألها ما الذي تريد تغييره في المقالة، فأخبرته عن نشأتها في نيو بدفورد، ماساتشوستس، وسط عائلة عريقة من البحّارة، عن جدَّها الأكبر وجدّها القبطانين لسفن أمريكية شراعيّة سريعة، وأنّه على الرغم من أنَّ أبويها لم يكونا ثريين أبداً، بعد وفاة والدها المُحامي المُرخَّص، وهي ما تزال صغيرة، قامت أمّها بفتح قاعة صغيرة جميلة جداً لشرب الشاي. فعبَّر المُحرّر التنفيذيّ عن مدى سعادته لأنه حصل على الحقيقة. وطمأن إيف وهو يوصِلها إلى سيارة أجرة بأنّه سوف يحرص على أنْ تُنشَر في المجلّة. ونفّذَ بودل الأمر، وكان يقفُ خارج باب مكتب المُحرِّر التنفيذيَ يُدوِّن كل كلمة تقولها إيف: وأورده في المجلّة.

بعد أنْ غادرتْ، عاد بودل إلى المقالة وأدخلَ ما حدث كّله – الزيارة إلى المكتب، والشجار الصاخب، والأعمال. يا له من منجنيق عجوز لا يرحم، مولع بصورة شاذّة بمثل تلك الألاعيب، وفوق ذلك كله كان مُعجباً بوجه خاص بأيرا ويكرهها هي. لقد سجّل بوضوح كل تفصيلٍ في قصة نيو بدفورد وأضافه كختام لتلك المقالة. وهناك الآخرونَ الذين قدّموا مقالاتهم بعد أنْ زاد بودل عليها، وكان هذا دافعاً آخر في القصص المُعادية لإيف، وسبباً آخر لانقلابها ضد أيرا، الذي ليس فقط

ليس شيوعياً الآن بل ويهوديّ فخور ويقِظ، إلى آخره، إلى آخره. والذي يُسمّونه أيرا لن تكن له أدنى صِلة بأيرا الذي تعرفه هي. في ذلك الوقت كان كل أولئك المثقفين المتوحشين، بولائهم للحقائق، قد انتهوا من المرأة، وأصبحَ اكتشاف أيَّ شيء في أي مكان عن الحقيقة البشعة التي كانت *حقاً* قصة أيرا وإيف يتطلّبُ مِجهراً للعثور عليه.

في مانهاتن، يبدأ النبذ. تبدأ بخسارة أصدقائها. لم يعد الناس يرتادون حفلاتها. لا أحد يتصل بها هاتفياً. ولا أحد يريد أنْ يتحدث معها. ولم يعُد أحد يُصدّقها. أهي تُدمِّر زوجها بالأكاذيب؟ كيف يؤثّر هذا على سِمتها الإنسانيّة؟ وتدريجياً لم يعُد يتوفّر لها عمل. وكانت الدراما الإذاعيّة تلفظ أنفاسها الأخيرة، سحقتها اللائحة السوداء ومن ثم التلفزيون، وكانت إيف تزداد بدانة والتلفزيون لا يُبدي اهتماماً بها.

لقد شاهدتُها تمثّل في التلفزيون مرّتين. في المرة الأولى التي شاهدناها، ذُهِلَتْ دوريس. بالمعنى الحسن للكلمة. قالت دوريس: أتعلَمْ مَنْ تُشبه الآن بعد أنْ أصبحت بدينة هكذا؟ السيدة غولدبرغ، من جادة تريمونت في برونكس. أتتذكَّر مولي غولدبرغ، في برنامج ***عائلة غولدبرغ***؟ مع زوجها، جيك، وطفليها، روزالي وساميلي؟ فيليب لوب. أتتذكّر فيليب لوب؟ ألم تُقابله من خلال أيرا؟ لقد أحضره أيرا إلى منزلنا. لعب فيل دور بابا جيك على مدى سنين عديدة، في مسلسل ***عائلة غولدبرغ***، منذ حقبة الثلاثينيات، عندما بُثَّ البرنامج للمرة الأولى في المذياع. وفي عام 1950 طردوه من البرنامج التلفزيونيّ لأنَّ اسمه كان مُدرَجاً على اللائحة السوداء. ولم يتمكن من العمل، ولم يستطع دفع قيمة فواتيره، ولا سداد ديونه، ولذلك قام فيليب لوب بحجز غرفة في فندق تافت وقتل نفسه بتناول حبوب مُنوّمة.

إنَّ الدورَين اللذين قامت إيف بأدائهما كانا دور الأمّ. أداء فظيع. على مسارح برودواي كانت دائماً ممثّلة هادئة، ولبقة، وذكيّة، والآن أصبحتْ تجهشُ بالبكاء وترتمي في كل مكان – للأسف كانت تؤدي دور نفسها.

لكنّها في ذلك الوقت كانت من دون عون في الغالب، لم يكن هناك مَنْ يُمسك بيدها ويقودها. كان آل غرانت موجودين في واشنطن ولم يتوفّر لديهما الوقت، ولذلك لم يتبقَّ معها غير سيلفيد.

وهذا أيضاً لم يدُمْ. ففي ليلة ذات يوم جمعة، ظهرتْ هي وسيلفيد في برنامج تلفزيونيّ كان محبوباً جداً في ذلك الوقت، عنوانه ***التفاحة والشجرة***. أتتذكّره؟ كان برنامجاً أسبوعياً مدّته نصف ساعة عن الأطفال الذين ورثوا نوعاً من الموهبة، أو الميزة، أو الحرفة عن والديهم. علماء، فنانين، عاملين في المسرح الاستعراضيّ، أو رياضيين. كانت لورين تحب مشاهدته، وأحياناً كنا نشاهده معها. كان برنامجاً ممتعاً، مُضحكاً، ووديّاً، بل ومُثيراً للاهتمام أحياناً، لكنه وجبة خفيفة جداً، تسلية خفيفة جداً. لكنّه لم يكن كذلك في الحلقة التي ظهرتْ فيها إيف مع سيلفيد كضيفتين. كان عليهما أنْ تُقدّما أداءهما المُهذّب من مسرحية ***الملك لير***، بدوريّ غونيريل وريغان.

أتذكّر أنَّ دوريس قالت لي إنها تقرأ تلك الكتب كلها وتفهمها. تقرأ وتفهم كل تلك الأدوار التي تؤديها. هل من الصعب كثيراً الخروج منها إلى أحاسيسها الواقعيّة؟ ما الذي يجعل من شخص عالي الذكاء أحمقَ لا شِفاء له؟ ما أسوأ أنْ يكون في منتصف أربعينيات عمره، وأنْ يكون منهمكاً في العالم، ويكون شديد الجهل.

إنَّ ما أثار اهتمامي كان أنّه بعد نشر ***تزوّجتُ شيوعياً*** ورواجه، لم تعترف، ولو للحظة، ولا بشكل عابر، بالضغينة. ربما بحلول ذلك الوقت كانت قد نسيت بشكل مناسب الكتاب وما فعله. ربما كانت تلك نسخة ما قبل غرانت، ما قبل الوحش، تظهر إلى العلن، قصة إيف عن أيرا قبل أنْ تتّخذ شكل فان تاسل بشكل مناسب. لكنَّ التغيُّر المفاجئ والسريع الذي طرأ عليها لدى مُراجعتها للقصّة كان لا يزال مُدهِشاً.

كل ما استطاعت إيف أنْ تتكلَّم عنه في التلفزيون كان مدى حبّها لأيرا، ومدى سعادتها مع أيرا، وكيف انهار الزواج بسبب شيوعيّته

الخائنة. بل إنها بكتْ قليلاً على السعادة التي دمّرتها الشيوعيّة الخائنة. أتذكّر أنَّ دوريس نهضتْ وابتعدت عن جهاز التلفزيون، ومن ثم رجعت وجلستْ وهي هائجة. بعد ذلك قالت لي: إنَّ منظرها وهي تنفجر بالبكاء على شاشة التلفزيون - صدمني وكأنها عاجزة عن ضبط نفسها. ألا تستطيع أنْ تتوقف عن البكاء لدقيقتين؟ إنّها ممثّلة، بحقّ الله. ألا تستطيع أنْ تحاول تمثيل عمرها؟

وهكذا سجّلتْ آلة التصوير زوجة الشيوعيّ البريئة وهي تبكي، وكل العاملين في التلفزيون شاهدوا زوجة الشيوعيّ البريئة تبكي، ومن ثم مسحت زوجة الشيوعيّ البريئة عينيها، وكانت بين فينة وأخرى تنظر بعصبيّة إلى ابنتها طلباً للتعاون - كلا، بل طلباً ***للتفويض*** - وأصبح جليّاً أنَّ كل شيء أصبحَ من جديد رائعاً بين سيلفيد وبينها، واستتبَّ السلام، وعفا الله عمّا سَلَف، واستعادتا كل الثقة القديمة والحب. والآن بعد اجتثاث الشيوعيّ من جذوره، أصبحتا تشكلان أشدّ العائلات تقارُباً، والصِلة بينهما في أحسن حالاتها، وتمثلان هذا الجانب من قصّة ***عائلة روبنسون السويسرية***.

وكلما حاولتْ إيف أنْ تبتسم لسيلفيد تلك الابتسامة المرسومة بصورة رديئة، وحاولتْ أنْ تنظر إليها تلك النظرة المتردِّدة بشكلٍ مؤلِم في عينيها، نظرة تناشد سيلفيد لكي تقول، نعم، يا أمي، أنا أحبّكِ، هذا صحيح - وتتوسل إليها هاتفة قوليها، يا حبيبتي، ولو فقط من أجل التلفزيون - كانت سيلفيد تكشِف اللعبة إمّا بتبادُل التحديق معها أو بمُجاراتها أو بالقيام بغضب بإفساد كل كلمة تقولها. وعند نقطة مُعيَّنة حتى لورين لم تعُد تتحمّلها. وفجأة صرخت تلك الفتاة في شاشة التلفزيون، أبديا بعض الحب، أنتما الاثنتان!

إنَّ سيلفيد لا تُبدي ولو لجزء من الثانية تعاطفاً مع المرأة البائسة التي تكافح لكي تصمُد. ولا ذرّة من الكرم، ناهيك عن الفهم. ولا جُملة استرضاء واحدة. أنا لستُ طفلة - لا أتحدث عن الحب. ولا أتحدث

حتى عن السعادة، والانسجام، أو الصداقة. بل فقط عن التوافُق. وما أدركته وأنا أشاهد ذلك البرنامج هو أنَّ هذه الفتاة لا يمكنها بأي حالٍ من الأحوال أنْ تحبّ أمّها. لأنكَ إنْ فعلتَ، ولو قليلاً، فسوف تتمكّن من التفكير فيها أحياناً على أنّها *شيء آخر* غير أمّك. سوف تفكّر في سعادتها وفي تعاستها. سوف تفكّر في صحّتها. وسوف تفكّر في وحدتها. سوف تفكّر في *جنونها*. لكنَّ هذه الفتاة لم تفكّر في أيٍ من هذه الأشياء. الابنة لا تفهم أبداً حياة امرأة. كل ما تكنّه هو *إنّي أتّهِم*. وكل ما تريد هو أنْ تُحاكِم الأمّ أمام الأمّة برُمّتها، وأنْ تجعلها تبدو فظيعة بكل معاني الكلمة. وأنْ يسحق الجمهور عِظام الماما.

لن أنسى ما حييت تلك الصورة. صورة إيف وهي تنظر باستمرار إلى سيلفيد وكأنَّ كامل فكرتها عن نفسها وعن قيمتها مُستمدّة من هذه الابنة التي كانت أشدّ القُضاة الذين يمكن تخيّلهم قسوة في حُكمها على كل عيب في أمّها. كان ينبغي أنْ ترى التهكُّم في سيلفيد، وهي تسخر من أمّها بكل تكشيرة ملؤها الاحتقار، وترميها بكل ابتسامة مُتكلِّفة، وتسوطها علناً. وأخيراً وجدت منبراً تنفِّس منه عن غضبها. وتصرع أمّها المشهورة على شاشة التلفزيون. في استطاعتها أنْ تقول، ساخرة، أنتِ يا مثار الإعجاب مجرد امرأة غبيّة. وهذا ليس قولاً كريماً جداً. إنّه من النوع الذي ينطق به الأبناء قبل بلوغهم سن الثامنة عشرة. إنّه قول يكشف عمّا في النفس بصورة شرسة. إنك تشعر بأنَّ فيه متعة جنسيّة عندما يُنطَق في أواخر حياة المرء. لقد جعلني ذلك البرنامج أتلوّى من الضيق: ذلك الأداء المتكلِّف لصمم الأم لا يقلّ روعة عن التأثير القاسي لخبث الابنة. لكنَّ القِناع الذي وضعته الأم على وجهها كان الأشدّ إثارة للخوف. كان أشد ما يمكنك أنْ تتخيّل تعبيراً عن التعاسة. وعلِمتُ حينئذٍ أنّه لم يتبقَّ منها أي شيء. لقد بدتْ مسحوقة تماماً.

ختاماً، أتت الضيفة على ذِكر الحفل الموسيقي التالي الذي سيُقام في قاعة المدينة، وجلستْ سيلفيد وعزفتْ على القيثارة. ***هذا هو،***

لهذا السبب وافقت إيف على أنْ تهين نفسها بذلك الشكل على شاشة التلفزيون. طبعاً - من أجل مسيرة سيلفيد المهنيّة. قلتُ في نفسي، أيمكن أنْ يكون هناك وصف أفضل للعلاقة بينهما من هذا، من مشهد إيف وهي تبكي علناً على كل ما فَقَدَته بينما الابنة التي لا تأبه تعزف على القيثارة وتواصل أداءها؟

بعد ذلك بعامَين، تخلَّتْ الابنة عنها، في الوقت اذي كانت فيه الأمّ تغرق وفي أمسّ الحاجة إليها. لقد اكتشفَتْ سيلفيد استقلالها. في سن الثلاثين، تُقرر سيلفيد نّه ليس في صالح مشاعرها أنْ تعيش في المنزل مُرتبطة بأم في منتصف العمر تدسّها في السرير في كل ليلة. وفي حين أنَّ معظم الأبناء يتركون أهاليهم في سن الثامنة عشرة أو العشرين، ويعيشون حياة مُستقلّة عنهما على مدى خمسة عشر أو عشرين عاماً ومن ثم، في الوقت المناسب، يتصالحون مع آبائهم المتقدمين في السن ويُقدمون لهم المُساعدة، فإنَّ سيلفيد تُفضِّل أنْ تذهب في الاتّجاه المُعاكس. ولأفضل الأسباب النفسيّة الحديثة، تذهب سيلفيد إلى فرنسا لتعيش بعيداً عن والدها.

كان بيننغتون حينئذٍ مريضاً. وبعد ذلك بعامَين مات. متأثّراً بتليُّف الكبد. ورِثَتْ سبلفيد الفيلا، والسيارات، والقطط، وثروة عائلة بيننغتون. حصلت سيلفيد عليها كلّها، بما فيها سائق والدها الخاص الإيطالي الوسيم، الذي تزوجته. نعم، سيلفيد تزوّجت. بل وأنجبتْ ابناً. ها أنتَ تتعرَّف على منطق الواقع. وأصبحت سيلفيد بيننغتون أمّاً. وهذا خبر مهمّ في مجلات الفضائح هنا بسبب جدل قضائيّ لا متناه تسبَّبَ به مُصمِّم ديكور فرنسيّ مشهور - نسيتُ اسمه، كان في أحد الأيام عشيقاً لبيننغتون مدة طويلة. ادّعى أنَّ السائق الخاص أفّاق، وصائد ثروات، ظهر فجأة، وأنَّه كان عشيقاً على فترات لبيننغتون، وأنّه تلاعبَ بالوصيّة وغيَّر بنودها.

عدما غادرتْ سيلفيد نيويورك لكي تبدأ حياتها في فرنسا، كانت إيف فريم قد أضحتْ سكّيرة لا أمل يُرجى منها. واضطرتْ إلى بيع المنزل.

وماتت من خَدَر السُكْر في غرفة في أحد فنادق مانهاتن عام 1962، بعد صدور الكتاب بعشر سنين. منسيّة. في سن الخامسة والخمسين. وبعد ذلك بعامَين، توفي أيرا. في سن الحادية والخمسين. لكنّه عاش حتى شهِدَ مُعاناتها. ولا تظن أنّه لم يستمتع بذلك. لا تعتقد أنّه لم يستمتع بخروج سيلفيد. أين الابنة الحبّوبة التي طالما سمعنا عنها؟ أين الابنة لتقول، ماما، سوف أساعدكِ؟ لقد رحلتْ!

أعادت وفاة إيف أيرا إلى مصادر الرضا الأساسيّة، وحرَّرَت مبدأ حفّار الخنادق في المتعة. عندما يتجرَّد المرء من كل أشكال الاحترام، ومن كل البُنية الاجتماعيّة التي تُحضِّر، وهو الذي كافح معظم حياته عن عمد، فإنّه يحصل على نبع حارّ، أليس كذلك؟ يبدأ بالتدفُّق. قد دُمِّرَ أعداؤك – ماذا تريد أفضل من هذا؟ صحيح أنَّ الأمر استغرقَ أطول مما كان يأمل، وصحيح أنّه هذه المرة لم يُنفِّذ الأمر بنفسه، لم يشعر بانبثاق الدم حاراً إلى وجهه، ولكن في العموم، لم أرَ أيرا يستمتع بأي شيء أكثر من استمتاعه بموتها.

أتعرف ماذا قال عندما ماتت؟ قال الشيء نفسه الذي كان قد قاله ليلة قتلِهِ الإيطاليّ ودبّرنا له مهرباً. قال لي: لقد قام ستريلو بمشواره الأخير. كانت تلك المرة اولى التي نطقَ ذلك الاسم بعد أكثر من ثلاثين عاماً. لقد قام سترولو بمشواره الأخير، ثم أطلق ضحكته المفرقعة التي تشبه ضحكة طفل. كأنها تقول دعهم يُحاولون النيل مني. تلك الضحكة المتحدّية التي ما زلتُ أتذكّرها منذ عام 1929

***

ساعدتُ مري في هبوط دَرَجات المصطبة الثلاث وقُدته في الظلام على طول الدرب إلى حيث تتوقف سيارتي. ران علينا الصمت ونحن ننطلق على الدرب الجبليّ الملتويّ ومروراً ببحيرة ماداماسكا وإلى أثينا. وعندما نظرتُ إليه كان رأسه يستند إلى الخلف وعيناه مُغمضتين. في أول الأمر حسبتُ أنّه نائم، ومن ثم تساءلتُ إنْ كان قد مات، إنْ كانت

إرادة الاستمرار، بعد أنْ تذكّر كامل قصّة أيرا - بعد أنْ سمعَ نفسه ***يُخبِرِ*** كامل قصّة أيرا - تراخت حتى على أشد الرجال تحمُّلاً. ثم تذكّرته من جديد يقرأ أمام تلاميذ اللغة الإنكليزيّة في المدرسة الثانويّة، وهو جالس على ركن طاولة المكتب، ولكن من دون أنْ يُهدِّد برمي ممحاة السبّورة، ويقرأ على مسامعنا مشاهد من ***ماكبث***، مؤدياً كل الأصوات، لا يخشى الأداء المسرحيّ، وأنا شخصياً أتأثّر بمدى رجولة الأدب من خلال أدائه له. وأتذكّر أنني سمعتُ السيد رينغولد يقرأ المشهد في آخر الفصل الرابع من ***ماكبث*** عندما يعلم ماكدَف من روس أنَّ ماكبث ذبح عائلة ماكدَف، كان لقائي الأول مع حالة روحيّة جماليّة هيمنت على كل شيء.

يقرأ بشخصيّة روس، لقد بوغِتت قلعتك؛ وزوجتك وأطفالك / ذُبِحوا... ثم، بعد فترة صمتٍ طويلة يبدو خلالها ماكدَف أنّه يفهم ولا يستطيع أنْ يفهم، يقرأ بشخصيّة ماكدَف - بصوت هادئ، أجوف، وكأنّه بجوابه أشبه بطفل - وأطفالي أيضاً؟ يُجيب السيد رينغوبد / بدور روس الزوجة، والأطفال، والخدم، يقول السيد رينغولد / بدور ماكدَف كل / الموجودين. من جديد ينعقد لسان ماكدَف. وكذلك ألسنة طلاب الصف: كأنَّ طلاب الصف اختفوا من الغرفة. كل شيء تلاشى ما عدا بضع كلمات عبّرتْ عن عدم التصديق بعد ذلك. قال السيد رينغولد / بدور ماكدَف: وزوجتي قُتِلَتْ أيضاً؟، يُجيب السيد رينغولد / بدور روس: كما قلتُ تواً. الساعة الكبيرة تتكُّ مُقتربةً من الثانية والنصف وهي مُعلَّقة على جدار غرفة الدرس. في الخارج، الحافلة رقم 14 تصرّ متقدّمة على تل جادّة تشانسلر. بعد بضع دقائق سوف ينتهي الدرس الثامن وينتهي معه يوم مدرسيٌّ طويل. ولكن كل ما يهمّ - يهمُّ أكثر ممّا يحدث بعد الدراسة أو في المستقبل - هو عندما سيفهم السيد رينغولد / بدور ماكدَف ما يعصى على الفهم. يقول السيد ماكدَف هو ليس لديه أطفال. عمَّنْ يتحدّث؟ مَنْ الذي ليس لديه أطفال؟ بعد بضع سنين علِمتُ التأويل الرسميّ، أي أنَّ ماكبث الذي أشار إليه ماكدَف،

ذلك الماكبث هو الذي ليس لديه أطفال. ولكن حسب قراءة السيد رينغولد، فإنَّ الـ«هو» الذي يُشير إليه ماكدَف هو، بصورة مُرعبة، ماكدَف نفسه. أتقول / كل أحبّائي؟. كلهم؟ / ماذا، كل أطفالي الأحبّاء وأمّهم / دفعة واحدة؟ والآن يتكلّم مالكوام، أي السيد رينغولد، بدور مالكولم، بخشونة، وكأنّما لكي يهزّ ماكدَف فكّر في الأمر كرجل، فيقول السيد رينغولد / بدور ماكدَف، سوف أفعل.

ثم يأتي السطر البسيط الذي سيفرِض نفسه، بصوت مري رينغولد، مائة مرة، وألف مرة، خلال ما تبقّى من حياتي: ولكن يجب أنْ أشعر أيضاً كأنني رجل مجنون، ويُخبرنا السيد رينغولد في اليوم التالي، عشرة مقاطع صوتيّة، لا أكثر. عشرة مقاطع، خمسة إيقاعات، خماسيّة التفعيلة... تسع كلمات، التشديد العمقيّ الثالث ينحدر بشكل مثاليّ وطبيعيّ على الكلمة الخامسة والأهمّ... ثماني كلمات أُحاديّة المقاطع والكلمة الوحيدة المؤلَّفة من مقطعَين كلمة شائعة وعاديّة ومفيدة كأيّة كلمة في الإنكليزيّة المحكيّة... ومع ذلك، كلّها معاً، عندما ترد هكذا، ما أقواها! بسيطة، بسيطة – وأشبه بمطرقة!

ولكن يجب أنْ أشعر بها أيضاً كإنسان ويُغلِق السيد رينغولد الكتاب الكبير الذي يضم مسرحيات شكسبير، ويقول لنا، كما يفعل عادة مع انتهاء كل درس، أراكم لاحقاً ويُغادر الغرفة.

***

مع وصولنا إلى أثينا، كانت عينا مري مفتوحتين وكان يقول، ها أنا ذا مع طالب سابق بارز ولم أترك مجالاً له ليتكلَّم. ولم أسأله عن نفسه.

في المرة القادمة.

لماذا تُقيم هناك، وحدك هكذا؟ لِمَ لا تنطلق في العالم؟

قلت إنني أفضّل هذا الأسلوب.

كلا، لقد راقبتُكَ وأنتَ تُصغي. لا أعتقد أنّك تُفضّل هذا. لا أصدّق

أنَّ الحيويّة قد تلاشتْ. لقد كنتَ في ذلك أشبه بطفل. ولهذا قضيتُ معك وقتاً ممتعاً - لقد أوليتني انتباهك. وما زلتَ. ولكن ماذا يوجد هنا يُثير الانتباه؟ يجب أنْ تخرج من الخطب الذي يكتنفك. ليس من الذكاء الرضوخ لغواية الاستسلام. وفي سنٍ معيّنة، يمكن لهذا أنْ يقضي عليك كما يفعل أيّ مرض. أحقاً تريد أنْ تُخفِّف منه قبل أنْ تنتهي حياتك؟ حذارِ من وهم العزلة. حذارِ من وهم الكوخ وسط الغابة، وحماية الواحة ضد الغضب والحزن. عزلة حصينة. هكذا انتهتْ الحياة بالنسبة إلى أيرا، وذلك قبل أنْ يسقط ويموت فعلاً بوقتٍ طويل.

أوقفتُ السيارة في أحد شوارع الكليّة ومشيتُ معه على الدرب إلى غرفة النوم. كانت الساعة تقترب من الثالثة صباحاً وكان الظلام يعمّ الغرف كلها. ربما كان مري هو آخر الطلاب المتقدمين من السن المُغادرين والوحيد الذي سينام هناك في تلك الليلة. وتمنّيتُ لو أنني دعوته إلى البقاء معي. لكنني لم أكن متحمساً لذلك أيضاً. كان نومه ضمن نطاق سمعي وبصري أو شمّي سيقطع عليّ سلسلة أفكاري لم يكن سهلاً الربطُ بينها.

قلتُ سوف أذهب إلى جيرزي وأقومُ بزيارتك.

سوف يتوجب عليك أنْ تأتي إلى أريزونا. لم أعُد أُقيم في جيرزي. إنني أعيش في أريزونا. إنني في أريزونا منذ وقتٍ طويل. ومُنتسِب إلى نادي كتاب تابع للكنيسة يُديره الموحّدون: فيما عدا ذلك لا شيء يُذكَر. إنّه ليس المكان المثاليّ إذا كنتَ صاحب عقل راجح، ولكنْ لديّ مشاكل أخرى. غداً سوف أمكثُ في نيويورك وفي اليوم التالي سوف أطير إلى فينكس. وسوف تُضطر إلى أنْ تأتي إلى أريزونا إذا أردتَ أنْ تقابلني. ولكن لا تُقِم فيها. قال هذا مع ابتسامة، إنَّ الأرض تدور بسرعة كبيرة، يا نيثان. والزمن ليس في صالحي.

مع انصرام السنين لم يتبقَّ ما أبرعُ فيه غير وداع شخص أشعر بتواصُل قويّ معه. وأنا ليس دائماً أُدركُ مدى قوة الصِلة إلى أنْ تحين لحظة الوداع.

لقد افترضتُ بصورةٍ ما أنّك ما زلتَ في جيرزي. كان ذلك أقلّ ما عَبَرَ في بالي من الانفعالات خطراً.

كلا. لقد غادرتُ نيوارك بعد مقتل دوريس. دوريس اغتيلتْ، يانيثان. على الطرف المُقابل من شارعنا، في أثناء عودتها من المستشفى. لم أكنْ أريد أنْ أترك المدينة، في الحقيقة. لم أكنْ أنوي مغادرة المدينة التي عشتُ فيها ودرَّستُ طوال حياتي لمجرّد أنّها أضحتْ الآن مدينة سوداء فقيرة وتزخرُ بالمشاكل. حتى بعد اندلاع أعمال الشغب، عندما خلتْ نيوارك من السكّان، وأقمنا في جادة ليهاي، وكنا العائلة البيضاء الوحيدة التي بقيتْ. وعادت دوريس إلى العمل في المستشفى، على الرغم من أوجاع ظهرها وغير ذلك. كنتُ أقوم بالتدريس في الحيّ الجنوبيّ. وبعد أنْ استعدتُ عملي رجعتُ إلى الحيّ اليهودي، حيث كان التدريس حينئذٍ، وأصلاً، ليس عملاً سهلاً، وبعد عامين سألوني إنْ كنتُ أقبل أنْ أتولّى إدارة قسم اللغة الإنكليزيّة في الحيّ الجنوبيّ، حيث الوضع أشدّ سوءاً. لم يكن في استطاعة أحد أنْ يُدرِّس أولئك الأولاد السود، ولهذا طلبوا مني أنْ أفعل ذلك. وأمضيتُ السنوات العشر الأخيرة هناك، إلى أنْ تقاعدتُ. لم أتمكن من تدريس أحد أيّ شيء. ولم أستطع أنْ أُحسِّن الوضع، ناهيك عن التدريس فقط - كان عملي كله منصبّاً على فرض الانضباط. الانضباط، والتجوُّل بين الأروقة، والتشاحُن إلى أنْ يضربني أحد الأولاد، وأقوم بالطرد. كانت أسوأ عشر سنين من حياتي. أسوأ حالاً مما كنتَ بعد طردي من العمل. لن أقول إنَّ الإحباط كان مُدمِّراً. أعجبتني واقعيّة الوضع. لكنَّ التجربة كانت مُدمِّرة. وحشيّة. كان ينبغي أنْ ننتقل، ولم نفعل، وهذا هو لبّ المسألة.

ولكن طوال حياتي كنتُ أحد مُثيري الفِتَن في عرف نيوارك، أليس كذلك؟ أصدقائي القُدامى أخبروني بأنني كنتُ مجنوناً. في ذلك الوقت كانوا كلهم يعيشون في الضواحي. ولكن كيف كان في مقدوري أنْ أهرب؟ كنتُ مهتماً بإبداء الاحترام لأولئك الأولاد. إنْ كانت هناك

أيّة فرصة لتحسين الحياة، فمن أين كان يمكن أنْ أبدأ إذا لم يكن من المدرسة؟ ثم، في كل مرّة كان يُطلَب مني وأنا أستاذ مدرسة أنْ أفعل شيئاً أرى أنّه مُثير للاهتمام ويستحق العناء، كنتُ أقول، نعم، أحبّ أنْ أقوم به، وأنكبّ على أدائه. وأقمنا في جادّة ليهاي وذهبتُ إلى الحيّ الجنوبيّ وأخبرتُ الأساتذة في هيئة التدريس، يجب أنْ نعثُر على وسائل لإغواء تلامذتنا على الالتزام، وما إلى ذلك.

تعرَّضتُ للاعتداء مرتين. كان ينبغي أنْ ننتقل بعد المرة الأولى وكان ينبغي حتماً أنْ ننتقل بعد تلك المرة الثانية. في المرة الثانية كنتُ في مكان قريب من المنزل، في الساعة الرابعة من بعد الظهر، وإذا بثلاثة من الفتية يُحيطون بي ويُشهرون مُسدّساً. لكنّنا لم ننتقل، وذات أمسية، كانت دوريس تغادر المستشفى، ولكي تصل إلى منزلنا، كل ما كان عليها أنْ تفعل، كما تتذكَّر، هو أنْ تجتاز الشارع. حسن، لم تتمكّن من ذلك. شيءٌ ما ضربها على رأسها. على مسافة نصف ميل من المكان الذي قَتَلَ فيها أيرا سترولو، قام أحدهم بكسر جمجمتها بحجر قرميد. سعياً إلى سرقة حقيبة يدها التي لم يكن فيها أي شيء. أتعلم ماذا أدركتُ؟ أدركتُ أنني خُدِعتُ. لا أحبّ هذه الفكرة، لكنني تعايشتُ معها في داخلي منذ ذلك الحين.

لقد خدعتُ نفسي، إنْ كنتَ تتساءل مَنْ الذي خدعني. نفسي وكل مبادئها. لا أستطيع أنْ أخون أخي. لا أستطيع أنْ أخون مهنتي كمُدرِّس. ولا أستطيع أنْ أخون المحرومين في نيوارك. ليس *أنا* مَنْ يفعل هذا – *لن* أُغادر هذا المكان. *لن* أهرب. يستطيع زملائي أنْ يفعلوا ما يُناسبهم – أما أنا فلن أترك أولئك الأولاد السود. وهكذا إنَّ الذي خان زوجتي هو أنا. أنا الذي وضعتُ مسؤوليّة خياراتي على كاهل شخص آخر. وقد دفعتْ دوريس ثمن فضيلتي المدنيّة. إنّها ضحيّة رفضي أنْ – اسمع، لا سبيل إلى الخروج من هذا. وعندما تتحرَّر، كما فعلتُ أنا، من الأوهام الجليّة – الدين، والأيديولوجيا، والشيوعيّة – تبقى مع أسطورة طيبتك. وهي الوهم الختامي. وضحّيتُ بدوريس من أجلها.

قال: يكفي هذا. إنَّ كل حركة تولِّد خسارة. إنها فوضى النظام.

قلت أيّ نظام؟

النظام الأخلاقيّ.

لِمَ لمْ يُخبرني عن دوريس من قبل؟ أكان التكتُّم نوعاً من البطولة أم نوعاً من المُعاناة؟ وهذا أيضاً حدث له. ماذا هناك أيضاً؟ كان يمكن أنْ نبقى جالسين على مصطبتي ستمائة ليلة قبل أنْ أسمع القصّة بأكملها حول كيف فشل مري رينغولد، الذي اختار أنْ يتملّص من اضطراب زمانه ومكانه وأصبح ضحيّة تاريخيّة كما حدث مع أخيه. هذا هو الوجود الذي أعدَّته أميركا من أجله - والذي أعدَّه هو من أجل نفسه بالتفكير، بانتقامه الخاصّ من والده عبر الفكر النقديّ، وبكونه عقلانيّاً في مواجهة غياب العقل. إلى هذا أوصله التفكير في أميركا. إلى هذا أوصله الالتزام بقناعاته، ومُقاومة طغيان التعرُّض للشُّبهة. ***إنْ كانت هناك أيّة فرصة لتحسين الحياة، فمن أين نبدأ إنْ لم نبدأ من المدرسة؟*** وتشابك بصورة ميؤوس منها بأفضل النوايا، بشكل ملموس، على امتداد حياة كاملة، ملتزماً بدورة تثقيفيّة أضحتْ الآن وهماً، وبصيَغ وحلولٍ لم تعُد مقبولة.

إنّكَ تتحكّم في خيانةٍ من جهة فينتهي بك الأمر إلى ارتكاب الخيانة في مكان آخر. لأنه ليس نظاماً جامداً. لأنه حيّ. لأنَّ كل ما هو حيّ هو في حالة حركة. لأنَّ النقاء تحجُّر. لأنَّ النقاء كذبة. لأنكَ ما لم تكن مِثال التقشُّف على غِرار جوني أوداي ويسوع المسيح، فإنَّ ما يدفعكَ إلى الأمام هو خمسمائة شيء وشيء. ولأنه من دون عمود الاستقامة الحديديّ الذي شقَّ آل غرانت به طريقهما نحو النجاح، من دون كذبة الاستقامة الكبرى تُخبرك لماذا فعلتَ ما فعلت، عليك أنْ تتساءل، طوال الوقت، لماذا فعلتُ ما فعلت؟ وعليك أنْ تتحمَّل نفسك من دون أنْ تعلم.

هنا، وفي وقت واحد، رضخنا لحافز معانقة أحدنا الآخر. وبضمّي مري بين ذراعيّ أحسستُ - بل أكثر من إحساس - بمدى ضعفه. كان

صعباً معرفة مصدر قوّته، طوال ست ليال، ليستعيد وبكثافة شديدة أسوأ أحداث حياته.

لم أنطقْ بأيّة كلمة، مُعتقداً أنّني، مهما قلت، سوف أعود إلى المنزل بسيارتي مُتمنياً لو أنني لزمتُ الصمت. كنتُ، كأنني ما زلتُ تلميذه البريء التوّاق إلى فعل الخير أتوقُ بشدّة إلى أنْ أقول له، أنتَ لم تُخدَع، يا مري. ليس هذا هو الحكم الصائب الذي يجب أنْ تُصدره على حياتك. عليك أنْ تعلم أنها ليست كذلك. ولكن، وأنا نفسي الرجل العجوز الذي يعرف العواقب المُحبِطة التي يمكن الوصول إليها عندما يتفحّص المرء تاريخ حياته في العمق، لم أعلم.

ولأنه سمح لي بضمّه إليّ لحوالي دقيقة، قام مري فجأة بصفعي على ظهري. كان يضحك مني. قال: إنها الحاجات العاطفيّة التي تنتج عن مغادرة عجوز في التسعين من العمر.

قلتُ نعم. هذا صحيح. بالإضافة إلى كل شيءٍ آخر. ما حدث لدوريس. ووفاة لورين، وأيرا. كل ما حدث لأيرا.

قال مري: أيرا والرفش. وكل ما فرَضَه على نفسه، انتُزِعَ منه، طولِبَ به بسبب ذلك الرفش. الأفكار الرديئة والأحلام الساذجة. *كل* قصصه الرومانسيّة. وتوقه الشديد إلى أنْ يُصبح شخصاً لا يعرف كيف يتحوّل إليه. إنّه لم يكتشف أبداً حياته، يا نيثان. قد بحثَ عنها في كل مكان – في منجم الزنك، وفي شركة التسجيل، وفي مصنع الحلوى، وفي نقابة العمّال، وفي السياسة الراديكاليّة، وفي التمثيل الإذاعيّ، وفي تحريض العامّة، وفي عيش حياة الطبقة العاملة، والحياة البورجوازيّة، وفي الزواج، وفي الزنا، وفي الهمجيّة، ووسط المجتمع المتحضِّر. ولم يعثر عليها في أي مكان. إنَّ إيف لم تتزوج شيوعياً: لقد تزوّجتْ رجلاً يزداد جوعاً باطراد إلى حياته. وهذا ما أثار حنقه وشوّشه وأدّى إلى تدميره: ولم يكن ليتمكّن من بناء حياة جديدة تناسبه. إنَّه الخطأ الفادح في الجهد الذي بذله هذا الرجل. لكنَّ الأخطاء تطفو على السطح، أليس كذلك؟

قلتُ إنَّ الأمر كلّه خطأ. أليس هذا ما كنتَ تقوله لي؟ ليس هناك إلا الخطأ. *هنا* يكمن جوهر العالم. لا أحد يعثُر على حياته. هذه **هي** الحياة.

اسمع، لا أريد أنْ أتخطّى الحدود، أنا لا أقول لك إنني مع أو ضد هذا. إنني أطلب منك أنْ تُخبرني عن الأمر عندما تأتي إلى فينكس.

عن أي أمر؟

قال: عن سبب عزلتك *أنت*. أنا أتذكّر البداية، ذلك الفتى شديد التوتُّر الشديد الطموح إلى المُساهمة في الحياة، الآن هو في منتصف عقده السادس، رجل وحيد في الغابة. إنني مندهش من رؤيتك خارج العالم هكذا. إنَّ أسلوب حياتك أشبه بحياة الرهبان. وكل ما تفتقده حياتك الرهبانيّة هو قرع أجراس يستدعيك إلى التأمُّل. آسف، ولكن **يجب** أنْ أخبرك ما يلي: أنتَ ما زلتَ شاباً في اعتقادي، أصغرَ جداً في السن من أنْ تعيش هناك في الأعلى. ما الذي تتفاداه؟ ما الذي يجري بحق الله؟

الآن جاء دوري للضحك **منه هو**، ضحكاً سمح لي بأنْ أشعر بأنني حقيقيّ من جديد، مشحون باستقلالي عن كل شيء، ومنعزل يُحسَب له حِساب، لقد أصغيتُ بعناية إلى قصّتك، هذا ما حدث. إلى اللقاء، سيد رينغولد!

أراك لاحقاً.

***

على المصطبة، كانت الشمعة ذات العبق المُعطَّر لا تزال مشتعلة داخل وعائها الألومنيوم عندما رجعتُ، ووعاء الضوء ذلك كان مصدر الضوء الوحيد الذي يُضيء منزلي، ما عدا إشعاع مُعتِم ينبعثُ من الصورة الجانبيّة للقمر البرتقالي من خلف سطح المنزل المنخفض. وحالما ترجّلتُ من السيارة وبدأتُ بالسير نحو المنزل، ذكّرني لهب الشمعة المتطاول المرتعش بمؤشّر محطات المذياع - ليس أكبر من وجه ساعة اليد، وتحت الأرقام الصغيرة السوداء، أشبه بلون قشرة ثمرة موز تنضج

– هذا كل ما استطعنا رؤيته في غرفة نومنا المُظلمة عندما بقينا، أنا وأخي الصغير، يقظين حتى ما بعد العاشرة، خِلافاً لتعليمات والدينا، للاستماع إلى برنامجنا المُفضَّل. نحن الاثنان في سريرينا التوأم، وعلى الطاولة الليلية التي بيننا يقبع جهاز مذياع مهيب، من نوع فيلكو جونيور، على شكل كاتدرائيّة، وكنا قد ورثناه عندما اشترى والدي خزانة إمرسون لوضعها في غرفة الجلوس. أخفضنا صوت المذياع إلى أقل قدر ممكن، لكنه كان يعمل على أُذنينا بقوة مغناطيس عالي الفعاليّة.

أطفأتُ لهب الشمعة العطِر وتمدّدتُ على الكرسي الممدود على المصطبة وأدركتُ أنَّ الإصغاء وسط ظُلمة ليلة صيفيّة إلى مري الذي لا يُكاد يُرى كان أشبه بالإصغاء إلى جهاز مذياع بجوار السرير عندما كنتُ طفلاً أطمح إلى تغيير العالم ببثّ كل معتقداتي، المُقنّعة بهيئة قصص، على امتداد البلاد. مري، المذياع: أصوات من الفراغ تسيطر على كل شيء في الداخل، التفافات قصّة تطفو في الهواء ومنه إلى الأُذُن لكي تُدرَك الدراما خلف العيون، الكأس الذي هو الجمجمة التي حوّلها الكأس إلى كون خشبة مسرح لا حدود له، يضمّ البشر أجمعين. ما أعمقَ المدى الذي يصل إليه سمعُنا! فكّر في معنى أنْ *تفهم* من شيء فقط تسمعه. يا لألوهيّةِ أنْ يكون لك أُذُن! أليست على الأقلّ ظاهره شبه ألوهيّة تندفع إلى أعمق أعماق خطأ وجود إنسانيّ بوساطة فقط الجلوس في الظلام، والإصغاء لِما يُقال؟

بقيتُ جالساً على المصطبة حتى بزوغ الفجر، مُتمدِّداً على الكرسي الطويل أنظرُ إلى النجوم. في العام الأول لي في المنزل وطَّنتُ نفسي على التطابُق مع الكواكب، والنجوم العُظمى، وتجمّعات النجوم، ووضع الأجرام العُظمى للعصور القديمة، وبعونٍ من خريطة الفلكيّ المدسوسة في إحدى زوايا القسم الثاني من عدد يوم الأحد من صحيفة نيويورك تايمز، وضعتُ مُخطّطاً لمنطق مسار رحلتها. وسرعان ما أصبح هذا هو كل ما أهتمّ بالنظر إليه في ذلك الكمّ الهائل من الأخبار المكتوبة

والصور. كنتُ أنتزع ذلك المربع الصغير ذي العمودَين المُسمّى تأمُّل السماء - الذي يُبيِّن، فوق النص الموضِّح، دائرة تشتمل على الأفق السماويّ والذي يُحدِّد بدقّة مواقع الأجرام عند الساعة العاشرة مساءً من الأسبوع التالي - واقتطاع أربعة أرطال من كل شيء آخر. وسرعان ما أخذتُ أقتطع من الصحيفة اليوميّة أيضاً، سرعان ما اقتطعتُ كل ما لم أعُدْ أرغب في الكلام عنه، كل ما لا يحتاج إلى البقاء والعمل معه. انطلقتُ لأتلقّى امتلائي ممّا بدا ذات يوم، حتى لي، ليس كافياً ولأسكن بشغف فقط أجزاء الكلام.

إذا لم يكن الجو رديئاً وكان الليل صافياً، أقضي مدة خمس عشرة أو عشرين دقيقة قبل للإيواء إلى السرير في الخارج على المصطبة أنظر إلى السماء، أو أشقّ طريقي، مُستخدماً مصباح بطاريّة، على طول الدرب القذر نحو المرج المفتوح على ذروة تلّي، ومن هناك أستطيع أنْ أشاهد، من فوق أُفُق الأشجار، كامل المشهد السماويّ، النجوم المنتشرة في كل اتّجاه وأيضاً، هذا الأسبوع فقط، كوكب المشتري في الشرق والمريخ في الغرب. ويكاد لا يُصدَّق وهو أيضاً حقيقة، حقيقة واضحة ولا لبس فيها: هي أننا وُلِدنا، وأنَّ ذلك حدث هنا. أستطيع أنْ أذكُر أساليب أسوأ لأُنهي بها يومي.

في الليلة التي غادر مري تذكّرتُ كيف قيل لي - وأنا طفل صغير جافاه النوم بسبب وفاة جدّه وأصرَّ على أنْ يفهم إلى أين يذهب الموتى - إنَّ الجدّ تحوّل إلى نجم. رفعتني أمي عن السرير وأنزلتني إلى ممر السيارات المجاور للمنزل ورحنا ننظر معاً عالياً إلى سماء الليل وهي تشرح أنَّ أحد تلك النجوم هو جدّي. وآخر هو جدَّتي، وما إلى ذلك. وشرحت تقول، إنّه عندما يموت الناس يرتقون إلى السماء ويعيشون إلى الأبد كنجوم لامعة. أخذتُ أنقّب السماء وقلت، أهو ذلك النجم؟ فقالت نعم ثم رجعنا إلى الداخل واستغرقتُ في النوم.

ذلك الشرح كان مُقنِعاً آنذاك، من بين الأشياء كلّها، وكان مُقنِعاً

من جديد في الليلة التي استلقيت في الخارج، وكنتُ يقظاً تماماً جرّاء إثارة تلك القصّة، حتى الفجر، أفكِّر في أنَّ أيرا قد مات، وأنَّ إيف قد ماتت، وأنّه باستثناء ربما سيلفيد التي هي في فيلتها على ضفاف الريفييرا الفرنسيّة، تعيش حياة امرأة ثريّة عجوز في الثانية والسبعين وكل الأشخاص الذين كان لهم أدوار في حكاية مري عن تحطُّم تمثال أيرون مان لم يعودوا مُثبَّتين إلى لحظتهم بل ماتوا وتحرَّروا من المكائد التي نصبها لهم زمنهم. ولم تعُد أفكار زمنهم ولا آمال نوعنا قدَراً يُقرِّر: الهيدروجين وحده كان قَدَراً يُقرِّر. لم تعُد هناك أخطاء ترتكبها إيف أو أيرا. لم تعد هناك خيانة. ولا مِثاليّة. ولا كذب. لم يعُد هناك ضمير ولا غيابٌ للضمير. ليست هناك أمّهات ولا بنات، لا آباء ولا أزواج أمهات. ليس هناك ممثلون. وليس هناك صراع طبقيّ. ليست هناك مدنٌ فاضلة. ولا رفوش. خلافاً للتراث الشعبيّ، ما عدا جرم ليرا – الذي تصادَفَ أنْ كان جاثماً عالياً في الجهة الشرقيّة من السماء ويميل قليلاً ناحية غرب درب التبّانة وإلى الجنوب الغربي من الدُبَّين[77] – وليست هناك قيثارات. هناك فقط فرن أيرا وفرن إيف يتأجّجان بنيرانٍ حرارتها عشرين مليون درجة مئويّة. هناك فرن الكاتبة كاترينا فان تاسل غرانت، وفرن عضو مجلس الشيوخ برايدن غرانت، وفرن اختصاصي التحنيط هوراس بيكستون، وفرن عامل المنجم تومي ميناريك، وعازفة المزمار باميلا سولومون، والمُدلِّكة الإستونيّة هلجي بارن، وعاملة المختبر التقنيّة دوريس رينغولد، وابنة دوريس، لورين، التي تحب عمّها. هناك فرن لكارل ماركس ولجوزيف ستالين ولليون تروتسكي ولبول روبسون ولجوني أوداي. هناك فرن مدفعِيّ الطائرة الخلفيّ جو مكارثي. إنَّ ما تراه من هذا المنبر الذي يرين عليه الصمت فوق جبلي في ليلة صافية صفاءً رائعاً كتلك الليلة التي غادرني فيها مري إلى الأبد – لأنَّ أفضل الإخوة المُخلصين، وخيرة أساتذة اللغة الإنكليزيّة، مات في فينكس بعد

77- يقصد الدب الأكبر والدب الأصغر – المترجم.

ذلك بشهرَين - هو ذلك الكون الذي لا يظهر فيه أيّ خطأ. إنّكَ ترى ما لا يُدرَك: المشهد الهائل لغياب العداوة. ترى بأمّ عينيك عقل الزمن الشاسع، وتوهّج نار لم تُضرِمها يدٌ بشريّة.

إنَّ النجوم لا غِنى عنها.

- انتهى -

مكتبة
t.me/t_pdf

t.me/t_pdf

في عام 1955، بعد إقصاء أيرا عن المذياع بوضعه على اللائحة السوداء لكونه شيوعياً بأربعة أعوام، طردتُ هيئة الثقافة مري من منصبه بالتدريس لرفضه التعاون مع إدارة مكتب مناهضة النشاطات المعادية لأميركا عندما مرّتْ بنيوارك لعقد جلسات استماع لأربعة أيام. ثم أُعيد إلى منصبه، ولكن بعد مرور ستة أعوام من الكفاح القانونيّ انتهت بقرار 5-4 أصدرته المحكمة العليا في الولاية، أُعيد إلى منصبه مع الرواتب المتأخرة، مُقتطع منها المبلغ الذي كسبه من أجل إعالة عائلته خلال تلك الأعوام الستّة كبائع للمكانس الكهربائيّة.

قال مري مبتسماً: «عندما لا تعرف ماذا تعمل، تبيع مكانس كهربائيّة. من باب إلى باب. مكانس كهربائيّة ماركة كيربي. تقوم بإفراغ منفضة ممتلئة على السجادة ثم تُنظّفها بالمكنسة الكهربائيّة أمامهم. تنظّف المنزل كله لهم. هكذا تبيع البضاعة. لقد نظّفت بالمكنسة الكهربائيّة نصف منازل نيو جيرزي خلال عملي. اسمعْ يا نيثان، لقد كنتُ أعرف الكثير من أصحاب النوايا الحسنة. كانت لديّ زوجة لم تكن تكاليف أدويتها تنتهي، وكان لدينا طفل، لكنّني كنتُ أعمل كثيراً وبعتُ الكثير من الناس مكانس كهربائيّة. وعلى الرغم من مشاكلها في العمود الفقريّ، عادت دوريس إلى ممارسة العمل. عادت إلى العمل في المُختبَر في المُستشفى. كانت تفحص الدم، وأخيراً أصبحتْ مديرة المُختبَر. في تلك الأيام لم يكن هناك فصل بين المادّة التقنيّة والفنون الطبيّة، وكانت دوريس تؤدي الأعمال كلها: تسحب الدم، وتضع البقع على الشرائح. كانت صبورة جداً، وتنكبّ على المِجْهر. وحصلت على تدريب جيد. كانت يقظة. ودقيقة. وحسنة الاطّلاع. كانت تعود إلى المنزل من معهد التدريب «بيت إسرائيل»، القريب منّا، وتُعدّ وجبة العشاء وهي لا تزال بمعطف المُختبَر. كانت عائلتنا هي الوحيدة التي أعرفها التي تُقدِّم توابل السَلَطة بدوارق المُختبَر. دورق مخروطيّ. وكنا نحرّك قهوتنا بأنابيب المصّ. كانت أوانينا الزجاجيّة كلها مجلوبة من المُختبَر. عندما كنا في حالة فقر مُعدَم، كانت دوريس تتدبّر الأمور. كنا معاً قادرين على حل المشاكل».

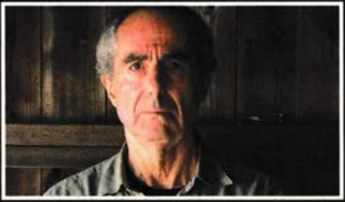

وُلِدَ فيليب روث في نيويورك عام 1933. روايته الأولى «وداعاً كولومبوس» الصادرة عام 1959، لفتَتْ أنظارَ النُّقاد إليه وحازت على جائزة الكتاب الوطني للرواية، يُعَدُّ أهمَّ روائيّ في أميركا حسب استطلاعات القُرّاء

ISBN 978-9933-6044-9-3